قلوبنا غُلف

رواية

بن مبارك، إيناس.
قلوبنا غُلف : رواية / إيناس بن مبارك.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2020.
392صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-014-0
1- القصص العربية
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 2019/21557
الطبعة الأولي : يناير 2020.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

KAYAN PUBLISHING

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي – الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678 -0235611772
هاتف محمول: 01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

قلوبنا غُلف

إيناس بن مبارك

رواية

الإهداء

إلى مَن أقرّوا أنّ قلوبَهم غُلف أم عليها أقفالها...

إلى من مَاتت قُلوبهم ونَسوا أو تناسُوا دَفنها...

إلى الذيـن يُوقِـدون الأمـل شـموعًا وسـط قبرهـم مـع تلـك الأفعَـى... وأبجديّـةَ الصمـود علّمونـا...

«ستفكر ذات يوم لتُدرك أنّ حُزنك الذي استنزف منك جُلّ طاقتك -ولا يزالُ- لا يُقارن بحُزن مَن هو خلف القُضبان ظُلمًا وبُهتانًا... ولا يُعادل حزن فتاة دمّر المستعمر دميتها التي للتوّ أصلحتها... سترى أنّ كلّ ما أنتَ تُضخمه لا يُعادل قَيْد أُنملة من صراع شعبٍ لا يزال يُجابه الاحتلال...»

-١-

افتـح عينيـكَ وجُـل ببـصرك، وأنـتَ مُخفِـضٌ رأسـك لا عَزيمتـك... مُـدّ يـدك وتأكّـد أنّـك أنـت ذاتـك لا تـزال كـما أنت، رُغـم الصّـداع الـذي يطـال ذاكرتـك. هنـا لا مـكان لـلألم، حتـى الـصراخ بـات سـمفونيّة تُعـزف كلّ ضُحـى وكلّ مسـاء... رِ تلـك آثـار دمـاءٍ أطهـر مـن قلـوب نصـف العـالم لـو اجتمـع... لا تبتئِـس صغـيري ممّـا سـتراه هُنـا، فكلّـه لـه الله...

اسـمع تلـك الإيقاعـات، ليسـت عـن طبـولٍ تُقـرع، إنّـما رصاصـات تخـترق أجسـاد الكثيريـن بعمـرك، رصاصـات الشـياطين بـأرض الملائكـة... تحسّـس الثـرى تحت قدميـك، هـذه قضيتنـا وهـذا مـا نفديـه دِمـاءَ عُروقنـا ولا نمـلّ ولا نعيـا...

شُـمّ هـذه الرائحـة، اجعـل لهـا نصيبًـا مـن ذاكرتـك، فلـن تلتقي بهـا مجـددًا لـو تخطيّـت مـن هنـا، إلّا عـلى بـاب الجنّـة... وحـين تتعلّـمُ مناطِـق الحـروف، سـتصرخ بوجـه الشـياطين كـما فعلـت «عهـد» وغيرهـا، وتصـدح: لا إلـه إلّا الله.

تذكّر هذا جيّدًا يا «آدم»...

-وأنا يا ستّي!

-أنـتِ «غزّولتـي» الحُلـوة... خُطّـي مـن القصـص مـا سـيُغرق النّـاس شـوقًا ولهفـةً للقـدس حتـى تغـدو غصّـة النـدم في حلقهـم تخنقهـم لأجـل المدينـة التـي خذلوهـا وجعلـوا منهـا حقًـا لظـالم...

31 كانون الأوّل 1947

صمتٌ مُطبق، من غير أصوات الأقدام تُهرولِ...

-انتبهي وين تحطّي رجليكِ يا «غادة».

كانت هذه آخر كلمات «أمّ عزّام»، وهي تشدّ يد حفيدتها، هذه الأخيرة التي كانت أقدامها الصغيرة تتسارع كي لا تفقد أثر جدّتها والجميع في هذا الظلام الدّامس، لعلّها وإنْ أفلتتها لن تجد بعدها السبيلَ أبدًا.

بِضعُ ثواني بعد ذلك، ضجّ الأفق بصوت الرصاص، فلا تلمح وسط تلك العتمة إلّا شرارات انفجارات الرصاص يودّع البنادق ليستقرّ في أجساد الطاهرين. وبعد الصرخة التي صدَحت بها «أم أحمد» يعود الصمت ليُطبق من جديد... تأكدَت أعين الأسلِحة أنّ الهدف تمّ انتزاع روحه غصبًا، وما بقيَ لهم الآن من شهيقٍ ولا زفير... كيف لا؟ وقد وُجِّهت أفواه البنادق نحو وِجهةٍ واحدة، مجموعة أشخاص، ذنبهم أو فلنقل بلا ذنب، سوى أنّهم لم يرضوا الذلّ بالحياة، وأرادوا اللّوذ بالفرار بأكبادهم... ثوانٍ قليلة، كانت كفيلة بتحويل أصواتهم إلى أنين مُبهم المعالم...

قبل لحظات فقط، كانت الخطّة سائرةً جُملةً وتفصيلًا... خُروجهم بحدود الثانية ليلًا لم يكن أمرًا هيّنًا عليهم البتّة، إنّما أُرغموا على المُغادرة وها هم يعزمون لها عزمًا...

كذلك كان يُذكّرهم «أبو عزّام» أنّ أرضهم وإن تركوها

اليوم عقِب محاولاتٍ عديدةٍ للبقاء، ستبقى لهم، وسيعودون لها لا محالة، فترك تُرابِ ألِفَته أقدامك لا يعني تخلّيك عن مبادئك وأرضك وتاريخك، إنّما قد أُجبرت على ذلك جَبرًا، ونزحتَ لذلك الطريق مُرغمًا لا مُخيّرًا.

يُردّدُ كلامه كلّما تذمّر أحدٌ من السير بظلمات طريقٍ مُقفرة، مثنى وثُلاث، أبناؤه وأحفاده، وكلّ من قاسمه مِلحه وطعامه بأراضيه المسلوبة... كان من الحكمة المطلقة صبيٌّ بعمر الخامسة عشرة، يردّدُ بين الحين والآخر: «إن شاء الله سنكون بأحسن حال، المشي بخوفٍ زائل أهوَن من العيش تحت رحمة أولئك الشياطين».

لستُ أدري أكانَ يُحاول زرع بذور الصبر في قلبه أم في قلوب من حوله، أتُراه يقصد كلّ حرف يتلفّظ به أم كان يُوجِدُ السبيل للخلاص من خوفٍ قد يُباغته... ذاك الصبيّ كان «أحمد».

بين الفينة والأخرى يتوقّف «أبو عزام» يتأكّد من تمام عددهم، كَونهُ يرأسهم لم يكن بالأمرِ الهيِّن عليه، لكنّ كِبرَ سنّه كان سببًا لتعيينه لهذا المنصب ولو أنّه لم يكن مُخَيّرًا.

كيف يترك أراضيه، كيف يستهين بتوديع بيته وتركهِ لصهيون ليعثو فيه فسادًا... كلّ أشجار الكرز لمن يُخلّفها، بساتين البرقوق والمشمش الذي كان رزقًا له ولأولاده... مُرغمٌ فلا نفع في البقاء وكلّ ما مَلَكَه سَلبه منه صهيون، وهل يوقف صهيونَ شيءٌ أو يردعهُ! كذِئبٍ ينهش الأراضي نهشًا!

منذُ أن تخلّت بريطانيا عن المسؤولية للأمم المُتحدة فيما

يخصّ قضيّتنا بعام السابع والأربعين وتسعمائة وألف ونحن بهذه المُعاناة معهم، لا بل من قبل، مُذ قاربت سنوات القرن التاسع عشر على الانتهاء ... لا أريدُ تذكّر «بلفور» ولا كلّ من كانت له يدٌ بدفننا بهذه الأرض التي جعلوها لنا مقبرة كُبرى -التي بالمُفترض هي أشرف بِقاع الأرض- مع هذه الحيّة التي تسعى المُسمّاة صهيون! ولا ذِكرَ وجوهٍ جزعَت حين ليلةٍ ظلماء كُسِرَ باب بيتٍ يُؤويها وأُخرجُوا عُنوةً منه... ولا ذِكر بَندِ إعطاء أراضينا التي نملكها بالأساس لبريطانيا مِن قِبل عصبة الأمم بعام التاسع عشر بعد التسعمائة وألف... ولا أفواج اليهود الذين ما كانت أعدادهم تمثّل غير رَقم يُعدّ على الأصابع، وباتت تتزايد بمرور الأيام وتوافُدِ أفواجهم علينا كذئابٍ جائعة أُخرجت من غياهب السجون فانقضّت علينا، كأوّل ما رأته أمام أعينها... ولا حتى ذكر هذه الأيام فقد أقسم عام السبعة والأربعون ألا ينقضي إلّا وقد قضى علينا بسيفٍ داميةٌ أطرافه ولم تكن الدماء غير ضريبة تمسّكنا بحقّنا... كيف زُعِمت حدودٌ لبيتِ هذه الحيّة بأراضينا، قيلَ حقّها نصف دِمائنا، وهل بساتيننا للبيع أم اقتسمتها الأمم تلفيقًا وزورًا، واقتطعت نصف ذكرياتنا غصبًا تذاكرَ لمشاهدة حَلبةِ صراعِ لحيّة وشعبٍ أعزل! هل كانوا لا يعلمون أنّها كالنّار تلقفُ كلّ شيء أمامَ ناظرها؟ كيف لا يعلمون وهم بأنفسِهم تخلّصوا منها بِقذفِها عندنا؟!

بديهيٌّ كلّ ما هي تسفكُ فيه من دِمائنا، أولاد هذه الحيّة يتلذّذون بقتلنا، بنهب أراضينا... مُتعطّشون دومًا للدماء، بمخالب سوداء يزرعون أنفسهم زرعًا بجسد فلسطيننا

الحبيبة... صِدقًا، ليسوا بني بشر...

لم تنقضِ بعدُ قصّة «أبو عزّام»... يُقال أنّكَ لن تعيشَ أقلّ ممّا هو مُقدّرٌ لك. كذلك كان الأمر مع حفيدته «غادة»، ذات السبع سنوات التي كانت لا تعرف بتاتًا والدتها المتوفاة يومًا عقِبَ وِلادتها، والتي رَعتها جدّتها «أمّ عزّام» هي وإخوتها الثلاث.

في حين خُطفت الأرواح خطفًا كانت «أم أحمد» قد عَلت صرختُها كاسِرةً صمتَ الليل، وانبطحت فورًا أرضًا. ولأنّ جسد زوجها حالَ بينها وبين الرصاص، لم تُصَوَّب، ما كان منها إلّا أن تختطف أقرب طفلٍ لها بين أحضانها، وكان الحضن من نصيب «غادة»!

«أمّ أحمد» خالة «غادة» الكبرى، كانت أمًا لستة أطفال، أصغرهم بعمر العامين كان بين ذراعيْ والده، جميعهم بحينها كانوا مشتّتين بعضهم مع جدّهم وآخرون حولها على مقربة، جميعهم سقطت أجسادهم الطّاهرة أمام ناظِرها... بعض المواقف نقف في وجهها بعكس ما تتوقعُه الأيّام منّا، تصدِمُنا لنموتَ قهرًا فتتفاجأ بوقوفنا مجدّدًا شامخين، كمن يُواجِه الموتَ بضحكةٍ ساخرة، ناظرًا بعينِ الحياة مُتحديًا لها... كانت الشجاعة التي غلّفت قلبَ «أمِّ أحمد» حين ظلّت ممسكةً ابنة أختها وتردّد هامسةً بأذنها أن تصمت عن أيّ ردّ فعلٍ وألا تخشى شيئًا، ألقت يدها لأقرب شخصٍ لها، حاولت تحريكه فلمْ يُبدِ أيّ ردّة فعل، وبعد تنهيدةٍ طويلةٍ ابتلعت بها دُموعها ولَوعةَ قلبها على أولادِها، زوجِها، إخوتها ووالديْها، ردّدت لـ «غادة» تنبيهها ألا تُحدثَ صوتًا، وأنّهما وإن ماتا فلهما الجنّة

حيثُ لا أرض تُسلبُ فيها ولا سفك دماء ولا نهب... من الصعب على طفلةٍ بذاك العمر تقبُّل كلّ هذا دُفعةً واحدة، وربّما حالةُ الصّمت التي اعتلتها وشحوبُ وجهها ما كانا غير ترجمةٍ لذُعرها لما رأت عيناها...

استودعت «أمّ أحمد» اللهَ أمرها، واختطفت «غادة» عن الأرض بينَ ذِراعيْها، وانطلقت راكضةً بعزّ ذلك الظلام. كيف نَجَت من أعيُن تلك البنادق التي تترصّد أيّ حركة، لولا رحمة من الله، ولو لم تكن من الأساس قضيتهم قضيةً عادلةً منذ الأزل، فكم من شهيدٍ قد سقط بِصيف وخريف عام السبعة والأربعين تسعمائة وألف وكم سقط بعدها!

كانت تلك الليلة آخر ليلة من شهر كانون الأوّل بذلك العام... ألم يَسُد الاعتقاد أنّ ديسمبر مقبرة الأحلام؟ ها هو أيضًا، وقد صادف أن تكون آخر لياليه نهاية الحلم بالحياة لعائلةٍ بأكملها عدا نفريْن منها.

***

أمَّا عن شمس ذلك الصباح الأوّل من يناير، فقد داهمت أشعتُها «أمَّ أحمد» وهي قد غادرت ’القُبيْبَة‘ واجتازت ’الخليل‘، وطوَت دربها على القدمين، تارةً تحمل «غادة» على كتفيها وتارةً تدعها لتتمشّى لجانبها... أمّا عن شمس الأمل فقد طالَ انتظارها منذ ذلك الحين...

توقّفَت بعد أن أحسّت أنَّها ما عادت تستطيع صبرًا أو مُجاهَدةً لحالها، استدارت لتَلمح المدينة، أشعة الشمس

تنعكس على البلدة فتبعثُ الحياة من جديد في نفوسِ قاطنيها، مع ذاك الندى الصباحيّ المتلألئ على أوراق بعض الأشجار التي لم تودّع رِداءها... تمسحُ قطرات العرق من على جبينها، ثوبُها الأسود القطنيّ صار رماديّ الحافة من أثر المشي المطوّل، حالتها المُزرية تلك ورغم التجاعيد التي تغطّي وجهها، الدّالة على كِبر عمرها إلّا أنّ ما تخطَّته على أقدامها كان إنجازًا حقيقيًّا...

تنظر لابنة أختها التي جلست أمامها على الأرض، تداعبُ الثرى بأناملها من حولها، تفكّر بحالهما... يرجع نظرها صوب بلدة 'الخليل' تتذكر 'القُبَيْبة' وليسَت عن 'الخليلِ' بعيدة، حيث عاشت وعاش أهلها، اليوم لن يستطيع أولادُها أن يرِثُوا الأرض ولا أن يخدموها، ولا تِلالُ الكرز ستنتعش بها الحياة وتُسمَعُ فيها ضحكاتُ الأطفال، ولن يكونَ من اليومِ فصاعِدًا عيدٌ يشبه ما ألفَتهُ من الأعياد... اليوم، ورِث أبناؤها الجنّة وورِثت عنهم هي فَخرها بهم جميعًا، برغمِ دمعتِها الطائشة التي تطلّ لامعةً عن عينها...

تنحني نحو «غادة»، تمسحُ على رأسها، شعرها الذي كان ضفائر، صار مجهول المعالم أشعث بعد كل ما واجهته هذه الصبيّة في ليلة البارحة، ليلةٌ تفاصيلها لم تناسب أبدًا فتاةً بعمرها...

-تَعالِي يَمّا... اخواتك أخدهُم الله لعِندُو.

نظرت لها «غادة» نظرةً كأنّها تُخبّئ بتفاصيلها أنّها على علم بذلك، ومُدركةٌ أنّها لن تلقاهم مجدّدًا، بينما أردفت «أمّ أحمد»:

-سَبــقونا للجنّــة، صَحيــح أنّــو الاحتِــلَال كَان الســبَب، بَــسْ حَنِلحَــقهم بيــوم ونلتقــي فِيهــم...

-بكرهو!

-مين؟

-الاحتلال يا خالتي...

احتضنتها... وهمست:

-يَمَّا مين بيحبو! حسبنا الله ونِعم الوكيل.

1948 -1949

من الصّعب أن تكون مُشرّدًا، فما بالك لو كنتَ مُشرّدًا ببلدك! لا تُدرك هل فعلًا لا زِلتَ تنتمي لهذه الأرض أم أنَّ ما يُريده العالم غيرُ ما تُريده أنت، العالم الذي لم يحترم بقراراته لا ساكنِي الأرض ولا مالِكيها، لا من هُم على ظهرها، ولا من هم تحت ثراها... صار العيش هنا كالموت، أشبه بالعيش ببلادٍ غريبة عنكَ بوثائق مُزوَّرة، تنتظر فقط أن يُصدَر قرارٌ بطردِك وتُمحى فلسطين من الخارطة وتصير أنتَ نبتة ضارّةً يجب اقتلاعُها من جذورها... ألا يكفي الإعلان الذي أُصدر العام الماضي بقيام -دولة- إسرائيل، فلنقل كيان، أو أقلّ من ذلك ربّما، فلا فلسطينيّ أو أحدَ ذا نخوة يستهزئ بأمر كهذا أو فقط يقوله لمجرّد القول... نخشى الآن بين ليلة وضُحاها لو غفلت الأعين قليلًا لسُلِبَ حتى متاعُ النّاس من فرطِ تغيّر كلّ شيء بين لحظة وخليفتها... لسنا نُواجهُ عدوًا بمسمّى العدوّ، بل هو كعُثّةٍ تنخر الأشياء، غير مدركين لها...

وهل بقِيَ من أصرّ على المكوثَ بأرضه رغم كلّ تهديدات اليهود وتزويرهم لبعض الملكيّات، مصادرتهم للأراضي بغير وجه حق وإخراجهم لنا من فوق وسائدنا؟ بلى، بقيَ الكثير، لكن عاش الوَيْلات بتفاصيل الكلمة ودقّتها، ولم يتبقَ له من أراضيه سوى بضعة أشبارٍ تُؤوِيه ... أولئك «عرب 1948» ولا يهمنا تسميّاتٌ أُطلِقت عليهم، لا من طرف الاحتلال ولا غيره... فلهم ما أرادوا من مُسلّمات، ولنا ما نؤمن به ولو

كنّا آخر من يصدّق ذلك، فهم ليسوا إلّا أصحاب الأرض وأهلها بالنسبة لنا.

صرنا نُصبح لنسير بين جثث الشهداء التي سُلبت أرواحها منها... نستفيق على قصص طردٍ جماعيّ لبعض القرى أحيانًا كثيرة... وأحيانًا أخرى نبيتُ على أصوات مركبات الإنجليز التي خلفوها لحيّة صهيون تُبيد بها ما شاءت من أراضينا، كمن يلهو غير آبه لأمر... يكاد لا يخلو بيتٌ من شهيدٍ بهذه الأيّام... تشبّعت الأرض من الدماء، حيثُما ولّيت وجهك ترى عيونُك اللون الأحمر... نتعذّب، والأمر تحت نظر العالم بمُصطلح 'نكسة 1948'... غاية صهيون إبادتنا، وشِعارهم إن لم نمت تحت زخّات رصاصهم سنموت من فرطِ حزننا... كيف سينمُو هذا الجيل الذي فتح عينيه لا يرى غير الخراب والدماء؟ كيف ستكون حياته يا ترى؟

سيْرًا على طريق 'بير السبع'، أيادٍ ورؤوسٌ مفصولة عن أجسادٍ مُلقاة هنا وهناك، أبواب البيوت على مصاريعها ونوافذها قد كُسر مُعظمها... عربة الخضر لا تزال واقفة هناك، إنّما صاحبها على الأرض نصفُ سلعتِها اختفى، وما بقي امتُزج بطعم الدماء... لقد مرّ الآن فقط عساكر صهيون وهذا ما ورثته الأرض عن أيديهم اللعينة.

أورثَنا الله أرضه وكنّا فيها خلائفه، لكنّنا نعثو فيها فسادًا بلا رقيب ولا حسيب...

-بطرِيقكُو اخوَاتي خدُوني معَاكُو.

نظرات التشكيك كانت أوّل ما واجهَته «أمّ أحمد» بعد طلبها من إحدى العائلات أن تُقلّها بطريقها، حتى قصّت

عليهم قصّتها، لم تكن الوِجهةُ مهمّةً بالنسبة لها، المهم أن تبتعد عن المناطق التي اعتبرها مَن لا حقَّ له فيها مِلكيّةً له... تشرّدَت عامًا ببلادها، بين 'بيت لحم' لـ 'رام الله'، حتى 'لطرون' و'الرملة' و'قُسطينة' التي طالتها أيادي اليهود، كلّ مرّة تجد عائلةً تُؤويها، يحنّ قلبهم عليها ويلين بعد معرفتهم لقصّتها التي تظلّ ترويها على مسامِع الجميع، تعملُ على مساعدتهم بما أمكنها لتُؤمِّن قوتها هي وابنة أختها... تنَقّلَتا بين مدن فلسطين، التي لن تُبقيها طويلًا بعد الآن تلكَ الحيّة فلسطينيّة. أو تزعم زعمًا أنّها ليست كذلك.

-على القليلة كَان إلنَا حَظ نودِّع بعض المُحافظات اللّي اغتصَبها صُهيون.

كانت تلك كلمات «أمّ أحمد»، كانت عزاءها الوحيد، بعد أن صارت حيثُما ولّت وجهها لاح شبح اليهود مترصدًا ناهبًا، طامِعًا بمساحات أكبر ليَنسبها لنفسه دونَ عَناء... تُخاطِب بكلماتها «غادة»، وهما تهمّان بركوب عربةٍ يجرّها حمار، متنقلتيْن بعد أن وجَدتا عائلةً تسير نحو 'قطاع غزة' وقبلت مرافقتهما لها. لم يعد لهما شيء لخسارته، ولا مكسبَ لهما أيضًا... كان هذا مطلعَ عام التاسع والأربعين تسعمائة وألف، في الحين الذي صارت حيّة صهيون تنشر أولادها تجمّعات، بل تسجّل ما غنِم به أولادها كأراضٍ تابعةٍ لها ومعترفٌ بها كذلك. بالأساس عِشنا كأغراب بتلكَ الأعوام، الحيرةُ ترسمُ كلّ صباح معالمها على وجوهنا، كلّ يوم تُسرقُ حياة أطفالٍ ها هُنا! كلّ يوم تُنزعُ الألوان من أحلامهم، باتت كشاشات التلفاز بالأبيضِ والأسود، ذاك الاختراع الذي لن يبلغ بعد

هـذه الأرض، وحتـى وإن وصـل فمـن سيهتم وأرضُـه تُسـتعمر؟ ونفسُـه تذبـل؟ في حـين كانـت بريطانيـا وأمريـكا جـلُّ حديثهـما عـن اختراعهـا الباهـر، كان الآلاف هُنـا يموتـون ويُـشرّدون بـلا علّـةٍ أو سـبب.

***

مـضى عـامٌ وثلاثـة شـهور عـلى حادثـة الاستشـهاد الجماعـي لعائلـة «غـادة». لـو سُـئِلت تلـك الصبيّـة أيـن والـداكِ؟ لأجابـت أنّهـا كانـت برحلـةٍ معهـما إلى الله -ذاكَ أنّهـا كانـت تعتـبر جدّتهـا أمًّـا لهـا- ثـمّ أخذهمـا الله لا بـل أخذهـم جميعًـا وتركوهـا برعايـة خالتهـا. لم تكـن يتيمـة، في فلسـطين لا أحـد يتيـم، الجميـع إخـوة، فحتـى لـو أنّهـا لم تـرَ يومًـا وجـه والدتهـا الحقيقيـة، كفالَتُهـا مـن طـرف جدّتهـا حالـت دون إحساسـها باليُتـم. وبعـد واقعـةِ تلـك الليلـة، حنّـت «أمّ أحمـد» عليهـا لتكـون لهـا بمثابـة ابنتهـا، تلـك الأخـيرة التـي تألّـمت لوعـةً لفقـد ابنهـا البِكـر، كان أحـنّ أولادهـا عليهـا، وأقربهـم لهـا، أكثرهـم سـدادًا وحكمـة، كانـت تـرى فيـه نعمـةً لم ترهـا بأبنائهـا الخمسـة الآخريـن.

دخلـت العربـة ’جَبَاليَـا‘... كانـت «أمّ أحمـد» لا تـزال تـسردُ القصـص عـلى مسـامع «غادة» ويتسـلّى بسـماع سردهـا معهـا أفـراد تلـك العائلـة الصغـيرة التـي شـاركتهما الرحلـة، سـتكمل العائلـة طريقهـا حتـى بلـوغ ’رفـح‘ بينـما آثـرت «أمّ أحمـد» ألا تُكمـل الطريـق... سـتحاول ألا تطمـس مـا في «غـادة» مـن «فلسـطين» كـما يُريـد صهيـون، حتـى لا تنسـى هـذه الصبيّـة بعـض ذكريـات طفولتهـا، ركضُهـا بالحقـول هـي وأترابهـا وأبنـاء عائلتهـا جميعًـا،

حتى لا تنسى ذلك المنزل المُتربّع على هضبةٍ بشمال 'القُبَيْبَة'، الذي بُنيَ من حجر، يغطّيه قرميد، كان قديمَ المنظر، لكنّه آوى من القصص أكثر ممّا عاش وهو قَائم، حتى جيرانهم الذين يفصلُهم عنهم بستانان أوّلهما غُرس كرزًا والثاني يُزهر برقوقه كلّ ربيع. كان أبناء جيرتهم لا يُعدّون كَجيرانٍ فقط، بل أهلًا أيضًا. رغم بعض سنوات الجفاف التي مرّت على بساتين «أبو عزّام» -رحمه الله- لم يكن أحدٌ من أهله أن يملّ من رؤية جمال بساتينه، ولا السير بين أشجارها وتحت ظلالها، ورثها عن جدّه وسيُورّثُها لأحفاده، أو هكذا كان يظن وهكذا كان من المُفترض.

كان الأمل كلّه معلقًا بانتهاء الانتداب البريطاني ليعيش أهل هذه البلاد بأمان. حتى هجرات اليهود التي توالت نحو فلسطين، لم يكن لأحدٍ أن يُفكّر بهذا التفكير اللعين الذي كان ببال بريطانيا وصهيون، ولا أن يفهم ما كانت تصبو إليه كلّ تلك اللقاءات والمماطلات بانقضاء الانتداب، ولا حتى أن يشكّ بتدبير بريطانيا للأمر برمّته، كيف تزرعُ لنا حيّةً، تُغذّيها وتُؤويها برعايتها سنواتٍ تحت حمايتها وغير مُبيّنةٍ لها، تُبعدها عن العالم حيث وإنْ بقيت هناك ستعثو في الأرض فسادًا، سلّطَت هذه الأفعى وسط العرب، أعمَت عيونهم وأشبعَت شهواتِهم كي تُخرسهم عن الكلام، ويرضخوا لهذه الأفعى التي كبرت بينهم ووَسَطهم لتتعلّم كلّ نقاط ضعفهم وقوّتهم، ولا تجعل لهم سبيلًا بعد ذلك للهناء ولا حتى لوِحدة شملهم حتى لو تمنوا ذلك تبقى أمانيهم مستحيلة... عرفت العقول البريطانية تسيير الأمر بتدبيرٍ من الحيّة وتوجيهٍ منها،

وأنّــى لهــا ألّا تصِــل لمــا بَغَــت.

1952 (تشرين الثاني)

تعوّدت الشمس على خِيمنا، وتعوّدت هي الأخرى عليها، تلوّح لها مع كلّ صباح: 'ألم يَطُل وجودك هنا؟ أم أنّ الأوان لعودةِ الأطفال لِأراضي آبائهم المسلوبة لم يحن بعد؟' تُجيبها خيمنا المَترّاصة أنّ القدر لم يأذن بعد. تَختزل آلام ساكنيها بأمنية أنَّ الغد أفضل وتغتنمُ فرصة هبوبِ نسيم الصباح لتَمحي به آهاتٍ خُطّت على مصيرٍ جُهِل له من حال... في حين تَقبَع اللعنات على العالم بزواياه، الذي صمت ليلة البارحة أيضًا، وكتبَ لأبناء صهيون يومًا جديدًا يَنقُضون فيه مراسيم ووعود الهيئات وتقسيمها المزعوم لحدود أشجار الزيتون.

تسترسل أشعة الشمس وتدبّ الحياة من جديد... مضى على قرارِ العودة الذي اتخذناه شهران من الزمن، ولا جديد بالأمر يُذكر، أملٌ أدخل الفرحة على المخيّم هُنيْهةً لكنّه لم يكن لذاك الحد الذي يجعله حقيقةً... المهم ألّا يعرف اليأس طريق المخيّم، أمّا عن تحطّم الأحلام وحتى الموت، فبادئ ذي بدء اعتاد هذا الأخير على رائحتنا واعتدنا عليه كذلك ما عُدنا نخشاه كخشيتنا من اليأس... اليأس بحدِّ ذاته مقبرة... اليأس أكثر شيء يجب أن نخشاه.

يسير ذلك الشيخ الهرِم، بنعله المُهترئ، والذي أتمّت زوجته ترقيعه قُبَيْلةِ رفعه لستائر الخيمة التي ما كانت غير قماشٍ مُشمَّع، والخروج... تتكدّسُ على شفاهه الكلمات وهو يشتم

الاحتــلال وكلّ مــا يمــتُّ للاحتــلال بصلــة، كلّ مــا يــأتي عــلى الأجنــاس فيعصــف فيهــا عــلى كلّ شيء...

لقـد اعتـاد طـوال حياتـه عـلى الاسـتيقاظ باكـرًا للاهتـمام بصيده وقواربـه، لكـن أيـن كلّ ذلـك الآن، عـلى الأرجـح أنهّـا باتـت خشـبًا مُتفحّـمًا، وبيتـه غَـدَا منـزلًا لابـنٍ مـن أبنـاء صهيـون.

يُشـير رافعًـا كوفيتـه القُطنيـة، يُعدّلهـا ويتابـع سَـيره... يركـض خَلفـه صبـيّ بحـدود الاثنـيْ عـشر عامًـا، يُمـدّ يـده ليُمسـك بيـد الشـيخ، يُقبّلهـا لينَـال رِضـاه، فيمسـح هـو بـدوره رأسـه بيـده الثانيـة، ويأخـذ مـن جيبـه قطعـةً نقديـةً مـا عـادت تصلـح لـشراء الكثـير، يُعطيهـا للصبـيّ... فيركـض الآخـر فرحًـا عائـدًا للخيمـة... ذاك الصبـيّ هـو «أدهـم».

في حـين يجـوب الشـيخ بـين ممـرات الخِيـم، تائهًــا، يُســاير حطـام قلبـه وأحلامـه التـي كانـت محصـورةً بأبنائـه وتفاصيـل حياتـه بــ ’يافـا‘، عمـلُ أبنائـه بالصيـد، نسـيمُ البحـر، كل شيء، ورغـم بسـاطته فإنّـه قـد سُـلبَ منـه... يجلس عـلى صخـرةٍ عـلى الطريـق، مُمسـكًا عصـاه بكِلتـا يديـه التـي حفرتهـا التجاعيـد، يُـربّي خيباتـه، حسراتـه، وآلامـه، ويلعـن القـدر والاحتـلال.

لم يتبـقَ لــ «أدهـم» الكثـير مـن الوقـت حتـى أنّـه يُعـدّ مُتأخـرًا عـن مدرسـته، لـن يُضيّـع الوقـت أكثـر بمنـاداة «غـادة» فمؤكـدٌ أنهّـا قـد سـبقته في طريقهـما... خطـفَ محِفظـةً كان يـدُسُّ بهـا أدواتـه المتواضعـة وابتـدأ دربـه راكضًـا مودّعًـا جدّتـه وأمّـه.

تناقصـت سرعتـه حتـى بـاتَ يخطـو نحـو المدرسـة، يقـذف الحجـارة بقدمـه، يتذكّـر قـولَ والدتـه ألّا يفعـل ذلك كـي لا يكونَ لِزامًـا عليهـا ترقيـع حذائـه في كلّ مـرّةٍ أو اقتنـاء آخـر جديـد ولا

حـول لهـم بذلـك... انتبـه لصـوتٍ يُناديـه مـن بعيـد، اسـتدار ليجـد أنّهـا «غـادة» تحـاول اللحـاق بـه، راكضـةً حينًـا ومُتوقفـةً تتـدارك أنفاسـها حينًـا آخـر:

-وين كنتِ كِلّ هاد الوقـت؟ فكّرت إنِّك سبـقـتيني.

-انـتَ مـا مَرِّيـت عـلي، فَـما انتبهـت للوقـت... ولـمّـا سـألت... قــالتلي خالتـي «سُـها» إنّـك طلعـت مـن مـدّة قصـيرة... (أجابَته مُتحدِّثـةً وأنفاسـها تتسـابق).

-مـش مشـكلة... أسرعـي طيّـب بـلاش يفوتنـا الـدرس، آه صحيــح... اِش رَاح تــدرسي؟

-بظن الأدب العربي...

-مـا زلـت لحَـد هَسـه مـش فاهـم ليـش مـا بيدرسُـونا إشـيا تنفَعنــا.

-تنفعنا! ما بينفعك الأدب العربي؟

حرّك رأسه نافيًا.

-انتَ نسيت إصرارَك إنَّك تصِير دُكتور لمّا تكبر؟

-لا... بـس أحيانًـا كتـير بفكِّـر، وطُـول عُمـري بِسـمع جـدِّي بيشـتم الاحتـلال وبيقُــول أنُّــو السِّـلم مـا راح ينفـع، بعتِقــد إنّــكَ تعِيـش عـلى هـاذ الحـال وتتقَبَّـل الـلِّي احنـا فيـه كلّـه خطـأ فــادح!

ليــس غريبًــا إن زُرعــتَ بقلــبِ أطفــالٍ ذوِي اثنــيْ عــشر عامًـا فكـرة أنّهـم مسـؤولون عـن طـرد المسـتعمر بـل هـذا هـو الأصـح، فرؤيـة مـا مـرّ عـلى «غـادة» أو سـماع كلّ تلـك القصـص والأحـداث التـي مـرّت عـلى «أبـو يـاسر» يخلـق حتـمًا شـعورًا

بوُجوب مسح المحتل عن أرضنا مهما كانت الطريقة التي نلتمسها في ذلك، والتخلّص من كلّ هذا الاضطهاد والخوف الذي زُرعَ بقلوبِنا جميعًا. ما نحن فيه عُلبةٌ من ظُلم، لا بدّ من كسر جُدرانها لنحيا، فنحن أموات هكذا نتنفس على أمل أن نحيا مجدّدًا.

حُلم «أدهم» بأن يُصبح طبيبًا لم يكن عن عَبَث، أو مجرّد حلم كحُلم الأغلبية من الأطفال، بل كان عقِب موت والدِه «ياسر» والذي تُوفيَ بمرضٍ لم يستطع الأطباء منذ خمس سنوات فهمه، آنذاك تبَرمجَ عقل الصبيّ بأن يتعلّم ليُصبح طبيبًا ويُحاول أن يُحسّن من الوضع الطبيّ بالوطن بما استطاع، وكما تُوفيَ والده هو أمام ناظره وكان عاجزًا عن إسعافه سيُحاول إنقاذ مئات الآباء وكلّ الأمل أن ينجح، لعلّه يجعلُ لهم سبيلًا آخر أو يكون على الأقل سببًا فيه كي يكون الموت تحت زخّات مطر البنادق والرشاش أقوَم حالًا.

افترق الصبيّان على حافة الطريق المُعبّد الوحيد في 'جباليا' آنذاك، سارت «غادة» بخُطاها نحو مدرستها القريبة من هناك قليلًا... لم تعرف تلك المدرسة بأيّ عام منذ إنشائها بسنوات الثلاثينيات أيَّ اكتظاظ ولم تكن الصفوفُ تتكوّن من أكثر من عشرين فتاة. حتى «غادة» لم تستعجل فَورَ قدومها إلى 'جباليا' بالتسجيل في المدرسة، لولا إقناع «سُها» لـ «أمّ أحمد» ولها بذلك، فصارت كلتاهما تُشجّع الفتاة على التقدّم والاجتهاد أكثر. «حتى لو لم يكن بالصفّ فتياتٌ كثيرات، حتى لو كانت المدرسة لا تعجّ بالطالبات، اجتهدي لنفسك يا «غادة» فقد تُحقّقين يومًا أحلامًا لن تستطيع الفتيات

الأخريـات بُلوغهـا» كانـت هـذه كلـمات «سُـها» والـدة «أدهـم» التـي ظلّـت تـتردّد عـلى مسـامِع «غـادة» كلّ مـرة.

حـين تدلـف ذلـك البـاب، أو الفتحـة التـي تتوسّـط ذلـك السـياج، وقـولُ سِـياج قـولٌ أصـحّ لأنّـه لم يكـن شـيئًا ذا أعمـدة ولا بِنـاءً، يُحيـط بسـاحةٍ فيهـا بِضـع طـوبٍ مُـتراصٍ يُحـدِّد بِضـع حُجـرات، دون أروقـة، فالسـاحة تلـك كفيلـة بـأن تكـون الـرّواق بحـد ذاتـه. تلـك السـاحة المُسـيّجة تلّـةٌ مـن رمـل مبسـوط، وكثيرًا مـا يتـم التدريـس في الهـواء الطلـق، ليـس بداعـي التفكـير بنفسـية الأطفـال ولا للترفيـه عنهـم، فقـط لعـدم توفّـر حُجـرات شـاغرة. تُـرصُّ الطـاولات خارِجًـا وتبـدأ الدراسـة بصفـةٍ عاديـةٍ، رغـم كلّ شيء... حتـى رغـم الـبرد الـذي بـدأ يتسـلّل بـين النسـائم مـع شـهر تشريـن...

-بالله عليك، أيّ إمكانيات بِقدَر أوفّرها للأطفال أكثر؟

كان ذلـك القـول الـذي وقَـعَ خطـأً عـلى مسـامع «غـادة» وهـي تعـبُر السـاحة.

-عـارف إنتـا ويـن؟ ولّا نسـيت... كِلّ الكتـب توزّعـت مَضلِّـش ولا نسـخة، حتـى بَعـض البَنـات اتـقَـاسمو نَفـس الكتـاب بِينْهـم... صَـحْ عددهُـم قَـليل، لكـن عَـدَد الكُتـب للأسـف مَـا كَفّـى.

كان ذلـك المسـؤول عـن المدرسـة الإعداديـة للبنـات، يُناقـش أحـد المعلمـين الذيـن يُعَـدّون عـلى أصابـع اليـد بالمدرسـة، والـذي اسـتفسر عـن الكتـب.

تركـض الفتيـات هنـا وهنـاك، بلباسـهنّ المخطـط بـالأزرق

المائـل للرمـادي. لا يمكـن أن تتخطّـى أيـادي صهيـون عزيمـةَ الأطفـال، حتـى أحلامهـم، مهـما انعدمـت ألوانهـا، كَونهـا بريئـة لـن يمحيهـا لا الحيّـة المُلقّبـة بصهيـون ولا الأمـم المتحـدة ولا أيّ صامـتٍ عـلى القضيـة.

كان «أدهـم» بالمدرسـة الأخـرى للبنـين يتلقّـى درس الجغرافيا... «حـدود فلسـطين» أيّ حـدود سـيتمُّ تدريسـها وهـي كلّ يـوم تتـآكل أراضيهـا شـيئًا فشـيئًا. عـلى إدراكٍ أنّ حدودهـا كـما ورثّناهـا منـذ عهـد العثمانيـين سـتعود يومًـا. لكـن كيـف يمكـن تسـهيل الأمـر ليفهمـه الأطفـال؟ ليسـتوعبوا أنّ الأمـم التـي تدعـو للسـلام، أمـام ناظرهـا يُتلاعـب بحيـاة الآلاف، وأنّ كلّ مـا يُعايشـونه هـم وآباؤهـم ليـس بملفـات العـالم، غـير كَـون اليهـود عـادوا لبلادهـم الأصليـة! هـل كانـت لهـم بـلادٌ مـن الأسـاس؟ كيـف سـيتم التوفيـق بـين مـا يـراه الصبـيّ ومـا يتـم تلقينـه لـه بالمدرسـة، كيـف سـيصدّق أنّ أرضـه هـي مـا حُـدّد منـذ بـدء الحـرب العالميـة الأولى، وأنّ أيّ تقسـيم يزعمـه العـالم هـو بالأسـاس غـير سـاري المفعـول مـع اليهـود، فتِلـك الحيّـة تسـعى، سـواء عُمِـيَ النـاس عنهـا أم منعوهـا، مـا هـي بمُنصتـةٍ لأحـد.

بصـفّ «غـادة» قـد ينتهـي الـدرس سريعًـا، مـا إن تُشـير جميـع الطالبـات إلى أنهـنّ قـد اسـتوعبن الـدرس. قـد يُداهـم الأسـماع صـوت رصـاصٍ عـلى غفلـة، تشـخص الأبصـار بذهـول، ثـمّ مـا يلبـث المعلّـم يحـاول شـغلَ عقـول الأطفـال بـأيّ أمـرٍ كان، لا بـدّ أن تسـتمرّ الحيـاة ولـو رغـم كلّ هـذه الظـروف. في المسـاء سـيعرف الجميـع الخـبر والحقيقـة خلـف صـوت الرصـاص، ذاك

أنّ جيش صهيون أطلق النار على أحد الفلسطينيّين، أي أنّهم لم يكتفوا بإخراجنا وتهديدنا فقط، بل أضافوا للائحة حِرفهم قتلنا واعتقال البعض منّا. السبب لن يكون أكثر من أنّ هذا الفلسطينيّ يمتلك بندقيّة صيدٍ ورثها عن جدّه، أو أنّه رفض الامتثال لأوامرهم التي ليس لها من داع.

تتسارع الشمس لتميل نحو الزوال، ما دام الدرس قد انتهى فللجميع حق العودة لبيوتهم، ذلك أنّ المدارس لم تكن خاصّة باللاجئين أو بسكان 'جباليا'. لا يزال مشروع إنشاء مدارس أخرى قيد الإنجاز حاليًا.

تلتقي «غادة» بـ «أدهم»، ليعودا أدراجهما للمخيّم سويًا. منذ استقرار «غادة» و«أمّ أحمد» بالمخيّم كانت الخيمة المقابلة لهما هي خيمة الشيخ «أبو ياسر»، جدّ «أدهم»، القادم من 'يافا'. لم يمر يومٌ لم يُلمح فيه ذلك المفتاح الكبير بيد الشيخ «أبو ياسر»، مفتاح باب بيته العتيق، على أمل العودة له ذات يوم، كلّ تلك الخيم لا تُنبئ إلّا بأنّ العودة أكيدة. إلى ذلك الحين أغلب القاطنين إخوة وأكثر من مجرّد جيران، ألَا يكفي أنّنا تقاسمنا الأرض هنا، وتقاسمنا الشعور كونَنا لاجِئين، تقاسمنا ألمَ التشرّد وألم الحنين، حتى عدم امتلاكنا لغير هذه الخِيم الصغيرة بحجم أنصاف الذكريات والأمل...

منذ مدّة صارت العائلتان جدّ مقربتين، حتى أنّ «غادة» تعتبِر «أمّ ياسر» و«أبو ياسر» بمثابة جدّيها الفعليين.

-يَمَّا! هَينَا رجَعنا.

يرتفع صوت «أدهم» ما إن يقترب من الخيمة، تردّ عليه والدته بفرحٍ أنْ يُسرعا، فالغداء في انتظارهما.

علـى الحصـير قـد فُرشـت المائـدة، و«أمّ أحمـد» تشـاركهم كعادتهـا وجبـة الغـداء.

-كِيفْ كَان دَوامْكُم؟

سألت «أمّ أحمد» الصبيّين، فنطق «أدهم» مجيبًا لها:

-درسـنا يـا خالتـي أنُـو «يافـا» مـن فلسـطين، بـس احنَـا هسـا ليـش هـان مشرَّدِيـن؟ لا أعلـم فعـلًا مـن أصـدّق، مـا نعيشـه أم مـا نتلقّـاه بالمـدارس!

وسط صمتِ الجميع أكمل:

-أحـد المعلّمـين أصرّ انّـو اليهـود مِـش حَيْرِدُّولنـا الأراضي المُحتلـة، بـس معلّـم آخـر كان فايـت مـن هنيـك وسـمع بالغلـط كلامـه فصـار يجادلُـه. لا أفهـم، دائـمًا مـا يُـردّد جـدّي كلـماتٍ لكنّهـا لا تتحقـق بالواقـع ولم تتحقـق يومًـا. هـل فعـلًا الأرض لـن تُسـتردّ لنـا؟ أم أنّنـا عـلى أربـاعِ الآمـال نقـفُ بـلا هـوادةٍ حتـى إشـعارٍ آخـر!

بعـد أن تنهّـدت «أمّ أحمـد» وقـد توقفـت عـن الأكل مُنصتـةً، بيدهـا قطعـة خبـز وحاجباهـا مُقَطِّبـان، وبعـد أن كانـت «أم يـاسر» سـتتحدث فأشـارت لهـا مُستسـمِحةً إيّاهـا نطقـت:

-مِـش كان بالأصـل مِلكنـا؟ مِـش إنـتَ بالأخَـص كنـت تركـض بحديقـة بيتكُـو بـ ’يافـا‘، مِـش كان البيـت إلكُـو؟ مِـش كانـت الذكريـات بتسـكن بـكلّ ميليمـتر فيـه؟

-صَح... كَان... لكن مَا ضَل!

-مِش المفتاح بإِيد جَدّك؟

-لكـن البيـت مـش مِلكنـا هَلـقِـيت، المفتاح صـار بلا قفـل، ما

فائدته سِوى أنّه ذكرى لا نريد المُضيّ بعدها، لا نريد تصديق انقضائها، لا نريد بترَ أنفسنا من أصولنا، لكنّنا فعلًا بُتِرنا!

أطبق الصّمت هُنَيْهةً، ثمّ راحت «غادة» تُحاول تغيير ذلك الجوّ:

-خالتي، احكيلنا قصّة من القصص اللي تضلِّي بتحكِيلي إيّاها قبل ما نام.

وقد تعوّدت «أم أحمد» أن تسرد الحكايات على «غادة» قبل نومها وأحيانًا عند سهرهما معًا، تقصّ مرّةً قصّة جارهم الذي كان بـ 'القُبَيْبة'، «أبو علي» يوم أصرّ أن يقف بوجه بريطانيا بأيّام الانتداب والتي أصدرت مرسومًا باعتقاله، ومرّةً عن زهور الياسمين التي كانت تتكئ على قطعة من سياج بحافّة البيت الذي كان ملكهم، ومرّةً عن جدّها «أبو عزّام»، عن إضراب الستة شهور ضدّ بريطانيا، عن الكتاب الأبيض الذي كان مانعًا لهجرة اليهود خمس سنوات ومنحِ فلسطين حكما ذاتيا بعد عقدٍ من الزمن، والذي لم يرَ النّورَ لرفضه من طرف صهيون. تحكي دروبًا انقضت قبل ظهور اليهود، أيامًا خَلت، بعمرها الذي يتجاوز السابعة والخمسين. ما أكثر ما مرّت به من قبل أن تكون 'غزّة' تابعةً بالحكم لمصر، و'الضفة' للأردن، من قبل النكسة، ومن قبل الأزمات التي مرّت بها البلاد، من قبل مرض هذه البلاد مرضها المُزمن بفيروس الاحتلال، من قبل حتى عضّةِ هذه الحيّة.

لم تكن «أم ياسر» تفتقر لمثل هذه الحكايات، لا أحد عايش كلّ ذلك سيفتقر للسرد عن تلك التفاصيل، لكنّها كانت

عجوزًا حكيمةً، قليلة الحديث إنّما كثيرة الإنصات، وعندما تلفظ أمرًا فمن اليقين أنّه ليس عن عدم.

-ممم، حسنًا سأحكي لكما اليوم عن بداية كلّ هذا الأمر ما دام «أدهم» مشوّش البال هكذا. هل تعلمين يا «غادة» من هو «هيرتزل»؟

-لا يا خالتي، مِين هو؟

ظلّ «أدهم» يُحدّق وملامح الغضب جليّةٌ بعينيه، ودّ لو تُخلط كلّ الجُمل والعبارات وكلّ القصص والسرد والحكايات وينقضي عنهم الاحتلال ويعود كلّ وادٍ لمجراه ويجريَ كلّ مجرى لمصبّه. فيروس الاحتلال الذي أصابنا، لم يكن كسابقيه، لقد عاش معنا وتعايش منذ عقودٍ مرّت، لم يكن ذا ضرٍ ولم نكن سوى جيرانٍ بيننا عهود جيرةٍ وألفةٍ كما قضاها الله بدينه، لقد نمى بينهم جيل واستغلّه ذو مصالح، وعاشوا بيننا وازدادت أعدادهم ونحن لم نكن لننتبه لذلك أو نُعيرَ الأمرَ اهتمامًا، حتى ما اشتدّ عضدهم قاموا لنا فأهلكونا مرضًا.

حاولَت «أمّ أحمد» تبسيط ما عايشه الفلسطينيّون ليفهمه كلا الصبيّين:

-هذا يا بنتي واحِد، ما بعرف أصلو بالضبط، بس غالبًا بيقولوا أنّه نمساوي-مَاجري ...

-وهل يحقّ لأحدٍ امتلاك جنسيّتين؟

-نعم يا بنتي.

-نحن لم نملك الحق بجنسيةٍ واحدة والنّاس صارلها اتنين.

-علّق «أدهم» منزعجًا.

عقّبت «أمّ أحمد»:

-نِحنَا بنِحتاجِش إثبات عَشان نقول أنُو إحنا فلسطينيين، إحنا دَمنا بحَد ذَاتو فلسطيني، نبض قلبنا فلسطيني، ما بنحتاجِش حَد يثبت انتماءنا، قضيتنا لحالها انتماء!

صمتت برهةً استجمعت فيها ما كانت تريد أن تحكيه لهما...

-هذا «ثيودور»، وهذا اسمه، اشتاق لشيء يكسِر به رتابةَ حياته غالبًا، شيء يضع اسمه على لائحةٍ يُخلّدها التاريخ، وارتكز على الأهمّ بالنسبة له، ولأنّه يهوديّ الديانة، ولِما يُعايشه اليهود المبعثرون في العالم، أراد لمّ شملهم، ولاقى تأييدًا لأفكاره بأحقيّتهم بامتلاك دولةٍ ينتمون لها وتنتمي لهم، ولم يهتدوا إلّا للأراضي الفلسطينيّة التي آنذاك كانت تابعة للدولة العثمانية، رغم أنّ اليهود كانوا قلّةً قليلة لا تُحتسب بهذه الأراضي، إلّا أنّه عرف كيفيّة كسب مُباركة جميع يهود العالم للاستقرار بها، زاعمين فجأةً أنّها أرض الميعاد التي وعدهم بها الله...

-خالتي شو يعني 'أرض الميعاد'؟

-مممم... هسا برجَع للتاريخ أكثر... اليهود مِثل ما قِلت كانوا مشَتَّتِين،كُتبهم اللّي بِيقُولوا إنها سَماوية نحنا ما بنصدّق يَلّي فيها لأنَّها مُحرّفة، نحن نؤمن بالتوراة التي نزلَت على سيّدنا موسى كما نزلت، وكلّ الديانات بالأصل جاءت لتصبّ بمصب واحد هو الإيمان بالله وبالأنبياء، هُم حرّفوا ما أنزلَه الله عَلِيهم، وكَفروا بنبيّ الله، وافترقوا بالأرض

جماعـاتٍ مُشـتّتة، ومـا ضـلّ يجمَعهُـم غـير الدِّيـن المحـرّف وبَـس، أمـا لغتهـم فـما كانـت إلهـم لُغـة محـدّدة وثابتـة، كانـوا يعتَمِـدُون لغـةَ الأرض التـي يعيشـون فيهـا مـع الأقـوام الأخـرى، بذلـك الوقـت كان يسـكن الكنعانيّـون أرض فلسـطين، وهَـدُولي كانـوا العـرب إلـلي سَـافَرُوا مـن شـبه الجزيـرة لحـد هـان... لا نَنكُـر أنّ اليهـود عاشـوا معنـا مـن يومهـا، بـس مـا كانـوا سَـادة الأرض ولا أصحابهـا... يعنـي أنّ أبنـاء إسرائيـل بنَفسـهُم مِـش عارفِـين يلاَقوا نَسـب لحالهـم، لا لُغـة ولا تقالِيـد جمعتهـم بوقـتها ولا ميّزتهـم عن البقيـة مـن الشـعوب، وخصوصًـا أنُّـو كِتابهـم محـرّف، كتـاب خطتـه يـدُ البـشر لـن يخلـو مـن التناقـض ولا الأخطـاء، وأغلـب أخطائهـم كانـت فادحـة...

-قـريتي كتَابْهُم؟ بدهشة سألت «غادة».

-آه، قـــريتو... مــش عشـــان اشي، بــس لأنُّــو لازِم الواحــد يعـرف هـاذ الوَبـاء مـا هـي نظرتـه وعـلى أيّ أسـاس يُفكّـر، مـا هــي مُعتقداتــه وبــماذا يُؤمــن... لكثــرة تحريفِــه، أحيانًــا بِيقُولُــوا إنهـم سَـكَنوا الأرض بوقـت النبـيّ إبراهيـم، ومَـرَّات بينسـبوا نفسـهم لنبـيّ الله يعقـوب، حتـى عِندهـم خُرافـة بسـفر التكويـن بتقـول أنـو والعيـاذ بـالله مـن كفرهـم، أنّ الله صـارع سـيدنا يعقـوب وانتـصر يعقـوب ولأجـل ذلـك قـرّر الله انّـو يغيّرلـوا اسـمو ويسـميه إسرائيـل ويُورّثـهُ الأرض، وكلّ هـذا يـا ولاد بُهتــان وزور، حاشــا لله أن يعصيــه نبيّــه... كــمان مــرة حــكالي أبـويْ عندمـا سـألتُه عـن اسـم يهـود، قـالي العلـم لله بـس غالبًـا عشـان انهـم نسـبوا حالهـم لابـن مـن أبنـاء سـيدنا يعقـوب اسـمه يهـوذا... ولا تنسـوا مـا تعرفونـه عـن أبنـاء سـيدنا يعقـوب،

وكيـفَ كان مكرهـم لأخيهـم مـن لحمهـم ودمهـم، فيـا تـرى كيـف سـيكون نسبُهم... هنـاك الكثـير مـن الأمـور التـي تخلـق الريْـبَ فيـما يخـصّ حكاياتهـم وأسـاطيرهم... نحنـا مـش ضـدّ دينهـم، لهـم دينهـم ولنـا ديننـا، كلّ واحـدٍ حـرٌّ بمُسلّماته بـس نحنـا ضـدّ تحريفاتهـم وتزويرهـم وسـلبِهم لحقّنـا واغتصـاب أرضنـا... هُـم أساسًـا لم يعتمـدوا غـير المُغالطـات بالتاريـخ، وعَـلى أسـاس تلـك المُغالطـات بنـوا تاريخهـم... الـشيء الوحيـد الـذي لم يكـن فيـه مغالطـة هـو خروجهـم مـن مـصر مـع سـيدنا موسـى، وللعلـم يـا أبنائـي فمـن المسـتحيل حَـدًا يُؤمـن بـالله وبرسـالة نبيّـه ورغـم ذلـك يزوّرهـا ويغيّرهـا، يعنـي همّـا غالبًـا لم يتبعـوه بَـس عَشـان الدّيـن، تَبعـوه خوفًـا ممّـا كانـوا يَلقَونـه بمصر، هربـوا مـن معامـلات فرعـون لهـم، والدّليـل أنّهـم مـا إن لاقـوا فرصـة كفـروا، وعندمـا أمرهـم ربّنـا أن يدخلـوا فلسـطين، التـي كـما أخبرتُكـم كان يسـكنها الكنعانيـون وبعـض الأقـوام العربيـة الأصـل والتـي اسـتقرت منـذ الرحـلات السـامية، هومـا إيـش كان ردهـم لربنـا؟ قالـوا اذهـب يـا موسـى قاتـل أنـتَ وربـك إنّـا هـا هنـا قاعـدون، لـو كانـت مثلـما يزعمـون أنّهـا وعـد ربنـا لهـم لمـاذا رفضـوا بذلـك الحـين دخولهـا فاتحـين مـع نبيهـم؟ بـس هُـما رفضـوا وعاقبهـم الله ألّا يدخلوهـا أربعـين عـام ويتَـشرّدون في الأرض... يُقـال أنـه وبعـد ذلـك جـاء مـن أعـادَ لَمّ شـملِهم وحقّـق لهـم دخـول فلسـطين، ولِشـتَاتِ رأيّ الأقـوام العربيـة آنـذاك، اسـتطاعوا احتلالهـم، لكنّهـم لم يسـتطيعوا إقامـة بلـدٍ عـلى هـذه الأرض مُطلقًـا، فعـادت بعدهـا فلسـطين للعـرب... حتى في خضـمّ حكـم سـيدنا داوود، الـذي بنـى مملكتـه بـ'القـدس' حاليًـا

وقد كان اسمها ’أورسالم‘، ضلّ العرب بمنازلهم ولم يتركوها أبدًا لا للإسرائيليين ولا لغيرهم... ولَكْ هَاذ بَدْنَا دَرس طويل عَريض عَشَان أحْكِيلكُم أنا فيه شو علّمني أبويْ من تاريخ، لقد كان مهووسًا به، يجمع العديد من التفاصيل حول الأمر ولم يبخل عليّ فيما كان يجمع من معلومات، فَأكَم مِن مَرّة كان الطّمَع في أرضنا بقلوبهم، ويِدخُلوها ويِطلَعُوا منها... نِرجَع هَسّا مثل مَا قِلتلكم، ضَلّوا بَعدَ أن عَصوا الله مُشرَّدين في الأرض، وتَوالت القرون بعدها، بعضهم استقرّ حيث كان، ولم يعش هنا غيرَ نسبةٍ قليلة حتى جاء الإسلام، لم يكن لهم من تأثير ولم يفرضوا علينا شيئًا، نعيش على الأرض مثلنا مثلهم، لهم دينهم ولنا ديننا، كالمسيحيين تمامًا، لا نُؤذيهم وليس بيننا مشاكل أرضٍ ونهبٍ لأيّ وطن، يُمارسون طقوس عباداتهم لكن من دون أذيّة أحد، ولم يُعارض أحد وجودهم أو ممارساتهم، لحد ما ظهر لي قلتلكم عليه «ثيودور» وخلق تحالف ما يُعرف بـ ’الصهيونية‘...

-خالتي، وإذا هو اخترعها، طيّب ليش الناس خلّوه وسكتو؟

-لأنّ لا أحد سيُصاب بأذى لو اجتمعَ اليَهُود وأقاموا دولةً لحالهم بعيدًا عنهم، العالم بأسره يتمنّى التخلّص منهم، إرادتهم تَقبَعُ بين ثنايا قلوبهم إنّما لا يجهرون بها... تضيق قلوبهم بالحديث عنهم إنّما غير قادرين على التخلّص منهم ومن سمّهم المُتغلغِل بالعالم كافّة، لذلك سيقفون معهم لو صرّحوا بنيّتهم في استيطان أيّ بلد، المهم ألا يُفسدوا مصالحهم. اليهود يا ولادي بِيضَلُوا طول ما هالحياة مُستمرة

مِتـل مَـا هُمَّـا، ورَاح يِجـي يُـوم يِنـدَم لي وَقَـف جنبهـم وأيَّدهُـم، لَـكْ هَـدُول رُسـل الله ومـا خَجَلـوا انهـم يخذَلُوهـم ويُلفّقُـون أكاذيـب عنهـم، فكيـف دَ يِخجَلُـوا هَسّـا انهـم يخُونُـوا كل مِـين أيَّدهُـم... اليهـودي يـا يـمّا تهمُّـو مصلحتـو وبـس، والمشـكلة انُّـو قَـدَّرْ الله وتكُـون بلادنـا وأراضينـا هـي مصلحتـو...

عـلى ضـوء الشـموع أتمّـت «أمّ أحمـد» حكايتهـا بتلـك الليلـة، فقـد تغـيّر مجـرى الحديـث فجـأةً بعـد سـماع صـوت الرصـاص بوقـتِ الغـداء، رَوَت تفاصيـل مـا بقـي لـ «غـادة»، عـلى علـم منهـا بأنّهـا لـن تخبّئهـا بجعبتهـا أكثـر مـن ليلـةٍ لتُسرع في الغـدِ تحكيهـا لـ «أدهـم»، لعلّـه بـأيّ تفصيـل يغـدو وقـد اسـتجمع فضولـه أو يـروي ظمـأ استفسـاراته حـول كلّ مـا يعيشـونه.

لم تختلـف الليـالي هنـا عـن ليـالي الأمـوات بالقبـور، فـلا نـورَ يُـرى سـوى ضـوء الشـموع والقناديـل الخافتـة التـي لا تُطيـل السـهر وتنطفـئ... تتعاقـب ظُلُـمات الليـل بعدهـا حتـى يُسـمع صيـاح ديـك أحـدِ اللّاجئـين الـذي أبـى إلّا أن يُضيّفـه معـه بالملجـأ، ربّـما كـي لا نشـعر أنّنـا بغـير حيّنـا، ربّـما نُحـاول مواسـاة أنفسـنا ببعـضِ مـا نتعمّـد فعلَـه وتحـدّيَ الحيـاةِ بـه... تُـشرق الشـمس بعدهـا لا تأبـه ليـأس البارحـة ولا لفرحِـه، كلّ الأمـور تمـضي وإن طـالَ الصـبر معهـا... لا نوافـذ هُنـا تُفتـح مُسـتقبلةً اليـوم، بضعُـة أقمشـةٍ تُـزاح والمعضلـة كَـونُ طِفـل البارحـة لـن يتعـرّف عـلى معنـى «بيـت»، حتـى حـين...

- لا تُفلتي يدي وأسرعي بخطواتك يا «غادة»...

وهمـا يحـاولان عُبُـور الطريـق فـما كان لهـا غـير الصّمـت جوابًـا. تسـارعت خطواتهـما بعـد أن لمحـا مركبـةً انجليزيـة عابـرة، لم

تكـن انجليزيـة بـل كان سـائقها صهيونيًـا، ذلـك أنّ نسـبة أبنـاء صهيـون هنـا تعـدّت الأربعـين بالمئـة، كبكتيريـا زُرعـت بمزرعـةٍ واستُحضِرت كلّ شروطهـا الحيويـة، فـما كان منهـا غـير الانفجـار الديمغـرافي عـلى كلّ شِـبر... معشـوقتنا فلسـطين هـي عُلبـة الــ 'بـتري' المخصصـة لتجـارب العـالم، مُسـتوطنتها البكتيريّـة نوعهـا صُهيُـون، أُغلقـت العلبـة علينـا، ونحـن مُغذيـات هـذه البكتيريـا التـي لـن تسـتمد مـن غـيرِ دمائنـا قوّتهـا... وهـا نحـن وهـي... بحلبـة مصارعـة ظالمـة لا يـد لنـا فيهـا تُعـين ولا سـيف. نحـن فقـط مُتمسّـكون بالحيـاة، كطفـلٍ متمسّـكٍ بلُعبتـه، يأبـى أن تُـودِّع يـده، يخشـى لـو ودّعتهـا لا تعـود أبـدًا لـه، نحـن كذلـك...

اسـتأنفَت قطـرات المطـر تُداعـب الأرض، تغسـل خطايـا القلـوب الراضيـة بالظلـم الـذي سُـلّط عليهـا ولا حـول لهـا ولا قـوّة بـردع الألم ولا مُجابهتـه... فـتراتٌ عصيبـة نشـكو فيهـا بثّنـا لله يرفـع عنّـا بـلاءه، لعـلّ وعسـى بـاب الاسـتجابة يومًـا يُفتـح لصـدى أصواتنـا.

أسرع الطفـلان عائدَيْـن للملجـأ بعـد أن غمـرت السـيول مَبَاسـط الأرض وطُرقهـا الضيّقـة القصـيرة التـي تشـكّلت بفعـل المـرور المستمر عليهـا، وتشـبّعت الأرض مـن مِيـاه الأمطـار التـي تـكاد لم تتوقـف منـذ ليلـة البارحـة.

تمسـك «غـادة» بيـد «أدهـم»، الـذي تعتـبره أخًـا وسـندًا لهـا وقـت ضيقهـا وبأيّـام رخائهـا سـواء، كـما لـو أنّهـا أحيانًـا تُحمّلـه همومهـا فـوق همومـه. يركضـان تحـت زخّـات المطـر، ولـولا بـرد الجـوّ لتغـيّر بالطبـع الحـال، فـلا طفـل في العـالم يكـره المطـر إلّا إن كان مُقترنًـا بـبرودة الجـوّ...

-ما كِنت بَعرف إنو الجَو رَح يختِلف هِيك!

- احمدي الله إنّا قـرّبنَا من الملجَأ...

تلـك الريّـاح منعتهـا مـن فتـح المظـلات لتحجـب عنهـا بعضًـا مـن صفعـات المطـر المنهمـر والتـي لم تخجـل مـن هزالـة جسـد «غـادة»، والـذي يكسـوه ذلـك المعطـف الرمـاديّ الـذي لطالمـا كان جيبـه ممزّقًـا، مـا إن تخيطـه لهـا «أمّ أحمـد» يتمـزّق مجـددًا... حبّـات الـبَرَد التـي خالطـت قطـرات المطـر كانـت تنهـال عـلى وجههـا ويديهـا الصغيرتـين... صخـب تلـك اللحظـات كان كصخـب سـنينٍ مـن الاحتـلال لا بـل أهـوَن قليـلًا.

-لا تشدّ يدي كثيرًا يا «أدهم»، أنا لن أهرب لمكان.

-مـن يـدرِي، فقـد تسرقـكِ منّـي زخـات المطـر، لسـت مسـؤولًا أمـام خالتـي «أم أحمـد»...

-ههههه... لستُ قابلة للذوبان بكلّ تأكيد.

-ربّما، من يعلم؟

-أظـنّ أنّ كلينـا سـتذوب صحّتنـا حـين يداهمنـا المـرض بحسـب مـا نحـن فيـه.

-وقد يجتازنا المرض ولا نُعجبه!

-كفّ عن مُعاكسة كلامي.

-أنـا؟ أنـا لا أفعـل شـيئًا... انتبهـي فقـط أيـن تسـيرين، لـن أتحمّـل أيضًـا مسـؤولية سـقوطك بالوحـل!

-ما الفرق؟ إنّنا عائمون لو لم تنتبه.

يضحـك «أدهـم»، فعـلًا كانـا كعائمَـيْن ببركـةٍ مفتوحـة، مـا إن وصـلا، أسرع كلّ منهـا لخيمتـه يلتمـس دفئـا...

-خالتي... خالتي... (بين رعشة أسنانها نادت).

-هلا يَمَّا...

تفاجأت بمنظر فَتاتِها، «غادتها» الصغيرة لم يبق بها شبرٌ لم تَطَله مياه المطر... تقطُر ملابسها كأنّها سحابٌ بغيرِ سَماء...

-يَمَّا وين مظلّتك؟

-لا تخافي، ما كَسَرتهاش... كلّ ما في الأمر أنّ الرياح تعصفُ بشدّة فخشيتُ بلحظة غدرٍ أن تنال من مظلّتي وتكسرها...

لا طاقة لـ «غادة» بأن تُحمِّل «أمّ أحمد» عِبء شِراء مظلّةٍ أخرى، تُفضِّل مُقاومة صفعات المطر والبَرَد وربّما المرض على أن تتسبّبَ بمصاريف إضافيّة لخالتها التي لَيس لها من دخلٍ سوى بعض ممّا تجنيه من أعمالٍ تقوم بها مهما كانت.

«ماذا لو لم تكن هذه هي الحياة التي يجب أن نعيشها؟ ربّما تكون مجرّد حلم سنستيقظ عقِبه وكلّنا سعادةٌ أنّه مضى، ماذا لو انقضى كلّ هذا برمشة عينٍ، طيّب ماذا لو لم يكن حُلمًا بل كان واقعًا يَعِدُ بنهايته قريبًا؟ ألم تُخبرني خالتي دومًا أنّ دوام الحال أمرٌ محال؟».

رفعت رأسها، نظرت لخالتها التي كانت ساهرةً أمام الشمعة تحيك كنزةً صوفيّة لها، وقالت:

-خالتي، ما جَانِي نُوم...

-بسم الله علِيكي، تعَالي لحضْنِي أحكِيلك شِي مشَان تنامِي.

مـا إن طوّقتهـا بذراعيهـا ولامسـت يدهـا وجنتيهـا فزعَـت وعقَّبـت:

-ما بكِ يا «غادة»؟ وجنتيكِ تلتهبان! مرِضتِ؟

-لا، مش مَرضَانة يا خالتي...

بـل كانـت مريضـة، فاتـت درجـة حرارتهـا التسـعة والثلاثـين درجـة، ممّـا اسـتدعى مـن «أمّ أحمـد» أن تحملهـا بـين ذراعيهـا وتُـسرِع بهـا راكضـةً بـين الخِيـم بظلـمات الليـل، بـين غياهـب العتمـة ترجـو بلـوغ أقـرب وحـدةٍ صحيّـة، ولـن تتغـيّر الوحـدة الصحيّـة بشـكلِها عـن الصـورة الإجماليـة للمخيّـم، لا بـدّ أن تكـون خيمـةً رباعيّـة الأعمـدة، لا يُـرى لونهـا بذلـك الظـلام.

كان بالخيمـة وتمامًـا بمدخَلِهـا طبيـبٌ معايـنٌ مـن فـرطِ تعبِـه وشـدّة وَهنِـه غَفِـي، اسـتفاق عـلى صـوت «أم أحمـد» تُنـادي سـابقةً دخولهـا عـلى عجـل، لفزعِـه سـقطت عـن يـده سـماعته الطبيّـة، نظارتـه بعينيـه لا تـزال متمسّـكة رغـم اعوجاجهـا، وشـعره الطويـل الأشـعث نصـف أبيـضٍ ونصـف أسـود...

- فِش دَاعي للقلق يَختي... فِش داعي... مَالهَا؟

-حرارتها مرتفعة...

-كانت مَرضانة قَبل؟

-هَلْقِيـت بَـس ارتَفعِـت حَرارتهـا، بجُـوز أخـدت لَفحـة هَـوا مـن المطـر اليـوم...

شـاحبةَ الوجـه، واهنَـةَ الجسـد، عيناهـا ذابلتـان، يُسـمع أنينهـا بـين الحـين والحـين... نِصـف يَقِظـةٍ ونصـف غائبـةٍ عـن الوعي... بضـع قطـرات مطـرٍ بلّلتهـا أرضختهـا للمـرض. أكملـت ليلتهـا

تلك بالوحدة الصحيّة بمعاينةٍ من الطبيب الذي قام بكلّ ما يستطيع لأجل خفض حرارتها وتبقّى الأمر بيد الله والدعاء الذي ما لبثت «أمّ أحمد» ثانيةً ساكنةً عنه، تردّد بخشوع وتضرّعٍ أن يشفيَ الله عزيزتها، فلذة كبدها والوحيدة من دمها التي بقيَت تُقاسمها هواء هذه الحياة وفرحها وسقمها، فلو أصابها مكروه ما الذي عساها ستفعله؟

تحدّق بها، هي تشبهها كثيرًا، ليس فقط من باب الوِحدة التي قُدِّرت عليهما أو كَونهما مُغتربتين في وطنهما فقط، بل حتى بوجهَيهما، نسخة مصغّرة عنها، دون تجاعيد محفورةٍ فيه ربّما... رغم أنّنا نشيخ هنا باكرًا... نحن نشيخ بالألم والوجع لا بالأيّام والعمر، نفقد وجوهنا الطفوليّة ما إن نفقد أحد أهلنا، نكبر فجأة... نحن نرضخ للألم لنكبر، ليشتدّ أزرنا فنُربّيه بدل أن يُربّينا...

1958 (كانون الأوّل)

مـرّ ذلـك التشريـن الثـاني مـن ثـاني الأعـوام خلـف الخمسـين والتسـعمائة وألـف...

تتتابـع السـنون، فـلا هـي تنتظرنـا أن نعيشـها ولا نحـن لنـا قـدرةٌ عـلى إيقافهـا لتتريّـث حتـى نحيـا مجـدّدًا لنعيشـها... صارت «غـادة» بعمـر الزهـور، ثمانيـة عـشر عامًـا مـن الصـبر... لا نـزال كلّ صباح نُشـعل شـموع الأمـل لتنطفـئ بليلِنـا الطويـل، لا نـكلّ ولا نمـلّ مـن صبرنـا، كأنّـما الله حينـما نظـر بخلقِـه اختـار أشـدّهم صـبرًا وأطولهـم تحمّـلًا، فكتبهـم مـن دمنـا... نحـن لم نعـد نـربّي الأمـل بعـد اليـوم، بـل نُوَهِّـج أصابعنـا لـه، لم نعـد نأمـل بالعـودة لبيوتنـا، بعـد أن راحـت ‹القُبَيْبـة› مـن بـين أيدينـا، بعـد أن زُرِعـت ‹لاخيـش› بـدل ديارنـا! أمّـا ‹يافـا›، فـلا نعلـم سـوى أنّ أعـلى مسـاجدها باتـت مسـتحقاتٍ يهوديّـة، مـن أراد طمـس جنسـيّة أحـدٍ فليـضرب بعقائـده، والإشـكالية أنّ الأسـاس بـكلّ هـذا، يزعمـون أنّـه ديـنٌ وعقيـدة!

أمّـا «أدهـم» فـما عـاد يعـرف للصـبر عنوانًـا، نـسي كلّ عهـوده عـن دراسـته ليصبـح طبيبًـا، سـهى عـن طموحـه، وتلاشـت أحلامـه مـع أوّل عاصفـة غَـدرت بـ ‹غـزة›... ربّـما مـا يُوقفـه حتـى اليـوم تفكـيره بعائلتـه مـن سـيكفلهم في غيابـه وهـو الـذي يُعيلهـم ولـو برغـم صغـر سـنّه...

-فكّـرت أنْظّـم للمقـاومة يـا «غـادة»، يِمكِـن بَـس أنهـي

دِراســـتي!

الشــعور الــذي خالــط نبضهــا فأغــدَاه موجِعًــا حينهــا لم تعلــم لــه تفســيرًا...

-إيش؟

اســتدار نحوهــا، وهمــا يجلســان عــلى صخــرةٍ عــلى حــدود المخيّــم تعــوّدا الجلــوس عليهــا بعــد دَوامِ دراســتهما.

-حكيــت بــس... وحكيتلــك بــس لإلــك، لا تِحكــي لحَــد، هِــيَ مُجــرّد نيّــةٍ فقــط لا غــيْر...

-«أدهم»! إنّك تهذي، أليس بك شيءٌ من سقمٍ يا ترى؟

-بل إنّي أخاطبكِ وعقلي بكامِل قواه يُحاكيكِ.

ظــلّ نظرهــا مثبّتًــا عليــه، مســتغربةً كلامــه، تــودّ لــو أنّ لهــا طاقــةً لاســتيعاب مــا يقوله...

-مِــش حَقــدَر أتحمّــل لَــو ضَلّيــت يَ «غــادة»، افهمِينــي... بعــرِف إنّــك أوّل حَــد ويمكِــن الوَحيــد الّي حَيفْهَمنِــي، إنــتِ أقــرب حــد لقلبــي، بتعــرفي قــدِّيش مَرِّيــت بجــرُوح وعَــدِّت وعَدِّينَاهــا مــع بَعــض، لا تمنَعِينــي هَــاي المــرّة شــدّي ع إيــدي لا تفَلْتيهــا! لا تَقِفِــي بوَجهِــي هــذه المــرّة!

-لا أرى من دافعٍ لذلك...

-كِيفْ؟!

-لا تفهمنــي خطــأ، قصْــدِي وَضعَــك إنــتَ بالــذات... طيّــب وخالتــي «سُــها» لمــين رح تسِــيبها وهــي مَلهَــاش غِــيرك؟ الحــاجّ «أبــو يــاسر» وسِــتنَا «إم يــاسر»؟ يَعنــي مِــش بكفِّــي الغِربــة إلّي طفتهــم، ومُــوت ابنْهُــم الّي أكَل قَلبهــم؟ أنــا مــش حمَنَعــك وبَــس،

أنا مَا بسمحلك من الأساس تتهَوّر، أقلّ شِي اصبر لحتّى تِنتظِم المقاومة، وقتها فكّر مِش هَلقِيت.

-لا تكوني أنتِ وأفعى صهيون عليّ يا «غادة»! انصريني أنتصر!

-«أدهم» ما تكون انت وكل العالم ضدّي الله يخليك... بتحمّلش غياب أخي الوحيد أنا والله ما بتحمّل، حتى كمجرّد تفكير...

أسرّها بقلبه... صمت عن قولها برهةً من زمن، ثمّ قال:

-يدبّرها الله بما شاء وعلى خير ما يكون... قلت فقط، مجرّد قول.

-بإذنه...

حاول تغيير الموضوع تمامًا، أن يُعيد إحياء الزهر ببستان قلبها، أو أن تتفتّح ياسمينة غمّازتها على خدّها ذات بسمة...

-كيف هي دراستك يا غادتي؟

-كعادتها... أحيانًا تُصيب وأحيانًا كثيرة تحيد عن طريقها...

أخذ يُمازحها بما استطاع، بلحظةٍ كانت قد رحلت فيها «غادة» بخيالها بعيدًا، تذكّرت أيّامًا مضت عليها، أيّامًا كانت كالجمر وطأةً عليها... تُفكر بقول «أدهم»، لكنّها تصل في تفكيرها أنّه ولا بدّ قد قرّر التريّث بالأمر ما دام قد أغلق الموضوع... أفاقت من شرودها، وجدت «أدهم» يُتابع محاولات مزاحه ويضحك ساخرًا، وعن غير تفكير قالت:

-«أدهم» بكفّي، بجُوز كنا نمزح بَس هلقيت خَلص!

صمتت برهة وما لبثت عقبها أن عبّرت عن كَونها منزعجة بعض الشيء:

-لا شيء، لم أقصد شيئًا... منزعجة قليلًا فقط يا أخي...

-إن كان كلّما حادثتكِ أو مازحتكِ كانت نتيجة مزاحنا هكذا فسُحقًا للمزاح، والمعضلة أنّي أعرفكِ وأعلم أنّكِ ولو على انزعاجك هذا لن يَسعني معرفة السبب الماكثِ خلف عقلك الذي تمخّضه! إن كان السبب ما قُلته قبل قليل فتعلمين أنّي أغلقت الموضوع لا تعيدي فتحه ولو بينكِ وبين عقلك ذاك السميك...

صمتَا... كان بودّها أن تعقّب على كلامه، لكنّها استسلمت للسكون، ففي عقلها محيطات من الكلمات بلا نهاية...

-أفضّل أن أترككِ لوحدكِ بعض الوقت...

وهَمّ واقفًا، نظرَت إليه مُطوّلًا، أرادت أن تجد ردًّا لائقًا، بعثرت جميع الرفوف التي حملت الكثير بمخيّلتها، إنّما ما يُفيد ذاك الجواب... لا لم تجده.

-كما تشاء، افعل ما يُناسبك، لن أمانعكَ بشيء...

-لقد أرغمتِني على هذا يا «غادة»... إلى اللقاء.

كان الأجدر بها لو تمسّكت بطرف قميصه، ليس لديها غيره بهذه الدنيا، لكنّها تسمّرت وهي تراقبه، يخطو عائدًا للمخيّم، تعرفه حقّ المعرفة، لن يُكلّمها لأيّام منذ الآن، تدمعُ عيناها، تفكّر أنّه على حق، ولا ذنب له بكونها ذات نفسيّة مُرهقة، وليس هيّنًا أن تحمّله همها معها... ظلّت تائهةً في حين ابتعد «أدهم»، يتخطّاها البشر ولا تراهم، وسط ذلك

الخـراب المقابـل لهـا، تُغـبَرُّ هُنـا ملابـس الأطفـال ولا تجـد مـن يُنظّفهـا فـكلّ لحظـةٍ تُعتِـمُ هنـا سماؤنا بسـحابة انكسـار، يعقَبهـا غيـثُ أحـزان، ألا يكفينـا اضطهـاد صهيـون؟ ألا يكفينـا نزعـه كلّ أرواحنـا؟ حتـى أحلامنـا هنـا باتـت مُغـبرّة، الزهـرة التـي تنـوي رُؤيـة ضـوء النهـار تنفتـح لتتفاجـأ بعتمـة مـا نعيشـه، حتـى الأطفـال مـا عـادت تُغريهـم ألـوان الأزهـار التـي غـدت رماديّـة.

رأت سـكان المخيّـم يتتابعـون نحـو صـوبٍ واحـد، لمحـت السـماء فعلمـت أنّ الشـمس قـد آلـت إلى المغيـب، مسـحت عينيها وقامـت قافلـةً لخيمتهـا، حيـث تنتظرهـا «أم أحمـد».

-خالتي... هَيْني جيت.

-وين كنتِ يمّا.

-هون بس، كنت مع «أدهم».

-وكيـف حالـه «أدهـم»؟ أكيـد كنـتِ معُـو بلغلـك بقصّـة التجنيـد وانضِمامـو للمُـقـاومة... أمُـه مـن صبحيّـة الله اجتنـي وحكتـلي، وترجّتنـي أحكِـي مَعـاه مشـان يغـيّر رأيـه.

-أيّ تجنيد يا خالتي؟

-عأسـاس تجنيـد ضـد اليهـود، ينضـم لصفـوف الشـباب الـلي مـع المـقـاومة، إمـه خايْفـة عَليـه وهـو لِسـا صغـير...

تسـارعَت الكلـمات التـي سـمعتها بعقلهـا، إذن مـا قالـه لم يكـن بمحـض الصدفـة، ولا مجـرّد نيّـة لأجَـلٍ مـا، أو هـل كان ذلـك مـا جعلـه فجـأة يرتـدي قناعـه ذاك وينـصرف فجـأة لمجـرّد تعليقهـا؟ خصوصًـا أنّـه متعـوّدٌ عليهـا، كيـف لا وقـد أمضيـا معًـا

سنين لا تُحسب بالأيّام بل بالمواقف التي جمعتهما معًا، هما حتى لم يحدث أن نالَ من أحدهما الحزن إلّا ونال من كليهما، تساءلَت: هل أصمت أم أتقمّص دور الجاهلة بالأمر...

-يمّا وين شردتِ؟

-فش يا خالتي...

بعد عشائهما لم تسهر «غادة» مع خالتها تحيك لها قصصًا عن أيّام كانت فلسطين بكرامتها، تخيط لها من ثنايا القصص الطيّبة سلسالًا يمحو الألم هُنيْهة، ألمًا أرهقها وأرهق الجميع... هنا، برغم صغر سنّهم تجدهم يحملون همومَ شيوخ عالم بأسره. تكوّرت بفراشها الزهيد، هطلت عليها أسئلةَ لم تجدْ لها من جواب «هل أستحق أنا كلّ ما يحصل لي؟ منذ صغري حتى أيّامي هذه... وما الذي جعل «أدهم» يغضب منّي لهذه الدرجة، يعلم غلاته عندي، يعلم أنّ هذه الدنيا غيَّبت عنّي إخوتي وعوّضتني بقربه، يدرك أنّه هو وخالتي عندي بكلّ الدنيا فلِمَ يقف مع الحياة ضدّي فجأة؟ يعلم أنّه سندي، عصاي التي أتوكّأ عليها، فما باله وما قصّة التجنيد هذه التي زعِم أنّها مجرّد فكرة بعقله لأجد أنّ الجميع على علم بها...».

قُلوب الجميع مملوءةٌ بما يكفيها فارحموا قلوب أحبّائكم عسى أن تجرحوها جرحًا لا يعرفُ جبرًا بعدها...

تحت ظُلمة هذه السماء التي نالت من قصص الدنيا ما يُتخِمُها، وعلى خدّ كلّ مُفتَرِشٍ لأيّ شيء كان يخاله مخدّة يوسد عليها رأسه المُثقل بالوجع، هموم لا الحديثُ عنها يُخفّفُ حدّتها ولا كَبتُها بالقلب يكون أرحم... ربّما ينامون ليلهم

بخوفهم وذُعرهم، بكوابيسَ تُلاحقهم، بذكريات تلتصق بأكمامهم، ذكريات أرضهم المنهوبة، مساكنهم التي صارت اليوم خطوطًا مُكدّسة تحت رحمة هيئة الأمم المتحدة، وهل كانت تعرف الرحمة حين مزّقتها أشلاء! نصف بلدٍ بناحيةٍ وآخرُ بآخِرِ الدنيا! أين الرحمة حين وافق العالم على قرار تقسيمنا وكيف يستغلّ صهيون ذلك اليوم يومًا مُباركًا له؟

تغفو العيون، يتعب الأمل فيفترشُ أمام الخيم، يوسد حجرًا، يزهد بنفسه تاركًا إيّاها للسعاتِ البرد، هو يمرض كلّ ليلةٍ لكنّه يُشفى صباح اليوم التالي، ويقف على قدميه مجددًا، غير آبهٍ بشيء، سيجول غدًا كعادته... بين الخِيم وعلى زوايا كلّ طريقٍ، يلتقي بالجميعِ فيمسح على قلوبهم ليعيشوا قليلًا بعد... صار هذا روتينًا له...

ما إن بزغت أشعة الشمس خلف الغيوم حتى دبّت الحياة مجددًا، بأملٍ جديد بحياةٍ أخرى، كأنّ البارحة لم يكن بسجلّ الحياة... «غادة» جالسة بجوار «أمّ أحمد» تتناول فطورها، تفكّر... لا زالت تُفكّر في ما حصل البارحة، ما كان يهمّها أكثر لم يكن أمر التجنيد، بل غضب «أدهم» منها... كلّ شيءٍ عداه يهون... «لربّما كان بحالةٍ سيئة هو الآخر لذلك غضب منّي لسبب تافه» ذاك ما أوصلتها له خيوط أفكارها المختلطة «لعلّه واجه أمرًا ما جعله سيئ المزاج هكذا، سأسأله على كلّ حال... لكنّه لن يُجيبني بالتأكيد... صرت مُتيقّنة أنّه ليس بخير... أَتُراني قصّرتُ بحقّه! فعلًا فعلت... كان الأجدر لو لم أواجهه كذلك عن موضوع التجنيد» ظلّت تجوب بأفكارها شوارع الخيال ما استطاعت من وقت، ثم

راحــت تســاعد خالتهــا بترتيــب الخيمــة، هــمٌّ آخــر يجـرّ همومًــا أخـرى متـى تحـينُ عَودَتنـا يـا تـرى؟ مللنـا هـذه التفاصيـل وملّت هـي الأخـرى منّـا...

-عُــذرًا لأنّي ربّــما قــصّرت بحقــك وكان واجبــي الوقــوف بجانبـكَ أكثـر... فيـومَ أوصـد الجميـع أبوابـه كنـتَ أنـت الوحيـد الـذي وقـف معـي...

-....

-لا تقـل لي لم أقـصّر، بـلى، وكثـيرًا أيضًـا بعـد، صدّقنـي أحـسّ أنّي عاجـزة عـن دفـع مـا يُقلقـك وأنـتَ الـذي لم يُعجـزه أمـرٌ عـن إسـعادي... اغفـر لي تقصـيري بإخـوّتي فـوَالله لـو كنـتَ تُـدرك كـم أتعبنـي الأمـر أيضًـا...

فهـمَ كلّ أمـرٍ خلـف كلّ حـرفٍ قالتـه لـه، لكنّـه غـير مسـتعدّ للخـوض بهـذا الحديـث، أساسًـا مـا يُتعبـه ليـس تقصيرهـا ولا انزعاجهـا منـه...

-ليس بي شيءٌ يا «غادة».

-لا زلتَ منزعجًا منّي عقب البارحة، أفهم ذلك.

-لم تُقصّري بشيء يا «غادة»...

ودّ لـو يُفصـح عـمّا يكتنـزه قلبـه... سـيهرب عـن الأمـر ومـا قصّـة التجنيـد إلّا هـربٌ مُبـاحٌ عـن أصـل مـا يُخالـج صـدره...

-أعلـم أنّـكَ لسـت عـلى مـا يُـرام، منـذ أيّـام لاحظتـك لكـن كنـتُ أُرجـع ذلـك لظروفـك بالمدرسـة، لم أشـأ أن يطـال هـذا الأمـر ويُؤثـر عـلى أمـورك وحياتـك الخاصّـة...

-أخبرتك يا «غادة» ليس بي شيء!

-أُصدُقني القول رجاءً، عجزي عن صدّ ما يُقلقك صار يُؤرّقني... سامحني البارحة، فقد كنتُ مستاءة حتى من نفسي...

-لم يحدث شيء.

وأشاح وجهه... يعلم هي ما كانت تقصده بوقوفه دومًا لجانبها، لطالما واجهَت مشاكل بدراستها، وكان ملجأها تشتكي له، لكونها تُفضّله على أن تُقلق خالتها بهمّها... لكنّه هو مشكلته لم تكن دراسيّة ولا أيّ شيء ممّا هي تظن، ولجوؤه لما سألها عنه البارحة وجوابها وردّة فعلها كانت كفيلة بالعدول عن قرار إخبارها بالأمر من الأساس...

كان برغم نيّته فقط بذلك ينتظر تشجيعًا منها، رغم أنّه متأكدٌ من قراره لأنّه ملاذه الوحيد المُتبقي، لم يحدث أمرٌ بعينه يجعله يتخذ موقفًا، لكن بعض القرارات نلجأ لها خوفًا من أنفسنا بالأساس... دائمًا ما كانت مشجعةً له حتى في أتفه الأمور... تذكّر يوم كتبت له بعيد ميلاده «ما دمتُ أسميتُك صديقي فقد نزعتُ عن قلبي ستائره وأدخلتُكَ أروقته، وقد انتشلتُ احترامكَ كأيّ غريبٍ وزرعتُ بداله معزّةً لا تعرف نهايةً ومحبّةً لا تتأثر بها السنوات، فلو أتيتَني يومًا مكسورًا رميتُ كلّ ما بيدي وانتشلتكَ، ولو كانَ لي ما يجبُرُك نزعته منّي وأعطيتُكَ إيّاه...».

عباراتها جميعها يحفظها عن ظهر قلب... حتى أخطاؤها الإملائيّة حتى عدد الفواصل التي لا تتحكّم بإضافتها بمحلّها أو بغير محلّها، كلّ نقطةٍ رافقت كلّ رسالة... الرسائل التي لم يكن عددها كبيرًا ليُرهقه، خمس رسائل فقط، ليته

ينـال السادسـة أيضًـا... لكـن لا وقـت لديـه...

هـرب مـن حديثهـا ذاك مـا أن سـمع «سُـها» تُناديـه، تحجّـج أنّه تـرك عمـلًا غـير مُكتمـل، سيُنهيه ويعـود، لكنّـه لم يعـد بالطبـع... حتـى «غـادة» علِمـت أنّـه لـن يعـود فلـم تقـف مُنتظـرةً إيّـاه طويـلًا.

***

في العـادة تحـلّ مواسـم الأمطـار والخـيرُ يعمـرُ هـذه الأرض... فلننسَ وجـود الاحتـلال هُنَيهَـةً مـن زمـن، فالحيـاة لا تتوقّـف مـا دُمـتَ تُكافـح... تغسـل قطـرات المطـر القلـوبَ هنـا، تتغلغـل بين صفـوفِ الخِيـم المُتلاصقـة وبـين الأحـزان المُكدّسـة، تنزعُـها نزعًـا عـن الصـدور، لذلـك كلّـما تركَـت سـحابَةٌ مـا حمِلَـت وهبّـت ريـحٌ لتحـوم بمـكانٍ آخـر غُمِـرت القلـوبُ راحـةً... إنّهـا معادلـةٌ بسـيطة، فالمطـر يفعـل بنـا مـا يفعلـه بـما خُلِقنـا منـه، نحـن نُزهـر كلّـما ارتوَيْنـا بـه، ويتّسـع صدرنـا كلّـما مـرّ علينـا الشـتاء... غريب أمـر كلّ مـن يتظاهـر بكرهـه للمطـر! ربّـما يضجـر مـن بعـض المعانـاة التـي صـارت روتينًـا هنـا، أمّـا أن يكـره المطـر بحـدّ ذاتـه، فـذاك أمـرٌ غـير عـاديّ البتّة...أَلسْـنا مـن تـراب؟ أَليـسَ الـتراب كلّـما لامَسـته قطـرات المطـر ارتـوى وأنبـت؟ كذلـك... حكمـةُ الله في خلقـه أنْ رحِـم قلوبنـا بـرَذاذٍ مـن السـماء يُغيثُنـا ليغسِـل خنـادِق أحزاننـا...

لـو كان للأطفـال هنـا حـقٌ بالفصـلِ بأمـرٍ لجعلـوا كلّ يـومٍ ممطـرٍ عيدًا يسـعدون فيـه بـما اسـتطاعوا... وللذكـر فاليـوم الماطـر يختلـف كلّيًـا عـن الليلـة الظلـماء الماطـرة، تختلـف لمسـة الميـاه

للأرض كما تختلف نظرة الأطفال لها، فعواصف الليل تكادُ لا تأتي إلّا حين تستضيف معها زمهرةَ الريّاح ودمدمة الرعد. تحت ظلّ تلك الخِيم ترتجف قلوب الأطفال مع كلّ صوت، فكلّها سيّانٌ وصوت رصاصٍ أو انفجار قنبلة ما، ربّما لذلك اشتهر عن صهيون عمله الليليّ في عزّ عواصف الشتاء، تلك الأفعى بالأساس لا تشبع من الدماء، أو فلنقل حتى بالأيّام المُشمسة، يجعل منها ماطرة إنّما بغير الخير... سنتعوّد على سمائنا التي تُمطر حينًا فحينًا صواريخَ تنفجر لتستقرّ شظاياها بأجسادنا، ويبقى أثرها بقلوبنا محفورًا...

مع صوت الرعد تصرخ «غادة» مستيقظة... فزعت «أمّ أحمد» وأسرعت نحوها:

-بسم الله عليكِ، ما بكِ عزيزتي؟ لا حول ولا قوة إلّا بالله...

مُرتجفةً بالكاد تبتلع ريقها بين شهقاتها المتزاحمة:

-خالتي... «أدهم».... «أدهم» وين؟

وعلا صوتها بهستيريّة وهي تعيد نفس السؤال وترتجف كمن لامسها صقيع جمّد أطرافها، فصارت «أم أحمد» تقرأ القرآن محاولةً بذلك تهدِئتها، تمسح على جبينها قطرات العرق التي تغطّيه...

-في خَيمتهم يَمّا... بسم الله عليكِ... قل هو الله أحد...

-خالتي ألم تسمعي صوت الانفجار؟

-إنّه الرعد يمّا (بين أدعيتها وآيات القرآن أجابت مسرعة)... كان كابوسًا ربّما يا ابنتي...

وضعت يدها على قلبها، كمحاولةٍ لتهدئة نبضه المتسارع، أو تَروِيَة تدفّق الدماء في شرايينها.

-لا بدّ أنّه كذلك...

أخذتها «أم أحمد» بحضنها وأتمّت قراءة القرآن حتى هدأَت «غادة» بين ذراعيها وانتصر النوم على مقاوماتها هروبًا من مصادفةِ نفس الحلم أو تحديدًا نفس الكابوس... أحيانًا كثيرة نتهرّب من النوم خشية مُلاقاةِ أحدهم ذات حلم، أو خشية الغَوص بأحد الكوابيس التي تجرّك لِما تخشاه ولَماً تهرب منه دومًا في يَقظتك.

في الصباح، وبعد أن لاحت الشمس بالأفق وبانَت أشعتها بين السحب التي تغشّاها حينًا وتكشف عنها حينًا آخر، استيقظت «غادة» وأوّل ما قامَت به بعد تناولها لفطورها أن راحت راكضةً لخيمة الشيخ «أبو ياسر»:

-«أدهم»!... خالتي «سُها»!

ردّ صوت «أمّ ياسر» المبحوح خلف الستار الكائِن للخيمة :

-ادخلي يا «غادة».

أزاحت الستار ما أمكنها للعبور. قبّلت يد «أمّ ياسر» وسلّمت على الخالة «سُها» وراحت تبحث بنظرها حتى داهمتها كلمات «سُها»:

-تبحثين عن أدهم؟

-نعم يا خالتي.

-لم يحن بعد موعِد دراستكما على ما أظنّ.

-لا، لكنّي احتجته لأمر آخر يا خالة...

-لقد خرج منذ الصباح.

-هل سيُطيل؟

-أظنّه سيتوجّه مباشرةً نحو المدرسة...

تشكّرتهما وخرجت، لا بأس بعدم لُقياه، ستبحث عنه بعد دوام الدراسة وستجده لتحكي له كابوس الليلة الماضية...

صديقكَ الحقيقيّ هو أوّل إنسان قد تُفكّر فيه ما إن غصّ بقلبك حزنٌ أو داهمك يأس، أوّل من ستفكّر أنّه مهما كانت حالتك لن يردّك بائسًا أبدًا... أصدقاؤنا هم من يمتصّون عن قلوبنا كلّ تعاسة...

سارت نحو خيمتها، حملت حقيبتها المدرسيّة، وغَدَت نحو مدرستها، سألتها خالتها وهي على عتبة الخروج:

-أَليس الوقت باكرًا؟

لكنّها ردّت أنّها ستسير برُوِيّة...

تداخلت بعقلها الأفكار، تفكّر بخالتها التي تزهد بنفسها من أجلها ومن أجل دراستها، تتذكّر أنّ نصف فتيات المخيّم لا يدرسن، لقد راودتها فكرة هجر مقعدها الدراسيّ كثيرًا، لكنّها تعلم أنّ مصارحة خالتها بشيء كهذا ضربٌ من الجحود أو التنكّر للنعمة، وهي بالتأكيد لن يَهون على قلبها رؤيتها حزينة.

رفعت عينيْها اللّتين كانتَا طِوال الطريق مُثبتتين بالأرض لا تُلاحظان غيرها، لمحت غير بعيدٍ قادمِين جددًا، يُسمّيهم الآخرون لاجئِينَ بكتُبِهم وكلماتِهم وتعابيرهم وحتى تاريخهم

المزيّـفِ عنّـا، لكـن مـن يعيـش مثلنـا هنـا، فنسـمّيهم كاسـمنا، ضيـوفٌ ’عائـدون‘ فالضيـوف يمكثـون بُرهـةً مـن زمـنٍ، طـال أو قـصر، ويقفلـون لبيوتهـم عائديـن، يُعمّـرون بلدهـم مـن جديـد، يقمعـون مُحتلّهـم ومُغتصـبَ أرضهـم، يعكفـون عليهـا يحرثونهـا، يزرعـون قمحهـم، يسـقون زيتونـات بسـاتينهم، يجنـون كرزهـم ولوزهـم، يغرسـون برقوقهـم ويربّـون أبناءهـم بـين نسـيم هوائهـا وتحـت أدِيـم سـمائها، فيعلّمـون بذلـك المُتشـدّقين بلُغـة الضـاد -زعمـوا- بعـض النخـوة والعروبـة المنسـيّة.

العروبـة مُصطلـحٌ مظلـوم قسـرًا، والظـالم لـه مظلـومٌ اسـميًا... وكيـف الآثـم منهـم بيومهـم يَقبلهـم تحـت مُسـمّى لاجئـين مـن أراضٍ شُرّعـت لهـم دُوليًـا! لذلـك هـم لا يسـأمون مـن تسـمية أنفسـهم ’عائديــــــن‘، لقـبٌ ظـلّ يتبعهـم مُـذ أُخرجـوا مـن ديارهـم وأراضيهـم مُرغمـين. قـد تجـد حتّـى بعـض المؤرّخـين القائلـين أنّهـم باعـوا أراضيهـم للمسـتعمرين، ليـس مـن فلسـطين ابـنٌ بِـذاتِ طِبـاع العـرب الراكضـين خلـف تنميـق الأسـماء يبيـع حالـه بحـالٍ ظاهـره زيَّنـه ريـشٍ طـاووس وباطنـه تنخـره الجرذان ومـا همّهـم غـيرَ تَرفهـم! بـلى أُحرقـت بسـاتينه وبيتـه وسُـلبت أموالـه وأحـلام أبنائـه تحـت منـأى العـالم بـأسره وعـلى إيقـاع تصفيـق الكثيريـن مـن العـرب الذيـن لـو مـا اللسـان النّاطـق لتـبرأ منهـم الكثـير منّـا، والأحقـر مـن ذلـك بهـذه الأيّـام تفريـق أبنـاء الوطـن الواحـد بـين دولتـين مـن تصنيـف عربيتـين، أي أنّ «غـادة» الآن، ’العائـدة‘ بمسـمّياتنا واعترافنـا وبمُسـمّى اللاجئـة عـلى حـدّ قولهـم تعيـش بغـير دولتهـا! نعـم أي أنّ غـزّة تحـت لـواء مـصر ليسـت مـن فلسـطين أو هـي فلسـطين مصريّـة، والضفّـة

الغربيـة فلسـطينٌ ولكـن أردنيّـة... أيُّ عروبـةٍ تُخـوِّل لـك نسـبَ أرضٍ عربيّـة لـك؟ ولا تعـترف بدولـةٍ شـاركتَها حدودهـا وبـأيِّ وجـهٍ تقبـل ضمّهـا تحت لِوائـك ليس حبًـا فيهـا بـل فقـط حتـى لا تُسـمى فلسـطين بمُسـمّى دولـة!

عشـيةً وهـي عائـدةٌ ترقُـب العائديـن للمخيّـم، تبحـث بينهـم عـن «أدهـم»، لم تجـده... وصلـت المُخيّـم توجّهـت تلقائيًـا لخيمـة «أبـو يـاسر» تسـمع بُـكاءً خافتًـا، انقبـض قلبهـا... مـا الـذي يحـدث؟

-خالتي «سُها»... خالتي «سُها»...

أطلّـت «أمّ أحمـد» مـن خيمـة «أبـو يـاسر» ترمُقهـا بنظـرةٍ غريبـة، مُؤكـدةً بذلـك وجـودَ خطـبٍ مـا.

-خالتي إيش صاير؟

-«أدهم» يمّا... «أدهم» راح...

-كيف؟ وش يعني «أدهم» راح؟

-هسـا يـمّا اجـا رفيقـو وصّللنـا رسـالة منـو أنـو راح ع التجنيـد.

-وش يعنـي «أدهـم» راح، مـش فاهمـة، مـش فاهمـة إيـش عـم بتقولوه؟

صـار صوتُهـا يعلـو، كمـن يريـد ألّا يسـمَع حديثًـا، تردّد سـؤالها رغـم سـماعِها جوابـه، لا تريـد أن تسـتوعب الأمر...

أوقِفُـوا نزيـف الذكريـات وأوقفـوا معـه هـذا الزمـن... أو عبثًـا حاولـوا... صـارت تركـض دونـما توقـف، تعلـم أنّهـا لـن تلحـق بـه، لكـن عـلى الأقـل ربّـما عـاد، تـتراءى لهـا فرصـةً وهـي ليسَـت

كذلـك مطلقًـا، فقـط لتُسـكت قلبهـا... حتـى وصلَـت حـدود المخيّـم... اسـتغلّت زمـن ركضهـا تحـاول عبثًـا تقبّـل الأمـر... ارتمـت أرضًـا...

«لمـين تركتنـي ولـك يـا «أدهـم»؟ طيـب مـش ع أسـاس أنـا اختـك؟ ليـش مـا ودّعتنـي طيـب ليـش؟»

تتـأوّه مـع كلّ صرخـة 'لمـاذا'... كيـف يرحـل دون أيّ كلمـة... تتـأوّه كمـن تُسـتهدف برصاصـاتٍ تخـترق جسـدها... تنـوح كمن فـارق قلبًـا نحـو السـماء دون وداع... كقلـبٍ انفجـر فكانـت شـظاياه كلًّا بكـونٍ...

كانـت قـد جفّـت دموعهـا حـين وجدتهـا «أم أحمـد» وأسرعـت تسـاعدها لتُعيدهـا للخيمـة...

***

«بَـدكَاشْ إشِي عَشـان تتعـرَّف عَـليْ أكثـر، فَوِيـن مَـا لاقِيـتْ الوجَـع رَاح تْلاقِيني هَنـاك، والحِـزْن صَـار بأيَّامِـي إليـاذةً، سُـلبت منّـي أرضي التـي لم أشـبع مـن رائحتهـا ولم أشـبع بعـدُ مـن رُؤيـة الكـروم بعـزِّ عطائهـا، مَـا شـبعت لِسَـا مِـنْ لُـون زَهـرِ الكـرز، مَـا قَـطَفت الـلِّي يكَفِيني بُرتْـقَـان عَشـانْ آكلُـو بأيّامـي هَـايْ اللِّي قَـضِّيتها جُـوعْ، أنـا التـي خُطِفـت أرواحُ أهلهـا جميعهـم بليلـةٍ واحـدة سَبَـقوني للجنَّـة وبَعْرَفـشْ إذا الـلِّي أنَـا مِتزَكِّرتـو أبـويْ ولَّا خيَـال صنعتُـو عايشِـه مَعـو! أنـا الـلِّي لـولا خالتـي مَـا كَانْ عِشـت بعـد هذِيـك اللّيلـة خَالِـص، أنـا التـي كلّـما أغمضـت جفنـي بِليـلي أتذكّـر دِماءهـم بِثيـابي وعـلى وجهِـي وخَالتِـي

بتُرْكُض حَامْلِيتْنِي بإيدها، شَعرِي بْوَقتها كان ظَفْيرة ومِن يومها بَطَّلت أخَلِّيه ظَفْيرة خَالِص، أنا اللِّي لَمَّا عِشت بالمُخَيَّم كُنت كلّ يوم بَستنّى اليَهود لمَّا يْدُخلُوا لَعَنَّا عَشان يْفَتشُونَا يِذْبَحونِي وأنَا نايْمة... وأنا اللِّي مِن يُومين سْمِعت انُّو أرضِي اللِّي هِيَ حَقِّي صارَت مُستوطنة لَوْلادْ صُهيون إللِّي ما تِعبُو فيها ولا سَالْ مِنهم قَطرة دَمْ عَ تْراب هَايْ الأرض، أنا اللّي وَعيت وأنا حياتي محصورة بِين خِيمتنا ورمل وحصَى وحَلقَة كنّا نْكَوّنها عشان نِحفَظ كِتاب الله، أنا اللّي ما كان عِندي إخوَات، كان صديقي اللي ساكن بالخيمة اللّي وَرَانا هو اللّي معتبرِيتُو أخويْ وسَنَدي، وهسَّة انهَد هاد السنَد، أخويْ اللّي كانت أراضِيهم بيافا، البلد اللي يخلّي الكافر يشهد عَ وجُود الله، وبِين ليلة وضحاها انقَلب كِلّ شي بَس لأنُّو مَا حَدْ شايفنَا ولا حَدْ من العرب حَاسِس فينا، بَسْ لأنهم مهما حَسُّوا مش راح يكونو بمَطرَحْنا ولا وْلادهُم راح يْمُوتوا زَيْ مَا مُتْنا... وْ... ولَك آخ بَس... بَدكَاش إشي عشان تتعرّف علَيّ!».

***

كلماتها تنزف، كما نزفت عيونها أيّامًا تعاقَبت بعد مُغادرة «أدهم»... بدِّيش يضلّ، بدّي بس أودّعو... كانت الأيّام تمضي وشتاء المخيّم لا يَنقضي، شتاء المخيّم أقسى من بردٍ يلسعك بالخارج فتُسرع لبيتِك تُشعل مدفأتك تحضّر قهوتك وتجمع يديك مُقابل حرارة اللهيب وتنعم... إن أردتَ النعيم هُنا عليك إشعال خيمة أحد جيرانك لعلّ بَردَ مَشاعرك

يَنفع كَيْ يَقيكَ بردَ جسدك، ولعلّ الدفء الذي سينبعث من ألسنةِ اللهب سيَشفي غليلك ويُدفئ أوصالك، أنا لا أُحدّثك تخريفًا! فلَو كُنتَ عربيًا وأرضٌ أمامك فِلسطينيّة سترضى حرقها لتدفأ أنت، ولا يهمّك لا أهلُها ولا ما يعيش عليها، اتقِ الله ولو في تلك النفس الذليلة التي تعيش بإحدى زواياها!

-٢-

تَوالت الأيام، أنا لا أزال على انتظار أيّ خبر... أنتظر أيّ بصيص أمل ربّما سيُحيي النبض أو فاجعة تُريح الرّوح بانفجارٍ بقلبي يُسكِته بقيَّة العمر... تعوّدتُ كلّ مساء بعد دوام المدرسة، أقف على حدود المخيّم الشرقيّة... أراقب الأفق، بالأيّام الأولى كنتُ أقف مُطوّلًا أرقُب، لِأَقفل مع أذان المغرب ورجلايْ تكاد لا تحملاني. تغيّرت المعالم بعد ذلك كثيرًا، فصرت أجثو على قارعة الطريق، أحكي لها وأنتظر منها ردًا، انتظاري لها بأن تُجيبني هو تمامًا كانتظاري ذاك الذي يأتي بي يوميًا إلى هنا... يومًا عن يوم بدأَت البنايات تنشأ في الأفق، بتّ ألمح اللون الرماديّ وقدْ اكتسح الأرض، كانت تلك مستوطنة يهوديّة تُشيّد، رغم أنّ ما يُقابلها عن الشمال ليس إلَّا أكوامَ آجرٍ مصطفّةٍ تُشكّل أيّ حجرةٍ تُؤوي بعض الفلسطينيين، أو عبثًا تقِيهم من تغيّرات الجوّ... تذكّرت أنّ 'القُبيْبة' أيضًا تمّ تهجير أهلها بالتشرين الأول بعد غيابي عنها وأُقيمت عن جنوبها مُستوطنات 'لاخيش'... لم ألبث من الأيام بعد ذلك كثيرًا، ورجعتُ لعادة الوقوف على انتظار، فالصخرة التي تشبّعت من حكاياتي وشبعَت دموعي قدمتُ ذات مساءٍ لأجدها قد آوَت لغير مكاننا، لعلّ أحدهم اكتنزها، أشكّ أنّها تكاد تنطق من زخم ما سمعته من تفاصيل... هي الأخرى لم تُودّعني، تُرى ما قِصّتهم مع الهرب دون وداع؟ صرتُ بعد غيابها أستند إلى عمودٍ

حديـديّ قريـبٍ مـن هنـاك، أرقـبُ حركـة السـير نحـو المُخيّـم والتـي صـارت تزدحـم يومًـا عـن يـوم بالحمـير والعربـات التـي تُجـرُّ خلفهـا، لتختفـي بـين الخِيـم التـي صـارت إحداهـا تُبنـى جدرانُهـا، تُحيـط نفـس المسـاحة السـابقة، سيقسّـمون الحجـرة فيـما بعـد، لكنّهـا حتـمًا سـتظلّ مسـكنهم، كأنّ البعـض هنـا قـد فقـد الأمـل مُبكـرًا، أو أنّ روحـه باتـت مِضيافـةً لليـأس! أبحـثُ بـين الوجـوه المُغـبرة والـرؤوس الشـعثاء عَسـى أن ألمـح «أدهـم» ذات عـودةٍ. أسـتند كلّ يـوم هنـاك، لـذاك العمـود، وأنـا أعلـم أنّـه آخـر مـا تبقـى لي لأسـنِد إليـه ظهـري...

1959 (صيفًا)

أعـود كلّ يـوم للخيمـة، أمـرّ بالشـيخ «أبـو يـاسر»، أحـسّ بلوعـة قلبـي، بـألم يمزقني وأنـا أُحيّـي ذاك الشـيخ الهـرم، وأيّ سـلام أتمنـاه لـه! لّا يـزال مفتـاح بيتـه بـين أناملـه يُداعبـه وهـو ينسـدل عـن خيـط يُحيـط عنقـه، لكنّـي أذكـر جيـدًا يـوم رحيـل «أدهـم» أنّـه كان يُقسـمُ بالأيـمان أن يرميـه، ولـو فعـل لـكان أقسـم مـن حينهـا ألّا يعـود لأرضـه أحـد، ولـكان سـببًا في زرع بـذرة يـأسٍ بقلـوب مـن حولـه، رغـم أنّنـا نحـاول أن نتخطـى الأمـر ولـو عبثًـا... تتثاقـل أقدامـي وأنـا بجـوار خيمتـه، ويتثاقـل قلبـي في نبضـه، أحـسّ أنّي مذنبـة بأمـر غيـاب ابـن خالتـي «سُـها» رغـم أنّي بـلا ذنـب، ألمحهـا كلّ يـومٍ وقـد غابـت عـن محيّاهـا بسـمة كانـت ترسـمها دومًـا عنـد لقائـي، صـارت تقابلنـي بنظرتهـا الحزينـة تلـك، كأنّهـا تتأكـد أنّ انتظـاري اليـوم أيضًـا لم يُفدنـا بـشيء... تنتظـر أن أعـود لهـم ذات يـوم أزغـرد ربّـما... رغـم إدراكـي ألا حيلـة لي، لكـنّ إحساسًـا بداخـلي يُعذبنـي... قلَّـت زيـاراتي لهـم، فالحـزن يغلّـف قلوبهـم وقـد طغـى عـليّ مثلهـم، يكفيهـم همّهـم فـلا داعـي لـرشّ الملـح عـلى جروحهـم أكثـر، ألَا يكفـي أنّ «أمّ يـاسر» كلّـما قبّلـتُ يدهـا لـترضى يترقـرق الدمـع مـن جفنيهـا العجوزيـن وتتمنـى أن تعـود الأيـام الخـوالي ونعـود جميعنـا مُلتفّـين حولهـا، ألَا يكفينـي كلّ هـذا الوجـع الـذي أتجرّعـه كلّ يـوم؟ حتـى «أمّ أحمـد» غيـاب «أدهـم» أثّـر بهـا فمـن يومهـا صـارت بـين الفينـة والأخـرى تبيـت الليـل بحالـة مزريـة،

ربما ما كان من حالها عن تعب تستطيع تجاوزه صار أشدّ وطأة عليها يزيد إرهاقًا لها، أحيانًا كثيرة يتوجّب عليّ نقلها للخيمة الأخيرة بالصفّ الأوّل بالمخيّم، أي ما يبعُد عنّا حوالي مئتَيْ خيمة أو أكثر، وهي أقرب وحدةٍ صحيّة لنا بهذه الأيّام. أنقلها هناك، أحيانًا يتوفّر لها مُسكّن يُهدئ حالتها وأغلب الوقت نعود بِخُفَيْ حنين، صار الوجع كلّ يوم أشدّ عليها، يفتّت خلايا رئتيها، ويُقطّع قلبي عليها، تبيت اللّيل تئِن من وجعها... لم يُعرف لها خطبٌ ليُعرف لحالِها علاج، وكأنّما كلّ شيء حولي يتآمر عليّ، صار انتظاري لـ «أدهم» يقلّ يومًا عن يوم، يخلُفه اهتمامي بصحة خالتي، ودراستي التي كنت من الأوّل أهدِّد بهجر مقاعدها، ها أنا أوفي لكلامي وعدًا، خالتي التي غضبت بأوّل الأمر تعوّدت على مكوثي معها أكثر طيلة اليوم، خصوصًا مع سوء حالها وعجزها عن أيّ مجهود.

نصحني أحد الدكاترة هناك بالوحدة الصحيّة أن نزور الأطباء في الضفة الغربية، الحال عندهم أحسن. ليلتها بتّ أفكر كيف يمكنني إخبار خالتي بالأمر وأنا على إدراك تام أنّها سترفض الأمر، خالتي لَمَا عايشناه بأيّام تشردنا صارت لا تطيق كلمة سفر... توصّلت بتفكيري لنتيجة العدم، لا بدّ لي من إخبارها وإجبارها على الأمر، وعزمت على أن أفتح نافذة عن الموضوع صباح الغد بمائدة الإفطار...

-خالتي، ألم تشتاقي إلى ’قُبَيْبة‘؟

-... يا حسرتي... أكيد اشتقتلها...

-طيّب، ما رأيكِ لَو نذهب في زيارة إلى هناك؟

لمحتُ ملامح وجهها تغيّرت، تجاعيده التي ألفتها منذ صغري، وحفظت تلك الخطوط على جبينها وخدّيْها، كانت دليل ما عاشته من تفاصيل بسنوات... كلّ خط يدوّن بذاكرتي حقبةً من زمن، ويا لكثرة ما عايشناه من مراحل تزاحمت علينا بزمنٍ قصير الأمد... بات أطفالنا أكبر من عمرهم بعقود، حتى الشيخ صار كَهاربٍ عن بيته الترابيّ تحت الأرض...

تثبّتَ نظرها عليّ، فلم أجد غير الانتظار لعلّها تُفرج عن قولٍ أبني عليه ما بقيَ لي من أمل... فجأةً لم أفهم ما قالته وكان يلزمني وقت لأدرك أنّها هاربة عن الحديث ليس إلّا...

-الجوّ حار...

هروبها لم يدم طويلًا، واندهاشي كذلك...

-خالتي سألتكِ ما رأيكِ بالذهاب إلى الضفة؟

متأكدّة أنّ إجابتها لن تعزّي قلبي الآن، ولا اليوم ولا غدًا... ستعجن الأمر بعقلها، تمضغه جيدًا، تفكّر سبب قولي هذا وستجد السبب الفعليّ طبعًا، وهناك أخشى الصدمة بالرفض...

كانت تلك الأيّام بأوائل صيف التسعة وخمسين تسعمائة وألف، ولم تُجب قولي إلّا بعد أن اشتدّ القَيْظ... أواخر يوليو... اشتد بحينها بها المرض فصار لزامًا أن تجيبني، سعالها صار أشدّ اختناقًا، تجاعيد وجهها صارت أكثر حدّةً وعمقًا... هزالة جسدها التي صارت تتزايد يومًا عن يوم،

تفاصيــل باتــت تُؤرّقنــي، حتــى الألم، الــذي عوّدتنــي أن تُخفــي إحساســها بــه دومًــا...

أُمـضي ليـلي أراقبهـا، صـار النـوم ضيفًـا خفيـف الظـلّ عـليّ، لا يـزورني إلا قليـلًا... مرضهـا أثّـر في نفسـيّتي، في جسـدي حتى وفي بعـض طِباعـي وعـاداتي... لكـن لأكـون صريحـة، فقـد سـاعدني لتخطّـي قصّـة رحيـل «أدهـم»، رغـم أنّـه حجرٌ أُضيـفَ لبيـت أحـزاني، لكنّـه هـوّن وَقـعَ مـا حصـل...

أوائـل أغسـطس، جمعـتُ أغراضنـا، رغـم عـدم تقبّلهـا للأمـر تمامًـا... سـاعدتني «سُـها» بأغراضنـا، أمّـا «أمّ يـاسر» فكانـت غاضبـةً منّـي، تقـول أنّ كلّ أحبابهـا تركوهـا ومَضـوا ...

اسـتأجرنا مركبـةً تُقِلّنـا، مـا يُغيظُنـي فعـلًا كَـوني كـرّرت قَـول حُجّتـي بالسـفر للضفـة الغربيـة ألـف مـرّة لليهـود بالطريـق... كأنّـما بأرضنـا نحتـاج ألـف عـذرٍ للسـفر أو البقـاء...

وددتُ توديـع «أم يـاسر» التـي امتنعَـت عـن إبـداء رِضاهـا عنّـي منـذ أن علمَـت بخصـوص ذهابنـا، كانـت كلّـما قبّلـتُ يدهـا لنيـلِ رضاهـا تصمـت وتُشيح بوجههـا، مـا عـدا اليـوم... بقـرارة نفـسي لي إحسـاسٌ أنّي لـن أراهـما مـرّةً أخـرى، لكنّـي متأكـدّة في الوقـت ذاتـه أنّي سـأعود إلى هنـا، سـأعود لـ ’جباليـا‘ حتـى وإن لم أعـد لـ ’القُبَيْبـة‘... هـذه الأخـيرة هـي أرضي نعـم، وحـقّ شرعـيّ لي، لكنّـي لم أعـش فيهـا مـن ذكريـاتي مـا يكفينـي لأعـود لهـا... مـا دامـت لا تـزال بيـدِ صهيـون فأنـا أربّي صـبري عليهـا وأسـاوِمُ بالصمـت... أنتظـر معجـزةً، لكنّـي لا أسـتميت لأجلهـا كـما قـد أفعـل مـن أجـل ’جباليـا‘... ’جباليـا‘ ولـو كانـت مجـرّد مخيّـم بالنسـبة لي، عشـتُ بـه مـا قُـدِّر لي مـن زمـن، عشـتُ وأنـا عـلى

إيمانٍ أنّه مؤقت، إلّا أنّي لا أملك بذاكرتي غير آلاف التفاصيل التي تربطني بهذا المكان وحده، الأماكن أعزّ على قلوبنا من البشر... رغم أنّ البشر هم من يزيدون بقيمة المكان بقلوبنا...

جمعت ما أمكنني من ذكريات... حقيبة الماضي ممتلئة على آخرها... تفاصيلي التي عايشتها أكبر منّي بعقدين... الآلام التي مارست طقوسها على حياتي، الموت، الحزن، الدموع التي لم تُفارقني إلّا وتشتاق إليّ... حتّى أيّام رخائي... كلّها كانت تسبق أمتعتي... مَلَأَت حقائبي وأثقلَت كاهلي...

انخفضت أقبّل آخر مرّة يد «أمّ ياسر»... سقطت دمعتي على ظهر يدها وانهزم ذاك الجدار الفولاذيّ أمامي... قاومَت طويلًا إنّما استسلمت أمام حرارة دمعتي على يدها فانفجرَت هي الأخرى باكية...

-أعلم يا صغيرتي أنّكما مُرغمتان... صدّقيني أعلم... لكن يعزّ عليّ ذهابكما بعد أن تعوّدتُ عليكما...

وسرقتني بحضنها، تجمهرت دموعها وانسكبت على وجنتيْها، تقبّلني...

-كوني بخير، انتبهي ع حالك وع خالتك... حذاري من أولاد الحرام، أوعك من صهيون... ما تنسوا تتوكّلوا ع الله هو وحدو بيحميكم يا بنتي...

كانت «سُها» تُغطي فاها بيدها، تحجبُ صوتًا قد يتسلّل عن بكائها، تنظر نحوي، تمسك يدي وتحضنني وشهقات بكائها تتزايد... لطالما كانت تحسسني أنّي بمقام «أدهم»

بالنسـبة لهـا، خصوصًـا بعـد غيابـه...

حتـى الشـيخ «أبـو يـاسر» كان الحـزن يفيـض مـن عينيـه، تعوّدنـا عليهـم وتعـوّدوا علينـا، صـاروا أهلنـا، تقاسـمنا فعليًّـا كلّ شيء، فرحنـا وحزننـا، حتـى آمالنـا بالعـودة، طموحنـا بالتصـدّي للمـرض الـذي عُنـوِن بعنـوان صهيـون وكان مرضًـا عُضـالًا أصـاب فلسـطيننا... لملمـتُ دموعـي، قطعـتُ وعـودي بالعـودة مـا إن نجـد شـفاءً لخالتـي... لوّحـتُ بيـدي، مودّعـةً لـكلّ الجـيران، ركبـتُ مـع خالتـي ممسـكةً يدهـا الهزيلـة أسـاعدها... دمعهـا عـلى خدّهـا، لكـن مـا باليـد حيلـة...

سـفرنا مـن غـزّة للضفـة الغربيـة، مـرّ كحلـم... يـوم سرت هـذه الطريـق إيابًـا كنـت صغـيرةً لا أذكـر منهـاً الكثـير، لكـن بالتأكيـد كلّ ملامـح الطريـق تغـيّرت... مـن تراهـم سـاهمين يرقبـون الطريـق عـبر مركبهـم ليسـوا سـاهمين في الطبيعـة، هـم يعرفـون أنّ بعـض تفاصيـل الطـرق لـن تتغـيّر، عـلى حـواف الطريـق المعبّـد تـارةً والرمـليّ تـارة أخـرى، تتشـابه الصـور، أشـجار، وديـان، جبـال وبعـض الحقـول التـي لم تطلهـا أيـادي العـدم، هـم لا يـرون مـا تـراه وأنـتَ جالـسٌ تنظـر نحوهـم بذلـك الاندهـاش... هـم شـيّدوا مُدنًـا وحاربـوا جيوشًـا، أو ربّـما أكثـر مـن ذلـك... وربّـما لم يفعلـوا شـيئًا غـير البحـث عـن شيءٍ مسـتجدٍ يُلاقونـه وهـم بِتيههـم ذاك، ربّـما لم يصنعـوا شـيئًا غـير البحـث عـن ينبـوع مـاءٍ بطعـم الذكريـات الجميلـة، سـاهمين في الفـراغ بحثًـا عـن شـجرة تخـرج مـن أصـل العـدم، سـاهمين حتـى تجتـاح وجوههـم ابتسـامة تـشي بـأنّ حلقـةً مـن الذكريـات قـد داهمتهـم قـسرًا... ذاك غـيرُ المُـدرك لمـا حولـه والتائـه -ظاهـرًا-

يُشبِعُ نظره من ألوان السماء، ليس كما يبدو، قبل الوصول للمحطة التالية، ستُدرك أنّه سارَ أميالًا بطريقٍ مُغايرةٍ لما مشيته وأنتَ معه تراقبه... لكنّه عاد بخفّيْ حنين، خائب الوفاض عن عدم الأمل...

***

لم يختلف وصولي الضفّة عن وصولي يوم هاجرتُ لغزّة... اختلفت ربّما حقيبتي بما حملت من ذكريات وعدد يُعطي جوابًا لعمري ما إن سُئلتُ عنه... بتّ أدرك حقّ الإدراك أنّ العيش بهذه الحياة ليس أمرًا هيّنًا، كلّما كبرتُ أثقلتني الهموم أكثر... استأجرنا سُكنى، حِصتنا فيه غرفةٌ مع مجموعة من الجيران الذين لم يكن حالهم أهون من حالنا، بعضهم كان يدرس، أغلبهم مرضى أتوا للعلاج... تشاركنا فقط بأنّنا نأمل عدم المكوث طويلًا بهذا المكان...

دلفنا الغرفة، مربعٌ صغير بالكاد يكفينا، على جانبه سريرٌ مهترئ، حديده متآكل صدئ، كأنّما الأكسجين هنا كان أكثر من نسبته المعتادة... الغبار مكدّسٌ بكلّ شبر، نافذة صغيرة عالية بالكاد تسترق منّها أشعة الشمس الفضوليَّة علينا نظرة... هناك ثقبٌ أيضًا بالجدار تظهر منه بعض ملامحٍ للشارع المحاذي، الجدار الذي اختفى طلاؤه عن نصفه، والنصف الآخر غدَا كأنّما لو لامسته تفتت بين أناملك... أوراقٌ فوق الطاولة الوحيدة الساكنة قرب السرير، أظنها تعود لمن كانوا هنا قبلنا، اصفرارها هو دليلي الذي التمسته لهذا الاستنتاج، كانت رسائل نصف حبرها قد مُحي، لم تكن

حفنة الفضول بعقلي تكفيني كيْ أتطفّل وأقرأها، دسستها بالدرج... في يسار الغرفة خزانة زرقاء، كأنّها خارجة عن القانون بين كلّ هذا الخراب، في حين أنّ كلّ شيء كان منعدم الألوان، كانت هي بلون أزرق بلون السماء الذي رغم أطنان الغبار لا يزال مبتسمًا... كحالنا... استغربتُ وجودها، لكنّ لا بدّ أن تكون أحد الأشياء التي كانت بنظر البعض لا نفع منها لذلك جلبها صاحب المكان هنا...

كان الفراش فوق السرير بضع بساطات ولُحُفٌ متكدّسة، ذاك ما سنفترشه... أشكر الله أنّنا أتينا بأخرى نظيفة كثيرة فتمكنّنا بها من تغطية المفروشة... تلك النافذة الصغيرة فتحناها لنحظى بقليلٍ من الهواء النقي وسط كلّ ذاك الكم من الغبار... أتممنا يومًا ونحن ننظفُ المكان... وجدنا بوسط الخزانة مدفأة حطبٍ صغيرة... قلتُ لخالتي أنّنا بإذن الله لن نستعملها، سنعود قبل فصل الشتاء، تظنّ أنّي أتعمّد القول لطمأنتها لا غير، لكنّي فعلًا لا يزال لديّ أمل بشفائها... رغم جهلنا لسقمها... لا زلتُ على أملٍ أن يفهم علّتها طبيبٌ ما ويجد لها شفاءً، ربّما اليوم أو ربّما غدًا، لكن بالتأكيد لن نبقى على هذا الجهل... لو تغيب عنّي خالتي لن أجد أحدًا غيرها يعوّضها بهذه الدنيَا...

نمتُ ليلتها وأنا أحضنها، غنّيتُ لها كما كانت تغني لي في صغري... ربتُ على كتفها، قبّلت جبينها... لأول مرّة نامت ولم تستيقظ بوسط الليل جرّاء الألمِ أو من شدّة سعالها... ولم أفهم كيف حصل ذلك الليلةَ بالذات... مع خيوط الفجر الأولى استفقت، أيقظتها ورحتُ أبحث عن الفطور،

لأني علمت أنّ من عادة صاحب المكان أن يحضّر الفطور للساكنين عنده، أتيت به أحمله، جلسنا معًا نتبادل أطراف الحديث حتى نطقت خالتي:

-غادة، اوعديني!

-بإيش يمّا؟

وكانت أول مرة أناديها بـ 'يمّا'، فقد كنتُ طوال حياتي أناديها خالتي، رغم أنها لم تكن بقلبي سوى أمي، ولا أحد له الأحقيّة بكلمة أمي بقدرها، كان ربما النقص الذي عايشته بحياتي عاطفيًا، وغياب والدتي بتاتا عن حياتي كان له تأثير ما، كنت أخشى كلمة أمي، لا أنسب أحدًا إليّ، أحسستُ دومًا بصغري أنّه كان من المفترض على والدي أن يأخذني معه يوم لاقى ربّه لأرى والدتي الحقيقية، كنتُ أعزّي نفسي بعد أن كبرت قليلًا أن هذا حكم من الله ولا يمكنني تغييره، إلا أنّي الآن، لأول مرة أتحدّى مخاوفي وهواجسي، إن لم أسرف الآن بمشاعري فمتى سأسرفُ بها... لماذا نحن دومًا نخشى مواجهة مشاعرنا، نخفي حبّنا لأهلنا مهما أبديناه، ونخشى مصارحة أصدقائنا بحبنا لهم، رغم أنّ الكون كلّه واقفٌ على كلمة... ذاك ما تعلمته من صديقة كانت تدرس معي اسمها «جولييت»، كانت تقول أنها نصرانية، لم أكن أفهم معنى النصرانية، لكنّي كنتُ أحب صديقتي هذه التي شاركتني أغلب أيام الإعدادية، لم تمنعني خالتي عن مرافقتها يوما، بالعكس كانت تسألني دومًا عنها، على عكس خالتي «سُها»، التي لطالما حذرتني منها... الآن بعمري بتّ أفهم أسباب تصرفاتهم التي كنت أعجز عن تفسيرها في صغري

والتـي كنـتُ أيضًـا أمقتهـا، ولا أحتمـل بتاتًـا حدوثهـا، بـات كلّ الـكلام الـذي كان بظاهـره منعًـا لي وقمعًـا لحريّتـي بدافـع الحـب والخـوف عـليّ ليـس إلّا...

حتـى خالتـي لم تمـرّ مـرور الكـرام عـلى كلمتـي التـي لفظتهـا، رفعـت ناظرهـا إليّ وابتسـمت... لسـتُ أفهـم كيـف أتـت عـلى بـالي ذكـراي التـي تعشـش بعقـلي، يـوم استشـهاد عائلتـي، لا أعلـم أيّ الأسرار خبأتهـا بسـمتها حتـى تـراءت لي لحظـات تلـك الليلـة فجـأة بخيـالي كشريـطٍ عابـر، كلّ تفاصيلـه المحفـورة بذاكـرتي، حتّى أتفـه حركـة أو همـسٍ مـرّ حينهـا، أعيـش الألم مـرّة أخـرى، كأنّـما مـرة واحـدة بالحيـاة لم تكـن كافيـة... ثـم قالـت:

-عِدينـي أنّـه وإن انقـضى عهـد صهيـون أن ترجعـي إلى 'القبيبـة'.

رغـم كلامهـا الواضـح، فـإني صمـتُّ أكثـر مـن الـلازم أمامـه، أمسـكتُ يدهـا:

-راح نرجـع يـمّا، بِغـلاة أهلنـا راح نرجـع، ونرجـع سـوا كـمان.

ابتسـمَت، نصـف ابتسـامةٍ مـن ثغرهـا، لملمَـت بهـا حزنًـا عشّـش بجوارحـي... حملنـا أوراقًـا كتبهـا لهـا الطبيـب في 'جباليـا'، وغدونـا باحثـين عـن بصيـص أمـلٍ نغلّـف بـه الكـدرَ المسـتقرّ بأعماقنا.

***

الحصـول عـلى رأي طبيـب مفيـد فعـلًا أو يشـفي غليـل قلبـك لم يكــن أمــرًا هينًــا أبــدًا... ثلاثــة أيــام أمضيناهــا باحثـين عــن أيّ طبيـبٍ يفهـم حالـة «أمّ أحمـد» أو يتكفّـل بعلاجهـا، لم نـلاق غـير وجـوهٍ عابسـة، تلخّـص عبوسـها بجوابهـا الـذي لم يتغـيّر أبـدًا، مفـادُه لا يعلمـون علّتهـا، في المـرّات الأخـيرة صرت أصرخ بوجوههـم: ’طيّـب عـلى القليلـة حاولـوا، يعنـي فـش عـلاج أبـدًا ولا إيـش، طيـب أنتـو ليـش متوظفـين عـلى أسـاس أطبـاء ومـش قادريـن حتـى تعرفـوا أعـراض مـرض؟‘.

بـدأَت خالتـي بفقـدان الأمـل وقـد كانـت بالأسـاس متمسّـكة بشـعرة منـه لا أكثـر، لكنّـي كنـتُ أقنعهـا، حتـى صـارت كلـماتي لطمأنتهـا لا تجـدي نفعًـا، كنـا عائدتـين للغرفـة التـي اسـتأجرناها، خرجنـا مـن بـاب المستشـفى، نسـير بذلـك الطريـق مـن الحجـر المُـتراص، أنظـر خلفـي لبنايـة المشـفى أتسـاءل هـل مـن بنـاه كان عـلى إدراك أنّـه لـن يتمكـن مـن شـفاء أحـدٍ مـا أو حتـى معرفـة سـبب علّتـه، تلـك البنايـة الحجريـة، المُحاطـة ببعـض مـا تبقـى مـن أشـجار، ربّـما للحقـد الـذي احتـلّ صـدري آنـذاك تـراءى لي أنّ لونهـا قاتـم، كيـف كانـت بقلـوب اليهـود رحمـة ولم تطلهـا أيديهـم؟ صرت أفكّـر أنّ رؤيـة بنايـة مُكتملـة المعـالم دون آثـار الخـراب بـات أمـرًا لا يحصـل إلّا قليـلًا... أسـير ممسـكةً ذراع خالتـي التـي صـارت حركاتهـا بطيئـة مـن شـدّة مرضهـا، حتـى اصطـدم بنـا رجـل... طويـل القامـة، عريـض المنكبـين، سـواد شـعره ولحيتـه مـن سـواد الفحـم، يرتـدي نظارتـه كأنّـما لا يحتاجهـا للرؤيـة إلّا للقـراءة، والحقيقـة أنّي علّقـت بـسرّي أليـس يرتـدي نظـارة فكيـف لم يرنـا؟ أو بالأسـاس مـا نفـع نظارتـه وهـي

على هذا الوضع مُنخفضة؟ ثبّتُ نظري بوجهه، لا يبدو عليه أنّه كبير بالسن... أخذ يسترسل بالاعتذار لكلتينا، كان على عجلٍ ولم يكن منتبهًا، شارد الذهن:

-سامحيني يما، والله عقلي شارد ما انتبهت عليكو.

-لا بأس أخي، لم يحصل شيء. (أجبته).

-لا والله أخاف أن تأخذ الأمّ على خاطِرها مني، والله لم أقصد عدم رؤيتكما.

-يا ابني قلنالك والله لا عتب عليك، مشي الحال.

-يمّا طيّب، إن احتجتِ أيّ شيء هان بالمركز تعالي لعندي، د اسجلّك اسمي، مش عادي أروح بعد لي عملتو هيك...

ظللت أستفسر في سرّي من يكون حتى يقول لنا كهذا الكلام، وكيف له أن يكون بكل هذا التواضع... حتى أخرج من حقيبة يده ورقةً وقلمًا سجّل عليها: الدكتور «إياد محمد»... مدّ يده لي لألتقط الورقة، سألَته خالتي ما الذي كتبه فقال:

-يمّا أنا كتبتلك اسمي بهاي الورقة، متى ما احتجتِ لشيءٍ بالمركز الصحيّ تعالي لعندي فورًا.

استرقتُ اللحظة وكأنّما انتظرتها طويلًا...

-رجاءً أخي إنّا بأمسّ الحاجة لطبيب يشخّص مرض خالتي للأسف، ولم يفهم علّتها أحد، ولم يقبلوا حتى ارضاءنا بشيء ولو يخفف ألمها حتى حين...

-هل أنتما ذاهبتان الآن؟ لم تجدا أحدًا بالمركز يقبلها؟

-للأسف، لا!

-هـل بإمكانكـما العـودة غـدًا؟... صباحًـا؟... الثامنـة بحـول الله؟

-نعم إن كان ذاك مدعاة أملٍ فلن نبخل أنفسنا...

نظـرَت في حينهـا إليّ خالتـي، كأنّـما كانـت تحـاول بنظرتهـا أن تسـألني ألا أسـأم أبـدًا مـن البحـث... وكيـف أسـأم، وأنـا التـي ليـس لي أحـد غيرهـا...

عدنـا أدراجنـا عـبر شـوارع القـدس الضيقـة، بـين البنايـات التـي بقيـت رغـم مُـرّ مـا مَـرَّ عليهـا، تحـت حبـال الغسـيل المتراصـة ببعـض الشـوارع، التـي تعـود للمحتلـين الجـدد، لأنّنـا نحـن الفلسـطينيين دماؤنـا لم تعـد مشـكلة إن ظلّـت ملتصقـةً بثيابنـا، اعتدنـا عليهـا، بـل إنّهـا فخـرٌ لنـا لـو أصبنـا بطلقـات اليهـود كدليـل أنّنـا لم نرضـخ، سـتكون مشـكلةً لـو لمحهـا صهيون فقـط أو ربّـما لـن تكـون، لم نعـد نريـد المـوت إلّا تحـت عجـلات مركباتهـم الضخمـة التـي لا تخيـف الصغـير منّـا، فأغلـب شـباب هـذه الأيـام يحمـل عـلى كتفـه سـلاحه، إن علمـت بـه قـوات الاحتـلال سـيتم بالتأكيـد اعتقالـه لكنّـه لا يأبـه... أفكـر ونحـن نعـبر تلـك الأزقـة، كلّ البيـوت الحجريـة التـي تعـود لأزمنـة مُتأصلّـة لجدودنـا، بعـضُ سـكانها أُخـرج عُنـوة وتـمّ احتكارهـا لليهـود الذيـن أتـوا بحمايـة بريطانيـا، صُـودِرت بعـض الشـوارع بأكملهـا، نحـن لسـنا ضـدّ عيشـهم هنـا، بـل ضـدّ طردهـم لنـا ونهـب دورنـا... خلـف كلّ بـابٍ خشـبيّ قصـة، أرواح مُنهكـة مـن الشـوق لأيّـام ماضيـة، يعيشـون عـلى المـاضي، سـاعاتهم ضُبِطـت عـلى إيقـاعِ الذكريـات، ينتظـرون أن يعـود نبـض الحيـاة لعقاربهـا لكنّهـم لا يجاهـدون بـشيء لبلـوغ ذلـك... الإيـمان

غلّف قلوبهم جاعلًا الذكريات تعيش بكلّ زوايا بيوتهم، وتحت أضواء شوارعهم، حتى بين حجارة طرق شوارعهم، والتي قد تضمّ زهرةً مُتعطّشةً للحياة، استماتت لترى ضوء القدس، قبل أن تدعسها مركبة عسكرية لليهود، يؤمنون أنّ هذا عابر.

ما يحدث أحيانًا من اعتقالات وتشريد، يمضي، وبسرعةٍ كذلك، لا مجال للانتظار، ما دامت الشمس تشرق كلّ يوم فكلّ حدثٍ مضى هو أمرٌ انقضى، نعيش على ما قبله ولا نذكر ما يحيط بنا من تفاصيل بين اليوم أو البارحة أو حتى سويعات قبلها...

هنا بالقدس، لم يعبث أبناء صهيون كما تفنّنوا باللعب بمناطق أخرى من فلسطين، لم تكن هناك مداهمات تكتسح الشوارع وتضيّق على العابرين، تسلبهم ممتلكاتهم أو يتم ترحيلهم لوجهات متفرقة، تمّ فِعلُ التشريد، لكن ببطء وبأماكن متفرقة، كأن تكون اليوم مع جارٍ لك، وغدًا تدقّ بابه يقابلك وجه آخر...

بلغنا الشارع الذي يضمّ المسكن الذي نشغل غرفةً منه حاليًا، قريبًا من البيت وعلى نفس الجهة من البنايات يقبع مقهى عريق، يجتمع به بعض الشيوخ، يتشاركون همومهم وحكاياتهم، على الكراسي الخشبية المغزولة بالقش الأصفر، بعضهم لا يزال على عادة الأرجيلة، يستنشق منها بعض النيكوتين ليتغلغل بدمه يدغدغ خلايا عقله، ينصتون لجهاز المذياع ذي البوق الكبير، رغم الخرخشات التي يُصدرها، يركّزون بأغاني أم كلثوم، كأنّ كلّ واقعهم أمرٌ عادي، أو أنّنا

نعتبر هذه التفاصيل أمورًا سطحيّة نترفّع عنها ولا نذكرها بتاتًا، نعيش حياتنا بصورةٍ عاديّة وكأنّما لا مرضَ أصاب أرضنا ولا موتٌ تغلغل بعناوين أيّامنا.

خمس درجات ترفعنا عن مستوى الشارع لندخل المسكن من الباب الخشبي الأخضر اللون... رفعت يدي لأدقّ الباب، فأتاني صوتٌ من الداخل كالعادة، صوت ابنة صاحب المسكن «أسماء»:

-مين بالباب؟

-أنا... «غادة العزّام».

-مين معك؟

وسؤالها لم يكن إلّا لتأكدها من أنّي أنا من بالباب فعلًا ولا أحد معي أو من حولي، ذاك كاحتياط منها لا غير، مرّة تسأل عمّن معي ومرّة من أين نحن وأخرى أين كنّا...

-خالتي... «أم أحمد».

فتحت الباب والأصح أنّها فتحت القفل فقط وتراجعت للوراء بضع خطوات، تعوّدنا على عاداتها هذه منذ أتينا هنا... ثلاثة شهورٍ قد مرّت وقد صرنا من أهل البيت، حتى «أسماء» صارت أقرب إلينا من مجرّد ابنة صاحب المنزل الذي استأجرنا غرفة به، ففي كلّ مساء نلتقي أنا وإيّاها ونعيدُ سرد واقعنا، نُغلّف بعض أجزائه بالقليل من الأمل، وأحيانًا نضحك أكثر من اللازم على أشياء تافهة، كي لا نذكر ما يستحق الحزن، بيننا وبين الهموم رُبع كلمة، نتجاوزها بالصبر ونعيش على أحزاننا وذكرياتنا.

1967 (حزيران)

كانت الأيّام تتوالى، عمري يتناقص كلّما كبرت، أحلامي التي كانت دفء لياليّ، باتت بنظري سرابًا طفوليًا وجنون مراهقة لا أكثر... تعلّمت أنّ الفرح قد يدق أبوابنا، لكنه ما يفتأ يودّعنا، ضيفٌ خفيفٌ لا أكثر، حتى الأحزان كذلك، الفرق بينهما أنّ أحدهما مهما رجوته لا يظل، والآخر كأنّما لم يصدّق دعوتكَ له بالمكوث أكثر فيظلّ حتى لسنواتٍ معك... لكنّهما ماضيان مهما طالت عقود الزمن أو قصُرت...

لقد صار بهذه الأيّام عمري سبعًا وعشرين، وكَوني أقول هذا لأنّي لا أعلم لمولدي تاريخًا محددًا... أَلَمْ يكفِ أنّ كلّ عائلتي كانت بهمّ وفاة أمّي، لا أحد يذكر، ولم يخبروني سوى بأسبوع مولدي وشهره، قيل لي كثيرًا أنّه كان أسبوعًا ماطرًا لم تتوقف فيه السماء عن البكاء... نعم، لطالما ربطتُ المطر بالبكاء لأنّ كليهما يُعيد للنفس بعض الحياة عقبهما، استقبلتني إذن السماء بالدمع، أو ربّما كانت تبكي لقدرٍ كُتب لي، أو ربّما للفقد الذي انكتب عليّ من يومها... لقد مضى على قدومي للضفة سبع سنوات وأشهر عدّة... وعدي الذي قطعته لعائلة «أبو ياسر» بالعودة لم أكن وفيّة به، مضت سبع سنوات ولم أرَ شمس 'غزة'، ولا سبب يمنعني من ذلك فعلًا، السبب بعقلي فقط، السبب أنا مُختلِقته، صرت منذ زمنٍ أخاف كلّ شيء، أخاف أتفه الأشياء وأحقرها... تغيرتُ كثيرًا، منذ أن فارقتني خالتي «أم أحمد»... تلك التي لم يدُم علاجها طويلًا

بالأساس، أصرّ الدكتور «إياد» على أنّها لن تُشفى إلّا بعملية لاستئصال جزء من رئتيها، ولولاه لما اقتنعت خالتي التي كانت كعادتها مصرّة على العناد، كان له دورٌ كبير تلك الأيام ببعث بعض الأمل فيها هي بالأخص، أمّا عنّي فلا أستطيع حتى الآن فهم تلك الأيام التي مضت من حياتي، ربّما كانت أيّامًا عوضنا فيها أنا وخالتي نفسينا عن العالم، تناسينا أمور الاحتلال الذي يعيش معنا كَونه أصل كلّ ما نحن فيه، نسينا كثيرًا من التفاصيل التي عايشناها، أو ربّما لأنّها كانت آخر أيّامها... أذكر جيّدًا أنّه لم يكن ببالي غير شِفائها وكيف سنتخلّص من شبح المرض، كنتُ متناسية لكلّ الهموم التي سبقت رحيلنا لهناك... حتى رحيل «أدهم»... ربّما لذلك لم أعد لـ ’غزة‘، لم تكن لي طاقة لأعيد فتح جراحي أكثر، ارتأيتُ أنّي سأتمكنّ من البدء مجددًا هنا... ربّما كنتُ على صواب، فالعودة لم أجد لها من نفع، فلا خالتي بقيت، ولا «أدهم»...

خالتي «أم أحمد»، التي تكفّل المستشفى بأمور دفنها، بعد أن أعلمتهم أنّي لن أعود بها إلى ’غزة‘، فلا إربا بذلك، لا أهل لنا ليدفنوها ولا أحد سيقوم على عزائها... رحلت عنّي وهي الوحيدة التي أحسست أنّها قد ودّعتني، أو ربّما لم تفعل... كيف كانت يد القدر تسخر منّا بتلك الأيّام، كيف حين قبولها فكرة العملية واستسلامها بعد محاولات الدكتور «إياد»، تُشفى، فلنقل ظاهريًا، تستعيد صحّتها، أهمُّ بتوضيب متاعنا، كانت تسألني على عكس ما كنتُ أتوقّع أنْ لماذا العجلة، أُجيبها أنّي اشتقت لخالتي «سُها» ولـ «أمّ ياسر»،

اشـتقتُ هـواء ’جباليـا‘، وأردفُ قَـولِي بسـؤالها ألم تشـتاقي أنـتِ؟ فتبتسـم.

بعـد أسـبوع عـلى تعافيهـا تمامًـا حصلـتُ عـلى ترخيـصٍ لإخراجهـا مـن المستشـفى، كان الدكتـور «إيـاد محمـد» قـد تكفّـل بعلاجهـا كامـلًا، كان كريـمًا لدرجـة لا تُصـدّق، اسـتطاع إقناعهـا بالعمليـة والوقـوف معهـا كابـن لهـا، لطالمـا حدّثنـي أنّهـا تُذكّـره بوالدتـه التـي توفيّـت وهـو ابـن السادسـة عـشر، أعلمنـي أنّـه كان حُلمهـا أن تـراه طبيبًـا وقـد حققـه لهـا، لكنّهـا لم تكـن لجانبـه، أخـبرني وهـو يتسـاءل مـا فائـدة أحلامنـا إن حققناهـا دون وجـود مـن تمنوهـا معنـا، لا طعـم لـذاك النجـاح مـا دامـت عيْنـا والدتـه التـي تمنّـت رؤيتـه لم تعـد تـراه، ليـتَ اليهـود يعلمـون مـا تأثـير ترهيبهـم لنـا ومـا ينجـم عـن مداهماتهـم وجيـش بريطانيـا لبيوتنا، قلـب والدتـه الـذي كان ضعيفًـا لم يكـن ليتحمّـل مثـل تلـك الفاجعـة، سـقطت مغشـيًا عليهـا مـع مداهمتهـم للبيـت واعتقالهـم والـد «إيـاد» وأخـاه الأكـبر، وحتى بعـد وفاتهـا وانتقالـه أو هروبه بالأخـرى مـن ’بـير السـبع‘ للقـدس لم يكـن لينسـى حلمهـا الـذي رأتـه فيـه مرتديًـا ذاك المئـزر الأبيـض... حققـه مـن أجلهـا، رغـم أنّـه يـدرك جيـدًا أنّـه لم يعـد لـذاك مـن فائـدة.

قبـل أن أُخـرجَ خالتـي مـن المستشـفى أخـبرني أنّهـا قـد تتعـرّض لبعـض النوبـات عـليّ أن أتعامـل معهـا بحكمـة وألّا أفقـد تـوازني أنـا الأخـرى مـا إن حصـل ذلـك، نصحنـي أن تمكـث أطـول مـن ذلـك، لكنّـي لحاجـةٍ في نفـسي أصررت هـذه المـرة، أحسسـتُ برغبـة جارفـة بـأن أعـود للقطـاع، ودّعنـاه عـلى موعـدٍ كلّ شـهر، نقـدم للضفـة مـن أجـل الفحوصـات... ليلتهـا كان قـد مـضى

على العملية أزيد من شهرين وعلى قدومنا ثلاثة شهور، أرسلت بذلك المساء رسالة لـ «سُها» أخبرتها المُستجدّات وأنّنا لن يفصلنا عن العودة إلّا مسافة ليلة اليوم والطريق الذي سنجتازه بالتأكيد وسط توقيفات صهيون المتكررة، كمن ينتقل بين بلدين، وهو مثال ذلك ربّما... نمتُ بليلتها وأنا التي تعوّدت أن يغيب النوم عن عينيّ بأيّام مكوثي لجانب خالتي في المستشفى، واستفقت على شهقاتها، أنرت مصباح الغرفة وأسرعت نحوها، قمت بكلّ ما نصحني به الدكتور «إياد» كيّ تخفّ حدّة نوبتها، خرجتُ أنادي صاحب السكن كي يطلب لنا أيّ مركبة لنقلّها للمستشفى، كنت أناديه وأسمعها تردّد اسمي بالداخل، آمنت أنّه أمرٌ ماضٍ، لكنّه لم يمضِ... ظلّ قابعًا بتلك الزاوية المُظلمة من قلبي، تراخت يدها التي كانت ممسكةً يدي وأنا بانتظار ردّ صاحب السكن بخصوص المركبة... صرختُ ربّما، لا أذكر فعلًا، فحين تعيش لحظات كهذه ستكون كشخصٍ مشلولِ العقل، تتتابك انقباضات بقلبك، يُصبح صدرك غير كافٍ لتلك العضلة الصغيرة بحجم اليد... لحظتها لم يخطر ببالي غير بسمتها يوم قلتُ لها أنّنا سنعود سويةً إلى 'القُبيْبة'، ربّما ما كان عليّ أن أعدها بشيء ليس بيدي ولا بيدها، شيءٌ وحده الله له القدرة بالفصل فيه... وها أنا، لا أزال أعيش دومًا بنفس إحساس الفقد مع كلّ تفصيل...

لقد كنت وفيّة لوعودي مرّةً واحدةً، وسجلتُ أتابعُ دراستي حيثُ توقَفت، وهناك التقَيتُ بـ «رامز الملّا»، كان عامه الأول في التدريس، وكان يساعدنِي دومًا بدراستي،

جاهـدت لأُنهـي مـا بقـي لي مـن أيّـام عـلى المقعـد الـدراسي وكنـتُ أعمـل مـا أمكننـي في البيـت الـّذي بقيـتُ فيـه كـي لا تتفاقـم عـليّ ديـون الأجـرة، ووقـف إلى جانبـي «رامـز» كثـيرًا حتـى يـوم تخرجـي، أتـى طالبًـا يـدي، ولم يكـن لي إلّا أن وافقـت، اكتفيـتُ حينهـا مـن دفـع مسـتحقات الغرفـة التـي بقيـت فيهـا منـذ اسـتأجرناها وقـت أتينـا للضفّـة أنـا وخالتـي -رحمهـا الله- واكتفيـتُ مـن دودة الكتابـة التـي صـارت تنخـرُ رأسي كثـيرًا مـن الأحيـان، مهـما حاولـتُ مُجابَهتهـا، مـع كلِّ خـبرٍ جديـدٍ أسـمعه، أكتـبُ رثـاءً لحـال بلـدي وحـالي، رغـم أنّ البلـد ومشـاكله تَهـونُ عـليّ كلّـما تذكـرت أنّي لسـتُ الفلسـطينيّة الوحيـدة التـي تحمـلُ هـذا الهـمّ، يسـاعدني في انتشـاله الآلاف، أفكّـر مـع كلّ اعتقـالٍ لشـتيلةٍ مـن أبنائنـا، تُـرى مـا حـال أهلـه وهـو يَبيـتُ بعيـدًا عنهـم الآن، أفكّـر كلّـما سـمعتُ طلقًـا للرصـاص كـم مـن مسـكينٍ سـينتج عـن هـذه الرصاصـة التـي يلهـو بهـا ذاك القابـعُ خلـفَ خُوذتـه، أفكّـر في كلّ فلسـطينيّ مجنّـدٍ ضـد اليهـود، يأخـذني الحنين لــ «أدهـم»، تُـرى هـل بقـي لـه مـن نفـسٍ عـلى هـذه الأرض؟ أم أنّـه شـارك خالتـي السـماء أيضًـا. في كلّ مـرّة أحـس بالحـزن المقيـم بقلبـي، تتزايـد وسـاوس الكتابـة بـأذني، فأرثـي مـن فارقـوني، أرثـي حـالي، وحـال بـلادي، أنـا وفلسـطين بالجـرح سـواء... أنـا عـلى فـراق أحبّتـي، وهـي عـلى فـراق أبنائهـا... لطالمـا كانـوا يحثّونني عـلى ألّا أُفلـت أيديهـم في المسـير، لكنّهـم هُـم مـن أفلتـوا يـدي أولًا، سـاروا وأكملـوا دربهـم إلى الله مـن دوني، وقـد فقدتهـم وافتقـدت لهـم...

لم أُزفّ كبقيـة البنـات، فرغـم وجـود أبنـاء صهيـون يردعـون

كلّ أفراحنا ويمنعون عنّا سُبُل السعادة، فإنّنا لم نكن نأبه لهم ولا لتهديداتهم، ولا لسلسلة الاعتقالات التي ظلّت تلتصق بتفاصيل أيّامنا، كان أمرًا طبيعيًا أن نقيم عرسًا لأخ شهيدٍ استشهد منذ أسابيع فقط، لأننا نعلم رغم قساوة الأمر، أنّه أحسن حالًا عند بارئه... نُكفكف سريعًا دموعنا، ونغدو، لأنّ العيش على الأحزان لن يفيد في حالنا، بل سيجعلنا جميعًا في كدر... نتناسى، كمن يُحاول تغطية نور الشمس بغربال، نعم هو مجرّد مثال نتداوله، لكنّه أيضًا واقعٌ نتنفّسه. لكنّي وبرغم ذلك لم أعش تفاصيل المناسبة من احتفالات وسعادة، ومن لي بالأساس أقاسمه سعادتي وفرحتي بذلك اليوم؟ ربّما كانت خالتي ستسعد بحالي، تخرّجت واليوم أنا عروس... لكنّي فهمت تمامًا حينها قول الدكتور «إياد»، ما فائدة أن نبلغ مُرادنا، ومن قاسمونا حلمنا لم يكونوا معنا ليقاسمونا فرحنا!

«رامز» الذي لطالما حاول تعويضي عمّا عايشته بحياتي، لكنّي دومًا كنت أحسّ أنّ آلامي لا تُعوّض، أحيانًا حتى أحس أنّي أُحزنه في كلّ مرة يحاول فيها إسعادي ولا أسعد بما يكفي لأن تتجلّى سعادتي على ملامحي... كثيرًا ما جاهد لتبديل كلّ آلامي التي عشتها وتعايشتُ معها مُرغمةً بأيّام تصلح للعيش تُنسيني ما جعلني القدر أفقده، لكنّي دومًا ما آمنتُ أنّ لساني ما عاد يعرف ذوق الحياة كي يستطعمها... أتاني ولم يكن لي من كتفٍ أسند عليها أوجاعي، فكان هو سندي، لكنّي ملأتُ حياته همومًا وأوجاعًا لا حصر لها، أن تحبّ أحدًا وتحاول إسعاده فلا تبلغ مُبتغاك أمرٌ لوحده

يدعو للكدر... أحبّني، ولم يكن بقلبي شيء لأقدّمه له ردًا على حبه، سوى إخلاصي له...

نعيش مع أهله، هو أصغر إخوته الذين كان تعدادهم عشرة، ولم أتعرّف لحدّ الآن سوى على أربعة، «سعاد» وهي أصغر فتاة، «صفيّة»، «محمّد» و«فارس»، كلّنا نتقاسم بيتًا واحدًا، عائلة لم تعش أيّامها أحسن منّي فقد كان لها نصيبٌ لا بأس به من الشهداء والمُعتقلين، سجينان بين جدران الاحتلال منذ أشهر، شهيدة توأمها مُختفٍ منذ أيامٍ استشهادها، ومُناضل ضد صهيون منذ ثماني سنوات، إضافةً لزوج «صفيّة» الشهيد قبل سنة عن معرفتي بالعائلة... يقول «رامز» أنّ الشهادة أفضل، لكنّي لا أرشّح كليْهما... لستُ قريبة من إخوته الباقين البتة، ولحُسنِ الحظ لم يلُمني مُطلقًا على ذلك، لا أعلم السبب لتَقَوْقُعِي الدّائم، لم يبخلوا عنّي بشيء مُطلقًا ولم يكونوا ذوي فظاظة معي أبدًا، لكن غالبًا ذاك تأثير سَنتين من العيش بمفردي قبل زواجي والوحيدة آنذاك التي كانت تقاسمني بضع سوَيْعات من أيّامي كانت «أسماء» ابنة صاحب المسكن الذي كنت أستأجره للسكن، والتي لم أعد ألتقيها منذ زواجي بـ «رامز».

اليوم وأنا أنظر لمرآتي، رأيْتُ تفاصيل وجه خالتي فيّ، أتذكّر أنّها كانت دومًا تقول أنّي صورة عن أمّي... لا أعرف أمّي كي أحكم، لكنّي بلا شك أحفظ تفاصيل خالتي... جبهتي العريضة، عيناي العسليتان، وحتى أنفي الصغير، ربّما حتى ابتسامتي تشبه ابتسامة خالتي، غير أنّ ابتسامتي بها علامة تنصيص وهي غمّازة عن اليمين. تمنّيت لو عاشت أمّي

بهذه الأيام وتركت لي صورةً عنها، لكُنت ربّما تأكّدت من شبهٍ لها بوجهي... أظنّها كانت تشبه خالتي هي الأخرى... لذلك التقت الأشباه... كم كنتُ أتمنى أن أحظى بأيامٍ مع أمّي، لا أنكر أنّي نِلتُ تعويضًا عنها أغلب سنوات عمري، لكنّي لم أجرّب قط إحساس أن تكون اليد التي ترعاك هي يد والدتك الفعلية، أردتُ تجريب ذلك الإحساس ولو لمرّة بحياتي... كثيرًا ما حاولت والدة «رامز» أن تكسب ودّي أو أن أقترب منها لعلّني أتخذها مكان خالتي، لكنّي لم أستطع لندبةٍ بقلبي لا يزال العبث بها يُؤلمني...

أفقتُ عن شرودي، حينما سمعت صوت «دُعاء»... ابنتي التي بلغت الأربع سنوات، كانت أوّل بنت حظيتُ بها، كشعلة أملٍ أضاءت القليل من عتمتي... وأنتظر أخًا لها عن قريبٍ، رغم أنّ «رامز» يقول لي أنّي لا يمكنني الجزم إن كان صبيًا أم بنتًا، إنّما أحسّ أنّه لن يكون سوى ولدٍ يحمل اسمه... أمّا عزيزتي «دعاء»، فقد تسابقتُ مع الأيّام التي مضت بسرعة وأفقتُ لأجد أنّنا نحتفل بعيد ميلادها الرابع، مضت الليالي ولم أحس بها أبدًا، لم تتعبني بتربيتها البتّة... أو أنّ تعبي معها لم يكن ليُقارن بتعبي الذي أعيشه بسبب هموم الأيّام الماضية التي لا تفتأ تلاحقني... يُقال أنّ بعض التفاصيل تُنسيك أخرى، بعض الآلام تُنسينا بعضها الآخر، رغم أنّ التعب من أجل ابنتي لن يكون همًّا أو ثقلًا عليّ كما هو الحال مع باقي أحداث الحياة.

ابنتي ذات بشرةٍ حنطية تمامًا كوالدها، ملامح وجهها بريئة كأيّ طفلٍ أتى لهذه الحياة، إنّما كان قسمها بهذه الدنيا غيْرَ

باقـي أطفـال الأرض، ابنـة فلسـطين، مُنـذ ولادتهـا كُتـب عليهـا أن تكـون قويّـة، أن تحمـل بـين ضلوعهـا قلبًـا ينبـض باسـم الحريـة ولا يصمـت حتـى وإن توقـف نبضـه، كُتـب بجبينهـا أنّ حياتهـا شـقاء بـأرضٍ اغتصبتهـا الذئـاب البشريـة، أنّ حظهـا في أنْ تكـون شـهيدة أفضـل شيء يجعلهـا تتباهـى بـه أمـام ملائكـة الرحمـن... رغـم أنّي لا أتذكـر تفاصيـل وملامـح وجـه جـدّتي إلّا بعـض الخيـالات التـي حاولَـت الحيـاة سرقتهـا مـن ذاكـرتي، فـلا أذكـر إلّا آخـر نظـرة رأيتُهـا فيهـا وصوتُهـا الـذي لم يفـارق مسـامعي والـذي لطالمـا رافقنـي في ليـاليّ مـا إن أردت النـوم، تتسـلّل ذبذبـات صوتهـا التـي لا تُنسـى، كلماتهـا الأخـيرة، أسـمع دوّي الرصـاص كأنّـما يتجـدّد وأنـام عـلى ذلـك كـما لـو أنّي أسـتذكر آخـر منعطـف سـطّر حيـاتي كلّـما أغمضـت جفنـيّ... رغـم ذلـك، أدركُ فعـلًا أنّ «دعـاء» صـورة صغيرة عن جـدّتي «أم عـزّام»، عـلى الأقـل مـا أذكـره عنهـا أنـا مـن تفاصيـل...

-يامو...

-نعم «دعاء»...

اسـتدرتُ نحوها...كانـت تشـير لي بسـبابتها نحـو النافـذة، ظننـت أنّهـا تريـد أن تُطـلّ مـن هنـاك، فكـرتُ أنّـه ربـما أحـد أبنـاء أكـبر عماتهـا «صفيّـة» خـرج للشـارع وهـي تريـد بذلـك إخبـاري بأمـره كـي أحـاول اللحـاق بـه خوفًـا عليـه مـن أيّ مكـروه، فقـد بِتنـا نخـاف عـلى فلـذات أكبادنـا مـن أفعـال صهيـون غـير المتوقعـة كـما نخشـى عليهـم مـن النـار لا بـل أكثـر ربّـما، فكـم من صبـيّ وصبيّـة صـاروا يختفـون فجـأة بـلا سـابق إنـذار... حملتهـا مُبتسـمةً، اقتربـت مـن النافـذة، لم أكـد ألمـح مـا رأتـه عينـي حتـى

سـمعت صراخ والـدة «رامـز»، كانـت تلـك صبيحـة أوّل أحـد مـن حزيـران عـام السـبعة والسـتين، أي يومًـا واحـدًا قبـل بـدء الحـرب بـين العـرب وإسرائيـل... أمّـا صراخ والـدة «رامـز» فـكان ردًا عـلى صدمتهـا بابنهـا، الـذي لم أكـن أعرفـه بحينهـا، أعلـم أنّ لهـا ابنًـا بالجيش العـربي ضـدّ اليهـود، لكنّـي لم تسـنح لي الفرصـة مـن قبـل لملاقاتـه، واليـوم أراه شـهيدًا... أمّـا «دعـاء» فما كانـت إشـارتها للنافـذة غـير لأنّهـا سـمعت صوتًـا يُنـادي أباهـا، كان أحـد أصدقـاء أخ «رامـز» الـذي قـدّم روحـه لفلسـطين...

أصبحنـا عـلى تلـك الفاجعـة، وبالأيّـام التـي تلـت الواقعـة اقتربـتُ أكثـر مـن عائلـة زوجـي، كأنّـما ذاك الجـدار المُشـيّد بيننـا آن لـه أن ينهـار وكان استشـهاد «قُـصي» سـببًا فقـط... وجدتُنـي بعشـيّة أحـد الأيّـام بعدهـا أربُـت عـلى كتـف والـدة زوجـي، فقدهـا لابنهـا البكـر الـذي أمضى أزيـد مـن ثـماني سـنوات بعيـدًا عنهـا خلـف بندقيتـه وسـط مناطـق الاشـتباكات أمـر يُرهـق النفـس، هـذه العجـوز الآن لم تعـد تهتـم لأيّ أمـر، كان أملهـا أن يعـود لهـا ابنهـا وفلسـطين معًـا، كانـت البارحـة تلطـم حظهـا أنّ آخـر مـا قالتـه لابنهـا أنّهـا غـير راضيـة عنـه لعنـاده والتحاقـه بالمجنّديـن، كانـت مجـرّد كلـمات، وتعلـم أنّـه لـو أحـسّ صحّتها لما خَطَـا خـارج البيـت، لكنّهـا تلـوم الآن نفسـها وتعـضّ أصابعهـا ندمًـا وشـوقًا... تـردّد: كان الأمـل في «قُـصي»، راح «قُـصي» ... فلسـطين مـش راجعـة...

نُحـاول أن نـزرع أيّ بـذرةٍ للأمـل، لكـنّ أرضها باتـت قاحلة... مـا عـاد كلامنـا ينفـع، ولا أيّ محـاولات منّـا... تقـترب منهـا «دعـاء» تمسـك يدهـا بـين كفيّهـا الصغيريـن، تجلـس عـلى الأرض

أمامهـا، وتسـند رأسـها لركبـة العجـوز، حاضنـةً ليـد جدتهـا، كانـت تلـك طريقتهـا في مواسـاتها، وأتسـاءل كيـف يـرى الصغـار حزننـا ويتعايشـون مـع دموعنـا محاولـين مواسـاتنا بـما بلغـوا لـه مـن سـبيل، كلّ هـذه الأحـداث، أصـوات الأنـين، عَبرَاتنـا التـي يعلمـون أنّهـا نواتـج إرهـاق لم نسـتطع كبتـه أكثـر بـين ضلوعنـا، وألمٌ فـاق قدرتنـا عـلى التحمّـل، كيـف لا يكـبر حقدهـم عـلى صهيـون مـع كلّ دمعـة يواجهونهـا عـلى خدّنـا، وكيـف لا يتخـذ ذاك الكـره مكانًـا في قلوبهـم لمـن أسـال دمعنـا وآلمهـم معنـا؟ ذاك مـا صار هـدف «دعـاء» ابنتـي للعيـش-كأيّ أطفـال فلسـطين، أن تحقـد أكثـر عـلى صهيـون الـذي سرق منهـا سـعادتها بطفولتهـا، وأضـاع سـنوات براءتهـا في مواسـاة المُتألمـين والأرامـل ومعطـوبي النكسـة والعيـش عـلى صـدى كلمـة ’يتيـم‘!!!

1967 (يوليو)

وُلد «عُمر» في السادس من شهر تموز، بذات العام، بعد تمام الشهر عن فاجعتنا بعمّه الأكبر، وبنكسة العرب التي لن يعرفوا بعدها نهوضًا حقيقيًا أبدًا، واقعيًا وظاهريًا لم تدم إلّا ستة أيّام، لقبها أولاد الحيّة ملحمة 'شيشيت هياميم'، بربّكم هل بقيَ بعدُ شيء لم تتطاول عليه عبريّتهم؟

كانت نهاية الزحف الخفيّ بالقدس، فما أصبحنا عليه من حالٍ بعدها جعلنا ندمع لحالٍ كنّا عليه ونتمنّى عودته... صاروا يجولون بيننا بكلّ وقاحة، ممارساتهم التي كانوا يعكفون عليها سِترًا صارت علنًا أمامنا وجهرًا، ناسين أنّ عين الله لا تنام، وأنّ ما استحوذوا عليه عُنوةً سيعود لأصحابه مهما طال به الزمان... فُتحت لهم أبواب الهجرة للقدس، كما ستُفتح لهم أبواب جهنّم ذات قيامة... دخلوها... مجرّد القول يكسر القلب، فكيف وأنا التي عشت الحدث من شرفة البيت، منعني «رامز» كثيرًا من الاقتراب من الشرفة، أو النوافذ، يخشى أيّ رصاصة طائشة متمرّدة عن العالم الخارجي تعبر الزجاج بأيّة لحظة... لكن لم يكن لي من حيلة، ذاك العدوّ الذي دمّر كلّ ذرّة بحياتي كان من الممكن أن تغدو فرحة، ذاك الشيطان الذي استولى على حياتنا، نحن هنا لم نعد نحارب لأجل أرضنا، نحن نحارب لأجل حياتنا التي ضاعت بسببهم، نحاول استرداد فرح منعونا من استطعامه، من أجلِ حلمٍ تمنيناه منذ صغرنا، عاش معنا وكبر وحطّمته

بلحظـةٍ أيـادي الغـدر، مـن أجـل ذكرياتنـا التـي لا نعـود لهـا خوفًـا منهـا، والتـي ليسـت إلّا لوحـاتٍ سـوداء غـير مكتملـة، نحـارب مـن أجـل أنفسـنا، ولـن نهنـأ وهـم هنـا يقاسـموننا نفـس الهـواء...

مـع بـدء الغـارات الجويّـة الأردنيـة صبيحـة الاثنـين والتـي سـمعنا دويّهـا مُسـتهدفةً مراكـز يهوديـة بالقـدس الغربيـة، لم أسـتطع إلّا أن أظـلّ عاكفـةً مطلّـة... دمـوع أهـل «رامـز» لا تـزال ينابيـع حديثـة، وصرت أنـا أبكـي حالـين بـدل الحـال الواحـد... لقـد تـمّ دفـن «قُـصي» عـصر البارحـة... مـن قـال إنّ الشـهداء يُزفّـون بالزغاريـد دومًـا؟ تلـك الزغاريـد قليـلًا مـا تسـمعها، مـن أم تألّمـت حـدّ أن صـار الألم يخشـى منهـا، هـي تحـارب الألم بزغاريدَهـا لا مـا يظنّـه الجميـع أنّهـا سـعيدة، رغـم إدراكهـا أنّ ابنهـا حـيٌّ عنـد الله يُـرزق، قلبهـا لا يـزال تحـت تأثـير الفقـد ينـزف... وضعـت نفسـي بداهلـا مـرّاتٍ عـدّة، وجـدّت أنّي مـن المسـتحيل أن أحـسّ بـذاك الكـمّ الهائـل مـن الفقـد دفعـةً واحـدةً إلّا إذا جرّبـت الأمـر حقيقـةً... تذكـرت كثـيرًا «أدهـم»، كان لـه حـظ أوفـر مـن شـهقات بكائـي، تسـاءلتُ هـل حالـه كحـال «قُـصي» اليـوم؟ أو هـل كان ذا حـظٍ مثلـه وأُعيـد لبيتـه ليخـرج منـه شـهيدًا؟ كـم كنـتُ أدعـو الله لمـن هـم لا يزالـون يحاربـون، خصوصًـا بهـذه الأيّـام التـي صـارت جحيـمًا علينـا... صبيحـة اليـوم السـادس مـن الشـهر أذكـر جيـدًا عندمـا تركـت المائـدة لأقـف أمـام النافـذة، وألمـح العسـاكر الأردنيـين يركضـون باتجـاه واحـد... مـرّ يـوم أسـود علينـا جميعًـا، صـوت الاشـتباكات بالخـارج، صـوت النحيـب والدمـوع يطغـى عـلى كلّ حجـرة

بالمنزل، خوف الأطفال واحتماؤهم بنا، وخوفي أنا على «عُمر» الذي كان لا يزال في بطني، خفت أن يُباغتني في مثل هكذا حال، كنت أدعو أن تمرّ هذه الأيّام سريعًا، وألا أراه إلّا بيوم خير... كان لي أملٌ أنّ العرب قد اتحدوا وسيحققون النصر... ستعود القدس، وسأصلي الجمعة القادمة بالأقصى، سيعود العرب المغاربة للحج للأقصى قبل استكمال طريقهم نحو مكة... سيولد ابني وفلسطين بيديّ أصحابها... وسيسعد العرب... هكذا كنت آمل وأنا أقف خلف ذاك الستار الرمادي أرمق الشوارع...

كانت النكسة غالبًا آخر تدخلٍ فعليٍّ للعرب معنا ضد اليهود، ولو أنهم دفعوا ثمن ذلك بحينها، سيناء كانت ضريبة مصر، والجولان ضريبة سوريا... أما نحن، فقلنا سلامًا من يومها على الضفة والقدس... ربّما ما فقده العرب يومها جعلهم يُديرون ظهورهم لنا كلّما تذكروا الواقعة... فمن يومها، أقسم العرب يمينًا... وقِيل ابقوا هنا أهل 'أورسالم' مع هذه الحيّة التي تسعى، حاربوا، إنّا عن هنا راحلون...

دمعَت عيْناي عندما أدركت عبر المذياع سقوط 'غزة' بيد اليهود، لم تهمنّي أقوالٌ غير ذاك الخبر الذي حلّ عليّ كالصاعقة حينها، كلّ أحلامي التي كنت أغزلها رأيتها تتلاشى خلال أيّام، تلك الأسابيع لو قيل لي كيف يمكنني محوها من الذاكرة لما تردّدت دقيقة، ألم تكن تكفيكِ يا حيّة إسرائيل أرضي بـ 'القُبَيْبة'؟ لماذا 'غزة' و'القدس' وكلّ ما وطأته قدمي وكان لي معه تفاصيل وذكريات؟!

اليوم وبعد شهر وعدّة أيّام، مئة أو يزيدون من عائلات القدس باتوا بلا مأوى... ذنبهم أنّهم سكنوا قريبًا من حائط مبكى أولئك الشياطين... هل كان للأمم المتحدة من تدخل هنا؟! لا، قيل أرسلوا بعثة لدراسة ما يحدث بالقدس، بربّك هل أحدٌ منهم مُهتم فعليًا بالأمر؟! نحن هنا نكافح من أجل البقاء وإن كنّا من قبل نشكّ أنّ اليهود يستحون من أيّ قانونٍ قد سُنّ فالآن بتنا نعلم علم اليقين أنّهم يعيشون بلا قوانين ولا يرجعون فيما يخصنا نحن لأيّ دستور... كانوا يقفون بكلّ وقاحةٍ في وجه كلّ من يُعاكس رأيهم أو يطالبهم بالرجوع لما تنصّ عليه قرارات الأمم الماضية... عن أيّ مساواة سنتحدّث لو كنّا سنفكّر الآن بالمُضيّ في الجهاد ضدّهم... نحن شعبٌ لو قيل لنا أوقفوا الحرب بنادقُنا تغدو زهورًا، وهم لو نطق كلّ العالم لا يكترثون... أيّ مساواة هذه التي فيها سنطمع أو نفكّر...

تفكيري دائمٌ في السياسة، حين أستفيق بنصف الليل على بكاء «عُمر» أو حين يغفو الجميع ويهرب عن عيوني النوم... «عُمر» الذي تمنّيت له مولدًا في أيّام أحسن من هذه... بعضنا احترف التناسي والتمثيل أنّ شيئًا لم يكن، والخوف على كراسينا وفوق رفوفنا، بين أحذيتنا وخلف دفّات أبوابنا، مُتربّعٌ بكوابيسنا، ومُتلحفٌ ليالينا... أمّا الحزن... فذاك كميّة أعظم من المشاعر التي أتخمتنا... لم أعد أرى جيشًا أردنيًا عند إطلالتي من النافذة، بل يهوديًا يمسك يد أطفاله يُريهم ما قد يصير حقّهم غير الشرعيّ ذات يوم لو استمرّ الحال هكذا... أطفالنا باتت البيوت لهم سجونًا

خوفًا عليهم من عدوٍ أن يطغى عليهم، خوفًا من اختطافهم الذي صار أمرًا مُتردّدًا في الآونة الأخيرة...

جالسة شاردة بالنافذة المقابلة لي، المذياع يشتغل ككلّ يوم، أم «رامز» تطرّز منديلًا على الأغلب، منذ يومين كانت تبحث عن خيوط الحرير المُلوّنة، ليتها تستطيع تلوين عتمتنا في طريقها... ابنتها «صفيّة» نائمة بعد أن خارت قواها من أعمال البيت، وزوجة «محمّد» و»سعاد» توقفتا عن الحديث المُطوّل عن ابنة جارنا التي جُنّت بعد استشهاد خطيبها وإلغاء عرسها الذي بقي له أسبوع... أتت «دعاء» تناديني تقول أنّ «عُمر» استفاق عن نومه، مسحتُ دمعةً كانت على خدّي، هممتُ واقفةً متجهةً نحو الغرفة حيث هو نائم والأطفال أبناء عمّته وعمّه يلعبون... دلفت الغرفة، استغرقت ثواني لأفهم ما كنت أرى وأستوعب فكرة أنّ ألعاب الأطفال لم تعد تقتصر على 'استغماية' أو 'طاق طاق طاقيّة' أو حتى 'الكريكمه'... لكنّهم صاروا يمثّلون حكايات بتفاصيلها، رافعين العلم الفلسطيني الذي كان بدرج عمّهم «فارس»، يغطّون به أحدًا منهم، يرفعونه فوق أكتافهم والفتيات خلفهم يقلّدن صوت الزغاريد و«لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله»... بقيت للحظات أفكّر، هل أمنعهم عن هكذا لعبة، أم أتركهم لحال سبيلهم وهو غالبًا سيكون واقعًا يعيشونه بأيّام قادمة بعمرهم، أو هلّ يُعدّ تركهم تسريعًا للزمن ليسً إلّا؟ لكن بأيّ حق سأمنعهم، ومن هو محمولٌ على أكتافهم يرى أنّه سيلحق بأبيه الشهيد زوج «صفية» للجنّة... هنّا تأكدتُ أنّنا ننهض على فكرة الجنّة،

فيصير الموت أمرًا لا يخيفنا بل يستهوينا... صمتوا عندما رأوا أنّي أطلت التحديق فيهم، ولمحتُ ابنتي «دعاء» التي رجعت للغرفة بعد قدومي، حملَت وشاحي ولفّته على رأسها لتستكمل دورها باللعبة... تنهدتُ فلم أملك غير ذلك حيلة، وحملت ابني خارج الغرفة وحكاية الشهيد وأهله من تركيب ابنتي وأبناء عميّها...

1977 (آذار)

الحياة لا تتوقف، لا تعرف نقاطًا، وتكاد تجهل الفواصل... نحن من نوقِفُ تقدّم تفاصيل أيّامنا حين نتوقف على سطرٍ واحدٍ كُتب ورغم انقضائه نُصرّ على أن نترك أنفسنا بين يديه يلهو بنا ويُقلّبنا على نار الحزن كيفما يشاء... الأحزان إن أتت فهي لا تأتي فُرادى أبدًا، لكنّها إن رحلت فقد ترحل كذلك، تحبّ القدوم، لكنّها تخشى الرحيل، تخشى على حالِنا بعد تركها لنا، مؤكدٌ تفعل ذلك عن حسن نيّة...

التعيسون بهذه الحياة ليسوا أناسًا أغلقوا أبواب حياتهم عن السعادة، أو أنّهم كارهون لها، وليسوا مُحبّين للون الأسود والوحدة والقهوة المرّة عن عمد، فلا علاقة للتعاسة والحزن باختياراتهم أبدًا... هم بشرٌ ألفوا الحداد وألفهم، كلّ ما في الأمر أنّ السعادة لم تترك وشمًا بحياتهم كما تركه الألم، فغدت شمسهم دائمة التخفّي خلف غيوم الهموم والكدَر...

أنا لا أستثني نفسي... كذلك أنا تقف السعادة على بابي مُطوّلًا، لكنّي لا أفتح لها، أكتفي بأن ألمحها عبر نافذتي، رغم أنّي بأحلامي رسمتُ لقاءً حافلًا لي معها، وجلسةً حميميّة أيضًا.. غالبًا أنا متناقضة ككلّ العالم، متناقضة للحدّ الذي يجعلني أعيش وسط همومي آمل في يوم التخلّص منها، وحين تجلس على عتبتي فرصة ما أتجاهلها، أكتفي بضيفٍ واحدٍ لا اثنين... ولربّما ليس تناقضًا حقيقيًا، ففي الحين الذي سأسمح للسعادة من ولوج عالمي، ستتركني على أقصى

تقدير بعد أيّام، الحزن وفيّ لدرجة أنّه بعد غيابها يحتضنني مجدّدًا كأنّما يؤكّد لي الوفاء...

أنتفض من مكاني، ولسان حالي يردّد سلامًا... سلامًا للذين ينامون وفي جفنهم يسهر الدمع بلا هوادة ولا وَهن، ينخر الحزن بأحلامهم، فتُؤجَّل على أبواب الذكريات والأماني والأمل...

أخطو نحو فراشي لأنام، بعد أن نيّمت أطفالي الذين صار تعدادهم أربعة: «دعاء»، «عُمر»، «عليّ» والصغيرة ذات الخمس سنوات «رغد»... كالعادة، سنجر أحلامنا المحطمة، تفاؤلنا وتشاؤمنا، بعض الأحاسيس عن فشلنا، وفشلنا الفعليّ ربما، برامجنا التي نقضي دقائق نسطّرها قبل نومنا، نغطّي ذكرياتنا، الجميلة منها والرائعة، الحزينة والبشعة، تستقرّ رؤوسنا على وسائدنا، نظن أنّها حين استفاقتنا ستترك أحزانها لتعيش يومًا جديدًا ببداية جيدة، نتأسّف حين نتيقّن أنّ وسائدنا لا تُجيد تربيّة الأحلام ، فسرعان ما تكبر وتحيدُ عن مسارها وتَتَكَوْبَس فجأة... فلنكن على اتفاق، الكوابيس هنا لا تعني رصاصة أو سيل دماء، أو مدفعًا أو بندقيّة جَربَاء، الكابوس الحقيقي أن يرضخ رضيع الأمس لحالٍ استمتنا لتغييره اليوم، أو أن يكبر وفي قلبه لا يكبر الحقد لأبناء عدوّه، ذاك فشلٌ ذريع قد يعيشه الأهل... ففي المقابل أبناء اليهود يرضعون حقدًا لكلّ من ليس منهم، وكأنّما بين أحشاء أمّه كان يتعلّم كيف يكره العرب والمسلمين، لم تعد من براءة خلف أسوار بيوتهم، لم يسمحوا لها بصبغِ طباع أبنائهم، هم... شعب الله المختار... ونحن كالحيواناتَ أو أرذل، عبيد

لهم على الأرض لا أكثر... كلمات تُنقش بقلب الصبيّ منهم، تُرتّل على مسامعه منذ شهقته الأولى، وتُردّد مع كلّ موعدٍ له ليقتات أو ينام... أشك أنّ الألحان التي تجود بها الأمّهات لينام أطفالها أيضًا تخبئ بمعانيها نبذ كلّ مخالفٍ لدينهم وشريعتهم المُحرّفة تحريفًا...

أفكّر طويلًا... في كلّ هذا أو ذاك، في البلاد، أدعو الله... في أرضي التي صارت أبعد عنّي من بعد المشرق عن المغرب بوجود هذه الحيّة... لكنّي أستسلم في الأخير للنوم...

-«غادة»... استيقظي... إنّها الثامنة ونصف!

-ييي، تأخّرت في النهوض، لِماذا لم توقظني قبل هذا يا «رامز»؟

-لا بأس لا عليكِ... إن كان همّكِ على الأولاد فهم يفطرون مع أمّي و«صفية» وسأوصلهم للمدرسة... ليسوا مُتأخرّين...

-اليوم دَورُك بإيصالهم؟

-نعم...

يرتدي معطفه، ثم يرفع نظره نحوي مُبتسمًا، ينتظر منّي كلامي الذي أقوله له كلّ يوم قبل خروجه، رغم كلّ شيء، أعلم أنّ كلماتي تشكّل فارقًا، لذلك حتى وأنا الأحوَج لذرّات الأمل، إلّا أنّي أحاول بكلماتي رفع معنوياته...

-ها؟ لن تقولي شيئًا؟

-بلى... أمعّن النظر لأناقتك اليوم...

-ههههه، أيّ أناقة أنتِ تتحدّثين عنها، كأنّما ارتديتُ هذه

الملابس لأوّل مرّة.

-ما شأنك أنت؟ العين عيني وأراك كما أراك بها... ولا أراك إلّا أجمل رجلٍ بحياتي... وأساسًا لا أحد غيرك يعني لي شيئًا حتى أراه منَ الأساس...

-يا لِحظّي بكِ...

ابتسمت، اقتربت منه أرتّب معطفه... أعلم أنّ عدم إيقاظه لي باكرًا أمرٌ يُخفي خلفه شيئًا ما، أحاول التذكّر بعقلي لكنّني لم أصل لنتيجة فسألته ما السبب؟

-لا شيء، أعلم أنّكِ سهرتِ البارحة ليلًا هذا كلّ ما في الأمر...

-حسنًا... فليكن... على كلّ حال أظنّ أنّ الوقت قد تأخر على المدرسة.

-بالفعل.

وهمّ خارجًا من الغرفة حين أتت «رغد» راكضة، حملها بين ذراعيه وأتمّ يخطو نحو الباب وهو ينادي الأولاد، في حين اقترب منّي أولادي يقبّلون يدي وطلبت «دعاء» أن ترافقهم «رغد» اليوم استثناءً ما دام «رامز» هو الذي سيوصلهم، لم أمانع ذلك، أسرعتُ في جلب ملابس لـ «رغد» حتى لا تكون سببًا في تعطيلهم أكثر...

-مُتأكدّة ستسمحين لها بمرافقتنا يا «غادة»؟

-نعم لا بأس... ما دمتَ أنت من سيوصلهم، وأعلم أنّك ستمرّ بالسوق وتعود بمتطلبات البيت، خذها معك، نادرًا ما ترى الشمس بالخارج... حظّها المسكينة أنّها لا ترى

الشـارع إلّا عـبر النافـذة...

-حسنًا لا بأس...

قبّلتهـا وضممتهـا بشـدّة، متعـوّدة عليهـا تقاسـمنا تفاصيـل يومنـا بالبيـت لا تغيـب مطلقًـا عـن ناظـري... ودّعـت أبنائـي وزوجـي، وهممـت بالمسـاعدة في ترتيـب البيـت...

المذيـاع الـذي كنّـا ننصـت منـه للأخبـار ولـكلّ مسـتجد صـار الغبـار سـيّده، فقـد كسّره «فـارس» ذات غضـب عِقِـب ما سـمعه عـن الحـرب الأهليـة في لبنـان منـذ سـنتين... صـار المـشرق كلّـه حقـل نـار، أيّ فتيلـة قـد تُسـفر عـن حـرب... ألم نكـن نعيـش بسـلام بيننـا؟ مـا الـذي تغـيّر غـير هـذه الحيّـة التـي سـكنت أرضنـا؟ صـار أيّ حـدثٍ فيـه زهـق لـلأرواح أرجعـه لوجودهـم بيننـا، فـلا أجـد تفسـيرًا غـير هـذا مطلقًـا... «فلسـطين كانـت قلـب العـرب، عشـان هيـك طَعنوهـا، وعشـان هيـك كل البقيـة أُصيبـوا بالشّـلل معاهـا».

-ما رِجع «رامز» يا بنتي؟

-لا يا حاجّة ما رجع لهسّة...

لم أكـن منتبهـةً للسـاعة أنّهـا تعـدّت الواحـدة، وأنّـه مـن المفـروض أنّ «رامـز» قـد عـاد هـو و«رغـد»... أتممـت مـا كان بيـدي، ثـمّ توجّهـت للغرفـة التـي كانـت غرفـة «سـعاد» والتـي صـارت غرفـة الأولاد بعـد زواجهـا مطلـع السـبعين، لململـتُ الكركبـة التـي كانـت هنـاك، بعـض الكراريـس بـالأرض، وبعض الألعـاب فـوق الطاولـة... رفعـتُ تلـك السـاعة الصغـيرة عـن الأرض لتسـتقرّ عـلى حافـة الطاولـة، ابتسـمتُ وأنـا أتذكـر

أنّي أنا من اشتريتها لابن «صفية» البكر «عادل»، كنّا قد خرجنا أنا و«رامز» للسوق، وهممنا بالعودة حين رأيتُ بائعًا للساعات، ولمحتها بين كلّ ما كان معروضًا حينها، واتخذناها هديّة لنجاحه... أفقتُ عن ذكرياتي، وفي حينها فقط انتبهت للساعة وقلت في نفسي أنّ موعد عودة الأطفال قد اقترب، استدرت وإذا بالأمر يباغت عقلي، «رامز» و«رغد» لم يرجعا!

انطلقتُ أركض، أنادي «صفيّة»، هناك فقط صارت كلّ خطواتي تزيد من مخاوفي وتسقي الرعب الذي غُرس بقلبي... تصاعَدَ هلعي... حتى أنّي لا أعلم ما الذي أوصلني لغاية باب البيت واقفةً وغطاء رأسي يكاد ينزلق... سألتُ من بعيد جارنا «أبو حسن» صاحب البقالة إن كان قد رآهما، فردّ أنّه للأسف لم يكن بالمحلّ هذا الصباح، كنتُ أهمّ بالتوجه لجارتنا «مادلين» وهي والدة صديقة «دعاء» لأسألها لربّما حظيت بمعلومة عنهما، حين لمحت بأوّل الشارع «رامز» قادمًا مع الأولاد، غدوت أركض نحوهم...

-ما بكِ؟ ماذا حدث؟

-أنتم... أنتم بخير؟

-نعم ما بكِ ما الذي حصل؟

-«رغد»! أين «رغد»؟

خشع بصره، كأنّه قد أُصيب برمحٍ بصدره... تثاقل كلامه لكنّه استطاع السؤال:

-أ... ألم... ألم تدخل البيت؟!

-أيّ بيت يا «رامز» أيّ بيـــــت؟!

أمســكته وصرت أصرخ وأنـا غـير مُدركـة لمـا أنـا فاعلـة... ولا أعلـمّ أيّ الكلـمات كنـت أقـول إنّـما كلّهـا كانـت تسـأل عـن مـكان ابنتـي، وكنـتُ أحـاول فهـم الأمـر، خرجَـت معـه فأيـن تركهـا، أحـاول ضبـط نفسي لأستوعب الفكـرة أو أسمع تفاصيـل الأمـر... وعندمـا تسـارَعت عـليّ الأفـكار صرت أحس بـدوار، ثقـلٌ بذراعـيّ فارتختـا عـن معطـف «رامـز»، ورأيـت بعدهـا السـماء ولا شيء غـير الأصـوات...

***

كيـف يلهـو بي القـدر... كيـف تتسـارع الأحـزان لتنـال منّـي... عـدتُ لوعِيـي وعلمـتُ بذلـك أنّي كنـت قـد فقدتـه، كان «رامـز» يحملنـي للبيـت، نظـرت نحـوه، وبكيـت بحرقـة... اختفـاء ابنتـك في هكـذا ظـروف، وفي هـذه الأيـام عـلى وجـه الخصـوص، وسـط انتشـار أبنـاء صهيـون، أمـور لا تدعـو فقـط للذعـر، بـل أكثـر...

-استهدي بالرحمن «غادة»... راح ألاقيها...

-....

مسـح دموعـي وهـو يتركنـي عنـد مدخـل البيـت يُسـندني لأمّـه وأختـه... جُملهـما التـي ردّدتاهـا كانـت لتـزرع دروبًـا مـن الأمـل، لكـن في بسـاتين غـير أراضيّ أنـا البـور... مـا يزيـد لوعتـي أنّي عبثًا أحـاول تركيـب أيّ فرضيّـة كيـف كانـت مـع والدهـا واختفـت، ولمـاذا لم يعـد منـذ الصبـاح وكيـف لا يعلـم عـن اختفائهـا، أيّ

بـرودٍ هـذا الـذي هـو فيـه...

البـكاء؟ لا لسـت أبكـي... إنّي ألطـم حظّـي الـذي يسـخر منّـي... ألهـذه الدرجـة كلّ أمـرٍ بحيـاتي ينقلـب همًـا؟

أسـند رأسي بهـمٍ عـلى يـدي، مُخفيـةً وجهـي، أو بالأحـرى مُخفيـةً دموعـي التـي تعبـتُ مـن رؤيـة أبنائـي لهـا... «دعـاء» تضـع رأسـها عـلى ركبتـي، بعـد أن أطالـت وهـي جالسـة أمامـي دون جديـد يُذكـر... أحتـار هـل أحـاول مواسـاتها أم أُواسي نفسي، أم أيّ الخلـقِ سـأُعينُ عـلى المواسـاة أكثـر... مـا تقولـه «صفيّـة» لا أعيـه ولا أحـسّ أنّـه يعنينـي أصـلًا... رفعـتُ نظـري وإذا بابنـي صاحـب السـبع سـنوات «عـليّ» ينظـر نحـوي...

-ما بكَ يا «عليّ»؟

يحمـل شـيئًا بـين يديـه الصغيرتـين، لم يُجبنـي، ظـلّ مُثبتًـا بـصره نحـوي طويـلًا وأنـا أنتظـر إجابتـه مـردّدةً سـؤالي أشـدّ حـدّة مـن قبـل، حتـى عـلا صـوتي... ليـس مـن عـادتي أن أصرخ بوجهـه مطلقًـا، خصوصًـا هـو وهـو الأكثـر رصانـة بـين إخوتـه، لكـن تحت وطـأة التفاصيـل قـد تُصبـح شـخصًا لا يمـتُّ لـك بصلّـة، وأصغـر التفاصيـل قـد تُزعجـك، ذاك لأنّـك مشـغولٌ بالحـال الـذي أنـت فيـه فـلا تجـد مـن مجـالٍ لـشيء آخـر ولـو بسـيط...

-اهدئي يا «غادة» ما بكِ؟... عمتو، إيش اللي في إيدك؟

لم يُجبها، واختفى ما إن حضر والده...

-وينها؟؟؟ بنتي ويـن؟

-...

-لا تحرّك هكذا رأسكَ، أجبني يا «رامز» أجبني!

-... ما لاقيتهاش يا «غادة»... بعرفش وينها...

-انتَ شو؟؟؟ أيّ دمٍ هذا الذي تحمل بين عروقك؟ ولك هاي بنتك! كيف ووينٍ تركتها؟ ولك انت شو؟؟

صبر عن كلامي بلوعتي ذاك كلّه ولم ينطق بعد قوله، كنت أصرخ وهيهات حاولَت «صفيّة» تهدئتي... ربما فقدها لزوجها لم يمرّ عليها كفقدي لأحد أبنائي، لن تفهم ما أنا فيه مطلقًا... سقطتُ أرضًا بين شهقات بكائي ألطم وجه سعادةٍ قابلتني حينًا وغابت عن حياتي طيلة الأعوام...

-اتركيني أنتِ أيضًا... اتركوني... وين «رغد»؟ وين بنتي؟ أجيبوا على سؤالي! ولك يا «رامز»، مَ كانت البِنت بإيدَك... وِينهَا البنت طيّب؟.... ولك الله يلعن الساعة لي أمّنتَك عليها... الحق عليّ، الحق عليّ أنا الغلطانة... ولك يا الله... الله يلعن...

أمسك «رامز» ذراعي بغضب رافعًا إيّاي وقال بين أسنانه مشدّدًا على الحروف ولهيب النار كان كطيفٍ بين عينيه:

-أوعِك تِنسِي إنّها بنتي زَي ما هيَ بنتِك! وإن كان على لومك، ضميري أساسًا مش مريّحني...

-آه... أحسن برضو أنّو عندك ضمير، ولك هاي بنتك كيف ضيّعتها وهي كانت بين ذراعيك؟

لم يكن عليّ أن أتحدّاه أكثر بكلامي، دفعني فسقطتُ أرضًا وخرج من حينها، تركني أحارب كلّ الأفكار والوساوس بعقلي وحيدة... بكيتُ بحرقة ذاك المساء بطوله، وهو لم يعد... ليلًا طلبتُ من «صفيّة» أن تُنيّم الأولاد بدالي، وأغلقتُ على

نفسي بغرفتي... جلست أذكر صغيرتي وكلّ تفاصيلها، لفظها لكلمة 'يامو'، نداؤها لإخوتها... كلّ تفاصيلها...

فجأةً دقّ باب الغرفة، أذنت للطارق بالدخول، ظننت أنّه «رامز»، لكنّه كان أخوه «محمّد».

-نعم تفضّل يا «محمّد».

-لم يعد؟

-ليس بعد...

-ليس تدخلًا منّي، لكن أظنّ أنّكِ أتعبته أكثر من اللازم بكلا مك .

أومأت رأسي... ثم قلت:

-يا «محمّد» صدمة كهذه من المفترض ألا أحد يلومني بردّة فعلي...

-لكنّه والدها هو أيضًا وكما...

-أعلم، كما أنا بلوعتي عليها هو أيضًا كذلك... لكنّها كانت بين يديه!

-ذاك يعزّز من لوعته أكثر يا «غادة»... لا تعلمين حتّى كيف حصل الأمر، أليس كذلك؟

-لا...

-حسنًا... كان عليه أن يُخبركِ... أو أنّه همّ أن يفعل لكنّ ردّة فعلك كانت أكبر من أن يتحمّلها... لكن اعلمي أنّ ما حصل قد حصل، وأنّه قضاء وقدر، لن ألومَكِ، وكذلك لستُ أساندك...

مسحتُ دموعي وتنهدت، كأنّما أستعدّ لسماع تفاصيل فاجعتي.

-ألم يكن من المفترض أن يعود من السوق فيُعيد «رغد»؟

-بلى...

-وهو قد فعل بالفعل... تركها بباب البيت مع المشتريات، دقّ الباب ولإطالة فتحه ولأنّه كان قد تأخر تركها هناك ظنًّا منه أنّها أمام البيت وأنّكِ أو «صفية» أو أمّي قادمة لفتح الباب...

نظرت بوجهه: هذا لا يُقلّل من ذنبه بل يزيده...

-استهدي بالرحمن يا «غادة»، هذا قدر الله... إنتِ مفكرَّة أنُّو لو كان عارف أنُّو راح يصير هيك كان تركها؟

-...

-جاوبيني...

-لا...

-أكيد لا... المشكلة أنّو ما حدا شافها، حتى «أبو حسن» وما كان بالمحل ساعتها... يكفي بكاءً أرجوكِ... إلّا ما نلاقيها... المسا لما طلعنا ندوّر ما تصدقي كيف كان «رامز» زيّ المجنون عليها... حاسس بالذنب أنّو هو سبب اختفائها... ما تخافي، راح نلاقيها...

-هه... كيف دتلاقوها... عمّها من عام الستين ما لاقيتوه راح تلاقوها هي هسة؟... ولك هاي حظها زي حظ أمّها...

-... لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

هـل ظـنّ بحينهـا أنّـني قـد جُننـت؟ غالبًـا نعـم، وغالبًـا كان ذلـك الواقـع... قـام ونظـرة الشـفقة بعينـه لم تحـد عنّـي... خـرج وأغلـق البـاب خلفـه... وتركنـي أعـاود سـيناريو الأحـداث بمخيّلتـي، أيّ صـمٍّ الـذي تملّكني ولم أسـمع دقّـه عـلى البـاب ولم أفتـح لابنتـي؟ والأغـرب أيـن اختفـت... بكيـتُ حتـى خـارت قـواي وبـدأت أحـسّ أنّي أغيـبُ عـن الواقـع حـين سـمعت دقًّـا خافتًـا بالبـاب... حاولـت رفـع رأسي المُتثاقـل فلمحـت ظـلّ «دعـاء». أتـت وجلسـت قريبًـا منّـي، ثـمّ أسـندت رأسـها عـلى كتفـي وهمسـت:

-سنجدها يا أمّي... لا بدّ أنّها لم تبتعد...

ابتسـمتُ للأمـل الـذي تبنيـه هـذه الصبيّـة ذات الأربـع عشر... ذاك لـو كان الحـال غـير حالنـا، ولـو كان البلـد لا ينـزف كـما ينـزف منّـا كلّ يـوم...

-لم يأتِ والدك؟

-لا... هل سيبقى في الخارج؟

-أخشـى ذلـك... اليهـود مـش راح يرحمـوه لـو عثـروا عليـه...

-سندعو لهما... ربّما سيجدها يا أمّي...

قبّلت خدّها، ضممتها وأنا أحثّها على أن تنام...

***

أصوات كثيرة، وجلبة كأنّها تبتعد، دقات قلب متسارعة، وسط الظلام تبيّن لي وجه «رغد»، اقتربت منها، ما كدتُ أصل حتى انتبهتُ أنّي مُقيّدة بسلاسل عريضة، تُكبّل يديّ ورجليّ، نظرت مُتفحصّة المكان، أنا لا أعرفه، لكنّ الرائحة كانت نتنة، والظلام الدامس يوحي أنّني في قبو... همست لـ «رغد» أسأل هل هي بخير، رمقتني بنظرةٍ حزينة، سألتها من أتى بها إلى هنا، فأشارت للأرض، نظرت وإذا بها بركة دماء تمتلئ أكثر فأكثر، هلعت وصرت أسألها أين نحن يا «رغد»، أنتِ أفصح إخوتكِ فانطقي، أحاول التحرر من السلاسل دون جدوى، وهي على صمتها صارت تبكي فصرت أبكي معها لعجزي ذاك الذي أنا فيه، منسوب الدماء تحت قدمي يتصاعد وبردها تغلغل بين عظامي...«رغد» أجيبيني أين نحن، «رغد»... تركتني واختفت بين ثنايا الظلام وصرت أصرخ أناديها...

-يمّا... يمّا!!!

كان كابوسًا... ابتلعتُ ريقي بصعوبة وأنا أحاول ضبط أنفاسي... حضنتُ «دعاء» ورحتُ أقرأ آية الكرسيّ والمعوذتين... أدعو الله أن يكون الكابوس من خيال عقلي لا أكثر...

لم يمض كثيرٌ حتى سمعتُ أمّ «رامز» استفاقت لتصلّي الفجر... فقمت أنا أيضًا... دعوت الله أن يتلطّف بها، فهي أمَتُه، لأنّي بداخلي كنت أحسّ أنّ لحيّة اليهود يدًا في الموضوع... لا أدري أيّ سكينة أنزلها الله عليّ بعد صلاتي تلك...

كنت عائدةً لغرفتي حين أتى أخيرًا «رامز»، لم ينظر اتجاهي

حتـى... رمـى نفسـه عـلى الفـراش قريبًـا مـن «دعـاء» التـي كانت نائمـة، واستسـلم لنعاسـه. حمـدت الله أنّ الليلـة التـي أمضاهـا في الخـارج مضـت عـلى خـير، فـكلّ خـوفي كان مـن اليهـود، هـم لا يخشـون اعتقـال مـن يشـاؤون في وضـح النهـار بـلا ذنـب أو سـبب فكيـف في الليـل وأبسـط سـبب يتحججـون بـه أنّـه يهـدّد أمنهـم... لم نعـد نحـس أنّ القـدس نصفـان، فهـم يمرحـون حيثـما أرادوا... بقيـتُ أفكـر، أبنـي كلّ الاحتـمالات ثـم لا تطـول وتُهـدم بعقـلي... حتـى طلعـت الشـمس، ربّـما العـالم كلّـه رأى نور شـمس ذاك اليـوم، إلّا أنـا... ذبلـت الشـمس في عينـي منـذ غياب ابنتـي، والأيّـام مـا عـاد مرورهـا يهمّنـي... أمضيـتُ سـاعات أو ربّـما أيّامًـا حتـى تسـنّى لي معرفـة أنّ مـا كان يحملـه «عـليّ» كانـت تفاحـةً وجدهـا أمـام البـاب... واسـتغرق الأمـر ربـما أيّامًـا أو سـاعات أخـرى حتـى عرفـت «مادلـين» الأمـر فحكـت أنّهـا لمحـت ابنتـي برفقـة شـخصٍ غريـب... كلّ ذلـك كان يكفينـي كـي أعيـد ترتيـب السـيناريو بعقـلي، أمّـا عـن التفاحـة فقـد سـقطت سـهوًا، لا بـأس، ليتـه أخذهـا وتـرك ابنتـي وشـأنها...

تعاقبـت عـليّ مـن يومهـا الكوابيـس، حتـى صرتُ أحـاول عـدم النّـوم متعمّـدةً... «رامـز» الـذي كان منزعجًـا مـن ردّة فعـلي، رؤيتـه لمـا آل إليـه حـالي جعلتـه يعـرف أنّي رغـمًا عنّـي قـد أضعـف وأنّـه ليـس لي أحـدٌ غـيره إن هـو مـالَ ولم أسـتطع أن أسـند نفسي عليـه... أمّـا ذاك الألم الـذي يتوسـط أضلعـي مـع كل انقبـاض بقلبـي مـا عـدتُ أسـتطيع الصـبر عليـه ومـا عُـدتُ أسـتطيع مُعايشـته... الدمـاء التـي صـارت تـتردّد بكوابيـسي تجعلنـي بنظـرِ مـن أسردُ عليـه تفاصيـل الكابـوس يظـنّ أنّي قـد جُنِنـت جـرّاء مـا حصـل...

-٣-

أمّـي، لم تجـن... كانـت فقـط تـرى أختـي بأحلامهـا، ويحـدث أنّهـا تـرى طـرق اليهـود في التعذيـب لا أكثـر... لحـد اليـوم لم أتجرأ وأسـألها هـل تعـرف هـذه التفاصيـل عـن شرائـع اليهـود أم غابـت عنهـا معرفـة ذلـك، لكنّـي أشـك في أمـر معرفتها، مـا كنتُ أسـمعها تُخبر والـدي أو عمّتـي مـن تفاصيـل تراهـا يجعلنـي أفسّر أنّهـا لا تعلـم، لـو أدركَـت أنّ ابنتهـا كانـت قربانًـا لليهـود لوجدتها تجـوب الشـارع تنتقـم مـن كلّ يهـوديّ تجده بطريقهـا وليـس ذلك عنهـا بغريـب وهـي التـي تُكـنّ كلّ هـذا الحقـد لهـم... دائـمًا مـا تقـول أنّـه سـبب حياتهـا التعيسـة، خروجهـا مـن أرضهـا، استشـهاد عائلتهـا، مفارقـة صديقهـا وأخيهـا الـذي لا تصمـت عـن ذكـره، وحتـى وفـاة خالتهـا تقـول أنّ لليهـود يـدًا بالأمـر، فلولاهـم لمـا عاشـوا كلّ تلـك الأيّـام والظـروف التـي سـببت مـرض خالتهـا، ولولاهـم لمـا كان صعبًـا عليهـا معالجتهـا، فكيـف لا تُرجـع اختفـاء ابنتهـا أنّـه عمـلٌ يهـوديّ بحـت... كان أبي دائـمًا مـا يُسـكتها حـين تبـدأ الحديـث في الموضـوع، ويـردّد أنّـه قضـاء وقـدر وكـما شـاء الله حصـل... أمّـي التـي لا أذكـر أنّهـا أمضـت يومًـا واحـدًا دون أن تسـقي خدّهـا بدمعهـا... كيـف سـيكون الحـال لـو صارحتُهـا بـما أعرفـه الآن عقِـبَ هـذه السـنوات...

كانـت تحكـي عـن رؤيتهـا للدمـاء بكوابيسـها، لم يكـذب يومًـا مـن قـال أنّ قلـب الأمّ يحـس، فأنّـى لهـا أن تـأتي بتفاصيـل كتلـك وهـي لا تعـرف أنّهـا واقـع... قالـت ذات مـرّة أنّهـا رأت

أختـي وسـط صنـدوق خشـبي، ظنّتـه تابوتـا وكذلـك أسـمته حـين حكـت تفاصيـل الكابـوس، إنّـما كان مـا يُسـمّى بالبرميـل الإبـري، حيـث يضـع اليهـود ضحاياهـم ويتلـذّذون برؤيتهـم يتعذبـون وهـم يفقـدون دماءهـم قطـرةً بقطـرة... قالـت أمّـي أنّهـا بعـد رؤيتهـا لمـا أسـمته التابـوت رأتـه يضيـق عـلى أختـي وفجـأة تصـير جدرانـه كإبـر التطريـز الكبـيرة... كلّـما علمـتُ الحقيقـة وأسـقطتها عـلى مـا كنـت أسـمع عـن كوابيـس أمّـي كنـت أبكـي بشـدّة، وأبكـي لكَـوني مُلزمـةٌ بـأن أُخفـي الحقيقـة التـي أتعـرّف عليهـا عـن أمّـي... كانـت تسـتفيق خائفـةً مُرتجفـةً طـوال شـهر عقِـب اختفـاء أختـي، تقـول أنّهـم يـرددون تراتيـل مُبهمـة، وأنّهـا تسـمع أصـوات دقّ وضرب... صديقتـي «ريتـا» كانـت مـن وقـف بجانبـي ومـن سـاعدني عـلى الوصـول لمـا وصلـتُ إليـه مـن معلومـات... أذكـر أنّي آخـر مـرّة بحثنـا في الأمـر كنـت عندهـا نـشرب الشـاي ونقـرأ نسـخة عـن «التلمـوذ»، كانـت «ريتا»قـد جمعَـت لي العديـد مـن المعلومـات مـا إن أخبرتهـا أنّي أشـكّ أنّ مـا تـراه والـدتي بمنامهـا ليـس عبثًـا، أخبرتنـي بـأوّل الأمـر أنّهـا سـمعت مـرّة مـن صديـقٍ نفـس الأمـر بالواقـع، ولم تبخـل عـليّ مـن يومهـا بـأيّ معلومـة، رغـم أنّهـا مسـيحيّة لكـنّ أمّـي كانـت تحبهـا هـي ووالدتهـا عـلى حـدٍّ سـواء، حتـى أنّ «مادلـين» بنفسـها تعتبرهـا والـدتي صديقـةً لهـا، تقـول أنّهـا تذكّرهـا بفتـاةٍ مـن ذكرياتهـا بــ «جباليـا»... حافظنـا عـلى أمـر بحثنـا في شريعـة عدوّنـا أمـرًا سريًـا بينـي وبـين «ريتـا»، أذكـر بيومهـا أنّي عـدتُ للبيـت وظللـت أسـتفرغ طيلـة المسـاء ولم آكل شـيئًا إلّا بعـد يومـين، ظنّـت أمّـي وعمّتـي أنّي مريضـة، لكـنّ ذلك

كان عقِب ما تخيّلته بعد معرفتي لحقيقة الدماء التي يعكف على جمعها أولئك اليهود... أكاد لا أصدّق أيّ قلوبٍ خلق الله بجوفهم أم هل جعل بجوفهم من قلبٍ من الأساس؟ أنّى لبشرٍ أن يتلذّذ بتعذيب صبيّ لا يتعدّى السبع سنوات ويجمع دمه ليعجن به فطائر يتناولها ويُهديها لأهله، والأدهى أنّ ذلك لا يفعله منهم إلّا الأتقياء! وبمناسباتٍ بمسمّى الأعياد والاحتفالات، والغريب أنّها احتفالات من قبل التاريخ! أحتار كيف خلقَ الله الرحمن بعباده أناسًا هكذا، وكيف نحن وهُم خُلقنا من نفس الطين... كيف لنا نفس جدّنا «إبراهيم» -عليه السلام؟

بيوم قرأتُ تلك التفاصيل تأكدت من قول والدتي أنّ عدوّنا ليس بإنسيّ... خفت كثيرًا من وطأة الحقيقة على والدتي، وما جعلني أرجّح أنّ ذلك بالفعل ما حدث مع أختي أنّ الأمر تزامن واحتفالهم بعيد 'البوريم' الخاص بهم وحتى وإن تعدّى ذلك العيد، فيعقبه بأسابيع عيد 'الفصح' وهو الذي أرجّح فيه قتل «رغد»، كونَ ضحيّتهم يجب أن تكون صبيًا أو بنتًا من غير ملّتهم ويجب أن يكون لم يتعدّ السبع سنوات بعد... فكّرتُ أنّها عندما استلم بارئُها روحها خفَّت الكوابيس على أمّي، كان قد انتهى بذلك عذابها... ألن يكفيهم أن يحتفلوا بصنع الحلوى بأشكال مقرفة وأسماء أقرف؟ ألم يكفيهم كعك 'آذان هامان' والغناء والتراتيل وقراءة سفر 'أستير'؟ هل كان لزامًا قتل الناس كلّ عام؟ ألم يتجاوزوا الأمر منذ آلاف السنين؟ ألا يزال حقدهم على من أراد إبادتهم قائمًا وقابعًا بقلوبهم حدّ أنّهم لا يزالون ينكّلون–

خيـالًا- بـه حـين يذكـروه بقراءاتهـم؟؟ كلّـما تذكـرتُ الأمـر أكاد أحيُـد عـن عقـلي، أحـس بطعـم الـدم بفمـي، وأصـابُ بغثيـان... ألهـذه الدرجـة أرواحنـا بـلا قيمـة؟ أريـد ألّا أصـدّق كلّ هـذا، لكنّـي لم أجـد أيّ دليـلٍ ضـدّ ذلـك، كلّ مـا وجدتـه كان قصصًـا تؤكـدّ لي الأمـر أكثـر، أغلبهـا حـاول أبنـاء الحيّـة محوهـا مـن قامـوس البـشر، بالطبـع لا يريـدون لأحـد أن يعـرف مـا تُسـوّل لهـم بـه أنفسـهم...

لأجـل هـذا لم أنـسَ يومًـا أختـي «رغـد»، ولا أمّـي نسـيتها رغـم مـرور سـنواتٍ عـلى اختطافهـا... تقـول أمّـي أنّـه أحيانًـا يُكتـب عليـك أن تعيـش تفاصيـل الألم مـع كلّ ذكـرى تسـتعمر عقلـك عندمـا تداهمـك الذكريـات وهـي بالأسـاس لا تأتيـك فـرادى، ينقبـض لإثرهـا قلبـك، تـزداد وتـيرة تنفسـك، تتوتـر فجـأة، رغـم أنّهـا ليسـت إلا ذكـرى... فكيـف كانـت الواقعـة الحقـة! وكيـف كان وقعهـا عليـك...

1986 (22 أغسطس)

صباح الجمعة التي تلت عيد الأضحى المبارك، والذي لم نعد نعيشه كما كنّا منذ سنوات، دُقّ باب البيت... والدتي لا تزال بنوم عميق، صارت لا تكترث للنهوض باكرًا كما تعوّدت، عمّتي «صفيّة» وبناتها الثلاث في زيارة لعمّتي «سعاد»، وشقيقايْ خرجا باكرًا ولا أعلم لأين... أنهض من مكاني وأتوجّه لمعرفة من بالباب.

-مين؟

سألتُ بصوتٍ خافت، كمن يخشى أن يُعرف...

-أنا «حسن» يا بُنيّتي، لقد أتت شابة تسأل عنكم.

رفعتُ حاجبيّ مُندهشة، «من الذي سيسأل عنّا يا ترى؟».

فتحتُ الباب برُويّة بعد أن وضعت غطاءً على رأسي بسرعة، إذْ بي ألمح جارنا ابن بقّال الحيّ، وبجواره صبيّة، يلفّ رأسها شالٌ يغطّي نصف جدائلها الذهبية، بثوبها الأسود الطويل، عريض الأكمام، مُبتسمة المُحيّا إنّما كانت بسمةً خجولة. بادر «حسن» بالكلام:

-السلام عليكم يا ابنتي، هذه الشابة غالبًا أتت باحثةً عن «أم عمر»، وإنّي قد أتيْت لكم بها، تقول أنّها من غزة...

كنتُ أنصت إلى «حسن»، ثم استدرتُ نحو الشابة أمعِن النظر فيها...

-تفضّلي بالدخول أختي، بيصيرِش تبقين برا وانتِ جايّة مِن غزّة لهان... شكرًا أخي «حسن».

أغلقتُ الباب خلفها بعد أن دلفت البيت، كنتُ أنظر نحوها أحاول تذكّر أيّ تفصيلٍ لربّما أعرفه عنها، لكنّي لم أجد بجعبتي شيئًا يخصّ أيّ فتاة من 'غزّة'... أشرتُ لها لتتقدّم داخل الصّالة فدخلَت على خجل وجلست بحافة الكنبة المفروشة...

أتت أمّي بعد أن أفاقت على صوتِ حديثي مع «حسن» على الباب، دخلَت الصالة هي الأخرى واستقرّ نظرها على الفتاة، يتراءى لها أنّها ليست بإنسانة غريبة عنها، نظرتها كانت تُفشي ذلك، وأنّ ملامحها ليست جديدة عن ناظرها وكأنّها مخطوطةٌ قديمة من ثنايا الذاكرة، تُحاول التركيز في رؤيتها عليها... وقفَت الفتاة وتقدّمت منها مُسلّمة عليها فانتبهت لحالها والدتي وتداركَت الوضع:

-أهلا يا ابنتي، كيف حالك وكيف حال أهلك؟

كما لم تجد غير هذه الكلمات لتبدأ حديثها مع الفتاة، في حين قمتُ لأعدّ الشاي وبقيتُ على إنصات لما يحدث.

-بخير الحمد لله...

-تفضّلي بالجلوس... أهلًا وسهلًا...

-شكرًا... في الحقيقة، أنا كنت أبحث عن «غادة ناصر العزّام» لكنّ الشيخ صاحب البقالة لم يعرفها، أخبرته أنّها كانت تسكن القطاع فيما مضى فقال ولده أنّه عرفها ودلّني على بيتكم، لستُ متأكدةً من قوله وخشيتُ أن أزعج أناسًا

غير من أبحث عنهم إنّما ارتأيتُ أن لعلّه على حق... وآمل ذلك...

-وصلتِ يا بُنيتي... الحقيقة أنّ أغلبهم هنا ينادونني «أمّ عُمر» وقليلون يعرفونني باسم «غادة» ولا يعرفون كِنيتي، لذلك جهلُه لاسمي الكامل شيء عادي.

ابتهج وجه الصبيّة فجأة لكلمات والدتي، حتى صوتها تغيّر عن الفرحة:

-أنتِ هي؟!

-نعم...

- فعلًا!!

ابتسمت والدتي جاهلةً سببَ سعادة الفتاة ومباغتة الدهشة عينيها العسليتين، قامت من مكانها بحركة لا إرادية وقبّلت يديْ أمّي، التي لم يكن منها إلّا اندهاشٌ طُبع على مُحيّاها، على غراري أنا التي قدِمتُ بحينها أحمل صينيّة الشاي ووقفت لا أعِ ما يحدث، حتى قالت الفتاة:

-أنا «رهف» يا خالة... «رهف» ابنة «أدهم ياسر»!

بلحظة مرّ على عقل أمّي شريطٌ طويلٌ من ذكريات المخيّم، رأيتُ عينيها وقد تزاحمَت بها الأحداث كفيلمٍ يُعرض في ثوان، ثغرها عن الدهشة ظلّ مفتوحًا طيلة مرورٍ ذاك الشريط المُفعم بالذكريات.

-«أدهم»!! «أدهم» أخوي؟!

والفتاة جالسة أمامها مُمسكةً يديها حرّكت رأسها أن نعم، باغتت أمّي الدموع وأخذت الفتاة بين ذراعيها واحتضنتها

باكيـة... ظللـتُ شـاردةً في ذلـك المشـهد، دمـوعُ والـدتي هـذه لا أعرفهـا، لم يحصـل لي أن تشرّفـت مـن قبـل بمعرفتهـا وهـي التـي غابـت عنهـا السـعادة طيلـة عمـري وربّـما أكثـر، وجـدتُ نفسي أمسـح دمعـةً ترقرقـت مـن عينـي لسـعادتي أنّي أخـيرًا رأيـت أمّـي بحالـة سـعادةٍ لا تقـدّر... اسـتدارت نحـوي تناديـني:

-يـا «دعـاء»... هـذه «رهـف» يـا ابنتـي... «رهـف» ابنـة «أدهـم»!

أنـا التـي لم أر بحيـاتي «أدهـم»، الـذي رغـم ذلـك اعتـبره خـالًا لي لم أحـظَ بـشرف ملاقاتـه، مـن كثـرة حديـث والـدتي عنـه، رسـمتُ لـه شـكلاً بخيـالي، تشـكّل مـن الأوصـاف التـي كانـت تقولهـا لي أمّـي، كان شـكلًا غـير مُكتمـل المعـالم، ورُؤيتـي لابنتـه جعـل الوصـف يكتمـل بخيـالي... أحببـتُ شـخصيّته كثـيرًا وتمنيـتُ مقابلتـه، كنـتُ أظـنّ أنّ كلامَ والـدتي بأنّـه لا يـزالُ حيًـا يُـرزق مجـرد وهـم أنشـأه خيالهـا وشـاءت هـي أن تُصدّقـه، فأغلـب الظـنّ أنّـه تـوفيَ بعـد التحاقـه بالمقاومـة، فلـم يُسـمع عنـه أيّ خـبر منـذ ذلـك الحـين... إلّا أنّ القـدر سـاق لنـا ابنتـه لأقابلهـا وأمّـي حقيقـةً، أيّ قـدرٍ هـذا... خالجنـي شـعورٌ غريـبٌ لبرهـة، هـذه التـي بحضـنِ أمّـي الآن تُعتـبر بمثابـة ابنـة من قَاسَـمَ أمّـي طفولتَهـا، تُعتـبر ابنـة خـالي الـذي ظننـت أنّي لَـن أراه أبـدًا غـير مـن خِـلال عبـارات والـدتي وقصصهـا عنـه... هـذه ابنـة خـالي... وأسرعـتُ نحوهـا كذلـك قبلّتهـا وضممتهـا وأنـا أردّد: «أهـلًا بـكِ يـا ابنـة خـالي».

مـن قـال أنّ السـعادة لا تفاجئنـا أحيانًـا؟ بـلى تفعـل... والأصحّ أنّهـا تغيـب عنّـا طويـلًا حتـى نحـسّ بقيمتهـا أكثـر، حتـى إن هـي

قـررّت القـدوم مُباغتـةً نسـتقبلها بأحسـن ممّـا يكـون مُتوقعًـا منّـا أن نفعـل... وأتتنـا السـعادة تـدقّ بابنـا عـلى شـكل صبيّـة اسـمها «رهـف»... حلّـت علينـا كشربـةِ مـاء في صحـراء قاحلـة، أو تلك كانـت رؤيتـي لأمـر قدومهـا... أن تكـون عاجـزًا طويـلًا أمـام سرقـةِ رُبـع فرحـةٍ لتهبهـا لمبسـم والدتـك شيء يقصـم الظهـر، وذاك حـالي... فمنـذ اختطـاف أَختـي «رغـد»، باتـت الدمـوع صديقـة أمّـي... والـدي الـذي لم يتحمّـل كلّ ذلـك، صـبر عامًـا ونصـف العـام، ومـع أوّل خـذلان عشـناه مـن العـرب باتفاقيّـة 'كامـب دايفـد 1978' ضـاق ذرعًـا وانضـمّ للمقاومـة، كان يـرى في اليهـود مـا تـراه والـدتي وأكثـر، فـإن كان اليهـود سـلبوا سـعادتها وتفاصيـل أيّامهـا، فهـم بالنسـبة لوالـدي سـلبوا منـه عمـره وزوجتـه التـي أفنـى شـبابه مُحـاولًا تعويضهـا عـمّا خلّفـوه مـن نـدوبٍ بقلبهـا، غـابَ وهـي راضيـة عنـه كلّ الرضـا، وحـين سـألتُها ذات مـرّة قالـت أنّهـا يكفيهـا أنّـه ودّعهـا، عـلى عكـس مـن غابـوا عنهـا مـن قبـل بحياتهـا، ويُرضيهـا أن يقـف بوجـه العـدوّ ويُشـعرها بالفخـر لـو كانـت زوجـة شـهيدٍ تُلاقيـه عنـد بـاب الفـردوس الأعـلى، بيومهـا أذكـر أنّ عيـوني قـد دمعَـت، فقـد كنـت غـير راضيـة بالفكـرة لكـنّ كلـمات والـدتي غـيّرت نظـرتي للأمـر، سـألها شـقيقاي بيومهـا إن كانـت ستسـمح لهـما بالانضـمام للمقاومـة ذات يـومٍ أيضًـا ولم ترفـض، أخبرَتنـا أنّهـا سـتفخر بذلـك إن وقـف باسـلٌ مـن ولديْهـا بوجـه أولاد صهيـون أو لـو رمـى وأصـاب أحـد أولئـك الجـرذان المختبئـين خلـف خوذاتهـم منّـا، وذلـك الحجـر الـذي سـيُقذف دفاعًـا عـن أرضنـا مُبـاركٌ حيثـما كان مـا دام لامـس يـد شـجاع منّـا... أمّـي ضاقـت

ذرعًا بأعمال اليهود، فصار همّها لو أنجبت لي عشرة إخوة وأرسلتهم جميعًا يحاربون... يوم تركَنا والدي كنّا مع جدّتي وعمّي «محمّد» وزوجته وأبنائه وعمّتي «صفيّة» وأولادها، أمّا عمّي «فارس» فلم نكن نعلم بسرّ مساعدته للمقاومة والإمدادات وحتى عمليّات التجسس بالقدس الغربية، حتى اختفائه مدّة يومين وباليوم التالي أحاط اليهود ببيتنا ودخلوه يفتشون عنه، لا أنسى أبدًا صفعةً من يد أحدهم لجدّتي حين سألها عن مكان عمّي ونفيت معرفتها بأيّ أمرٍ يخصّه، ولا وقفة أمّي وصراخها بوجهه وما استغربتُه حينها أنّي اكتشفت أنّ أمّي تجيد العبريّة وأنا التي ظننتُ أنّنا وحدنا أبناؤها من نفعل جرّاء تحريضها الدّائم لنا بتعلّمها، لم يكن بيومها رجلٌ بالبيت لكنّ وقفة أمّي كانت وقفة رجالٍ جعلتهم لا يتورّطون بنا أكثر، كذب من نسبَ القوّة لسلاح أنت حامله، فهم برغم أسلحتهم يخافوننا والخوف بأفئدتهم يكبر يومًا عن يومٍ أكثر، يعلمون أنّ من استطاع الصبر بكلّ هذه الظروف قادرٌ على أن يُبيد أصلهم لو شاء، جاهلين أنّهم بكلّ ممارساتهم يُحرّضون الجيل القادم على التحمّل أكثر فأكثر... من يومها لم نسمع خبرًا عن عمّي الأصغر، أمّا جدّتي فقد تعرّض لها قُطّاع طرق بالأيّام التي تلت تلك الحادثة ولم تكن قويّة بما يكفي لتتخطّى صدمة الواقعة فتُوفيت، ولم تمض بعدها سنوات ورحل عمّي «محمّد» وعائلته نحو لبنان، آثر العيش متحرّرًا من ذلّ اليهود، لم يكن ليتقبّل أكثر من هزيمة واحدة، كان يكفيه أنّ أرضه اغتصبتها الذئاب البشرية، وما كان ليهُون عليه أن يرى ذلك ويتعايش مع الوضع فترك الأرض لمن

نهبها لعلّه يعود لها ذات معجزة إلهيّة. راسلني أولاده طيلة الخمس سنوات الماضية وردّدوا كثيرًا دعوتنا للحاق بهم، لكنّ أمّي وعمّتي رفضتا الأمر برمّته. عمّتي التي زوّجتني منذ سنة لابنها «عادل» قالت أنّ الهموم نالت منّا كثيرًا وأنّنا ذرفنا ما يكفينا من الدموع وقد آن لهذا البيت أن تحلّ فيه مناسبة سعيدة عقب كلّ تلك الفجائع، لم ترفض أمّي الأمر بل وافقت على الفور، وأوّل ما همسَت لي به كان أنّها مُتأكدة أنّ والدي لو كان هنا ما كان سيطيل التفكير كذلك، استصعبتُ الأمر كَوني لم أكن أرى ابن عمّتي سوى بمثابة أخ لي عشتُ طفولتي معه، ثم ما لبثتُ أن تقبّلتُ الأمر. أذكر بليلة زفافي حين قالت لي والدتي كلماتٍ حفرتُها بعقلي، ولا أشكّ أنّ كلّ فلسطينيّة تجول هذه الجملة بعقلها أيضًا: «لا تهتمّي يا بُنيّة لكثرة من فارقتِ بسبب عدوّك، ولا بالخراب الذي خلّفوه بكلّ زاوية بوطنك، وفكرّي كم من شهيدٍ ستنجبين وكم من مناضلٍ سينتقم لك ولوطنك شرّ انتقام». ولم يكن زواجي بـ «عادل» الأمر الوحيد الذي أدخل البهجة لهذا البيت بل تخرّج «عُمرؤ بنفس السنة أيضًا... إنّما كانت أيّامًا ومضت، والفرح بقاموس والدتي ضيفها الذي تتشرّف به، تبتهج لقدومه لكنّها سرعان ما تملّ منه لكونها غير معتادة عليه فلا هو يُطيل إقامته عندها ولا هي ترغب به طويلًا، فمن يرد السعادة يبحث عنها ولو كانت بحجم خُرم إبرة يحاول عيشها بتفاصيلها، ومن لا يريدها ولو كان كلّ ما حوله يدعم سعادته لن يهتم بها. المعضلة تكمن أنّ غيرَ المتعودِ على الفرحة يرى أنّها أمرٌ مستحيل، وأحيانًا حتى،

يربط سعاداته بأحزانه التي تزوره بعدها، فيصير يخاف أن يسعد لأنّه يؤمن أنّ خلف السعادة حزنٌ أعظم، ربّما الأمر فعليًا كذلك، لكنّي أرى أنّ كلّ شيء متعاقبٌ بهذه الحياة فمن البديهيّ أن يعقب الفرحَ حزنٌ والحزنُ بدوره سيتلوه فرح، ليس ضروريًا أن نربط أحزاننا بأفراح سبقتها وهو بإمكاننا ربطها بالأفراح التي ستجتاحُ سماءنا بعدها وتُغيث أرضنا بهجةً وسرورًا...

أرى هِبة الله لوالدتي زيارةَ «رهف» المفاجئة، جلسنا نتحدّث طويلًا، ورأيتُ أخيرًا صورة والدتي التي اشتقتُ لها منذ تسع سنوات تعودُ وهي في حديثها، حتى أنّ الشّاي زادت حلاوته بحلاوة الحديث آنذاك... ظللت مُبتسمة أتدخّل ببعض كلمات فقط وأنصت كما لو أنّي أشاهد أحد الأفلام المصرية البيضاء والسوداء لكنّ هذه ملوّنة وواقعية بالفعل...

-كِيفك يا بنتي؟ كيف أبوكِ؟ سِتّك «سُها» كيفها؟ «أم ياسر» و «أبو ياسر»؟

-الحمد لله بخير... بتسلّم عليكِ سِتِّي، عتبانة عليكِ كتير...

-آه... معاها حق... من يوم ما اجيت لهان ما رحت عندهم ولو زيارة... رغم إنّي وعدتهم... الله يسامحني ما وفّيت بوعدي.

-ما يمكن بالأساس أنا اجيت عشان خليكِ توفي بوعدك!

نظرت لها أمّي باستغراب، ثم أجابت:

-ولـك يـا بنتـي، أحيانًـا نقطـع وعـودًا نحسـبُ أنّنـا قـادرون عـلى الوفـاء بهـا، فالظـروف كلّهـا بوقتهـا تؤيّـد تحقيقـكِ لوعـدكِ، لكـن عندمـا يكـون الوعـد طويـل الأمـد، تتغـيّر الظـروف وغالبًـا لا تصبـح لصالحنـا، فبذلـك لا نكـون أوفيـاء لوعدنـا حتـى لـو تعوّدنـا الوفـاء ومـا قطعناهـا إلّا لثبَـاتِ وفاءِنـا... هسـة خبرينـي... وينكـم؟

وضعـت فنجـان الشّـاي الـذي كان بيدهـا، كأنّـما تسـتعد لـسرد أحـداث طويلـة الأمـد، نظـرت نحـوي لتسـتعيد انتباهـي لهـا، ثـم نحـو خالتـي...

-هـدول أولاد الحيّـة... مـا خلُّونـا نعِيـش بأَرضنَـا، ولا خلُّونَـا نهـرَب بعِيـد...

أتمّـت في حـين كانـت إجابـة والـدتي صمـتٌ مُلِـمٌّ بملامـح وجههـا تدعوهـا كـي تُتابـع الحديـث.

-هـو صحيـح الـلي لازم بالأصـل أنّنـا نضـل ونحـارب، ونحـاول اسـتئصال هـذا الوبـاء الـذي حـلّ بنـا وبأيّامنـا... لكنّنـا في الواقـع قـد أُرهِقنـا داخليًـا... وأخشـى أن نكـون قـد وصلنـا لحيـث أرادنـا اليهـود أن نصـل...

لم أستوعب ما كانت تريدُ التلميح إليه، فتدخّلت:

-كيف يعني يا أختي؟ ما فهمت...

-راح تفهمـي... أكيـد الوضـع عندكـم هـان يختلـف عـن وضعنـا... المهـم... لسـاتنا يـا عمّتـي بالمـ...

-عيديها يا بنتي، عيديها خلّيني اسمعها مرّة كمان...

-تقصدين 'عمتي'؟

-آآه... يـا «دعـاء» سـمعتيها؟ كنـت أظـنّ أني سـأموت ولـن أسـمع يومًـا هـذه الكلمـة فعليًـا...

ابتسمنا جميعًا ثم أكملت «رهف» كلامها:

-نحنا بالمخيّم يا عمتي، لساتنا بجباليا...

ضربـت أمّـي كفيهـا حسـرةً وهـي تُتمتـم أنّنـا لـن نسـتقلّ مـا دمنـا نؤمـن ببقائنـا بمخيّماتنـا واليهـود يعاملوننـا كألعـاب بـين أيديهـم.

-كـمان هـاي هـي وجهـة نظـري... إيـش د احكيلـك... والله ومـن يـوم مـا بلّشُـو يِبْنُـوا هالخيـم ويصـيروا منـازل، بلّشـنا نفقـد الأمـل بالرجعـة...

-يعني الخِيم هسة صارت بيوت؟

-آه... كنـت دايـما بظـن أنّـو بـما أنّـو كلياتنـا عايشـين بهـاي الظـروف أكيـد راح يجي يـوم ونرجـع، بـس لّمـا البعـض منّـا فقـد الأمـل، أكيـد كلّنـا راح نلحقـوا ونسـوّي متلـو، وبالفعـل هيـك صـار...

-كيف صار حالهم... الناس كيف؟ عم أحاول أتخيّلها...

-كلّ واحـد حـوّط نتفـة الأرض حـول خيمتـو وعملهـا دار اسبسـت بعديـن صـار يعمّرهـا باطـون بـس لسـة برضـو البيـوت لـزق ببعضهـا ولسـة كأننـا دار وحـدة ومـا في شي مخبـى فيهـا...

-طيّب وأنتو؟ وأبوكِ؟

-كان جـدّي «أبـو يـاسر» الله يرحمـو رافضًـا للفكرة بالأسـاس، خصوصًـا لكَـونِ والـدتي هـي التـي بـادرت بالفكـرة... لا أعلـم لَمـاذا لم يحبّهـا بيـوم...

-«أبو ياسر» اتوفى؟! لا حول ولا قوّة إلّا بالله... متى؟

-من شي خمس سنين... كان يتذكّركِ حتى في آخر أيّامه تصدقي؟

خفضَت أمّي رأسها، علمتُ ما بها، لكنّي تركتها تستذكر تفاصيل حياةٍ جمعتها بالشيخ «أبو ياسر»، سترفرف على وجنتها دمعةٌ كان من المفترض أن تُذرف قبل خمس سنوات، لكنّ أمّي شاءت البُعد، وها هي بينها وبين نفسها تتقلّب مُعاتبةً لنفسها للبُعد الذي تعمّدته... صمتت «رهف» مُحترمةً لردّة فعل والدتي وحزنها على من اعتبرته بمثابة جدّها... نظرت نحوي أمّي ثم قالت مُستذكرةً تفاصيله التي أعرفها عن حكاياتها، مُبتسمةً للذكريات والدّمعة على خدّها مواجهةً للأمر:

-أتعلمين يا «دُعاء»، كنت أنا و«أدهم» سواء بالنسبة له، كلانا كنّا حفيده المُدلّل... صحيح أنّه كان دائمَ التذمّر على وضعنا، لكنّه كان أيضًا دائم الابتسامة معنا... لم يمض يوم لم أسمعه يلعن الاحتلال... هه، كان يُمضي ساعات يُحدّث ذاك المفتاح المُعلّق برقبته... بربّكِ يا «رهف» هل ضلّ معلّقًا برقبته؟

-نعم... حتى مماته.

-هه... تُصدّقين؟ هي مرّة واحدةٌ انتزعه فيها، كانت عند ذهاب والدك... كان يهمّ برميه، لكنّنا منعناه... كان كلّ صباح يسير بالمخيّم يُلقي التحيّة على جميع من يُلاقيهم، يُعطي حبّات السكاكر للأطفال هنا وهناك، يستقرّ بمكانه المعتاد على رأسه كوفيته، حاملًا بيده أيّ شيء يلهو به وهو

ينشد قصائد قديمة يرتفع بها صوته، ويُدخل بين القصيدة والأخرى عباراتٍ يشتم فيها الاحتلال.... الله يرحمك يا «أبو ياسر»... الله يرحمك...

ردّدنا آمين خلفها وكلتانا كانت الدموع أقوى منها، وبعد صمت والدتي الطويل انتبهت لتكمل حديثها مع ضيفتنا:

-المهم يا بنتي... «أم ياسر» كيفها؟

-الحمد لله بخير، لولا أنّي أشكّ أنّها خرِفَت...

-حقًا؟ لا بأس... أساسًا قد نال منها العمر ما نال...

-أمّي هل هي كبيرة؟

-ييي كتيــــــــر... وقت لي كنت بجباليا كانت عجوز فكيف هسة بعد سبعة وعشرين سنة؟

-ما شاء الله!

-عم تعدّي يا عمتي من كام سنة انتِ هان؟

-وكيف لا أحسب... يا بنتي هذه الأعوام لكثرتها صرت أحسبُها على عدّاد العقود لا السنوات...

-تشتاقين للعودة؟

-أكيد... بس يا حيف... ما عاد ينفع الرجعة.

-بتصدقي؟ نفس الجواب الذي توقعتهُ منكِ جدّتي... عندما أُرسلتُ إليكِ قلتُ أنّي سأحثّكِ على العودة، وكانت هي الوحيدة التي قالت أنّك ستتمنّين ذلك لكنّكِ لن ترجعي...

-يمكن هي الوحيدة لي عارفتني صح.

-يعني أبي مش عارفك؟

صمتت أمّي حتى ظننتُ أنّها لن تُجيب... سمعت حينها باب البيت عندما فُتح وأُغلق... وبعد تنهيدة طويلة قالت هامسةً:

-حتى هو أكيد عارف جوابي، بس عم يحاول بلا فائدة... آه صحيح، كيف حاله؟

ما كادت تنطق «رهف» حتى دخل «عُمر» غير مُنتبه لوجود ضيفةٍ بيننا مُبتدئًا كلامه وتعبيره عن انزعاجه فورَ إلقائه السلّام علينا ورميه بضع أوراق على مقربةٍ منّي، رفع رأسه وتفاجأ بوجود فتاةٍ لم يسبق له أن رآها نظر نحو والدتي مُندهشًا ثمّ نحوي وبإشارةٍ بيده كان يتساءل عمّن هذه؟

-اجلس يا بُنيّ... سأعرّفك على ابنة خالك.

-ابنة خالي؟ من وين عندي خال؟؟

-تقصد خالنا «أدهم» يا «عُمر»... أسكبلك شاي؟

-نعم من فضلك ربّما يساعدني في فهم القصّة... أيّ «أدهم» يا أمّي؟

-كأنّما لم تسمع يومًا قصص أمّي عن جباليا والخالة «سُها» و«أدهم»... «عُمر» ما بك؟

والأصح كان أنّ تركيزه لم يكن معنا، كان مع مشاكل عدم إيجاده لوظيفة تليق به بحسبه، ورؤيته لجمالٍ لا يُشبه جمال بنات الضفة زاد من بعثرة أفكاره... حين انتبه لنا حاول تدارك الأمر وأسرع بالتهرّب من الحديث مُتحجّجًا بذهابه عند البقال، رغم أنّه لم يُناصف بعد فنجان الشاي... وما

كاد يخرج حتى سمعت زوجي دلف البيت مع والدته وأخواته... قمتُ للترحيب بهم وإعلامهم بوجود ضيفة عندنا... فدخلت عمّتي بسرعة مُرحبّةً:

-أهلًا بك... أهلًا بأهل غزّة وناسها... كيفك يا بنتي إن شاء الله بخير؟ كيف أهلك؟ كيف جيرانكم، بيتكم...

-عمتي! شويّ شويّ على البنت...

عمّتي لم تكن سريعة الكلام شحيحة الصبر مع من تُحدّثه، إنّما اكتسبت ذلك بالأعوام القليلة الماضية، ربّما كان ذلك أحد أنواع الحزن تُمارسه هي بإتقان... جلست أمام البنت تسألها عن أحوالها ثم ما لبثت أن سألتها كم من الوقت هي عازمة على البقاء عندنا...

-صراحةً لستُ أودّ أن أُطيل، لكنّي سأبقى ما شاءت لي عمتي «غادة».

واستدارت مُبتسمةً نحو أمّي... لم أفهم جوابها أو بالأصح هناك فقط تساءلت عن سبب زيارتها لنا وسبب عدم معرفتها مدّة بقائها والأهمّ لماذا تترك ذلك قرارًا على أمّي اتخاذه.

أيقظتني عمتي من شرودي حين أمرتني بتجهيز فراش لها كي تستريح من سفرها، هممت بالذهاب ثم توقّفت لأسألها إن كانت تريد أن أجهّز لها بغرفة الفتيات (بنات عمّتي) أم لوحدها، فبعد ذهاب عمّي صار لدينا فائضٌ في الغرف، ووجدتُ أنّي وضعت الفتاة في حيرة أشدّ منّي، حتى فصلَت أمّي وقالت أنّ بقاءها مع الفتيات سيكون أحسن

حتـى تتبـادل معهـنّ أطـراف الحديـث أكثـر خصوصًـا بسـهرات الليـل.

جهّـزتُ لهـا فراشًـا، وقمـتُ وإيّاهـا بجولـة في البيـت أريهـا إيّـاه، ثـم بعـد الغـداء نامـت لترتـاح مـن عنـاء سـفرها...

في المسـاء عقِـب العشـاء التففنـا جميعنـا حـول «رهـف» نسـمع حكاياتهـا عـن الأوضـاع في غـزة وبالتحديـد في 'جباليـا'، وهنـاك بـدأت سرد قصّـة والدهـا...

-أمّـا والـدي، فقـد ذهـب باليـوم الـذي ذهـب فيـه مـن المخيّـم قاصـدًا أن يُجنّـد في صفـوف المقاومـة ضـدّ صهيـون، وكان ذلـك بالفعـل، أمّـا أغلـب التفاصيـل عـن تلـك الأيّـام فقـد حافـظ عليهـا كأسرار حـرب والإفشـاء بهـا لأيّ كان يُعـدّ خيانـةً وخذلانًا لنفسـه قبـل الوطـن، بوقتهـا كنـتِ يـا عمتـي بحسـب مـا عرفـت لسـاتك بجباليـا؟

-آه... حتـى سـنة التسـعة وخمسـين اجيـت عالضفـة لأجـل عـلاج خالتـي التـي شِـئتُ العـودة معهـا وشـاء الله بليلـة عودتِنـا تغيـير قدرنـا وكلّ مخططـاتي...

-أخبرتنـي ستّي أنّهـا كانـت تراسـلكِ بوقتهـا ولغايـة انقطـاع أخبـارك.

-بالفعـل... أذكـر آخـر رسـالة أرسـلتُها لهـا قبـل وفـاة خالتـي «أم أحمـد»، بالليلـة التـي عزمـت المُـضيّ مـا إن تُـشرق الشـمس، أخبرتهـا أنّي عائـدة... وبعدهـا لا أذكـر كـم مـن رسـالة شـاءها الله أن تُرسـل...

قامـت «رهـف» مـن مكانهـا واتجهـت نحـو حقيبتهـا، بعثـرت

منها كومة أوراق، بحثت ثم قفلت عادةً نحونا تحمل بيدها ثلاث رسائل:

-هدول آخر ثلاث رسائل كتبتيهم لستّي...

لمعت عينا والدتي، مدّت يديها وأمسكَت بالرسائل وصارت يدها ترتجف، فتحت الظرف الأوّل وبدأت قراءتها لنا:

«إلى خالتي «سُها»...

صباح الخير أو مساء الخير، بعرفش إيمت راح توصلك الرسالة... كلّي أملٌ أنّكم بخير، بلّغي سلامي للجميع، من أوّل خيمة لآخر وحدة بالمخيّم... باكتبلك بفرحة، عشان دأخبرك أنو خالتي الحمد لله طلعت من المستشفى، الطبيب عرضَ عليّ أن تبقى أكثر لكنّ شوقي إليكم صار كالطفل يكبر يومًا بعد يوم، وأعلمُ أنّ حال خالتي مثل حالي وأكثر، خصوصًا أنّ وضعها بات أحسن، غدًا صباحًا سنباشر طريقنا بالعودة، وأعلم أنّ الرسالة ستصل قبلنا بأيّام، إلى ذلك الحين كونوا بخير لأجلي... هل تُصدّقين؟ فقط فكرة أنّ لا شيء يفصلني عنكم سوى مسافة الطريق تجعل قلبي يخفق بشدّة... بودّي لو أيّ شيء يُسرع الزمن وألاقيكم عن قريب... لم تُخبريني بآخر رسالة لكِ، أليس هناك جديد فيما يخصّ «أدهم»؟ آمل أن يستجدّ أيّ أمر قبل وصولي غزة...

الضفّة الغربية 28 كانون الأوّل 1959»

أتمّت قراءتها بنبرة صوتٍ اختلفت كثيرًا عن البداية... لكنّ الابتسامة ظلّت هي نفسها، ابتسامة استذكار أحداث عاشت قابعة بزوايا الذاكرة ولا تزال... ثمّ علّقت:

-ولم يكتب الله لي العودة بعدها...

فتحت ثاني ظرف، وراحت تُبعثر حروف ثاني الرسائل قراءةً.

-«خالتي «سُها»، أمّا بعد...

فإن كان الله قد رضيَ لي هذا القدر فقد رضيتُ به كذلك، وإن كان هذا ما خُطَّ عنّي بصحف الله يوم خلقَ الخلق، لعلّ رضاي عمّا هو مُقدّرٌ لي سيكون شفيعًا لي عنده... لست أدري أيّ ردّة فعلٍ ستُبدين، وآسفة أن أكون أنا من يُعلِمك هذا النبأ، فلو كان لي من مهربٍ لما كنت أعلمتكِ الأمر أبدًا... لكنّه وقبل كلّ شيء أمر الله ولله ما أعطى ولله ما أخذ... خالتي صارت لجوار ربّها، وإنّي كلّي أملٌ أن تكون برفقة أهلنا، قد اشتاقت لهم، واشتاقت لها المنيّة... ألم أخبركِ أنّها قد شُفيت تمامًا؟ كان ذاك هو الحال فعلًا، وكأنّ الموت كان يلعب معنا ويختبئ خلف الأيّام السعيدة، لم يتسنّ لها حتى توديعكم، وعزائي أنّها لم تختطفها المنيّة ونحن بطريق العودة... حتى الطبيب احتار للأمر وتفاجأ للواقعة، وكان خير طبيبٍ وخير إنسان هنا لي في الغربة... أمّا سؤالك الذي يجول بعقلك حاليًا لماذا لم آتِ بها، فهنا أقرب لها إلى 'الخليل' وإلى 'القُبَيْبة'، وأنّى لي أحمل جثتها وأجول بها بين الطرق إلى غاية غزّة واليهود بكلّ شبر ينصبون سدًا، أدنى ما أخشاه أن يسلبوني إيّاها أيضًا وليس ذلك ببعيد عنهم ولا غريب... دموعي يا خالتي لم تعد تكفيني... ولم أتحمّل فكرة العودة وحيدة، هممت البارحة بالمجيء، لكنّي خفت من تفاصيل الطريق تُذكّرني بها، خفت الوصول وأذكر أيّامنا

هناك، وخفت البقاء... وحتى «أدهم» لا يُعرف عنه شيء... أيُرضيكِ أن أعيش كلّ هذه الدوّامة؟ ليسَت لي من طاقة لأخوضها... آمل أن أستطيع بيوم ما نسيان كلّ هذه الأمور والعودة حيث أعلم أنّ أحدًا ما ينتظرني، فإنّي على يقينٍ أنّي اليوم بتُّ وحيدة بهذه الدنيّا وكأنّها تنبُذني... سأرسل لكِ ما إن استطعت... كونوا بخير واعتصموا بالله، فالحكم حكمه ولا ردّ لقضائه»...

الضفّة الغربية، 06 يناير 1960»

أتمّت كلماتها، رفعت عينيها اللّامعتين وإذا بها تلمحنا جميعًا نُكفكف دموعنا ونمسح عن جفوننا عبراتنا... ابتسمت وحمدت الله... وهمّت تقرأ ثالث رسالة لولا أنّ «رهف» استوقفتها:

-عمتي، ألم تكتفِ؟ نحن بالكاد اكتفينا من كميّة الألم التي تجرّعناها من كلماتِك وأتساءل كيف كان وقعُ عيشها لمن خطّها على ورق! لو كنتُ أعرف ما خُطّ بالرسائل لما أوصلت الأمانة ولخُنتها ولما تأسّفت على ذلك...

-حسنًا... رغم أنّي بودّي أن أجمع كلّ ذكرياتي مرّة واحدة وتدمع عيني دمعةً واحدة ولا تدمع مرّاتٍ متفرقة عن أمرٍ مضى ورحل... لكن لا بأس... نخلّيها لبُكرة إن شاء الله... صحيح يا بنتي، كم من المدّة تعزمين البقاء؟

-المدّة ليس بالعدد يا عمتي... هي أمانةٌ لو بلّغتها يحين وقت عودتي.

-حسنًا، سأسعى أن يطول الزمن إذن!

ضحكنا لـردّ أمّـي، ثـم افترقنـا كلّ لغرفتـه وظلّـت «رهـف» مـع بنـات عمّتـي الثـلاث، «هيفـاء»، «عُـلا»، و«نـدى» تبيـت الليلـة معهـنّ.

صباحًـا وككلّ يـوم، أيقظـتُ «عـادل» وعمّتـي وجهّـزت الفطـور، وبعـد ذهـاب «عـادل» لعملـه يحـين دور البنـات وشـقيقيّ وأمّـي التـي تفطـر معنـا وتعـود للبقـاء بمفردهـا وتنـام بعـد تفكـير طويـل أو قصـير الأمـد.

جلسـتُ معهـم إلى مائـدة الفطـور وقـد تعـوّدتُ أن يكـون فطـوري مُجـزءًا نصفـين كـيْ يتسـنّى لي الحديـث معهـم جميعًـا، لمحـتُ عيـون أخـي «عُمـر» تائهـة بضيفتنـا طويـلًا، لوهلـةٍ وأنـا أنظـر نحـوه شـعرتُ أنّـه هائـمٌ كأنّـما يقـرأ قصيـدةً غزليّـة، تركتـه طويـلًا عـلى ذاك الحـال، ولم تنتبـه لـه «رهـف» لشـدّة خجلهـا...

-«عُمر»... أين أنت؟ لم تُشاركنا الحديث...

أفـاق مـن شروده، اسـتدار نحـوي فاهمًـا القصـد مـن كلـماتي، ابتسـم نصـف ابتسـامة وراح يحكـي عـن أحـد الجـيران، لم يجـد سـبيلًا أنفـع مـن بـدء حديـثٍ مع بنـات عمّتـي اللـواتي أشـدّ مـا يجـذب انتباههـنّ هـو أن يكـون حـول أحـدٍ مـا، فصـار الجميـع يخـوض في الحكايـة، بينـما ظـلّ عقـلي مُثبتًـا عـلى مـا لمحَـت عينـي قبـل قليـل.

كلٌ انشـغل بعملـه، ناديـت «عُمـر» أعطيـه لائحـة مـا نحتاجـه مـن مشـتريات، مُنتجاتنـا في تناقـص مسـتمر، ومنتجـات اليهـود تكتسـح الأسـواق عـلى نطـاق واسـع، كلّنـا مـع مقاطعتهـا حتـى يفهـم اليهـود أنّ تركنـا لنعيـش بأرضنـا ونُنتـج من خيراتهـا أحسـن مـن أن تُنتـج هـي وتبيعنـا خـير بلادنـا... هـمّ بالمغـادرة حـين

أمسكته من يده، دنَوتُ منه وهمستُ ساخرةً مُستهزئة:

-ماذا هناك؟

-حول ماذا؟

-ضيفتنا «رهف»...

-لا شيء...

-عيونكَ كادت تُمسك بالفتاة يا هذا وتقول لا شيء!

-يووه... لا شيء يا «دعاء» لا شيء... كلّ الأمر أنّي كنتُ أنصتُ لها باهتمام ونظرت صوبها ربّما...

-تُنصت لها؟؟ انظر بعيني لأرى! الفتاة لم تكن تتحدّث يا «عُمر»... فماذا هناك بصريح العبارة... هل خنتُ سرّك بيومٍ من الأيّام؟

-لًا أبدًا... لكنّ الأمر لا يدعو لكلّ هذه الجلبة التي أحدثتِها، لمحتِني نظرتُ نحوها وما الغريب في الأمر؟ الأمر لا يدعو لكتمان سرّ أو أيّ شيء...

-من يسمعك يظنّ أنّك ما إن لمحت الفتاة أزحت عينك عنها يا هذا! على كلّ حال... ابقِ على أسرارك بجعبتك وسأعرف كيف أستنطقك... عن قريـــــب.

-تجعلين من تفصيلٍ بسيط لا يُقدّر بشيء قصّة والغريب أنّك تؤمنين بها... هداكِ الله وعافاكِ...

وخرج ضاحكًا وكنتُ كذلك أضحك وأردّد إن شاء الله... ولم أكن غير ساخرةٍ منه أودّ عنه اعترافًا بسيطًا يُفيد إعجابه بالفتاة، ولا أستغرب ذلك أبدًا، فمن يصادف كلّ ذاك الجمال الذي تملكه «رهف» ولا يقع بفخّ الإعجاب بها، شعرها

الذهبـيّ الطويـل، عيونهـا التـي تقطُـر عسـلًا، وفمهـا المُسـتدير كحبـة كـرز غـزّاويّ... ابتسـمتُ وأنـا أفكـر ولسـوء حظّـي لحقت بتلـك الابتسـامة «عُـلا» وفتحـتُ عـلى نفـسي بتلـك الهفـوة بابًـا لـن يُغلـق مـن الأسـئلة عـن مـاذا يُضحكنـي وأنـا لوحـدي.

***

جلسـتُ مسـاءً أحيـكُ كنـزة صوفيّـة أودّ إهداءهـا لــ «عـليّ» بعيـد ميـلاده القـادم، ولمحـت أمّـي تحمـل إنـاء المـاء قاصـدةً الشرفـة لتسـقي الزهـور، وسـارت خلفهـا «رهـف» بعـد أن سـألتني عنهـا باحثـةً، مـا إن رأتهـا والـدتي كأنّـما كانـت تُخفـي بصدرهـا حديثًـا تـودّ قولـه وظهـر أمامهـا مُنصـتٌ فاندمجـت في الحديـث فـورًا:

-هـل تعلمـين يـا ابنتـي؟ هـذه الزهـور بعمـر ابنـي الأصغـر «عليّ».

-حقًا؟

-نعـم... يمكـن أن تحتـاري لهـذا الحـال الـذي أعيشـه، يعنـي رغـم كلّ مـا يظهـر عـلى هـذا البيـت مـن كَـدر أنـا هنـا أسـقي الزهـور كأنّ لا شيء يحـدث، وكأنّ ذلـك الجالـس بـرأس الشـارع هنـاك حجـرٌ مـن حجـارة الحائـط، لا يعنينـي بـشيء...

-من هو؟

-هناك... (مُشيرة بيدها داعيةً إيّاها بالدنوِّ لتلمحه).

-الجنديّ يا عمتي؟

-مـا بنقـول عنّـو جنـدي (بلهجـة صارمـة) مـن أيـن لـه أرض أو قضيـة أو حـرب حتـى نُسـمّيه جُنديًـا يـا ابنتـي؟ إنّـما هـو

يهـوديّ لا أكثـر، يهـوديّ قابـعٌ خلـف خوذتـه...

-طيّب يهودي... بيضل واقف هان؟

-مـش دايـمًا... بأيّـام مـا يشـتدّ خوفهـم منّـا، ويخشـون تهديداتنا بالعمليـات الفدائيّـة، يُزرعـون عـلى رأس كلّ شـارع هنـا، وكان أحيانًـا يخلفهـم العسـاكر الأردنيـين...

-عمتـي... لم تُحبّـي يومًـا قمـع الحريّـة ولا الحـرس الـذي يقـف عـلى كلّ تحرّكاتـك ويدقّـق فيهـا، فكيـف تتحمّلـين البقـاء هـا هُنـا؟

-تعـوّدت، والأصـحّ أنّي تعـوّدت هـذا الأمـر هنـا... فلـو كان الأمـر بمـكانٍ آخـر لمـا تحمّلتـه... أنـتِ تريـن، أسـقي الزهـور غـير جاعلـةٍ لـه أدنـى اهتـمام بعقـلي، وغـير ذلـك لـو كنـتُ مهتمـةً بأمـر وجـوده لكنـتُ قـد اختنقـت منـذ زمـن طويـل... أسـتعين بتفاصيـل حيـاتي التـي اختلقتُهـا كـي أنسـى وجـود هـؤلاء الوحـوش بـأرضي، كأغلـب الفلسـطينيين... وهـل تظنّـين أنّنـا لـولا ذلـك هـل كُنّـا سنسـتطيع العيـش؟ وحـده التفكـير في أنّ حيّـةً تُزاحمـكَ أرضـك يُنـكّل بقلبـك، أنّـى لنـا أن نتحمّـل كلّ هـذا لـو كنّـا نقـف عنـد كلّ تفصيـل؟

-بالفعل... معكِ حق...

-فلندخـل يـا ابنتـي، ذلـك الفـأر المُختبـئ خلـف خوذتـه صـار يُراقبنا...

دخلتـا مـن الشرفـة، وأنـا أفكّـر في كميّـة التناقـض الـذي تعيشـه أمّـي، وأحـسّ كثـيرًا أنّ الـكلام الـذي تقولـه لأيٍ منّـا ناصحـةً أو مُرشـدة، إنّـما هـو الـكلام الـذي هـي بالـذات مُحتاجـةٌ لـه، أو

ربّـما لا تريـد أن يعيـش أيّ منّـا مـا تعيشـه هـي، تُحـاول أن تُجنّبنـا الوقــوع فيـما وقعـت هــي، فالمجـرّب لـلألم هــو أدركُ شــخصٍ بكميّـة الحـزن المُنجـرّة عنـه وهــو الأعلـم بكميّـة الآثـار التـي قـد يُخلّفهـا والنـدوب التـي يتركهـا في روحـك وبـين ثنايـا قلبـك، ليـس بالـضرورة هــو ممــن قيـل عنهـم يأمـرون النّـاس بالـبرّ وينسَــون أنفسـهم، قـد يأمـرك لأنّـه لـو اسـتطاع لحقـق مـا هــو ناصـحٌ لـك.

–حسنًا... ألن تقرئي لنا الليلة أيضًا يا «غادة»...

–الظاهر اتعوّدتِ يا «صفيّة»...

–لا، بـس طـوال هـذه السـنوات التـي تقاسـمنا فيهـا كلّ شيء، كانـت كلّ محطّـات حياتِـك قبـل «رامـز» أمـرًا مُقدّسًـا نعـرف عنـه القليـل ونجهـل أكثـر ممّـا نظـنّ أنّنـا نجهـل، والأغـرب أنّ «رامـز» كان مـن يحـرص علينـا دومًـا ألّا نسـأل خشـية أن نزعجـك بسـؤالنا... كان يـردّد عـلى أسـماعنا «لا تَسْـأَلُوا عَـنْ أَشْـيَاءَ إِنْ تُبْـدَ لَكُـمْ تَسُـؤْكُمْ» فتعوّدنـا بذلـك الصمـت...

–جعلـه الله مُسـتودعًا عنـده وحمـاه مـن كلّ شرٍ حيثُـما كان... عـلى كلّ حـال... «دعـاء» جيبيلنـا شـاي وتعـالي...

وعُدنـا لنحفـر قبـور الذكريـات القديمـة... بـذاك القَبـس المُتوهـج بليلةٍ غابت فيهـا الإنـارة عـن البيـت، كانـت أمّـي قـد وهّجـت لنـا شـموع الذكريـات والقصـص القديمـة...

–عمتـي هـاي ثالـث رسـالة، وهـي آخـر رسـالة وصلـت لسـتّي...

–سـأرى تاريخهـا، لأنّي أذكـر أنّي قـد أرسـلت رسـالتين بعـد

التـي قرأتهـا البارحـة...

فتحتهـا، كنّـا كلّنـا نحـن الفتيـات نرقـب قراءتهـا ومـا تحملـه مـن كلـمات، في حـين كان شـقيقاي وزوجـي قـد غطّـوا بنـومٍ عميـق... أمّـي التـي كانـت ولا تـزال تُجيـد الكتابـة، تعيـد قـراءةً مـا خطّـت يديهـا كأنّهـا تلتقـي بحروفهـا لأوّل مـرّة.

- «خالتي «أم أدهم»...

وأتعمّـد قولهـا، وأقولهـا وكلّي إيـمانٌ أنّـه قريـبٌ منـكِ الآن، لكنّـكِ لا تعلمـين» ....

أجهشـت أمّـي فجـأة بالبـكاء... ولم نفهـم العلّـة في الأمـر، قمـتُ أنـا أحـاول تهدئتهـا لكنّهـا أشـارت إليّ أن أتركهـا لحالهـا. نظـرتُ نحـو «رهـف» الوحيـدة التـي لم تتحـرّك ولم تُبـدِ أيّ ردِ فعـل عـن بـكاء والـدتي، تُقلّـب بصرهـا بيننـا، حتـى تأكّـدت مـن استفاقة والـدتي عـن بكائهـا وقالـت:

-لا يـزال لحـدّ الآن لا يسـتوعب فكـرةَ أنّـكِ أوّل مـن علـم بقربـه آنـذاك عـن جباليـا... وللعلـم سِـتِّي لا تـزال على اندهاشـها مـن الأمـر...

القـول الـذي جعـل والـدتي تبتسـم، وتحمـل الرسـالة وتُعيـد قراءتهـا مـن الأوّل...

-خالتي «أم أدهم»...

وأتعمّـد قولهـا، وأقولهـا وكلّي إيـمانٌ أنّـه قريـبٌ منـكِ الآن، لكنّـكِ لا تعلمـين... أحـسّ بأنفاسـه قريبًـا مـن جباليـا، أسـمع وقـع أقدامـه يخطـو قريبًـا مـن هنـاك... وكأنّي أخالـه رافعًـا علـم فلسـطين بوجـه عدوّنـا... وآمـل أن يكفينـي مـا تبقّـى

من عمري وتتسنّى لي رُؤيته مجدّدًا... أعلم أنّكِ قد فقدتِ الأمل في عودته، أنا كذلك كنتُ قد فقدته أيّامًا مرّت من قبل، خصوصًا كَوننا لم نعلم عنه أيّ خبر حتى الآن... لكنّ الأمل بُعث بقلبي من جديد لأجله، وآمل أن يُبعث بقلبكِ كذلك... أكتب لكِ اليوم ولا بدّ أنّكِ لمحتِ على الظرف عنواني الذي تغيّر... أرسلتُ لكِ رسالة قبل هذه لكنّكِ لم تردّي عليها، أو غالبًا ردّكِ وصلني مُتأخرًا بعد أن انتقلت... حدّثتكِ عن أستاذي «رامز الملّا» وطلبه يدي، لم أنَل جوابك، وكنتُ أعمل على تعطيله حتى يصلني ردّكِ لأوافق، وحين طال انتظاري وافقت. كنتُ أتمنّى لو سارت الأحداث في غير هذا الطريق، لكنّه القدر، انتظرت ردّك أو قدومكِ ولم أكن ذات حظٍ بأيّ منهما. كنت أتمنّى كأيّ فتاة وجود أيّ فردٍ من عائلتها، سندًا لها أو حتى واقفًا معها كمزهريّة، لكنّي بآخر لحظة تذكّرت أنّهم جميعًا اقتطعوا تلك التذاكر للسماء وغير القابلةِ للمساومة... يقول «رامز» أنّهم معي، ردّدها ألف مرّةٍ على مسامعي، ولم أجدهم مطلقًا... البارحة وجد عروسه تبكي، سألني سبب بكائي، تحجّجت أنّ ذرّة غبارٍ قد تسلّلت داخل عيني، لم أشأ أن أزعجه منذ أوّل أسبوع زواج له، ورغم كلّ ذلك لم يُصدّقني، قال لي أمرًا ظلّ بذهني أنّ اليتيم يتيم الروح والفكر وأنّي لم أكن بيوم يتيمة، كنتُ أفضل حالًا من آلاف الفلسطينيين بنفس عمري، وأمّا عن أهلي فهم دومًا متواجدون حيثما أحلّ أو أكون، فهم لم يُغادروا يومًا قلبي... وجدتُ أنّ معه كلّ الحق، ومن حينها أرخيتُ قبضة يدي التي أسرتُ بها قلمي بعيدًا

عنّـي، وعـدتُ أرجـو الغفـران مـن نفـسي بالكتابـة... عـدتُ لنصيحتـكِ التـي لا يـزال صداهـا بمسـامعي، متـى مـا خذلتنـي الحيـاة أبعثـر خُذلانهـا لي بقلمـي... أشـكر لـكِ تلـك النصيحـة التـي سـاعدتني بالوقـت الـذي احتجتهـا فيـه تمامًـا، وكأنّـما قُلتِهـا لي ظلّـت قابعـة بإحـدى الزوايـا بذهنـي، وحـين اشـتداد حاجتـي لهـا باغتـت ذكريـاتي وكانـت خَـير مسـاعدةٍ لي... أنتظـر منـكِ رسـالة عـن قريـب، وكلّي أمـلٌ أن تُزيّـن باسـم أغـلى عبـاد الله عـلى قلبـي... بلّغـي سـلامي للجميـع وبلّغيهـم أخبـاري... سـأزوركم عـن قريـب... كونـوا بخـير

القدس، 03 أغسطس1962»

عـلى آخـر كلـمات بالرسـالة ابتسـمَت، قالـت أنّ قراءتهـا للرسـالة جعلتهـا تعيـش الأمـر مـرّة أخـرى... اسـتدارت حينهـا تنتظـر تعليـق «رهـف» بعـد مـا سـمعت مـن الرسـالة...

–هـل تعلمـين يـا عمّتـي أنّ والـدي في تلـك الأيّـام بالفعـل كان قـاب قريـة أو أدنـى مـن جباليـا؟ حـين روى الأمـر لـستّي ظلّـت مُندهشـة للأمـر، كان يعـزم المـرور عليكـم ليُخبركـم أنّـه بخـير، ظنًـا منـه أنّ كلّ شيء لا يـزال عـلى حالـه... وبالفعـل، مـن يُصـدّق أنّـه في غضـون أربـع سـنوات تتغـيّر كلّ الموازيـن.

... عمتـي، فهمـت الآن أنّ رسـالتكِ التـي سـبقت هـذه لم تصـل جباليـا أبـدًا، فهـي لم تكـن ضمـن الرسـائل التـي تُخبّئهـا سـتّي، وغالبًـا حتـى رسـالتها التـي أرسـلتها لـكِ لتُبلّغـكِ عـودة أبي لم تريهـا أبـدًا...

–لا... هل أرسلت لي رسالةً كذلك؟

–وهـذا مـا زاد صعوبـة مهمّتـي عـلى مـا يبـدو... لم تصلـكِ

رسـالة سـتِّي ولا أيّ رسـالة بعدهـا؟

-كانوا قد أرسلوها إلى آخر عنوانٍ لي أرسلت لهم منه؟

-نعم لهذا العنوان... لكن بعد خمس سنوات...

-لم يصلنِـي شيء... آخـر رسـالة كانـت تهنئـةً عـلى زواجـي، وقالـت أنّهـا تنتظـر زيـارتي، ولم يكـن بعـد ذلـك رسـائل أبـدًا... حتـى أنّي لـولا قُدومـكِ لمـا فكّـرتُ للحظـةٍ أنّ «أدهـم» قـد عـاد.

مـا كان يـدور بعقـلي مـن تسـاؤل كان لمـاذا لم تـفِ أمّـي بوعدهـا كذلـك بزيارتهـم؟ وأعـود لأدقّـق بـكلام «رهـف» أيّ مهمّـةٍ هـي تقصـد يـا تـرى... لا بـأس، الأيّـام سـتكون كفيلـةً أن تُعيننـي عـلى معرفـة التفاصيـل... قامـت «رهـف» مـن مكانهـا مـرّةً أخـرى وعلمـتُ حينهـا أنّ الليلـة سـتطول أكثـر...

-عمتـي... هـذه آخـر رسـالة لوالـدي بعـد أن أمـضى مـا يُقـارب عشريـن سـنة يرسـل لـكِ دون ردٍ منـكِ... أقصـد دون وصولهـا إليـكِ حتّـى...

أيقنـتُ حينهـا أنّ والـدتي إمّـا أن تغـرق في دموعهـا هـذه الليلة أو سـتصمد تحـت وقـع صدمتهـا حتـى الغـد، والحقيقـة أنّي اختزلـت الواقـع مـن عينـيْ «رهـف» كلماتهـا ومعانيهـا كانـت تحمـل في طيّاتهـا أنّ أمـرًا مـا يُحيـط بواقـع «أدهـم» كضبـاب كثيـفٍ يلتـفّ حولـه، وآمـل أن تكـون هـذه الورقـة إجابـة تسـاؤلاتي أنـا عـلى الأقـل...

«إلى مـن قاسـمتني ضحـكات الحيـاة وأوجاعهـا... إلى غـادتي...

آخـر ورقـةٍ رابحـةٍ لي، اسـتعملتها الآن يـا «غـادة»، مـا دامـت «رهـف» أمامـكِ، والحقيقـة أنّي أقصدهـا هـي بورقتـي الأخـيرة.

هـل انتبهـتِ للشّـبه بـين أمّـي وبينهـا؟ مُؤكّـدٌ أنّـه أمـرٌ لم تمـرّ عليـه نظراتـكِ مـرور الكـرام... سـامحيني لكنّـي حقـا لم أجـد مـن أيـن أبـدأ أو أسـتكمل رسـائلي، بعـد أن مـرّ تسـعة عـشر عامًـا وبضعُـة شـهورٍ وأنـا أراسـلكِ دون جـدوى... سـأجيبكِ عـن كلّ تسـاؤلٍ مـرّ بذهنـكِ مـا إن عرفـتِ تلـك الفتـاة شـقراء الجدائـل المحظوظـة أكثـر منّـي بلقائـك والحديـث معـكِ الآن... أتسـاءل هـل عـليّ أن أعيـد كتابـة تسـعة عـشر عامًـا مـن الرسـائل لـكِ؟ ومُتيقّـنٌ لم تبلـغ يديـكِ أيّ رسـالةٍ ممّـا خطّـت يـديّ... بـادئ الأمـر كتبـت، ثـم عتبـت عليـكِ عندمـا لم يصلنـي الـردّ، ثـم كتبـت، وكتبـت، وكتبـت، ثـم زاد عتبـي عليـكِ حـدّ الغضـب، فتوقّفـت... كنـت طامعًـا بملاقاتـك، طامعًـا بـردٍ يجعـل قلبـي بـردًا وسـلامًا، ثـمّ ترجّـل الغضـب عـن قلبـي وحـلّ مكانـه الخـوف عليـكِ مـن أيّ مكـروه قـد حـدث... لكنّـي رغـم ذلـك لم أرسـل لـكِ، تعمّـدت جفـاءكِ حتـى وأنـتِ لا تعلمـين عـن الأمـر شـيئًا، أمّـي حاولـت خلـق ألـف عـذرٍ لـكِ لكنّـي لم أكتـب لـكِ إلّا بعـد إقنـاع زوجتـي لي... أمّـا هـي، فأنـتِ تعرفينهـا جيّـدًا، ولـو أخـبركِ سـتحتارين مـن تـصرّف والـدتي في الأمـر، لكنّـي سـأكون بخيـلًا بالـورق والحـبر، اسـألي «رهـف» مـن هـي والدتهـا وأطلقِـي العنـان لعقلـكِ بالتذكـر وتخيّـل الأمـر كلّـه وسـأصل الآن للُـبّ خِطـابي... أمّـا عـن الشـوق، فقـد نخـر عظامـي بـما يكفينـي لأصـير عـلى حـالٍ يمنـع عنّـي القـدوم باحثًـا في أثـرك، وهـذا جـواب سـؤالٍ راودكِ منـذ دخـول «رهـف»

بيتـكِ –وأنـا الأحـق بمعرفتـك: لم أكـن أنـا القـادِم مـن جباليـا بـدل ابنتـي، ولم أكـن مرافقًـا لهـا لأنّي صرت مشـلول القدمـين يـا «غـادة»... أتمنـى الحصـول عـلى رسـائلي التـي كنـت أرسـلها لك، وكـم أتمنّـى أن تكـون لم تصـل بابـكِ البتـة، ففيهـا مـن العـذاب مـا يُرهقـكِ... وإنّي بعـد كلّ هـذه السـنوات لخجـلٌ لمـا كنـتُ أكتبـه لـكِ مـن مـلامٍ وعتـب، ظننـتُ طويـلًا أنّـه السـبب في عـدم ردّك، وآمـل ألّا يكـونَ تفكـيري صائبًـا... لا تُصدّقـي يومًـا أن ذهـابي عنكـم كان كرهًـا، بـل كان حبًـا... كنـت أتمنـى أن أدفـع روحـي فـداءً لتعيشـوا أنتـم بعـزّة، صحيـحٌ أنّ شـخصًا واحـدًا لـن يسـتطيع تحريـر غـزّة فـما بالـك بفلسـطين، لكـنّ أمـلي بـالله لم ينقطـع، لكـنّ خطّتـي فشـلت عـلى أبـواب النكسـة، ولا أحـد يعلـم تفاصيـل مـا كنـت أعيشـه هنـاك وأتجرّعـه، وليـس لـكِ يـا عزيـزتي أن تتخيّـلي كيـف كانـت تمـضي الأيّـام عـليّ كمُـضيِّ عقـودٍ أو أكثـر، كان قلبـي مُؤمنًـا بأحـد أمريـن، إمّـا الشـهادة أو العـودة وأخذكـم ليافـا، لا بـدّ أنّـكِ لم تكـوني لتُمانعـي مُرافقتنـا نحـو يافـا، بنيـتُ أحلامًـا شـتّى، وضعـتُ حتّـى احتـمال عودتـك لأرضـكِ بـ 'القُبَيْبَـة'، لكـنّ احتـمال بقـاء صهيـون، لم يكـن ببـالي حتـى... زرعـت آمـالي بـأرضٍ وأسرفـت سـقيها... فلـم تُنبـت البتّـة... عندمـا أُصبـت بشـظيةٍ نجمـت عـن انفجـار وقـت الاشـتباكات بيننـا وبـين اليهـود عـلى حـدود غـزّة كنتـم ببـالي، حـين فقـدت الوعـيّ لم يبـق ببـالي سـوى أنّ عـليّ القيـام مجـدّدًا لتحقيـق مـا أنـا أريـده، لكنّـي تمنّيـت أنّي لم أسـتفق بيومهـا ولم أقـاوم ذاك الألم أبـدًا، تمنّيـت لـو أنّي أدركـت حـالي قبـل أن أسـتفيق لمـا اسـتفقت مُطلقًـا فـما معنـى أن تعيـش وبالمقابـل ترمـي كلّ أحلامـك في بئـر غـير

ذات قـرار... لم أشـأ العـودة وأنـا الـذي كنـت أنـوي العـودة لكـم إمّـا رافعًـا لعلمنـا أو مُكفّنًـا فيـه... هـل تتصوّريـن حجـم الخذلان الـذي لازلـتُ لحـدّ الآن أقـف عـلى دِمَنِـه؟ أتُصدّقـين أنّي تمنّيـت لـو تُداهمنـا في الطريـق غـارة إسرائيليـة ولا أصـل المخيّـم أبـدًا؟ لكنّـي نسـيتُ كلّ ذلـك مـا إن وصلـت، سـلّمت عـلى والـدتي، جـدّي وجـدّتي، هممـتُ ناظـرًا نحـو خيمتـك مُناديًـا يـا «غـادة» لكـنّ أمّـي صدمتنـي بخـبر أنّـكِ لم تعـودي هنـا، هـل تُصدّقينـي حـين أقـول أنّ خـذلاني الـذي عشـته قبـل هـذا بلحظـةٍ واحـدة هـان عـليّ كأنّـه لم يكـن أبـدًا؟ أيّ عقيـدةٍ سـمحت لـكِ بالذهـاب دون توديعـي؟ أيّ خيبـةٍ أنـا أسـتحقها أكثـر مـن خيبتـي تلـك... عرفـتُ حينهـا خـبر زواجـك ووفـاة «أمّ أحمـد»، عرفـتُ أخبـاركِ كمـن لم يعرفـكِ بحياتـك أبـدًا، عرفـتُ أخبـاركِ كآخِـر شـخصٍ مـرّ عـلى بالك...انتظـرت عودتـكِ... أو زيارتـك... قـرأتُ رسـالة أمّـي تكتـب لـكِ تُبـشّركِ أنّ قولـكِ عنّـي وإحساسـك حقيقـة وأنّي عـدت، كتبَـت لـكِ حـالي، لكنّـي منعتهـا مـن إخبـارك، خشـيتُ أن تكـون تلـك صدمـةً لـك، أو بالأحـرى خشـيتُ ألّا تعـودي بعـد ذلـك أبـدًا... وكأنّ مـا خشـيته حـدث فعـلًا... انزعجـتُ مـن عـدم ردّك كشـخصٍ لا يكـترث للأمـر أبـدًا، وبعـد شـهورٍ تسـلّل لقلبـي اليـأس... عندمـا أُوصِـدت أبـواب الأمـل، رُحـتُ أجـوب كلّ شـارعٍ بحثًـا عـن مفاتيحهـا.. نعـم وجدتهـا، خلـف تلـك الصخـرة المُغـبرة، التـي مـا كانـت هنـاك بيـوم، لكنّهـا تتدحـرج سـويعةً بسـويعةٍ لتبلـغ صـدري وتضغـط عليـه أكثـر... جربـت المفاتيـح لكـنّ القفـل قـد تعطّـل، كسـاعةِ حيـاتي قـد أجحفـت دقائقهـا عـن الفـرح، وتعطّلـت

عقاربها على مواعيد الألم... ذبلتُ أنتظر، لعلّ القُفل يُخطئ وينفتح، أو أنّ الحياة بعدكِ تعود وتبتسم... شاركتني الانتظار عنكبوت كانت على مشارف عمرِ خُيوطِها الألفَين تنسج... فارقتني هي ذاتَ سقوط، وظللت لوحدي أرجو القفل أن يفتح، وجفّت على تلك الأبواب المؤصدة كلّ تواقيتي وكلّ أزمنتي... حاولتُ المُضيّ لكن أنّى لي الحراك وأنا مشلول! وأظنّ أنّ حياتي قد شُلّت أيضًا من يومها... أن تُجالس أثاث البيت دون أمل، أن ترجع بطموحٍ مُحطّم، لتجد عنوان حالك أنْ ليتك لم تعد ولم ترجع أيّ انكسارٍ سأتحمّله أكثر... كبرت ابنتي الوحيدة يا «غادة»، سعادتي اليتيمة التي ملكتُها بعد رحيلك، وعلى سبيلِ اليُتم فهل يجوز لي أن أكون يتيمًا لما تَجرّعته عن فقدكِ وما ذُقتُ عن سقمٍ أثقل قلبي حُزنًا، وما يُرهقني أنّكِ لم تُمشّطي لصغيرتي شعرها قبل ذهابها للمدرسة، لم تهرب من عقاب أمّها لتحتمي بحضنك ولم تراجع دروسها على يدك... أتصدّقين كلّ هذا؟ أين أنتِ من كلّ كلماتي يا «غادة»؟ لكنّي... ليس بي اليوم عتب... أنا الأحق بأن يكون الملام على عاتقي، وليتني ندمت إنّما لا يَسعني النّدم على ذرّةٍ قدّمتها لوطني، ندمي أنّ ما قدّمته لم يكن كافيًا، فلا أنا بقيتُ وكنتُ خير أخ وأبَرَّ ابنٍ، ولا كنتُ باسلًا أو واقفًا على باب الجنّة فيها خالدًا...كلّ ما في الأمر أنّ هذه الفتاة شاءت رؤيتكِ، ولا سبيل قُدّر للقائكِ غير المُضيّ نحوكِ وها هي الآن أمامكِ... وأطمعُ أن تقف على بابك وتظهري عنه لاستقبالها فكلّ ما أخشاه أن تكوني قد غيّرتِ عنوانكِ أو اشتقتِ أحبابنا في السماء فعجّلتِ بزيارتهم قبل زيارتنا...

كنتُ عزمتُ تسميتها باسمك، لكنّي أسميتها بأحبّ الأسماء على قلبك... وغالبًا قد انتبهتِ، لعلّها تكون حقًا من سكّان فؤادك أو تنال رُبع ما نِلتُه أنا من قبل منزلةً بقلبك... هل تُرى لا تزالين تذكرينني بخيرٍ أم اضمحلّت كلّ المشاعر ما إن أمطرت الحياة أنواء النسيان؟ إنّما أشكو همّي وألمًا ألمّ بي عن فقدكِ لله يا «غادة»... خسارتكِ لا تُحتسب خسارة، بل هزيمةٌ نكراء وشنيعة، خسارتكِ بمثابة انهزامٍ ناله جيشٌ لم يخسر أبدًا حربًا، وفجأةً لم يتبقَ من تِعداده غيْرَ جنديّ يتيم، أنا لن أستطيع زرع بذور الصبر في قلبي ما إنْ خسركِ، لأنّ لا أملَ يبقى إنْ غبتِ مؤبّدًا عني واخترتِ ألا تعودِي، لأنّكِ إن فعلتِ فأنا أعلم حجم الفجوة التي سيتركها رحيلكِ ليْس فقط في صدري، بل في حياتي بأسرها... خسارتكِ أنتِ بالذّات تعتبر هزيمتي الثانيّة... لأنّي لن أتمكن يومًا من مُلاقاتِك، تلك المسافة المُمتدّة الآن بيننا لن تتبخّر أبدًا الآن أو تنحني، أترينَ من سبيلٍ لأُجزى بمُعجزةٍ أخرٌّ عقبها حامدًا؟ انتظرتُ زيارةً منكِ وقد انكسر ظهري من شدّة الانتظار، ولو لم أكن مشلولًا لما انتظرتُ لحظةً... يُقال أنّ الوصول لغاية الضفّة صعبٌ بهذه الأيّام، أتَرين بُلوغ غزّة صعبًا لهذا الحدّ أنتِ كذلك؟ غرقتُ بين حروف الغياب، وازداد عدد الغائبين فلم أعد أعرف من منكم سيرمي التراب على قلبي، وأجدني الآن بين فكَيْ الفراق لأنّك أبعدُ أحبّتي عنّي... ليس لي من سبيل أرجوه وأنا الذي لم أشأ أبدًا خسارتك، وليتني عدتُ وجُزيتُ بلُقياكِ كما يوم تركتك، إنْ خسرتكِ أنتِ فمغضوبٌ عليّ من يومها، أبوء بذنبي حين رحلت،

لكنّي قد عُدت، ناقصًا لكنّي رغم ذلك عُدت، وانتظرتكِ، وأنتظركِ، فلا تكوني أعند منّي ولا تُخلي السبيل لأن يشمت بي شيطانٌ يتلبّسني يُردّد أنّكِ لن تأتي... لا تُشمّتيه بي وأنتِ من لا يرضى لي أن يشمت بي عدو»...

جباليا، 14 أغسطس 1986»

ابتسمت أمّي... وعلى معرفةٍ سابقةٍ أنا بهذه الابتسامة... طَوَت الرسالة... راحت تُقلّب نظرها بيننا، ثم بعد مدّةٍ نطقت:

-ألم يغشاكم النعاس بعد؟ أنا تعبت، غدًا ربّما سنُكمل إن كان هُناك رسائل (استدارت نحو «رهف» وتابعت الكلام) لا تقولي أنّها آخر أمانة، لا بدّ أنّ هناك المزيد، سنتسلّى بالقراءة غدًا لا داعي للعُجالة...

لم يفهم أحدٌ الأمر، «رهف» ظلّت تنظر لأمّي مُندهشةً لكلماتها رغم عدم رؤيتها لها بوضوح لتراكم الدموع بعينيها... قامت أمّي قائلةً أنّها ستنام، انفجرت «رهف» بالبكاء حينها، لكنّ أمّي لم تستدر، غالبًا كنتُ الوحيدة التي استوعبت كلّ ما يحدث، نظرتُ مُشفقةً على حالة «رهف» ربتُّ بسرعة على كتفها ثم لحقت بوالدتي، وجدتها قد أوصدت باب غرفتها، ولم تشأ فتحه. أمّا ابتسامتها تلك فقد كانت تسخر بها بوجه الحياة ليس إلّا، ومعرفتي لها منذ أيّام غادرنا والدي، ابتسمت نفس الابتسامة طيلة تلك الصبيحة، ثم لم تلبث أن خارت قواها بعد ما خرج من البيت، وغرقَت في بحر دموعها دون أدنى محاولةٍ لإنقاذ نفسها... كذلك هي الآن... عدتُ حيث «رهف» كانت جالسة فقط، توقفّتْ

عـن البـكاء، وفكّـرتُ لـو كنـتُ مكانهـا لربّـما كنـتُ لا أزال أركل الدمـوع وهـي تأبـى إلّا أن تُـذرف عـن عينـيّ... جلسـتُ أمامهـا، رفعـتُ رأسـها المُنحنـي بكلتـا يـديّ:

-لا تظنّـي أبـدًا أنّهـا تعمّـدت جرحـك... ولم تقصـد بـما فعلـت عـدم الاكـتراث بـل بالعكـس تمامًـا، إنّـما هـي طريقتهـا حـين لا تجـد مـن ملجـأ مـن الحـزن، تتعامـل مـع الحيـاة بهـذه الطريقـة، تبتسـم، تقـف بثبـات، ولـو لم يكـن النـوم مهربًـا لبقيـت طـوال الوقـت كذلـك تُحـارب الحقيقـة حتـى تنفـرد بنفسـها... لـو ترينهـا الآن أو فقـط تمرّيـن خلسـة عـلى بـاب غرفتهـا تفهمـين مـا أقصـده تمامًـا... مـن يـوم اختطـاف أختـي الصغـرى بـات حزنهـا فوضويًـا هكـذا... غـدًا انتبهـي لعيونهـا لتتأكـدي مـن قـولي... الآن نامـي، لا تُفكـري بالأمـر، هـي أمانتـكِ وقـد بلّغتهـا، مـا سـيكون ليـس بيـدكِ حبيبتـي...

نظـرَت نحونـا جميعًـا فوجـدت بنـات عمّتـي كذلـك يُـشرن أنّ مـا أقولـه صحيـح، لا ألومهـا في شـعورها بالانكسـار، ابتسـمَت نصـف ابتسـامة ثـم اسـتلقَت عـلى فراشـها بُغيـة النـوم مُستسـلمةً لقـولي.

لم أنـم جيّـدًا وأنـا عـلى تفكـيري بالأمـر، وتأسّـفتُ لنفسـي أنّي رغـم ذلـك لم أصـل لنتيجـة في محـاولاتي للتكهّـن بجـواب أمّـي، بعـض التفاصيـل تنقصنـي جعلَـت الأمـر يبـدو كمُعضلـة مُعقـدّة، واسـتفقتُ في الصبـاح عـلى نفـس التفكـير، حتـى أنّي كنـت شـاردة وأنـا أعـدّ الفطـور حـين باغتنـي «عـادل»:

-صباح الخير جميلتي... ههه، ما بكِ تفاجأتِ؟

-... كنتُ شاردة الذهن...

-في أيّ أمر؟

-حول «رهف» ووالدتي... أمرٌ معقد...

-لا بأس حاولي تفصيله ولن يبدو معقدًا حينها، تمامًا كما تسحبي خيط الصوف عن وِشاحٍ لم يُحَك جيّدًا.

-أحسّ أنّي سأثرثر كثيرًا لو أخبرتكِ الأمر بالتفاصيل...

دلفَت عمّتي حينها المطبخ، وشاركتنا الموضوع، وتسبّبنا في تأخّر «عادل» عن اللحاق بعمله بسبب ثرثرتنا في الأمر...

استفاق بعدها شقيقاي وبنات عمّتي، لكنّ أمّي لم تشأ أن تتناول الفطور، ربّما أحسّت بالذنب لما أقدمت عليه من ردّة فعل تجاه «رهف» ورسالة والدها... تقبّلتُ امتناعها عن مشاركتنا. عدتُ لأجلس معهم، وكما كان الحال البارحة، أمسكتُ بأخي مُتلبسًا يسرق النظرات نحو «رهف»، هذه الأخيرة التي لم تكن تشاركنا المائدة إلّا جسديًا فقط، دنوتُ منها ثمّ همست:

-ما بها ابنة الخال؟

-لا، لا شيء...

ثم بعد صمتٍ جعلَنا جميعًا في غاية الانتباه إليها، أردفت:

-أظنّ أنّي سأعود غدًا لـ غزّة.

-ماذا؟ (صرخنا جميعًا مُستغربين قولها).

خفضَت رأسها تحاول التهرّب من نظراتنا، في حين كنّا جميعًا مُندهشين لم نجد بحقائب الكلمات ما يُفيدُ كإجابةٍ على قولها، حتى دخلَت والدتي ووجدتنا على ذلك الحال، جميعنا أنظارنا مُسلّطة على «رهف» وهي على انحناء رأسها:

-ما بكم؟ ماذا هناك؟

-«رهف»...

-ما بها؟ ما بكِ يا عزيزتي؟

-سأعود غدًا لـ 'غزّة'.

-...

هناك فقط تحرّر أخي عن صمتِه وصدح بقوله كأنّ كلمته هي الأخيرة:

-لن تذهبي لمكان، أتيتنا ضيفة، وإكرامك واجب، وأنتِ منّا فأين تذهبين بعد أن اعتدنا عليكِ الآن؟

-سأعود لبيتي، لا مكان لي هنا ولم أطمع بذلك من الأساس.

-قلتُ لن تذهبي. (نبرة صوتِه بحينها تغيّرت واشتدت).

انتفضت «رهف» واقفة، كمن يتحدّى «عُمر»، أخي الذي طوال حياته متعوّدٌ ألا كلمة تأتي بعد كلامه ولا قرار ينفي قراره، كلّنا أبصارنا خاشعة فيما يحدث، حتى أمّي لأنّ ما حدث لم يكن يخطر على بال أحدٍ منّا.

-من أنتَ لتمنعني؟ أظنّ أنّني ضيفة ولستُ سجينة! عائدةٌ لبيتي غدًا.

-... أرِيني كيف ستفعلين...

وغادَرَنا بكلّ برود، كنتُ أنتظر حربًا أشدّ، أعرف عناد أخي لكنّه لم يحدث أن قاوم كلامه شخص بهذه الطريقة. نظرَت «رهف» نحونا:

-مـا كان عليـكِ أن تعـارضي كلامـه يـا ابنتـي... (قالـت لهـا عمّتـي وهـي تهـمُّ بالمغـادرة كذلـك).

-أنتِ في ورطةٍ يا صديقتي. وضحكت «ندى».

حرّكـت كتفهـا مُـصرّةً كأنّـما لا تكـترث للأمـر، ظلّـت واقفـةً هنـاك لا تتحـرّك، في حـين هـمّ أخـي الآخـر بالنهـوض وهـو يتمتـم ولم نسـمع مـا يتلّفـظ بـه... جلسـت أمّـي، قمـتُ أنـا مـن مـكاني أجمـع المائـدة فلـم يتبـقّ غـيري أنـا وأمّـي و«رهـف».

-اجلسي يا «رهف».

-لا أريد...

-لا تُعانـدي أمـري يـا ابنتـي، أنـا لسـتُ «عُمـر»... آه صحيـح يـا «دعـاء»، كيـف لم ينفجـر في الصبيّـة؟ ليـس مـن عادتـه التعامل ببرود كـما اليـوم...

... ألم تجلسي بعد؟

والحقيقـة أنّ الفتـاة أوجسـت بحينهـا خيفـةً منّـا جميعًـا وكأنّ لسـان حالهـا يقـول: مـا الـذي دهـاني وأتـى بي لهـذه العائلـة المجنونـة يـا تـرى؟ يُهدّدونـني أن قلـتُ غـدًا عـودتي!

-نعم...

-فش ’يا عمتي‘؟

-...

-إذن اتخذتِ قراركِ بالعودة؟

-نعم... ولن تمنعيني لا أنتِ ولا ابنكِ ذلك المعتوه!

-ههـه، أمّـا عـمّا أطلقـتِ عليـه مـن وصـفٍ فهـو لا يمـتُّ

لذلـك بصلـة يـا عزيـزتي فتمهّـلي... لكنّـي لم أكـن سـأتحدّث إليـكِ بخصـوص «عُمـر» أو ذهابـك...

-إذن؟

-ربّـما تـصرّفي البارحـة هـو مـا أزعجـك، أو فلنقـل غالبًـا هـو كذلـك وهـو سـبب قـرارك بالعـودة، أليـس كذلـك؟

-بلى هو كذلك.

-ألهذه الدرجة كرهتنا؟

-ليس كُرهًـا... أنـا لستُ منكـم، كانـت لـديّ أمانـة أوصلتهـا وهـا أنـا أغـادر، والأصـحّ لـو غـادرت منـذ الفجـر...

-أبهذا أوصاكِ والدكِ؟

-لا، لكنّـه كذلـك لم يخبرني أنّي سـأجد أشـخاصًا غـير مُبالـين بأمـرٍ مثـ...

قاطعتهـا «عُـلا» وهـي تُطـلّ عـن بـاب المطبـخ تُناديـني تُخـبرني أنّ صديقتـي «ريتـا» أتـت في زيـارة عندنـا، مـا أجـبرني عـلى الخـروج دون أن أعلـم بقيّـة الحديـث... رحبتُ بعزيـزتي «ريتـا» التـي لم أرهـا منـذ العيـد، بالمناسـبة، هـي مسـيحيّة، أتـت بعشـيّة العيـد مُهنّئـةً لنـا هـي وأمّهـا وتلـك هـي عادتنـا في أيّ عيـد سـواء كان يخصّنـا أو يخصّهـا، نتبـادل التهـاني والزيـارات وكثـيرًا الهدايـا... دردشـنا طويـلًا إلى أن وصلـتُ في حديثـي لأمـر ضيفتنـا، ولم أخـفِ عـن «ريتـا» شـيئًا فطيلـة حيـاتي كانـت نِعـم الصديقـة ونِعـم الأخـت... اسـتنكرَت فعلـة أمّـي لكـن سرعـان مـا تذكّـرت تعامـل أمّـي في مـا يخـص أحداثًـا مُماثلـةً مـن حيـث المُفاجـأة، لم نُتـمّ حديثنـا في الأمـر وجـاءت أمّـي و«رهـف»،

دخولهـا علينـا وملامحهـا جعلتنـي أفهـم أنّ فقـرة الـتراضي مـرّت بنجـاح، لكنّـي لم أسـتطع تخمـين الخسـائر أو الأربـاح المُنجـرّة عـن هـذا الاتفـاق، وأمـلّي كلّـه أن يكـون مـرّ عـلى أحسـن مـا يُمكنـه أن يمـرّ...

-هـا يـا «دعـاء»، لم تُخبرينـي، هـل أريـتِ ضيفتـكِ شـوارع وأزقّـة القـدس؟

-ممم لا، ليس بعد...

-لم تُجزى هـذه الجميلـة بجولـةٍ في المدينـة بعـد! ويحـكِ يـا فتـاة بـدأتُ أشـكّ أنّـكِ صرتِ ظالمـة (وأتمّـت قولهـا ضاحكـة).

-كنـتُ قـد عزمـت ذلـك غـدًا... وعـلى مـا يبـدو لـن أسـتطيع ذلـك...

-تسـتطيعين يـا ابنتـي، فهـي سـتبقى عندنـا حتـى الأسـبوع القـادم... (نطقـت أمّـي مُعلّقـة).

-حقًا؟

وتسـاءلتُ حينهـا أيّ ثمـنٍ قـد دُفـع وأيّهـا كانـت مـن دفعَـت، وإنّـا أعـدّ ذلـك عـلى تعـداد الخـدوش التـي نُخلّفهـا بقلـوب النـاس بكلماتنـا وعُمقهـا بأرواحهـم. نظـرتُ نحوهـا كمـن يريـد التأكّـد مـن الأمـر، فابتسـمَت رُبـع ابتسـامةٍ هـذه المـرّة وفهمـتُ كلّ مـا دار بتلـك البسـمة.

- ٤ -

استفقتُ على صوتِ أختي «دعاء» تحاول إيقاظي، والحقيقة أنّي لم أنم جيّدًا البارحة، وهل سأخفي تذمّري؟ بالطبع لا، كانت أولى كلماتي لها أن ما بالكنّ ليلة البارحة؟ ضحكاتكنّ تعدّت جدران آخر بيتٍ بالشارع، أو ربّما وصلت أذنيْ ذاك اليهودي الواقف هناك منذ ثلاثة أيّام ولا نعرف السبب خلف وقوفه... ضحكَت بكلّ برود وتحجّجَت أنّ ذلك نادرًا ما يحدث، وهل نُدرَته تعني استباحته؟ أنتنّ تقضين يومكنّ بين جدران المنزل أحسنكنّ حالًا تُطرّز أو تخيط الأثواب وتنام متى ما نال منها الإرهاق، ونحن نستفيق باكرًا نجتهد بكلّ ما نستطيع إليه سبيلًا فقط لتعشن في أحسن حال، أدنى حقوقنا صمتكنّ حين ننام... ولا تزال واقفةً تضحك من كلماتي وتقول أنّ أمّي وعمّتي كانتا معهنّ، رميتُها بوسادتي كي تغرب عن وجهي، وحاولتُ جاهدًا مقاومة إغراءات سريري في غفوةٍ صغيرة أخرى.

قمتُ وغسلت وجهي أخيرًا، آملًا أن يكون اليوم أحسن حالًا من ليلة البارحة التي أمضيتُها ساخطًا على العيش وسط ستّ نساء، ولستُ أكره جنس حواء مُطلقًا، إنّما بعض تصرّفاتهنّ تُصيبني أحيانًا بالدوار، وخير مثال ضحكاتهنّ ليلًا وسهرهنّ حتى الفجر، من العاقل الذي يسهر حتى الفجر؟ ومن سيبقى لديه القدرة أساسًا على كلّ ذاك الضحك لغاية تلك الساعة؟ اتجهتُ لمائدة الإفطار وعقلي مُثقل بالتفكير

في مصيبة البلاد، فمهما كانت الأمور التي تدعوني للتفكير أُزيحها جانبًا، قضيتي الأولى قبل كلّ شيء هي بلادي، انتبهتُ أنّي كنتُ آخر من لحق بهم على المائدة، لمحتُ تلك الضيفة التي حلّت علينا منذ أيّام، احترتُ كيف لم أعلم من قبل عنها شيئًا رغم ذهابي عدّة مرّاتٍ إلى ‹جباليا›، صحيحٌ أنّي لم أبحث عن منزل والدها الذي يقولون أنّه خالٌ لي، لكنّي لم أكن أظنّ أنّه على قيد الحياة من الأساس كي أبحث عنه، ولم تصلني أيّ معلومات بخصوص وجود ابنة له. حكايات والدتي التي كانت تسردها علينا كنتُ أظنُها غير واقعية أو مُملّحةً بملح المغامرة بزيادة، ظننتُ ذلك عقودًا من الزمن، حتى وصول هذه الفتاة لباب بيتنا، أو بالأحرى حتى ذلك الحين الذي دخلتُ بيتنا وكنتُ بآنها ذا عقلٍ شاردٍ أحدّث أختي عن مشاكل واجهتني ووجدتُها جالسةً بصالة البيت والخجل يبدو عليها. وإنّي مُندهشٌ لانصياع نظري، فكلّما لمحتها وحاولتُ إبعاد نظري عنها وجدتُني غير قادرٍ على ذلك، وللمفاجأة، أنا في خضم كلّ هذه الأفكار وأجدني أنظر نحوها والأغرب هذه الابتسامة التي وجدتُها لا إراديًا تعلو ملامحي، لو لمحني أحدهم لأوجس منّي خيفةً أو ظنّ بي أيّ ظنٍ لا يمتُّ للواقع بصلة... ما إن انتبهتُ لحالتي استدرتُ مغيّرًا نظري عن الفتاة، أتممت ما بيدي من طعام وقمتُ مُسرعًا وأنا أطلبُ من أختي أن تُخبرني بما ينقصها من مُشتريات، هممتُ بالخروج حين لحقت بي ابنة عمّي الصغرى «ندى» مُضيفةً لبعض الحاجيات التي عليّ اقتناؤها. لم أشأ أن أتأخّر عن عملي الذي تحصّلتُ عليه بشق الأنفس،

فرُحتُ أسرع الخُطى لغاية السوق الأقرب للبيت، اقتنيتُ ما عليّ اقتناؤه من هناك، وبطريق عودتي مررتُ بالبقال «أبو حسن» اقتنيتُ ما تركتُ عن السوق لم أشتره من هناك، هممتُ خارجًا من البقالة، فإذ بي ألمح أختي وابنة عمّتي «عُلا» وضيفتنا، تذكّرتُ قولها البارحة وتحدّيها لي بعودتها اليوم لمدينتها، فكرتُ لحظاتٍ من الزمن ونظري مُثبّتٌ عليهنّ ما دام ذاك كان قولها، وهنّ لم تُخبرنني عن خروجهنّ اليوم أبدًا، يعني أنّها بالفعل تتحدّاني هذه الصبيّة!

وإذ بي أسرع بمشيتي، وما كانت غير خطوتين حتى وصلتُ لهنّ وملامحي لا تدلّ إلّا على الغضب، وقفتُ أمامها تمامًا، رفعَت عينيها تنظرُ نحوي باستغراب، حتى أختي و«عُلا» استغربتا ذلك، وإذ بي أقول بغضبٍ حتى أنا استغربتُه ما إن نطقت:

-ألم أنبّهكِ أنّ لا عودة لبلدكِ اليوم؟

-«عُمر» ما بك؟ عن أيّ عودة تتحدّث؟ أكلّمك يا «عُمر».

وهل كان لنظري من قوةٍ حتى يبتعد عنها أو يحيد؟ تسألُني أختي لكنّي لم أُعرها اهتمامًا، انتظرت جواب من سألتها لا أسئلةً أخرى من «دعاء».

-من سألكِ يا «دُعاء»؟ أنتظر تفسيرًا من الضيفة التي تتحدّاني بذهابها اليوم.

-لستُ ذاهبة إن كان يهمّك أن تعرف... أختك وابنة عمّتك عَرضتا عليّ زيارة أزقة القدس العريقة... أمّا إن كان ذلك

أيضًا ممنوع فأظنّ أنّه بالفعل طال مكوثي هنا...

تفادتني وراحت تمشي ولحقت بها ابنة عمّتي، في حين رمقتني أختي بنظرة عتب:

-ما كان عليك فعل هذا يا «عُمر».

وبالفعل لم يكن... أيّ حماقةٍ هذه منّي، وكيف لم أنتبه أنّها لا تحمل حقيبة معها تُؤكّد سفرها، حكمتُ فقط من كلامها وجعلتُ نفسي كمجنونٍ بنظرها الآن، فكّرتُ في الأمر خلال بضع الخطوات التي أوصلتني لباب البيت حيث أعطيت المُشتريات لـ «ندى» وأسرعتُ لعملي.

وأنا أسير في أزقة القدس التي صارت رائحة الهمّ دخيلةً عليها، فبين الأزقة منذ عرفتُ نفسي عرفتُ رائحة كلّ شبرٍ في القدس، تتغيّر روائحها مع فصول الحياة لكنّها لا يطول الأمر وتعود لأصلها، كرائحة الدم التي تتداخل أيّامًا عقب غاراتٍ ما أو اشتباكات، إنّما بهذه الأيّام، أشم رائحةً أخرى لم أعرفها، أميّزها بين ذرات رائحة القدس الأصلية، هناك ما يشدّ انتباهي أكثر، أولئك الحمقى الواقفين عند كلّ زقاق، وعلى أبواب المساجد والكنائس، حتى العقائد باتَت أمرًا يجب الترخيص لممارسته، كثرت أعدادهم هذه الأيّام بشوارعنا، تذكرتُ حين رأيتهم تلك المرّة التي أوصلتُ فيها أولاد عمّي للمدرسة وكانت آخر مرّة قبل رحيله وأهله للبنان، حين ظهر أمامنا مجموعة من اليهود مدجّجين بأسلحتهم، لم نكترث لهم ولم نعرهم اهتمامًا وربّما ذلك ما دفعهم لاستفزازي، أذكر أنّي لم أجب استفزازهم بغير نظرةٍ سلّطتها عليهم بضع ثوانٍ، حملت بين طيّاتها كلّ

معاني الاشمئزاز والازدراء، أوقفوني فلم أُبدِ ردّة فعل، حتى أبناء عمّي الذين لم يعرف الخوف لهم طريقًا خصوصًا من شخص يتحدّث غير العربية، في بيتنا وبين شوارعنا علّمونا أنّ الخوف لا يكون إلّا من الله، وأنّ قول الله أنْ لو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء ما استطاعوا ذلك لو لم يشأ الله حقٌّ لا غبار عليه. علّمونا أنّ أهل عروبتنا الأحق تسميةً بأعداء، فأصدقاؤنا هم أَولَى أن ينقلبوا بين فينةٍ وأخرى أعداءً لنا، يعرفون جيدًا أيّ الأهداف يُصيبونها فينا، أمّا هؤلاء، فهم جبناء لم يملكوا أرضًا، أتوا وراهنوا على بقائهم بأرضٍ مِلكٌ لشعبٍ غيرهم، أمّا إخوتنا من لغتنا فهمّهم بات يتطوّر ليكونَ 'السلام' مع المستوطن، ولا يهم رأي أهل الأرض لا بل حتى مستعدون للوقوف ضدّنا متى ما كانت مقاومتنا مُسبّبة لاختلال اتفاقاتهم مع الغريب وسطنا، قلوبهم غُلف على ما وقع وسطهم وبين شوارع أطهر مُدنهم، وكأنّ هذا الثرى لم يكن يومًا عربيًا، لم تعد قلوب بني إسرائيل فقط غُلف، بل أبناء عمّهم كذلك. قلوبهم على أقفالها ترانا ولا ترانا، ترمي بنا كما رمى 'آزر' سيدنا 'إبراهيم' في النار وما رمى إذ رمى ولكنّ الله أغداها بردًا وسلامًا، وما الله بناسينا نحن كذلك أبدًا... ألم يخن إخوة سيدنا يوسف أخاهم لكنّ الله شاء له أقوَم من ذلك وأحسن حالًا، ورغم ما سوّلت لهم أنفسهم من عمل، ورغم ظنونهم أنّهم تخلّصوا منه، يشاء الله ما يشاء وكذلك هو يشاء لنا والخيرة فيما اختار لنا... عندما أوقفونا راحوا يفتشون حقائب أبناء عمّي، يقلّبون كراريسهم بأيديهم النجسة فتغدوا تلك الحقائب بما فيها وكأنّها نجت عن صراع

حيوانــات مفترســة للتــو لا أنّ يــد اليهــود عبثــت بهــا، وعــماذا يفتشــون؟ لــو كانــوا ذوي حــق بشــبرٍ هنــا مــا كان الخــوف يعشّــش بصدورهــم، لانقلبــت بحينهــا الآيــة وكنــا الأجــدر بالخــوف... نحــن فتياننــا مــع كلّ مســاء يلعبــون أمــام دبّاباتهــم كأنّهــا لا تنتــزع أرواح أحــد، يطبّلــون عــلى حوافّهــا إيقاعــات كأنّهــا خــردة لا تُفيــد بــشيء، أيّنــا أجــدر بالخــوف لــو كانــت الحقيقــة التــي يحاولــون إخفاءهــا غــير صحيحــة، أيّنــا أجــدر بالوقــوف عــلى مشــارف شــوارع بلــده يحرســها، أنــا أو هــذا الــذي ليــس بقلبــه ذرّة أحاســيس لهــذه الأرض غــير أنّهــا هديّــة الــرب التــي تركوهــا وأبــوا دُخولهــا وقــت كُتــب عليهــم دخولهــا فاتحــين باســم الديــن، وأيّ ديــن بالأســاس تركــوه لأنفســهم حتــى يســتدينوا بــه وهــو عــلى الحــال الــذي هــو عليــه اليــوم... صراعنــا مــا كان لأجــل ديــن، ولــن يكــون، لهــم دينهــم ولنــا ديننــا، وقــد عــاش اليهــود بيننــا منــذ الأزل وكنّــا ذوي جــيرة ومعرفــة بهــم، إنّــما قضيتنــا أرضنــا مــن أقــصى شرقهــا لأقــصى غربهــا، حقّنــا المــشروع الــذي نُهــب وأنّــى لأحــدٍ أن يصمــت عــلى حقّــه. لــو أتــاك غريــبٌ يــدق بــاب بيتــك وبيــت أهلــك ومــيراث أجــدادك أن اخــرجْ فهــذا كان وســيكون بيتــي، أكُنــتَ ستُحاربه وتتخذهــا قضيتــك أم تــترك لــه البيــت ليعثــو فيــه خرابًــا كيفــما شــاء؟ مــا كــسر ظهرنــا وأضعــف حالنــا بــين الحــين والحــين غــير أنّ لا أحــد لنــا غــير الله، في حــين إخواننــا ينامــون بــل يســبتون في جحورهــم...

أتممــت صعــود شــارع ’المنصوريــة‘ ســائرًا لـــ ’جبــل الزيتــون‘ تــاركًا خلفــي منظــر ســور القــدس العتيــق تطــلّ عنــه القبّــة الذهبيّــة لمســجد الصخــرة ومــآذن الجهــة الشرقيــة وبســاتين الزيتــون تكتفِــي

بـأن تُفـرش أمامـه كبسـاطِ حامـلٍ للمدينـة. كلّ مـا هـو عـن اليمـين هـو حديـث النشـأة بإمضـاء أيـادي الاحتـلال، ولم يكتفـوا بنهـب مـا عـلى الأرض بـل كان لأمواتهـم نصيـبٌ كذلـك مـن هـذا الثـرى. أسـيرُ مُرهـق العقـل مـن التفكـير، أراهـم يسـيرون قريبًـا منّـي، أولئـك الأوغـاد وكأنّهـم يدعسـون بأحذيتهـم عـلى قلبـي، يخطـون بوجـوهٍ عابسـة وأتذكّـر قـول الله أنْ سـيماهم عـلى وجوههـم، وأنّـى لأحـدٍ منّـا ألّا يلمـح تلـك التفاصيـل عـلى ملامحهـم مـن عدوانيـةٍ وحقـدٍ ودماؤهـم امتزجـت بالكراهيـة... هـمّ أرضنـا لوحـده كفيـلٌ بإرهاقنـا نفسـيًا فالأمـر يفـوق طاقـة تحمّلنـا، نَعيـش حياتنـا، نـمارس تفاصيلهـا، نبتسـم وبقلوبنـا تركـع الأحـزان وتسـتقرّ انكسـاراتنا التـي نحـاول مـع كلّ ابتسـامة منّـا تثبيطهـا لإدراكنـا أنّ قتلهـا حُلـمٌ عقيـم...

تضيـقُ الطريـق المحفوفـة بأشـجار الصنوبـر الفتيّـة التـي تحـدُّ بسـاتين الزيتـون العريقـة، ويضيـقُ بذلـك صـدرُ مـن تخطـو أقدامـه مُهـرولًا كحـالي، أحـاول الوصـول لبسـتان العـمّ «جوزيـف» فقـد صرتُ أعمـل لديـه حتـى أجـد لنفسـي بديـلًا يُسـاير مُسـتواي التعليمـيّ الـذي قضيْـتُ حيـاتي أتعـبُ في تحصيلـه، هـو شـيخٌ طاعـن في السـن، مـا إن تـراه قادمًـا مُبتسـمًا ليفتـح لـك البـاب مُرحبًـا سـتلمح الصليـب الكبـير الـذي يُعلّقـه عـلى صـدره، شـيخٌ يجعلـك تـرى الله في تصرفاتـه، في رحمتـه وطيبته رغـم أنّـه لا يجمعنـا الكثـير مـن التفاصيـل بـين دينَيْنـا، لكنّـي أراه نِعـمَ المعلّـم لي، وقـد تعلّمـتُ معـه منـذ أسـابيع مـا لم أدركـه منـذُ سـنوات، أذكـر يـوم عـدتُ للعمـل في اليـوم الـذي رُفضـت فيـه مـن العمـل بشـهادتي كيـف ربـتَ عـلى كتفـي وجعلنـي أوقـن أنّ

الله قـدّر لـكلٍّ منّـا امتحانًـا في الدنيـا لا بـدّ لـه أن يخوضـه لـيرى مـدى تحمّلنـا ومـدى صِدقنـا وإخلاصنـا في حبّنـا لله وقناعتنـا بـما وهـب لنـا، كلماتُـه جعلتنـي أخجـل مـن نفـسي وتسـاءلت كثـيرًا مـن الـذي كان الأقـرب لقـول هـذا وأنـا المسـلم الـذي وجـب عـليّ قبـل كلّ شيء اليقـين بـكلّ مـا ذكّـرني بـه، سـألته بعدهـا مـا دُمنـا عـلى عقيـدة متقاربـة وإيـمانٍ واحـد فلـمَ لا نكـون عـلى ديـنٍ واحـد، لم يجبنـي لكنّـه فيـما بعـد ذكّـرني بوجـود قـولٍ في الإسـلام أنّ اختلافنـا نعمـة مـن الله، ولسـتُ في شـكٍ ممّـا بلغنـا في القـرآن لكنّـي تمنيـتُ أن أعلـم مقصـد الله ممّـا ذكـر، وتمنيـت يومهـا لـو ملكـتُ رُبـع مـا يملكـه هـذا الشـيخ بعقلـه وبقلبـه لله...

أمضيـتُ مـا قـدّر الله لي مـن سـويعاتِ عمـل وأنـا ببسـتان العـمّ «جوزيـف»، ذاك الـذي لم يكـن مقيـمًا منـذ سـنواتٍ حيـث هـو حاليًـا، كان كـما يقـول مـن قبـل ميـلادي يسـكن المنطقـة الغربيـة مـن القـدس القديمـة في ’حـارة النصـارى‘، وهـذه الأرض كانـت ملـكًا لجـارٍ مسـلم لهـم آنـذاك كان يعمـل عنـده «جوزيـف» وأورثـه إيّاهـا لكَونـه لم يملـك أهـلًا ليرثوهـا، عكـف عـلى خدمتهـا والعـودة لبيتـه كل مسـاءً إلى غايـة ذاك اليـوم الـذي عـاد فيـه لحارتـه ووقـف قريبًـا مـن بيتـه لا يُصـدّق مـا تـراه عينـه عائلـة مـا تُدخـل أغراضهـا نحـو بيتـه، لا تغيـب أبـدًا عـن ذهنـي تلـك العـبرات التـي تجمّعـت بعيونـه وهـو يقـصّ تلـك التفاصيـل عـليّ، كنـت أتخيّـل الأمـر أمـام ناظـري، وكثـيرًا مـا حمـدت الله أنّ الأمـر لم يحصـل مـع أهـل بيتـي، أرجعـتُ ذلـك كَونـه كان الوحيـد الـذي يعيـش ذلـك المنـزل بعـد غيـاب أبنائـه، لـو كنـتُ مكانـه لمـا تركـتُ الأمـر وغـدوت عائـدًا لـ ’جبـل

الزيتـون، كـما فعـل هـو وأعيـش مـا تبقـى مـن سـنيني بـين كُتـب الإنجيـل وهـذه الأرض، ربّـما لـو كنـتُ مكانـه لوقفـت بوجههـم وتصدّيـت لمحاولتهـم أخـذ بيتـي، ولم أفهـم تبريـره الـذي قالـه لي حـين سـألته لمـاذا لم يُقـاوم ولا زلـتُ أبحـث في الأمـر لأفهـم... ولا أظنّنـي سـأفعل.

دخلـتُ البيـت وعقـلي لا يـزال يحفـظ تفاصيـل وملامـح كلّ أولئـك الوحـوش الذيـن رأيتهـم بطريـق عـودتي، وأظنّهـم يحسّـون مـن نظـرتي شـدّة كرهـي لهـم، لكـن أوَليـسَ الحـب والكـره شـعوران يفوقـان طاقتنـا؟ ولا أمـر لنـا فيـما يحكـم هـذا المُتربّـع بـين أضلعنـا، ألم يكـن الحـبّ مـن عنـد الله والكـره بأمـره؟ وأنـا عـلى تسـاؤلي لمحـتُ «رهـف» وتأكـدتُ فـورًا مـن قـولي وأيقنـتُ أنّي عـلى حـقٍ فيـما أقـول، ابتسـمتُ لهـا كمحاولـةٍ منّـي للاعتـذار عـمّا بـدَر منّـي في الصبـاح، لكنّهـا أشـاحت بوجههـا وأكملـت طريقهـا عـبر رواق البيـت. ردّة فعلهـا التـي لم تعجبنـي أوصلتنـي لبـاب غرفـة «دعـاء» أطرقـه.

-تفضل!

-مساء الخير أختي، كيف حالك؟

-غريب أن تأتي فور عودتك نحو غرفتي، ماذا هناك؟

-لا شيء فقط أسأل عنكم.

-عنّـا؟ مممـم، تقصـد عـن ضيفتنـا التـي أزعجتهـا بمعاملتـك هـذا الصبـاح؟ قلّـة لباقـة منـك ولم أعهـدك هكـذا.

-لم آتِ لأسـمع منـك جُمـل التوبيـخ، بالمختصر لقد استسـمحتها فلـم تعـرني اهتمامًا...

-أنـت! «عُمـر» بذاتـه يطلـب الصفـح مـن أحـد! أشـم شـيئًا غريبًـا في الأمـر يـا رجـل؟ مُتأكّـد؟

-حسـنًا، لم أطلـب مسـامحةً منهـا هكـذا مصارحـةً، إنّـما هـي لم تـترك لي فرصـة لذلـك.

-«عُمر»! (بنبرة استهزاء من كلامي).

-يـوه... حسـنًا لمحتُهـا، ابتسـمتُ لهـا فـأدارت وجههـا ولم تأبه لي... (أتمـمتُ وأختـي تضحـك) كنـتُ أنـوي أن أطلـب منهـا أن تسـامحني عـلى مـا بـدر منّـي هـذا الصبـاح، مجـرّد هفـوة... توقفـي عـن الضحـك... ومـا الخطـب أن ابتسـمت؟ هـي المخطئـة هـذه المـرّة... قلـت توقفـي عـن الضحـك! أصـلًا الخطـأ ليـس خطـأكِ الخطـأ خطـأ مـن أتـى ليحدّثـكِ...

تركتهـا وخرجـت مـن الغرفـة وهـي تضحـك وتقـول أنّهـا كانـت تعلـم أنّ شـكلي ليـس شـكل إنسـان يخطـئ ويُصحّـح أخطـاءه، وهـل عـليّ إثبـات قولهـا أم نفيـه؟ سـأفكّر بالأمـر حالمـا أسـتيقظ فـإنّي الآن مُنهـك...

1986 (أيلول)

لنا في الأيام أدوية لندوب أرواحنا، فالأيّام تعلّمنا ما نعجز عن تعلّمه، هي تمضي غير آبهةٍ لا بحزنك ولا بفرحك وأنتَ عليك ألّا تترك لها سبيلًا أن تمضي على حساب حياتك...

كانت نفسها -الأيّام- كفيلةً بأن تجعل ضيفتنا ترضى عنّا جميعًا، حتى عنّي، ربّما كنت فظًا لكن في كلّ الأحوال كانت ذات كرمٍ أن نسيَت كلّ تصرفاتنا الوقحة معها والتي بالطبع لم نكن نقّصدها، ربّما لأنّنا لم نتعوّد على وجود ضيوفٍ بيننا فكلّنا كبرنا على أساس عائلة واحدة لا أحد بيننا غريب، فلا نفكر كثيرًا فيما نتلفّظ به أو نفعله ولا ننزعج من جنون بعضنا سوى ثوانٍ تمضي على عجل... وأدركُ بعد هذا الشهر من وجود «رهف» بيننا لقد فهمَت حال أمرنا وعرفته... لكن كيف لشهر واحدٍ أن يُحيي بقلبك كمًّا هائلًا من المشاعر، فهذا الذي عن شمال صدري صار يفيض عن الأحاسيس ولم يعد بمقدوري تخطّيه وعدم الاكتراث له... صار كلّ همّي الوقوف حاملًا بيميني بندقية، وكلّ مُناي أن أركض مُخلّفًا ورائي جثثًا صهيونيّةً هامدة، ليس هذا وحسب، أوَليست الحروب مقرونة في جلّ العقول بالحب؟ أنّى لي أن أتخطّى كلّ ما أزهر بقلبي لوجود «رهف»؟ ولا أعي أيّ الإيقاعات تلك التي تتناغم تارةً عن حبٍ وتارة تجعلني أودّ الخوض بحروبٍ لا نهاية لها ضد المُستبد... أحاول استيعاب الأمر، تُراهم من عاشوا قضيّتي أدركوا أجوبة سؤالي أم أنّه لم يخطر

على بالهم قطّ؟ إنّي لشِدّة ما أكنّه لتلك الفتاة بتُّ لا أستطيع تخيّل أنّها تعيش بهذه الأرض التي استنزفها المستعمر، أودّ لو أنّ لي قدرة فأمحي كلّ تلك الجراح التي خلّفها أبناء صهيون بهذا البلد، لعلّني بذلك ألتمس راحة لقلب تلك الفتاة، ولا أهتم لما تؤول إليه حياتي بعدها... لكنّي أحاول أن أهدئ من روعي، وأطفئ اللهيب المُشتعل بقلبي فذهابي عن هذه العائلة الآن ليس لصالح أحد، أستكين وأُخمِد البركان بصدري حتى يحين أجله.

لم أخبر أحدًا عن إعجابي بـ «رهف»، آه كدتُ أنسى أن أستثني عن قولي أختي التي أدركَت الأمر بنفسها منذ الأيّام الأولى لوجود الفتاة بيننا، والعمّ «جوزيف» الذي حكيتُ له التمس أن يصف لي دواءً لحالي الذي بات كلّ يومٍ أسوأ... «الله هو الحب» لغاية هذه الجملة من حديثه كنتُ معه وما بعدها لم أفهمه أو ربّما خانني التركيز، لكنّ الحديث معه أفادني بأن أوهجَ فتيلة الصبر بقلبي على الأمرين، بلدي وتلك الفتاة التي لا تُبدِ أيّ اهتمام بي، والأصحّ أنّي لم أطرق بابًا للوصل بيننا، ولم أحاول إلّا أنّ أبيّن أنّها لا تتعدّى كونها ضيفةً لنا، أنتظر من الأيّام أن تُحدِث بيننا مُعجزةً ما، رغم أنّي الأجدر بالإقدام على أوّل خطوة، لكنّ شجاعتي التي اشتهرتُ بها منذُ صغري خانتني هنا، فأودّ الاستسلام لقلبي ونبضه لكنّ كلماتي تقف بيني وبين بلوغ مقصدي، وأنوي القول أنّي قد أُغرمتُ بها فلا تكون سوى أهلًا يا «رهف» أو كيف حالكِ؟ وأراها غير مُكترثة، فكيف بالله لا أتردّد... انقسمَ عقلي شطرين، شطرٌ لا ينفكّ يفكر بهموم بلادي، وشطر

بمعضلة وقعتُ فيها ولم أكن أحسب لها من حسبان.

-يا عمّ والله ما عدتُ أطيقُ صبرًا.

انفجرتُ بعد سكوتٍ طويل، والشمس حينها كانت بكبد السماء، أشعّتها تعبر قبّعة العم «جوزيف» وتستقرّ على قطرات العرق المُتصبّب عن جبينه فتلمع كالدُّرر... رفعَ رأسه وانسدلَ على وجهه ستار الحيرة يسأل أيّ الموضوعين أنا أقصد بقولي فقد أرهقته بشكواي... رميتُ الفأس من يدي، ورميتُ نفسي على الأرض كطفلٍ عنيد.

-لم أعد أستطيع... كلا الأمرين أغرقني ببئر التفكير ولا أظنّها بئرًا تعرف قرارًا.

-حسنًا... اسحب أوّل كلمة من البئر وسنمضي نقتفي أثر كلّ هذه المشكلة وسترى أنّ لا شيء يستحق أن تستنزف ساعاتك وتفكيرك لأجله، خُذ الأمور على بساطتها ستجدها أبسط ممّا كنتَ تتوقّع.

-هل تعلم يا عمّ، ليتني كنتُ مثلك...

ابتسم العمّ «جوزيف» واقترب وجلس على الأرض أمامي ونحن مقابلان للبلدة القديمة وهي بفخامتها مُحاطة بتلك الأسوار العالية...

-هل ترى يا بنيّ هذه المدينة؟

-القدس... نعم، ما بها؟

-هل تعلم كم من قلبٍ تمنّاها ملكه؟ أو كم من عقلٍ استمات وهو يفكّر بُغية إيجاد سبيلٍ ليبلغ ما تمنّاه قلبه؟

-...

-هل أدركوها جميعهم؟

-ممم لا أظن...

-لا ليست قضيّة ظنون أو اعتقاد... الأمر جليّ، ليس جميع من يبغي أمرًا يبلغه يا ولدي...

ما الشبه الذي لامسه «جوزيف» بينهما؟ لا أعلم، حتى تفكيري طيلة تلك الليلة لم يُفدني بشيء، أو ربّما لأنّ قلبي هو بالأساس يربط بينهما فأراد المُضيّ من معضلتي بالذات...

على كلّ حال فالأيّام تمضي، ألم أقل من قبل أنّها تمضي؟ تجرّنا خلفها، تدفن ذكرياتنا، تفاصيل عشناها مع من قاسمونا حياتنا، وأحيانًا تدفن خطأً كذلك أرواحنا... إنّها قضية وقتٍ لا أكثر... أقول أنّ سُفني ما عادت تهوى أمرًا فلتضرب الريح كما هوت وأحبّت، إنّما أُراجع نفسي أحيانًا، فلا أجدُ شيئًا أحبّ إليّ من أن أبلغ ذاك الحلم ويغدو واقعي... عدم الرضا عن الوضع الذي نعيشه صار يتصاعد كدخانٍ ويتغلغل بين النفوس وسط شوارعنا، ذاك الفتى الذي قدّم لوظيفة بإدارةٍ خاضعة للمستعمر تمّ رفضه من قبل عشرين مرّة، وفي الواحدة والعشرين تم توظيفه لكنّ أولئك العساكر الأوغاد طالبوه بتصريح للعبور ذات صباحٍ على غفلة وهو بطريقه إلى حيث عمله، ذاك التصريح الذي لم يحرّره له لا ربّ عمله ولا حتى الحارس الذي يقف على باب المؤسسة، وذاك الآخر الذي كان يزاول عمله كعادته وإذ به ذات صباح يجد شخصًا آخر في مكانه، سبب طرده لا يزال مُبهمًا ولا يزال هو يجوب الشوارع بشعرٍ أشعث يُفكر ما الذي سيسدّ جوع عشرة أطفال وأمّهم ويعيلُ جدّيهم...

يلتقي وهو على حاله ذاك الآخر الذي كان له معملٌ بأسره، ابتاعه أبوه وجدّه بالأيّام الأخيرة لبريطانيا هنا منها والذي جمعوا مبلغه فلسًا فِلسًا، استخرج الدُّخلاء أوراقًا مزوّرة وانتزعوه منه حائطًا حائطًا، رفع قضيّةً، أضاع فيها من المال ما لا يُصدّق وأمات من الزمن ما لو سكبه ساقيًا به كرمةً لأنبتت وصار عنبُها خمرًا... أو ذاك الذي بقيَت قارورة ماء واحدة نويَ اقتناءها لزوجته المريضة وقدم بعده ابن الحيّة انتزعها من يده وأخرسه صاحب خوذة كان مارًا صدفةً بتهديدٍ بالقتل ولولا تفكيره لمن سيترك عائلته لدفعَ دمه ثمن الماء... أو الآخر الذي ظُلم بحقه في اقتناء سكن، وبِيعَ لابن حيّةٍ آخر... كلّ تلك الفروق التي خُلقت بيننا ونحن الذين صمتنا لأجل السلام، رضينا بالمصائب التي سُلّطت علينا ولكنّهم لا يرضون بما كُتب لنا من حقٍ في الحياة... كيف لا ينفجر البركان من تحت أقدام ذلك الذي استوطن؟ إنّي فقط أترقب، فلا بدّ لفتيلةٍ ما تُفجّرنا، أو قطرةٍ تُفيض كأسنا أو حتى قشّةٍ تكسر ظهر دابتنا، المهم أن ننفجر...

ذات صباح، كنتُ أهمّ بالذهاب لعملي، فتحتُ الباب وإذ بي أجدُ رجلًا كبير العمر، لحيته شعثاء بيضاء ناصعة، وجهه ليس بغريب عليّ لكنّ منظره كذلك، التجاعيد تغطي ذلك الوجه بأكمله وعلى خدّه الأيمن ندبة كبيرة كأنّها علامة بخنجر قسمت خدّه إلى نصفين، نظرَتُه تحسّها كأنّما تخترق كلّ ما تقع عليه، ابتسم ما إن لمحني وهو كان يهمّ بدقّ الباب وبين أسنانه المصفرّة تلفّظ باسمي، ما إن سمعتُ صوته حتى عادت بي الذاكرة فجأة ليخطر على بالي والدي، صورته التي

في بـالي صـارت تتبلـور لتُشـابه التـي هـي أمامـي كلّ ذلـك ببضـع ثـوان كانـت كافيـة ليضمنّـي هـو بـين ذراعيـه، تخالطـت دموعنـا وقتهـا وسـمعتُ «دعـاء» تـصرخ محاولـةً إخبـار أمّـي أنّ والـدي أتـى، أيّ اشـتياق كان يُثقـل قلوبنـا وكنّـا نرفـض التصريـح بـه؟ ذاك الجليـدُ الـذي حاولنـا دومًـا تبريـد مشـاعرنا بـه مـن أيـن كنّـا نجلبـه يـا تـرى؟ هـل الصـبر فقـط مـا يفعـل هـذا؟

مسـحتُ دموعـي تـاركًا أبي لشـقيقيّ وأمّـي وعمّتـي ليحضنـوه، لمحـتُ «رهـف» تقـفُ غـير ببعيـد تنظـر نحونـا مُبتسـمة، هـل كلّنـا حـين نلمـح البهجـة عـلى مُحيـا مـن أمامنـا نبتسـم أم أنّ السـعادة مـرض مُعـدٍ؟ لـو كان فلـماذا لا نتجرّعـه عـلى أسـاس دواءٍ مُمـرضٍ ليمـرض العـالم بـأسره بالسـعادة ونتخلّـص مـن كلّ هـذا الكـمّ مـن الحـزن! لشـدّة تلـك الفرحـة التـي كنـتُ فيهـا ولأنّ بسـمتها كانـت أكـبر ممّـا أسـتطيع تحمّـل وجودهـا بـلا ردّة فعـل اقتربـت كـمارٍ مـن أمامهـا والـكلّ كان مُهتـماً بأمـر والـدي وهمسـت:

-أحبّك...

مسـألة الحـب أكـبر مـن أن تحلّهـا شـفرة أو كلمـة سريّـة أو حتـى سـحريّة، لا سُـلطة لنـا عليـه، إنّـما قـد نعانـده، حتـى نستسـلم، وكان اعـترافي أشـدّ نـوع مـن الاستسـلام... لم أنتظـر بعدهـا أيّ رد، مشـيتُ وأنـا أحـاولُ اسـتيعاب مـا تجـرأتُ عـلى القيـام بـه، دخلـتُ المطبـخ أبحـث عـن شربـة مـاء أبـلّ بهـا ريقـي الـذي جـفّ عـمّا تفوّهـت بـه، فأحيانًـا كلمـة واحـدة قـد تسـتنزف منّـا طاقـة تكفينـا لخـوض معركـة والظفـر بالفـوز فيهـا، إنّـما الفـرق أنّهـا كلمـة لا أعلـم في أيّ الأبعـاد سـأفوز الآن... وددتُ

لـو كانـت نافـذة المطبـخ أكـبر فأهـرب منهـا فـلا طاقـة لي بـأن أعـود مـن نفـس الطريـق الـذي أتيـتُ منـه، أحـاولُ تصديـق مـا أقدمـت عليـه مـن جنـونٍ ولا بـدّ أنّهـا هـي الأخـرى لم تسـتوعب الأمـر عـلى الأقـل بلحظتهـا، وقـد تكـون مـن الأسـاس لم تسـمعني. وللصراحـة لا أعلـم كيـف هربـتُ مـن البيـت بعدهـا، حتـى وجـدت نفسي واقفًـا أمـام البـاب خارجًـا ألتقـط أنفـاسي كمـن كان يركـض هاربًـا فعـلًا، تُـرى الحـبّ أمـرٌ يحثنـا عـلى الهـرب دومًـا أم أنّـه أمـرٌ وقـع لي أنـا فقـط؟ مشـيتُ بـدربي المعتـاد خرجـتُ مـن المدينـة القديمـة عـبر 'بـاب الأسـباط'، متوجّهًـا لعمـلي، لمحـت «جوزيـف» مـن بعيـد مـا إن أتممـت الصعـود عـبر طريـق 'المنصوريّـة' فلوّحـت بيـدي ورحـت أركـض وأنـا أنـادي بأعـلى صـوتي:

-أخبرتها يا عمّ... أخيرًا أخبرتها...

-ولـك يـا مجنـون اسـكت حـاج تـصرّخ فضحتنـا... وتعـال لهـان واحكـي شـو صـار.

كنـت ألهـث كالكلـب الراكـض خلـف عظـم، أطـوي مـا تبقـى لي مـن الـدرب حتـى أبلغـه وأخـبره أخـيرًا بالـذي حصـل:

-يعنـي أنّـك لسـتَ فرحًـا بقـدوم والـدكَ بقـدر فرحـك بـما أقدمـت عليـه مـن تهـوّر!!

ربـما كان ذلـك هـو الحـال فعليًـا، لكنّـي بالتأكيـد مـن فرحتـي بمجـيء أبي أقدمـتُ عـلى أمـرٍ كهـذا، السـعادة أحيانًـا تكـون كالمخـدّر فـلا نـدركُ مـا نُقـدم عليـه حتـى وقوعـه، أو ربّـما هـي مـا يحملنـا عـلى التخلّـص مـن شـبح الـتردّد، فلـو لم يحـدث أن وجـدتُ أبي عـلى البـاب لمـا بلغـتُ هـذا المبلـغ الآن. ضحـك

«جوزيف» عليّ كثيرًا، وقال أنّ الاعتراف أنسبُ لي ما دمتُ أقدمتُ عليه فالأمر بالأساس لم يكن لينستر أكثر.

-هل تظن يا عمّ أنّها ستسعد؟

-إن شاء الله يا ابني... بنقدرش نحكم، بس نقول إن شاء الله...

قالها وترك الأمنيات تتضخّم بقلبي أكثر، شجرة الأمنيات التي كانت تذبل كأنّي أحسّ بانتعاشها المفاجئ. استأذنت مبكرًا من «جوزيف» للعودة للبيت اليوم حتى ألحق بوالدي فبعد تصرّفي ذلك لم أبق بالبيت واختفيت منه، أعطاني أجرة يومي وودّعني ضاحكًا.

عدتُ لأجد والدي بالباب مرّة أخرى، ما إن فتحت الباب وجدته وظننته أوّل الأمر ظلًا وهو كذلك واقفٌ بعتمة المدخل:

-وين كنت يا ولد؟ هلقيت جاي؟

-كنت بشتغل يابا.

-فش حدا برا؟

-لا تحكيلي رايح!

-وبتسأل؟! لا راح اضلني هان!

لم يدّخر الحزن وقتًا ليبدو على وجهي، لم أشبع بعد منه ولم أطفئ جمرة الاشتياق التي بقلبي.

-لكن يابا... لم أجلس معك.

-للأسف... ليس لديّ وقت، لو فكرت بذلك قبل

اختفائـك الصبـاح، كنـتُ سـأخبركم أنّي لـن أطيـل المكـوث وإذ بي لم أجـدك أساسًـا.

-العمل يابا...

-ظننتَ أنّي سأبقى هنا، هاا؟

أخذ رأسي يجرّه نحوه مبتسمًا وأكمل:

-والبلـد مـن يكافـح ضـد مُسـتعمريها يـا ابنـي؟ هـل أتركهـا هكـذا؟

-معك حق... (قلتها محاولًا أن أبتلع بها غصة الحزن).

-عـلى فكـرة، ذكـرتَ العمـل؟ أخبرتنـي أمّـك أنّـك تعمـل ببسـاتين الزيتـون بالمنصوريـة، كيـف الأمـور مـع عملـك؟

-الحمـد لله يابـا... لا تقلـق عـليّ ولا عـلى العائلـة فهـم بخـير وأمورنـا كذلـك... أنـت هـل تحتـاج لـشيء؟ (وهممـت بيـدي لجيبـي أخـرج منهـا أجـرة يومـي وأضعهـا بيـده).

-لا داعي يا ابني لذلك.

-أنـتَ أولى بهـا منّـا... ولسـتُ الوحيـد الـذي يُعيـل البيـت لا تقلـق علينـا...

تقبّلها وراح يودّعني بحضن، فاغتنمتُ الفرصة وسألته:

-يابا! كيف أستطيع اللحاق بك، أقصد المقاومة؟

نظر إليّ وأظنّه لامسَ في عينيّ جديّة السؤال:

-متـى مـا يصـل الوقـت المناسـب سـتجد الطريـق لنـا تمامًـا كـما وجدنـاه جميعًـا، بـس لازمـك تتـدرب قبـل... اعتنـي بنفسـك وإلى ذلـك الحـين اعتنـي بهـم...

توجّـه نحـو البـاب تـاركًا إيّـاي. اسـترقَ النظـر وهـو يفتـح البـاب ببـطء، ثـم همـس «السـلام عليكـم» واختفـى.

ظللـتُ ماكثًـا هنـاك أسـترجع مـا قالـه لي هـذا الـذي صـار شـيخًا وتغـيّرت كلّ ملامحـه، ابتسـمتُ كيـف يتغـيّر الإنسـان عنـد غيابـه عـن نظـرك طويـلًا كلّ هـذا الكـمّ مـن التغـير، تمنيّـت لـو أطـال زيارتـه لنـا أو عـلى الأقـل لـو تـرك لي طـرف خيـط لألحـق بـه أينـما كان...

-ذهب العم «رامز»؟

حـطّ صوتهـا عـلى مسـامعي كنسـمةٍ ربيعيـة، زاد بسـمتي فرحًـا لتبـدو أكثـر اتسـاعًا عـلى مُحيّـاي، لم أسـتدر لأرى وجههـا، لكنّـي امتـلأت بهـا لمجـرّد سـماعي صوتهـا، خفضـت رأسي هربًـا أن يجـرّني هـو الآخـر للهـلاك ويسـتدير لتتقابـل نظراتنـا بعـد مـا أقدمـتُ عليـه هـذا الصبـاح، همسـت أن نعـم... صمـتُّ أسـمع نبـض قلبـي الـذي بـدا مُتمـرّدًا عـن كلّ الإيقاعـات التـي سـبق لي أن سـمعتها، انتظـرتُ حتـى اختفَـت ليعـود نبـضي لحالتـه العاديـة واسـتدرتُ أتعقّـب كلّ مـا خلّفتـه عـن وقفتهـا تلـك بـرواقِ بيتنـا الـذي أحسـدُه عليهـا كلّ لحظـة مـرورٍ لهـا بـه... هـي قليلـة الحديـث، ومـا دامـت حدّثتنـي الآن سـائلة فـلا بـدّ أنّ لذلـك معنـى، أو ربـما ذاك مـا يُسـارع قلبـي في تقييمـه... غسـلتُ وجهـي لأسـتفيق عـن أفـكاري، طلبـتُ مـن أمّـي أن تحضر لي شـيئًا لآكله وجلسَـت أمامـي تحدّثنـي عـن زيـارة والـدي التـي لم أكـن ذا حـظٍ ليكـون لي نصيـبٌ منهـا. وممّـا أخبرتنـي أنّ والـدي حدّثهـا ألّا تذهـب بهـذه الآونـة مـع «رهـف» إلى ’غـزة‘، طلـبَ منهـا انتظـاره حتـى تكـون لديـه أعـمال هنـاك ويرافقهـا هـو الآخـر أو

ربـما يسـتعين بهـا عـلى العبـور نحـو ’غـزة‘.

–يعني ذلك أنّ «رهف» ستبقى عندنا؟

–ربـما... أنـا سـأحاول جعلهـا تبقـى، فبعـد حديـث والـدك أحسسـت أنّهـا منزعجـة... لم أحدثهـا لحـد الآن يعنـي لا أعلـم مـا يجـول ببالهـا فعليًـا.

–حسنًا إذن اسأليها وأخبريني.

–حسنًا... انتظر، لماذا أخبرك؟

–يامّـا هـاي ضيفتنـا، لا أحتـاج سـببًا عـلى مـا أظـن، أريـد الاطمئنـان فقـط لا أكثـر...

–حسنًا، حسنًا لا بأس، لا تنزعج...

ولا ينقصنـي سـوى أن يكتمـل العـدد بمجموعـة الذيـن يشـكون في أمـري بأمّـي... أتـى أخـي «عـليّ» وصرنـا نتحـدّث عـن أمـور دراسـته، ذاك الشـقيّ الـذي لا يريـد اسـتكمال ذلـك الـدرب الطويـل لِما رآه عـن تجربتـي، أحـاولُ دائـمًا لململمـةَ مـا قـد يفيـضُ عـن همـومِ تكدّسـت بقلبـي جـرّاء تلـك التجربـة حتـى لا يراهـا ولا تتغـيّر نَظرتـه نحوهـا، لا بـدّ لنـا مـن أن نتعلّـم كيـف نُغمـض أعيننـا عـن الهمـوم، وذاك مـا لا يُجيـده «عـليّ» وذاك مـا اسـتوجب عـليّ أنـا المحاولـة فيـه، فـلا أتـرك لـه الفرصـة لـيرى الأمـور بشـكل أوضـح حتـى يسـتطيع الاسـتمرار، يجـب عـليّ تعليمـه التغـاضي وإلّا فـلا أحـد بمقـدوره الصـبر عـلى هـذه الحيـاة التعيسـة... قالهـا يومًـا أبي لي وأكرّرهـا لـه دومًـا كـي ترسـخ في عقلـه وتصبـح مبـدأً يؤمن بـه عقلـه الباطـن «إنّ الحيـاة لا تنتظر أحـدًا ولا تعطـي فرصًـا ولا دروسًـا مجانيّـة، والعيـش في هـذا العالم

أمرٌ أشبه بالجنون فأنت تدرك مدى قذارته لكنّك تصرّ على خوض تجربتك بمفردك، فما دمتَ قد فتحت عينيك ليومٍ جديد فخضه، فلا أحد سيكمل طريقك سواك، أمّا عن الحزن فهو ماضٍ، ويبقى ما اجتهدت في تحقيقه وتبقى آمالك التي ستجعلٌ منها وقودًا تواجه بها أحزان المستقبل وتتغاضى بها عن أيّ محاولةٍ لقطار الحياة أن يدعسك، وحده التغاضي يجعل ذاك القطار الطويل أمرًا عابرًا» وصدق أبي في قوله... أردّد أقواله رغم علمي أنّ «عليّ» ليس بمُستمعٍ جيّد، لكنّي بنفس الوقت أعرف تأثير تكرار القول. حينَ وعيتُ على الدنيا أدركتُ أنّنا لولا التكرار لما غيّرنا أخطاءنا بالصواب، ولولاه أيضًا لما تطوّر الأمر الصائب الناقص شكلًا للأحسن حالًا منه، لذلك لم أملّ يومًا من تقمّص دور المعلّم رغم أنّي لا أكبره إلّا بثلاث سنوات، لكنّي أحسده أحيانًا كَونه الأصغر بيننا، فهو مُتميّز عنّا بكوننا جميعًا مهتّمين به، وحتى وهو لا يلقى منّي سوى الصرامة فأختي بحنانها تعطف عليه وتعوّضه أمّا أمّي فبحكمتها، وبالرغم من كلّ ذلك إلّا أنه ساخط على الجميع ولا يهتم لرأي أحد ولا لنصائح أحد عكسَ طفولته التي أمضاها تمامًا، ربّما هذه طباع المدلّلين ممن يكونون أصغر أفراد العائلة، غالبًا ذلك هو الأمر...

هل ظننتم أنّ الحال مع «رهف» تغيّر بشيء؟ لم يتزحزح شيء من مكانه، وأظنّ أنّ قلبها بالذات لم يتحرّك، فلم تُبدِ أيّ رد فعل، ربّما تسرّعت في تقدير الأمر في ذلك اليوم فغالبًا هي لم تسمع اعترافي أو ربّما ذاك ما صرتُ آمل، لا تزالُ على

حالها معي عديمة الكلام إلّا في حالاتٍ نادرة، وحدي من تغيّرتُ، فصرتُ أتعقّبها أكثر وصار نظري يتشبّث بها منذ ظهورها حتى تختفي، أحاولُ حفظ تفاصيلها بعقلي مثل ذلك العاشق الولهان، أين كنتُ من كلّ هذا وأين رصانتي المعهودة والمعروفة عني، غيّرتني هذه الفتاة أو للحقيقة غيّرني السقوط في شِراك الحب... أنا الذي لم أكن لأرفع يومًا نظري مع فتاة تحدّثني بتّ أسترق من عينيها نظرةً لأغوص في العسل الذي وُجد فيها، تكفيني منها ابتسامة رضا لأُمسي ليلي كلّه أعدّ النجوم فرحًا... وأخيرًا صرت أشكّ بأنّ بي مسًّا من جنون.

«أصابك عشقٌ أم رُميت بأسهم» لا بل طُعنتُ غدرًا به، هكذا هو الحب، لا يأتينا إلّا ونحن فارغون تمامًا من أيّ نوعٍ من المشاعر، إلّا ونحن نظنّ أنّنا لا نحتاجه ولسنا أبدًا على رصيف انتظاره، يأتينا ليؤكّد لنا أنّ المُنتظَر لا يُنال وأنّنا ما لا ننتظره سيفاجئنا حتمًا. لم أكن على استعدادٍ لمواجهة قصور الحب أو طَرقِ أبوابه أو المشي في دهاليزه، والحقيقة أنّي لم أطرقه ولم أتعلّم المشي أبدًا، هو من اجتاحني وضمّني إليه كطائرٍ ضخمٍ خُرافيّ، كان يكفيني البقاء وحيدًا والتفكير بمصيرِ بلدي طوال حياتي وبالمفترض لو أرادَت لي أمّي الزواج ستختار لي هي وأختي أي فتاة من بنات الجيران أو إحدى معارفهما وأحمل باقة زهور وهديّة وأتّجه لخطبتها وستمرّ أسابيع وأتزوجها لأنجب لأمّي أحفادًا يركضون أمام عينيْها ويكبرون وأشيخ معهم، أو قد يكون الحال أحسن وأتركهم عندما لا أستطيع الصبر أكثر وأحمل مسؤوليةً أعظم من

مسـؤوليتهم وحدهـم وأسـتودعهم لله وألتحـق بالمقاومـة، كان ذلـك كلّ مـا يجـول ببـالي، فأتـت هـذه الغريبـة عنّـي وقلبَـت كلّ الموازيـن وغـيّرَت تصريـف الأفعـال في قواميسـي، حتـى المُعادلات صـارت قابلـةً للحـلّ كـما تقبـل الرمـيّ عـبر أراجيـح الفلسـفة، ولـو سـألتني مـا علاقـة الرياضيـات بالفلسـفة، فـلا أعلـم... وهـل للحـب علاقـة في الأمـر مـن الأصـل حتـى تسـأل؟ عندمـا يُصـاب امـرئٌ بالعشـق فالأجـدر بـك ألّا تسـأله عـمّا هـو يحـاول أن يسرد عليـك مـن تفاصيـل، تلقَّـف كلماتِـه التـي لسـتَ مُجبرًا عـلى فهمهـا ولا أظنّـك بالأسـاس سـتفهم، أو لا تحـاول أبـدًا أن تسـتمع لـه، فكّـر بـما يهمّـك أفضـلُ لـك مـن أن تُضيّـعِ وقتـكَ وأنـت تُنصـتُ لـه، مَثِّـل الإنصـات وكُـن هائـمًا مُسـترقًا لتلـك اللحظـات لصالحـك، ففـي كلّ الأحـوال هـو لـن يهتـم لتركيـزك مـن عدمـه، غالبًـا هـو لا يعلـم أصـلًا لمـاذا هـو يتحـدّث، فلنقـل أنّـه كمـن يرتشـف خمـرًا، سـاكرٌ وغائـبٌ عـن الإدراك والوعـيِ، إنّـما مُسـكِرُه شـعورٌ ربّـانيٌّ حـلالٌ ومُبـاح، يُقـذَف في القلـب قذفًا. والغائـب عـن الوعـي في حـضرة الحـب قـد جاهـد بـما يكفـي حتـى يبلـغ مرحلـة السُـكر فرَحمـةً بحالـه، أوَليـس الجنـون هـو مـا يبلغـه العبـد بعـد الحـب؟ وأسـمى درجـات الحـب لا تُربـط إلّا بالجنـون أصـلًا...

عـلى كلّ حـال... أظنّنـي غرقـتُ بهـذا الموضـوع ونسـيتُ الأهـمّ. لقـد كان عقـلي مُنقسـمًا إلى شـطرين، وصرتُ أراني أميـل لشـطرٍ بعنـوانٍ أنـا عـلى معرفـةٍ حديثـةٍ بـه، لا أحـد يسـتقيم متوازنًـا أو ثابتًـا عـلى خـطٍ واحـدٍ ليُقيـم العـدل بـين أمريـن، وذاك مـن صفاتنـا كبشر، سـنميلُ دومًـا نحـو جهـةٍ واحـدة بحسـب مـا

يُسيّرنا، سواء كان ما يقبع داخل جماجمنا أم كان تلك المُضغةُ بأيسر الجسد التي تنبض لنعيش...

استفقتُ اليوم على صوت مؤذّن المسجد الأقرب للبيت ’مسجد مكّي‘ يصدح بصوته الشجيّ ينادي لصلاة الفجر، نهضت وتوضأت وخرجت من البيت قاصدًا المسجد، طويتُ شارعنا أو ما يُلقّب بـ ’عقبة حب الرمّان‘ واستدرت يمينًا حين بلغتُ ’عقبة درويش‘ وأنا أُسارعُ الخُطى لألحَق بصفوف المصلّين. غرقتُ بتلك السجدة التي سجدتُها والتي أحسستُ أنّ الإمام اتفق مع نفسي خِفيةً عنّي فأطال فيها. أتممنا الصلاة، كلٌّ سار بدربه إلّا البعض منّا، انكبّ البعض يرتّل القرآن والبعض يسبّح بحمد ربّه، وأعتقد أنّ البعض مثلي، بدأ الذّكر ثم انجرف بسيول التفكير وسار يتبعُ عقله، أفكّر كيف سيمضي اليوم أيضًا أحمّل نفسي عبء التفكير فيما سيحدث قبل حدوثه فأكون بذلك أتخمتُ نفسي تفكيرًا بالأمر، قمتُ حين تذكرتُ أنّي أقلق وأفكّر والله من فوق سبع سماواتٍ سيُدبّر الأمر كيفما يشاء، استودعته حالي وخرجت من المسجد عائدًا.

وأنا أتناول فطوري رفقة أختي ووالدتي، شارد الذهن أفكّر في طريقةٍ أو سبيلٍ لألتحق بمنظمة التحرير أو أيّ حركة تحرّر من التي يعرفها البلد، فلا يهمني ماهيتها المهم عندي أنّها تسعى لهدفٍ واحد هو التحرّر، وأعلم أنّنا ككل شعوب العالم سنُعاني من تشتّتٍ في صفوفنا ثم سنُنظّم، والمثال الذي أتذكّره دومًا في ذلك هي مقاومة الجزائر، حيث ممّا أعرف أنّها كانت مشتّتة بين مؤيّد للسِلم وآخر مُعارضٍ

لـه ومُنبثـقٍ عـن بـركان الغضـب القومـيّ وطامـعٍ لتفجـير الثـورة عـلى عجـل، وفيـما يُعـرف أنّ بعـد كلّ تلـك الجَلَبـة التـي وقعـت ظهـر مـن أطَّـرَ الثـورة وسـعى لهـا سـعيَ المُناضـل لأجـل بـلاده وأولادهـا جاعـلًا مصلحتهـم فـوق كلّ أمـر، وهـا هـم الآن بعـد عقديـن مـن الزمـن عـلى اسـتقلالهم، لكنّـي لا ألبـث تـردني أخبـار عـبر المذيـاع عـن بـوادر فـوضى حاليًـا هنـاك أيضًـا، لكـن الحـال بالنسـبة لي أهـون، فالفـوضى التـي تُقـام بـين أخويـن أنـذل وأحقر فعـلًا لكنّهـا ليسـت أبـدًا كالتـي تكـون بينـك وبـين مُسـتعمر... وإنّي بـتُّ أؤمـن بقـولِ «جوزيـف» حـين قـال «إنّي لأشـمّ رائحـة فـوضى سـتولد عـن قريـب، وأنّ مخاضهـا هـذه المـرّة لـن يكـون يسـيرًا، لكنّـي لا أظـنّ أنّي سـيكفيني مـا تبقـى مـن عمـري حتـى أشـهدها» وأنـا بمشـهد تفكـيري واصـلٌ لغايـة عبارتـه ملامـح وجهـي كانـت غريبـة عـليّ تمامًـا ولطـول مـدّة صمتـي اسـتدارت نحـوي والـدتي لتسـألني سـبب صمتـي فـرأت ملامحـي:

-«عُمر»! ما بك؟

-ها... (كمن صُعق) ... لا شيء... لا شيء يا أمّي...

-يـا بُنـيّ لـك أيّـام عـلى حـالٍ مُتقلّـب، هـل هنـاك شيءٌ مـا يشـغل بالـك يجـب أن نعرفـه؟

-لا شيء يا عزيزتي لا تشغلي بالك...

اقتربـتُ منهـا لأقبّـل رأسـها كمحاولـةٍ للتملّـص مـن الأمـر، وإذ بالحسـناء النائمـة تظهـر فجـأة، وأقـول حسـناء لأنّهـا كذلـك فعـلًا، أو ربّـما لأنّي لم أعـد أراهـا بعينـيّ بـل بقلبـي، فالمُحـبّ أعمـى. وكونُهـا نائمـة لأنّهـا صـارت كثـيرة النـوم متـى مـا حللـتُ عـلى البيـت وبحثـتُ عنهـا يُقـال نائمـة، وإنّي في تفكـيري

ذلك وتسميتي لها والزمن الذي كنتُ أحسبه مُتوقفًا، حتى شدّتني «دعاء» من يدي فأفقت.

-«عُمر» سنخرج اليوم.

استدرتُ نحوها أعيدُ ترتيب كلماتها على مهل فعقلي بأكمله كان مشغولًا، ثم حرّكتُ رأسي فقط أومئ أنْ نعم فأظنّ أنّ أعصابي التي تربط عقلي بالكلام خُدّرت.

-أقول لكَ هذا حتى لا تفضحنا كتلك المرّة لو لمحتنا...

حرّكت رأسي مجدّدًا لكنّي هذه المرّة بت أفهم ما هي تقوله.

-حسنًا... سنخرج لأنّ «رهف» عائدة لـ 'غزّة'.

إمّا أنّي لا زلت لست مُرتبطًا بالواقع أو أنّي غالبًا أسأتُ الفهم، لكن بعد مرور ثوانٍ وصمتِ أختي التي في انتظار أي تعليق أدركتُ أنّي لم أتوهّم الأمر وبدأ عقلي أخيرًا في امتصاصه كأنّما كان يقف على عتبة الباب والآن فقط أدخلَته لخلايا عقلي واستوعبَته:

-ماذا قلتِ؟ أين؟

-قلتُ أنّنا سنخرج...

-الأمر الآخر، الآخر... (مُحرّكًا يدي أن غيّري القول).

-تقصد... غزّة؟

هناك نطقَت لُبّ القلب صاحبة سنابل القمح بجدائلها وعينيها العسليتين «رهف»:

-نعم، سأعود لـ 'غزة' بعد أيام...

-أظـنّ أنّ هنـاك حلقـةً فاتتنـي مـن مسلسـلكم... أيـن كُنـتُ أنـا؟

-كنـت أنـوي المكـوث معكـم حتـى تـرضى عمتـي ونذهـب سـويّة لــ ’غـزة‘ لزيارتها...

وقفـت مـن مـكاني ولا أعلـم أيّ المشـاعر كانـت تتكاثـر في قلبـي، فأنـا سريـع الغضـب في العـادة، لكنّـي الآن ليـس بي غضـب، نظـري مُثبّـتٌ عليهـا، قاطعـتُ حديثهـا فلـم تُكملـه رُغـم نـبرة صوتهـا التـي تُفـضي أنّهـا تـودّ ذلـك، لكنّـي لم أصرخ كعـادتي بـل تحدّثـت كمـن يرجـو أحـدًا:

-إذن ابقِي...

صمـتُّ عنـد ذلـك الحـد وكنـتُ قـد اسـتدركتُ نفـسي، ولم يعلّـق أحـد، لا أمّـي ولا أختـي، وبقيـتُ أقـف جامـدًا عـلى حالتي أنظـر نحوهـا وعـلى وجههـا ملامـح الحـيرة الدخيلـة عليـه فـإنّي تعرّفـت عـلى تلـك الملامـح للتّـو... طـال مكوثنـا كذلـك حتـى دخلـت «نـدى» ابنـة عمّتـي:

-ما بكم جامدون كمشهد وُثِّق على صورة؟

اسـتفقتُ حينهـا وهممـت بالخـروج، مـررتُ عـلى مقرُبـةٍ مـن «رهـف» توقفـتُ ودون أن أنظـر نحوهـا نطقـت:

-لن تذهبي اليوم، أليس كذلك؟

-لا، غدًا...

تنهّـدتُ ومشـيتُ تـاركًا الوضـع عـلى حالـه. اتجهـتُ نحـو عمـلي سـأُمضي الوقـت الـذي أجتـازه في الطريـق في التفكـير، لسـتُ متعـوّدًا عـلى الهـرب، لكنّـي لم أجـد هـذه المـرّة وسـيلة

أحسـن فلـو بقيـت لاختنقـت.

وصلـت عنـد العـم «جوزيـف»، سلّمت عليـه وقبـل أن أُبـاشر عمـلي أوقفنـي وسـألني مـا الخطـب، فقـد كان جليًّـا عليّ أنّي لسـتُ عـلى مـا يُـرام، استسـمحتُه كَـوني لا أريـد الحديـث حـالًا ووعدتُـه أنّي بعـد إتمـام عمـلي سـأخبره بالتفاصيـل، وكان كذلـك. لـن أقول أنّـه امتـصّ حـزني، ولكـنّ مجـرّد الحديـث فيـما يُزعجـك قـد يُهدئ مـن روع الحـزن بقلبـك... عـدتُ للبيـت بعـد جرعـةٍ بسـيطة مـن الأمـل التـي وهبنـي إيّاهـا العـم «جوزيـف» حـين قـال أنّي لا أعلـم مـاذا أراد الله لي أحسـن ممّـا أراه الآن وألّا أحكـم عـلى الأمـور لمجـرّد حصـول أمـرٍ بسـيط، كلماتـه لم تكـن اليـوم الترياق الشـافي لي... كنـتُ أحتـاج جرعـاتٍ أكـبر مـن أيّ مُسـكّن...

دخلـتُ البيـت، تركـتُ حذائـي قريبًـا مـن البـاب، توجّهـت لغرفتـي وألقيـت بجسـدي المُنهـك عـلى سريـري، لم تسـتطع رجـلاي حتـى المـرور بالحـمام لأغسـل وجهـي، أغمضـت جفنـيّ مُحـاولًا الهـروب لأيّ جُحـرٍ مُظلـم بعنـوان النـوم، وإذ بأختـي تدخـل للغرفـة لاحقـةً بي، سـألتني هـل كنـتُ أنـوي النـوم:

-أيّ سـؤالٍ هـذا يـا «دُعـاء»؟ هـداكِ الله... شـخصٌ عائـدٌ عـن يـومٍ مُضـنٍ ويستلقي في سريـره في رأيـكِ ألـن ينـام؟

-كنتُ سأخبرك أنّ أمّي فقط تريد التحدّث إليك...

ثـم اقتربَـت وجلسَـت عـلى حافـة السريـر وأنـا أراقبهـا بنظـري وبحنـان الأمّ الـذي عهدتهـا دومًـا عليـه أمسـكت يـدي وسـألت:

-حزنتَ عندما علمتَ بأمر عودتها، أليس كذلك؟

لم أجبها لكنّ عيوني فضحتني، فما تُخفيه الألسُن تُفشيه العيون.

-من منّا لم يحزن لذلك يا عزيزي، لقد اعتدنا وجودها بيننا، لكنّها بنفس الوقت مجبورةٌ على العودة.

-ليست مجبورةً على شيء، قالت أنّها تنتظر والدتي فلتنتظرها للأبد هنا، وجودها لا يزعجنا بشيء.

-... «عُمر»... عليك أن تفهم أنّنا أحيانًا نقدّم تضحيات، وأحيانًا أخرى لا نستطيع تقديمها، وهي الآن ليست مُطالبةً للتضحية بالبقاء معنا... تعلم يا عزيزي أنّ والدها مريض فكيف تنتظر منها البقاء معنا في حين أنّ والدها هناك يحتاجها؟

-تمامًا، هنا بالذات هذا التفصيل أنا لا أفهمه... لم أستطع فهم القصّة بشيء ولم أشأ أن أكون فظ القلب لأسأل عن تفاصيل لو تُبدَ لي تَسوئني...

-ألا تعلم؟

-لا...

قمت واعتدلت في جلستي لأسمع عن «دعاء»:

-أمّا قدومها، فقد قدمَت برًا بوالدها الذي طلب منها ذلك، وكان شرطه أن تأتيه بأخته التي قاسمته طفولته والتي هي أمّي...

-كيف تأتيه بها؟ أليست تريدها أن تزوره لا أكثر؟ لم أفهم...

-حسنًا، أنت تعلم أنّ خالي «أدهم» كان مناضلًا ضد

صهيـون، وقـد التحـق بالمقاومـة رغـمًا عـن الجميـع، وتعـرف أنّ أمّـي كان مـن المفـترض أن تعـود لـ ’جباليـا‘ لكنّهـا لم تعـد وتزوّجـت بـأبي هنـا، بتلـك السـنوات عـاد خـالي بعـد إصابتـه التـي جعلتـه مُقعـدًا...

-لم أفهـم مـا سـبب هـذه المقدمـة الطويلـة، أيـن «رهـف» مـن هـذا؟

-إمّـا أن أخـبرك التفاصيـل فتـعِ مـا أنـا أقولـه أو أصمـت، وجِـد لـك مـن يحكـي لـك...

-أكملي...

-أنـت تذكـر أنّ أمّـي تخبـئ بعـض الرسـائل كانـت تقـول لنـا عندمـا كنّـا صغـارًا أنّهـا مـن عائلتهـا بــ ’غـزّة‘، تلـك كانـت مـن «سُـها» والـدة خـالي «أدهـم»، بعدهـا انقطـع وصـول الرسـائل لأمّـي رغـم أنّ كليهـما أرسـل لهـا العديـد مـن الرسـائل طـوال هـذه السـنوات الماضيـة تصـوّر!

-لكـن مـا ذنـب أمّـي أنّ الرسـائل لم ترِدهـا، ومـا شـأن «رهـف»؟

-ييبي، «رهف»«رهف» «رهف»...سأصل لـ «رهف»...

-أكملي لقد أطلتِ قصّتك.

-عندمـا كـبرت «رهـف»، وبعـد محـاولات خـالي «أدهـم» البائسـة بالوصـول لأمّـي والاطمئنـان عليهـا لم يتبـقَ أمامـه إلّا إرسـال ابنتـه الوحيـدة لغايـة هنـا بُغيـة البحـث عنهـا.. تصـوّر لـو كانـت أمّـي قـد غـيّرت سُـكناها أو أنّ أحـد اليهوديـين اسـتولى عـلى مسـكننا! مـا كانـت لتجدهـا أبـدًا حينهـا...

-وماذا يريد، ما الهدف من إرساله لابنته كلّ هذه المسافة التي تكاد تكون بين دولتين لا بل دولتين ومُستبد، أيّ مجنون يُرسل ابنته وماذا، الوحيدة أيضًا... يا للعجب... ليتكِ لم تُخبريني...

وسط اشتعالي كنتُ أهمّ بأن أقوم أتوجّه نحو «رهف» ولا أعلم لماذا أو كيف خطر ببالي لكنّي كنتُ على يقين أنّ قدمي ستأخذني نحوها، لكنّ أختي أمسكت ذراعي مُستوقفةً إيّاي لتُكمل حديثها وتُجيبني عن سؤالٍ سألتُه ونسيت أنّي قد فعلت، ألم أقل أنّ العشّاق مُصابون بمسٍّ من جنون؟ خصوصًا حين يتعلّق الأمر بمن هُم بالقلب مكانتهم.

-أرسلَها يا «عُمر» كما لو كُنتَ أنتَ مكانه تمامًا وأنا بـ 'غزّة' ولا تعرف عنّي شيئًا ولا تستطيع الوصول إليّ حتى... أرسلها لأنّه يحملُ في قلبه ما تحملُه أنتَ في قلبكَ اتجاهي تمامًا وربّما بقلبٍ أكبر... أرسلها لأنّ قدميه خانتاه ليأتي بنفسه، فأرسل ابنته وهو يستودعها الله ويأمل أن تعود له بها أخيرًا، أرسلها لأنّه يعلم أنّه لو لم يفعل هكذا فعِناد أمّك لن يأتي بها مهما أرسل غير هذه البنت التي حلّت علينا وبيننا وكان لها حظ من قلبك! أتظنّ نفسك تحبّها أكثر من والدها؟ راجع ذلك مع نفسك... لا أظنّ أنّ في هذه الدنيا أحدًا سيحبّها ويخشى عليها أكثر من حبّ والدها لها وخشيتُه، ستفهم تمامًا ما أقوله وتُدركه أفضل منّي تمامًا حين تُرزق ببنت، وربّما في ذلك الحين ستوقن أنّ خالنا لم يُخطئ في شيء...

-وأمّي لماذا لا تذهب؟ أليس ذهابها مؤقتًا؟ ظننتُ أبي

منعها من الرحيل لا الزيارة.

محاولًا بسؤالي تخطّي كلّ قولها ذاك وإثبات أنّه لم يكن يعنيني، لا أعلم هل كنتُ أكذبُ على نفسي أم عليها وكلانا يعلم يقينًا أنّ قولها لا يزال يدور بعقلي.

–طلبَ منها ألّا تعود لو وجدت أمّي إلّا وهي معها في زيارة لـ 'غزة'، عندما أرسلَت له أنّ والدتي طلبت منها أن تتريّث أوصاها بالبقاء حتى ذلك الحين، وإنّي بحسب إحساسي أظنّ أنّ والدتي لو ذهبَت لن تعود، ستبقى لجوار أخيها...

–لا أفهم لماذا لم تذهب أمّي؟ ألم يعلم أبي أنّها مجرّد زيارة؟ كان بمقدورها أن تزوره بعدها ألف مرة وقت احتياجه للذهاب لـ 'غزة'.

–أبي... عندما أتى طلب منها أن تنتظره فغالبًا لديه مهمّة في نهاية هذا العام إلى هناك وسيُساعده لو استعان بها، وأظنّ أنّه أحسّ مثلي أنّ والدتي لو ذهبت لن تعود، ولذلك أمرها بالتريّث...

–جيّد فلينمُ كلّ غصنٍ حيثما طاب له العيش، لا أعارض والدتي... الآن همّي تلك المجنونة لماذا تُريد المغادرة... اتركيني أذهب وأقنعها أن تنتظر وسأحلّ الأمر...

فقد كانت لا تزال تشدّ على ذراعي.

–لا تُتعب نفسك... جميعنا حاولنا معها لكنّها اختارت العودة.

–ألم تقولي برًّا بوالدها ولا أعلم ماذا كنتِ تقولين، اترُكيني،

أساسًا لا تسمع كلامكم ستسمع كلامي أنا وتُنفّذه أعلم...

هناك شدّت «دعاء» على ذراعي أكثر وتغيّرت نبرة صوتها التي كانت حزينة وغُلّفَت بالصرامة هذه المرّة:

-وهل تظنّ أنّ قولكَ أو طلبكَ مهمّ بالنسبة لها؟ «عُمر»! لا تبنِ أحلامًا على جسورٍ بلا ضفاف!

-ماذا تقصدين؟

-أقصد ما أقصده يا «عُمر»، لو كانت مُهتمةً لأمرك لانتبهت لكلّ ما أنت مُقدمٌ عليه يا أخي!

-لا لن تنتبه أنا أحاول دومًا أن أخفيَ الأمر، كيف لها أن تعرف...

-كلّنا نعرف، ونلاحظ أبسط شيء كيف هي بالذات لم تنتبه ولا تعرف؟

نظرت نحوها بحيرة صبيّ بعمر الخامسة.

-لا ترمقني بنظرةِ الحائر... عيونُك يا «عُمر» لا تعرف التمثيل... قد تُجيدُ التمثيل وتُتقنُه في كلّ شيء، ما عدا عيونك... أنت حتى لا تجتهد بشيء لإخفاء إعجابك واهتمامك بها، حتى أنّها منذُ أن تُطلّ على الغرفة وأنت تراقبُها حتى تأفل كنجم... كيف لها ألّا تعلم؟ وفليكن، لو كنتَ ترى أنّها قد تقتنع بالأمر لما انتظرتَ وأخبرتها، ما دمتَ لم تُقدم على أيّ خطوة فليست من نصيبك أبدًا... كنتُ سأتدخّل لكنّ عدم تقدّمك جعلني لا أُقدم على شيء...

ارتخت عضلات يدي التي كنتُ أحاول سحبها من قبضة أختي بُغية الفرار، فراحت هي الأخرى تُرخي يدها، علمَت

أنّي رجعتُ في قرار ذهابي لأيّ مكان حاليًا، أخذتني بحضنها وهي تردّد أنّ لا شيء يحصل إلّا برضا الله، ولا بدّ أنّ الله كتب الخير في هذا الأمر، أمطَرتني وابلًا من جُمل المواساة، لكنّها في تلك اللحظة بالذات لم تكن لتُفيد بشيء... كان لزامًا عليّ أن أواسِي نفسي بنفسي قبل أن ألقى مواساةً من أحد فأن أسمع كلماتٍ من أيٍّ كان كانت هي آخر خطوةٍ قد أفكّر فيها حاليًا، وأظنّ أنّ مواساة قلبٍ خاب أمله أصعب... ذاك أشبه بتعزيته في نفسه، أو رميّ التّراب عليه ودفنه، عبارات الجميع الآن لن تكون سوى قطع من زجاج تعبثُ بهذا الجُرح المفتوح حديثًا، وما آلمني من قولها ليس ظنّها أنّي لم أفعل شيئًا، لكن عِلم الجميع وعدم اكتراث الأحق بمعرفةِ الأمر.

جلستُ مع نفسي أحاول معرفة الحلَقَة التي فقدتُها من الأمر برمّته، أحسستُ بسحابة الكآبة تتشكّل حولي تدريجيًا لأتلاشى بينها، ما الخطأ إن أحبّ قلبي أو هوى تلك الفتاة؟ أم أنّي قليلٌ عليها وأحلامُها أكبر منّي بكثير؟ حتى أنّي لم أخطئ أبدًا بحقّها في يوم، حتى يوم اعترفتُ بما أسررته في نفسي طويلًا، هل من الأساس سمعت تلك الكلمة؟ أيّ تكبّر منها هو هذا؟ ألهذا الحدّ يُهان قلبٌ أنْ أحبّ؟ وهل أخطأت أنا كَوني سمحتُ له أن يُحبّ من الأساس؟ لكن ما العمل والقلبُ عاصٍ مُتمرّد؟ ماذا لو كان قول «دعاء» لا أساس له من الصحّة وأن الفتاة لا تزال على سذاجتها ولم تعلم بالأمر أصلًا؟ ذلك أيضًا وارد... لكن هل أُحاول طمأنة نفسي بهذا التفكير أم الضحك عليها؟ أظنّني أسخر من نفسي أن

وصلت لهذا التفكير. لم أعِ إلّا وقد أغلقت باب البيت خارجًا منه، ووجهتي لا أعلم أيَن... حيثما حطّت الهموم أوزارها وخفّ حِملها على كتفي سأتوقّف، ما دامت الشمس لم تُودّع السماء فلا يزال لي متسع من الوقت أقضيه...

عبثًا حاولتُ التفكير بأيّ شيء آخر، فلم أستطع، كلّ تفكيري كان يدور في حلقةٍ مُفرغة في هذا الأمر... أرى الأمر كخسارة، وخسارةٌ في الحب لا تُحتسب خسارة عاديّة، بل هزيمةٌ نكراء وشنيعة، فشلٌ بمثابة انهزامٍ نالَهُ جيشٌ لم يخسر أبدًا حربًا وفجأةً لم يتبقَ من تعداده أحد، أنا لن أعزّيَ قلبي ما إن خسرَ هذا الحب فعلًا، لأنّي سأُعزّى فيه إن غابت «رهف» بالفعلِ عنّي، لأنّها إنْ رحَلَت يومًا أعلم حجم الفجوة التي سيتركها رحيلها ليسَ فقط في صَدري، بل في حياتي بأسرِها، الأشياء التي ترتدينا ولم يكن لها مُتسع من برنامجنا، فقدُها مُؤلم أكثر من استيطانها بأفئدتنا... خسارتها هي بالذات تُعتبر أشدّ أنواع الهزائم، كُمستوطنٍ ثالث لبلادي إنّما أراها أمرًا لا مفرّ منه لو كان قول «دعاء» صائبًا... إنّي كلّما حاولتُ سحب نفسي عن التفكير بالأمر أراني أغرق به أكثر... لأنّي أظنّني لن أتمكّن يومًا من المُضيّ ونسيان الأمر... أحاول عدم التسرّع بالحكم، أفتّش كمجنونٍ عن أيّ عذرٍ أسدّ به الفجوة التي تكبر كلّما فكّرت فيها... وأيقنتُ الآن فقط أنّ كلّ مُحبٍّ فاقد عقل.

مشيتُ حتى وصلت 'مسجد الحمرا'، دخلته أنتظر صلاة المغرب، كلّ الأماكن ضاقت عليّ ما عاداه... خرجتُ وقد أُزيحت الغصّة عن قلبي، قد يظلّ التفكير بعقلي لكنّ قلبي

استكان وذلك سيكفيني سويعات من الزمن عدتُ للبيت خلالها. لأوّل مرّة كنت عاصيًا لقلبي مُتمرّدًا عن إرادته، يسألني استراق نظرةٍ لشعرها الذهبيّ المُنسدل ففي كلّ الأحوال قد تكون هذه هي آخر مرّة أراها فيها أو تقاسمني مائدة العشاء. حين لم أستطع تسيير قلبي وإخضاعه قمتُ هاربًا لأدفن رأسي بسريري تحت وسادتي، أحاول النوم هروبًا من التفكير في أيّ تفصيلٍ أو حدثٍ وقع اليوم أو قبله أو سيقع بعد هذه الليلة.

***

صوت جلبةٍ بالشارع، فتحتُ عينيّ، نظرتُ نحو الساعة فوجدتُها الثانية ليلًا وست عشرة دقيقة، قُمت من مكاني مُقتربًا نحو النافذة، فتبادر على ذهني أبي عندما كان ينهانا عن الاقتراب من النافذة عند سماع أيّ فوضى مجهولة السبب بالشارع، ذكرتُه بدعوة. رفعتُ الستائر وأخذتُ أسترق النظر بين فتحات النافذة الخشبية ولمحتُ ابن أحد الجيران صاحب العشرين ربيعًا يُجرّ من طرف ستّة صهاينة، تساءلت هل هو لهذه الدرجة من الخطورة حتى يُكبّل ويُسحب من طرف ستّةٍ من أبناء الحيّة؟ حاولتُ تذكّر الشاب، وسيمٌ ذو بشاشة وجهٍ وفصاحة قولٍ تجعلك تشكّ في ذاك الرقم الذي يتخذه عمرًا له، الابن البكر لوالديه لكن لا يفصله عن عمّه عُمرًا سوى بضعة شهور جعلته أكبر، لا أذكر أنّي رأيتُه من قبل مع أيٍّ من الذين يزورون الحيّ من المناضلين، حاولتُ التذكر لأفهم على الأقل أو أخمّن سبب اعتقاله، لكن أيًّا كان

السبب، هل هو بهذا السوء الذي يجعلهم يداهمون بيتًا بهذا الحجم ويوقظون الجميع في هذه الساعة المُتأخرة ليُخرجوا الشاب بلباس النوم يجرّونه؟ أكاد لا أهضم الأمر، بعد أن ابتعدوا مخلّفين وراءهم صوت نحيب أمّه عليه وإخوته ابتعدت عن النافذة عائدًا لمكاني، لكنّ صدى أصواتهم كان يتردّد بعقلي، أعلم يقينًا أنّ اليهود لا يجدون أسبابًا ولا ينتظرون وجودها لاعتداءات كهذه بل يسعون لها سعيًا ويخلقون لها ألف حجّةٍ وعذرٍ وسيصل دورنا ذات يوم، وأكون أنا أو أخي أو حتى «عادل» مكان «سيف» ابن جيراننا، وسنترك مثيل هذا النواح خلفنا لنخطو لمكان مجهول. لا يُقلقني أن أكون أنا أو «عادل» فكلانا شديد لحدٍ ما، هو ابن شهيد ونشأَ على أساس أنّ اليهود ليسوا مجرّد استعمار بل سبب في كلّ شيء حُرِمَ منه في صغره، وأنا مهما ستكون نهايتي فرأسي دومًا شامخ ولا شكّ في ذلك، خوفي الوحيد على «عليّ» ردة فعله حيال أمرٍ كهذا أجهلها، ليس تشكيكًا في تربية والِديّ لنا إنّما لأنّي أعرف أنّ صبره بحجم بذرة لا يكبرُ عن ذلك ولذلك أخشى عليه أكثر منّا... تقلّبتُ في فراشي كمحاولةٍ منّي لتغيير الأفكار التي تجول في رأسي، لكنّ الأفكار أبت إلّا بقاءً لكنّها تغيّرت فسارت بضع فواصل ونقاط، لقد مضى وقتٌ طويل لم يطرق باب بيتنا صهيونيّ بُغيَة اعتقال أحدنا، هل استحى الآمر بالاعتقالات لكثرة ما استنزف من دماء آل «الملّا» أم أنّنا أصبحنا بسجلّاتهم مجرّد عائلة لا تُمثل أيّ خطرٍ عليهم بما أنهّم أذاقونا الويلات من قبل مرّاتٍ عديدة، أم أنّه فقط هدوء ما قبل العاصفة؟ والغريب أنّهم

بالعـادة عندمـا يغيـبُ شـخصٌ عـن سـجلّاتهم طويـلًا يبحثـون عنـه، يختلقـون تفتيشًـا زائفًـا يداهمـون بـه بيتـه فقـط ليتأكـدّوا مـن وجـوده وأنّـه لم يغـب عـن أعينهـم بُغيـة غدرهـم بمحاربتهـم، لكـنّ أبي غـاب عنّـا ولم يطـلّ أحـدٌ ليقتفـي أثـره وذاك مـا يُذيقنـي طعـم القلـق، فـلا بـدّ أنّهـم يدبـرّون لنـا أمـرًا مـا، أصبـح أمـرًا غريبًـا أن تغيـب عـن بيتـك المداهمـات بـين الحـين والآخـر لا بـل أمـرًا مُؤرقًـا إن صـحّ التقديـر، فهـؤلاء الجـرذان إن تظاهـروا بنسـيانك يعنـي أنّهـم يكيـدون لـك كيـدًا... تنهـدتُ ودعـوت الله أن يجعـل كيدهـم في نحرهـم ويُجيرَنـا ممّـا يُريـدون لنـا مـن شر، واسـتفقت صباحًـا واليـوم جمعـة لا أعمـل صبـاح اليـوم ولا صبـاح يـوم الأحـد، بقيـت في مـكاني نظـري مُثبّـت عـلى السـقف، وعقـلي بعيـد كلّ البعـد عـن حـدود الرقعـة التـي أشـغلها... قمـتُ بعـد تفكـيرٍ مطـوّل قاطَعَتـه «نـدى» التـي توقظنـا اسـتثناءً يـوم الجمعـة لانشـغال أختـي، لحقـتُ بمائـدة الإفطـار التـي تجمـع كلّ أفـراد العائلـة، رفعـتُ نظـري نحـو «رهـف» سـائلًا إيّاهـا إن كانـت تعـزِم الذهـاب اليـوم فسـأوصلها.

-لا بأس، لا داعي لإزعاجك... سأعود كما جئت...

قالـت جملتهـا الأخـيرة بصـوتٍ أقـرب للهمـس، أدركـتُ هنـاك أنّهـا ليسـت عائـدةً عـن طيـب خاطـر فعـلًا، وإنّ عودتهـا بخفـيْ حُنـين يُزعجهـا أكثـر، صمـتُّ محـاولًا ألّا أكـون فظًّـا بإلحاحـي ففـي كلّ الأحـوال سـيحدثُ مـا وددتُـه أنـا فمسـتحيل أن تتركهـا أمّـي تعـودُ لغايـة غـزة وحيـدة، وهنـاك فقـط خطـر ببـالي الذهـاب هـذه المـرة لزيـارة والدهـا الـذي لا أعرفـه إلّا مـن خـلال حكايـات أمّـي... لـو فقـط لمّحـت بقبولهـا لي، لكنـتُ الآن

ذاهبًا لغـرضٍ أحسـن لي وربـما لهـا، لكنّـي أخشـى أن ترفضنـي لو داهمتهـا بطلبهـا مـن والدهـا مبـاشرة، ليسـت لـديّ قـدرةٌ عـلى مواجهـة أمـرٍ كذلـك الأمـر أبـدًا، لا طاقـة لي بـأن أعيـش طـوال حيـاتي مكسـور القلـب لأنّ مـن أحبّهـا القلـب رفضتنـي، أسـتطيع تخطّـي الأمـر إن لم أطلبهـا، سـأتعمّد حـين ذلـك إسـكات نفـسي وقلبـي والتحجّـج أنّي أنـا المُخطـئ ولم أملـك الشـجاعة لمواجهتهـا أو طلبهـا، سـأجعل نفـسي مُخطئًـا في كلّ شيء لعلّنـي أُخـرس قلبـي، لكنّـي لـن أجـد مـا يُخرسـه لـو سـارَ الأمـر عكـس مـا أهـوى... أحـسّ بالجُبـنِ فعـلًا لكـنّ إحساسـه وتقبّلـه أهـون عـليّ مـن محاولـة هضـم خسـارة أو ترقيـع قلـبٍ مُنشـطر... بالـكاد تفكـيري بإمكانيـة عِلمهـا باهتمامـي وعـدم الاكـتراث لـه أعتـبرُه خسـارةً فكيـف لـو طلبتُهـا فعـلًا ورفضـت!

أخبرتهـا وأنـا أهـمّ بالخـروج مـن البيـت أن تكـون جاهـزة بعـد صـلاة الجمعـة لنمـضي، أظـنّ أنهّـا لم تفهـم أنّي أعـزم إيصالهـا لغايـة 'غـزّة'. توجّهـتُ لعنـد العـمّ «جوزيـف» بُغيـة إخبـاره بالقـرار الـذي اسـتجدّ فجـأة وظهـر ببـالي وكـي أطلـب إذنًـا منـه أنّنـي سـأغيبُ حتـى موعـد عـودتي مـن السـفر.

-سـأصلّي مـن أجلـك... كُـن بخـير، وانتبـه عـلى نفسـك وعـلى الفتـاة ففـي كلّ الأحـوال هـي ابنـة خالـك...

-ابنة خالي التي أتت فقلبت كلّ حياتي وستذهب...

-لن تعود؟

-بـلى قالـت أنهّـا سـتعود بعـد سـنة ربـما في حـال لم تذهـب أمّـي خـلال السـنة لزيارتهم.

-يعنـي هنـاك أمـل أن تراهـا مجـدّدًا، وربّـما بوقتهـا سـتتغيّر المُعطيـات، دعنـا لا نسـبق الأحـداث، قـد تعـود الآن إلى بلدهـا وتجلـس مـع نفسـها وتفكـر بالأمـر مـن وجهـة نظـر أخـرى فأنـت لا تعلـم أبـدًا مـا يشـغل بالهـا حاليًـا... دع الأمـر للأيّـام، سـتفصل فيـه...

-إن شـاء الله يـا عـم... كـن بخـير أنـت كذلـك... شـجيرات العنـب دعهـا تنتظـرني لغايـة عـودتي وأجنـي المحصـول، سـيكون قـد نضـج تمامًـا... (قُلتهـا ممازحًـا إيّـاه).

-ههههـه، ذاهـبٌ إلى آخـرِ الدنيـا وتُفكّـر في الكـروم؟ اذهـب الآن لا تتأخـر، البسـتان مِـش راح يهـرب لمطـرح...

سرتُ عائـدًا عـبر شـارع 'المنصوريّـة' أتابـع خطـواتي المُتسـارعة عـبر المُنحـدر أشـاهد مـن بعيـد ذلـك السـور الـذي يحفـظ بـين ثنايـاه عظيـم القصـص والتفاصيـل عـن أهاليـه وذاك الدّخيـل بينهـم، تذكّـرتُ ابـن جيراننـا تُـرى أيّ الأماكـن الآن تضمّـه؟ أو أيّ السـجون، دعـوتُ الله أن يلطـف بحالـه لأنّي أعلـم اليهـود وما يمارسـونه مـن أسـاليب تعذيـب حتـى لـو كان المُعتَقَـل بريئًـا.

وأنـا أشـقّ تلـك الطريـق صعـودًا نحـو سـور القـدس، عـن شـمالي ويمينـي تتصاعـد رائحـة البخـور التـي أشـعلها زوّار مقـبرة 'اليوسـفيّة' عـن اليمـين ومقـبرة 'الرحمـة' عـن الشـمال حيـث ثرى جـدّتي التـي دُفنـت هنـاك منـذ سـت سـنوات، جرّتنـي قدمـاي نحـو قبرهـا أتلـو فاتحـة الكتـاب عنـده ولم أُطل كثـيرًا حتى يتسـنّى لي اللحـاق بالبيـت والذهـاب للصـلاة بعـد ذلـك... عـبرت 'بـاب الأسـباط' دالِفًـا طريـق المجاهديـن وتغـيّرت الأرضيـة الاسـفلتية إلى تلـك الحجـارة المرصوصـة منـذ قـرونٍ والتـي بقيـت الشـاهد

الوحيد على أحقيّة أهل الأرض بأرضهم، خطرت ببالي تلك الجملة التي ردّدها الدّخيل علينا وقت عبوره من نفس الباب مُستوليًا على الأقصى بذلك التاريخ الأسوأ لنا، العاشر من يونيو عام السابع والستّين: "جبل الهيكل بيدنا» جملةٌ تعلّمنا أنّها قيلت، ولا زلنا نحاول أن نتعلّم كيف يكون الردّ عليها مناسبًا، أو إنّنا عبثًا نحاول، فقط طال الأمر ونحن على نفس الحال، واليهود يستغلّون صمتنا بالتصعيد في ممارساتهم وظلمهم واستبدادهم لنا، نودّ الكلام فيُخرسنا من زعموا أنفسهم إخوتنا ونظنّ أنّهم بقوا على العهد القديم من دمنا، تُرى دمهم اختلط فَمَا عادوا يعرفون أنّنا أهلهم أم أنّنا نحن من أخطأنا حين استُعمرنا؟ بئس الأخ الذي هو بمثل أولئك المُسيئين للُغتهم ولأصلهم وسِيئت الأخوّة التي تُعرِبُ كلماتهم، استغنيتُ عن القول أنّ دمهم عربيّ، فقلوبهم لا تضُخّ ما تضخّه قلوبنا أبدًا... أولئك هم من أوصلونا لهذه الحال وليس اليهود، اليهود حين دخلوا ما كانوا ليُطلقوا العنان لذلك الشيطان الساكِن في نفوسهم لو وجدوا أحدًا يحمي ظهرنا، كُنّا صغارًا كفراخ تحتمي بقبيلتها وتستقوي بها ولا أعلم هل هُم من طردونا من الملّة أم هُم من اتخذوا ملّةً أخرى وتركونا على مُخلّفات الماضي نتحسّر على حالنا، صار لزامًا ألّا ننتظر أمرًا لا من العرب ولا من غيرهم فلا أحد يهتم أبدًا لنا...

تغيّر الجوّ كذلك ما إن عبرت الباب، فنسيتُ تفكيري ذاك وهدأ لهيب قلبي، كأنّني عبرتُ عبر بوابة زَمنٍ فطُوِيَت سجلّات الحزن الأمديّ، وتسارعت روائح أزقّةِ القدس

لأنفي، وحلّ بخيالي صورةٌ عن تشابك هذه الشوارع المتناغمة، استسلمتُ لرائحتها وتوقفتُ فجأة أشاهد هذه التفاصيل التي حفظَت مروري وحفظتُها حتى صرتُ لا أُلقي لها اهتمامًا بالغًا، حتى أنّي أحفظ عدد الخطوات التي أخطوها فوق هذه الحجارة كلّ يوم. المدخل المنعرج عن اليمين ذو الدرج المؤدّي لمتنزه 'السور' عبر طريق 'برج اللقلق'، ذلك المنتزه الذي لم أزره منذ سنوات طفولتي فلم يعد لديّ وقت حتى خلال الأعياد وخصوصًا مع ازدياد مسؤوليتي بالبيت... الجدار العالي لكنيسة 'القدّيسة حنّة' المُتصلة بالحمام ودرب 'ستنا مريم'، خُطّ على ذلك السّور بالخطّ العربي كأوّل جملة باللون الأسود «سلامٌ على روح النبيّ المُطهّر أصابعُه أجرَت مياهها ككوثر»، يُقال أنّها مكان ميلاد سيدتنا «مريم» وما النقش إلّا تأريخٌ لبناء السور والسبيل بعهد «سُليمان القانوني»، تلك الكنيسة التي عرفت الإسلام في أحد عهودها التي أمضتها وهي قائمة وغُيّر اسمها خلالها إلى (المدرسة الصلاحيّة) نسبة لـ (صلاح الدين الأيوبي) وعَنَت بتعليم الفقه الشافعي آنذاك، ثمّ آلت كحالِ بعض الأماكن لغير أصحابها بعد أن طالها الخراب وظلّت تابعة حاليًا لفرنسا بعد أن قُدّمت هديّة إلى نابليون الثالث، وأتساءل هل كُتبَ على هذه الأرض بما فيها أن يُقدّم قربانًا وهدايا من طرف الجميع؟ فكلّ من مكث يومًا هنا اتخذها حقًا مشروعًا له يهب منها ما شاء لمن يشاء غير مكترثٍ لرأي أحدٍ منّا... فهل لنا اليوم أو غدًا أن نُعيد صلاح الدين ليستردّ لنا حجارتنا التي بَنَت كلّ شبرٍ من هذه المباني الشامخة؟ أستبعد

احتمال حدوث ذلك حاليًا، لكنّه ولا بدّ سيحدث. يُقال أنّ أحجار القدس لم تتغيّر منذ آلاف السنين، ظلّت تشهد على كلّ ما يحصل تحت هذه السماء وكلّما هُدّم بناءٌ وسقطت الحجارة عن مكانها أُعيد استغلالها في بناءٍ آخر، فكان عمرها من عمر وجود البشر على هذه الأرض الطاهرة... عن اليسار طريق آخر يصبّ في ساحة (الغزالي) يغزوه الباعة بطاولاتهم الخشبية الذين لا أجدهم أحيانًا حين يقرّر أبناء صهيون منعهم بلا سبب من ممارسة حقّهم في التجارة، لو لم يكن عليّ المرور على البيت لرُحتُ من هنا مباشرة للأقصى عبر باب الأسباط الخاص بالمسجد، تابعتُ سيري بعد أن جاب نظري كلّ زاوية أمكنه الوصول لها، أعدّ خطواتي كيّ أتأكد حين وصولي للبيت أنّها لم تتغيّر ألفٌ وأربع مائة وواحد وخمسون خطوة، قد تزيد بضعًا أو تنقص حسب سرعتي، أسير بالشارع الرئيسيّ حتى أصل مدخل (عقبة درويش) وأصعد درجاتها المتباعدة وأغوص بين أنفاقها، أغلب الأزقة بنفس الطابع العمرانيّ، حتى أنّ السائر هنا زائرًا لا أظنّ أن تختفيّ ملامح المدينة عن خياله أبدًا بعد مُفارقته لها، ستظل البنايات الحجريّة متربّصةً بقاع ذاكرته، الحشائش التي تنمو بين الحجر والآخر مُتحديّةً كلّ الظروف لترى شمس القدس العريق، صوت صراخ الأطفال وهم يلعبون أو أحيانًا حين يهدأ الصخب صوتَ الحمام فوق المباني يتنقّل فوق الأزقّة والشوارع الضيّقة، كلّ هذه التفاصيل أنّى لأحدٍ أن ينساها ولو كان لذلك مُتعمّدًا؟

مررتُ بالبيت على عجل، اقتنيت في طريقي ما طلبته منّي

أختـي وأوصلتـه لهـم وهممـتُ للأقـصى مُسرِعًـا، إنّي ليُحزننـي أنّ بعـض المسـلمين صـاروا لا يسـتطيعون زيـارة الأقـصى، وأخشـى أن يتفاقـم الأمـر مـا إن صمتنـا أكثـر ويتـأزّم الوضـع أكثـر ويُحـرم المسـلمون مـن رائحـة الأزقـة والمـشي عبرهـا... منـذ سـنوات كان الحجـاج المغاربـة يمـرّون بالأقـصى قبـل المُـضيّ لمكّـة في درب يسـيرون عليـه عـدّة شـهور، مؤخـرًا قـلّ عددهـم ثـمّ صرتُ نـادرًا مـا ألقاهـم...

بَلغـت أقدامـي مدخـل الأقـصى، ودخلـتُ لتأديـة صـلاة الجمعـة. مـا أن فرغنـا منهـا عـدتُ للبيـت، فتحـتُ البـاب تقدّمـت خطـوةً وقبـل أن أغلـق البـاب خلفـي ناديـت «رهـف»، خرجَـت مسرعـةً كأنّـما كانـت تنتظـر فقـط منّـي مُناداتهـا:

–دقيقة فقط سأكون جاهزة.

اغتنمـت دقيقتهـا –المزعومـة– في جلـب نقـودٍ أدخرهـا للحاجـة وأوراقـي الخاصّـة تحسُـبًا لأيّ توقيـف مـن أبنـاء صهيـون... عـدتُ لأجدهـا واقفـةً أمـام البـاب تنتظـر، راميـةً شـالًا عـلى رأسـها ومُرتديـةً لفسـتان أسـود مُطـرّزٍ أهدتـه لهـا أمّـي، وجميـع العائلـة تقـف أمامهـا في انتظاري لبـدء مراسـم التوديع وسـأحاول الصـبر عـلى ذلـك...

–خلاص ياما... لو أردتِ ألا تشتاقي لها لذهبتِ معها...

وبذلـك أنهيـت حُضـن أمّـي لهـا الـذي دام أكثـر ممّـا يجـب وأنـا واقـفٌ أنتظـر حامـلًا حقيبتهـا.

–يـا «عُمـر» صـبرًا... فالعبـدُ منّـا لا يعلـم هـل سـيراها مـرّة أخـرى أم لـن يلاقيهـا أبـدًا...

استدارت وراحت تُكمل توصياتها:

-أبلغـي سـلامي لـ «أدهـم»، ووالدتـك... آآخ نسـيت، لم أسـألكِ حتـى اليـوم مـا اسـمها؟

-لا إلـه إلّا الله، الآن وقـت بـدء الحكايـات يـا أمّـي؟ يـلّا يـا «رهـف»!

-اسـتنا يـا «عُمـر»... لم أعـرف أمّهـا رغـم كلّ الوقـت الـذي بقيتـه معنـا...

-أخـبرني أبي أنهّـا كانـت تـدرس معـكِ بالإعـدادي وكانـت صديقتـك المُقرّبـة.

-بالإعدادي؟ ممم، مين؟

-اسم أمّي «جولييت».

-«جولييـت»؟ (وشردت وهـي تُـردّد الاسـم وتُحـاول التذكـر).

-يامـا خلـص، تذكريهـا فيـما بعـد، تعبـتُ مـن الوقـوف ولا يـزال دربنـا طويـلًا!

وتذكـرَت في آخـر دقيقـة رفيقـة طفولتهـا ممّـا أخـذ مـن عمـري زيـادةً عـلى مـا ضـاع ربـع سـاعة وأنـا أقـف عـلى البـاب في انتظارهمـا، أكاد أجـزم أنّي لـو عشـتُ خمسـة أضعـاف عمـري بهـذه الدنيـا لـن أفهـم السـرّ الـذي يكمـن في اختـلاق الحديـث عنـد الـوداع لـدى بنـات حـواء.

***

لم تدم رحلتنا طويلًا كما توقعت، فقد تيسّر لنا العبور دون مواجهة مشاكل مع أولاد صهيون الذين لم يكفهم أن استولوا على الأرض وعثوا فيها فسادًا بل راحوا يقفون عند كلّ زوايا الأرض تحسبًا لأيّ أمرٍ قد يحدث يجعلهم بين ليلة وضحاها خارج حدود الدولة التي قُدمت لهم بلا سعيٍ أو مشقة.

حافظت «رهف» طوال الطريق على صمتها المُزمن، فلم تكن تنطق إلّا لتقول جملةً يتيمةً أو جملتين، حتى أنا لم أحاول استنطاقها كان يكفيني أن تكون بخير، وكنت بالأساس شارد الذهن أحادث نفسي داخليًا، عند اقترابنا من غزّة كنتُ قد توصّلت لحلول عديدة لما يدور في عقلي، فاستغنيتُ عن دور غير المُهتم ورحتُ أسألها عن ’جباليا‘ ممّا أنشأ في ذهني فكرةً عن الوضع هناك، ورُحت أربط الأفكار التي حصدتها عن حديثها بما أعلمه عن المكان من زياراتي القليلة إلى هناك التي لم تتعدّ الثلاث أو أربع مرّات.

وصلنا قريبًا من المُخيّم، كانت هناك طريق مؤديّة له عبر مفترق طرق، أين ودّعنا من شاركونا السفر ونقدتُ صاحب المركبة واستدرت أسأل «رهف» إن كانت تودّ المشي أم نستأجر مركبةً توصلنا، فكان ردّها أن نمشي عبر الطريق، هناك بدأت تحكي دون انتظار أيّ أسئلة، علمتُ حينها أنّ رجوعها حرّك بقلبها الإحساس بالسعادة فراحَت تتحدّث دون توقف كردّة فعل لا إراديّة عن فرحها، وللأسف أنّى لقلبي أن يتحمّل كلّ ذلك ولا يتغزّل بها بيني وبينه... على درب ’جباليا‘ طويتُ الألف قصيدة بقلبي، حتى أنّي أحيانًا أفقد التركيز فيما هي تروي وأغرق بتفاصيل القصائد التي

أنسجها بيني وبين نفسي، كانت رائحة البحر تختلط مع نسائم الهواء والرطوبة مرتفعة، إنّه جوّ البحر الأبيض المتوسط، لمحتُ أخيرًا بعد توقفها عن الحديث المخيّم، والذي لم يعد اسمه يدلّ عليه، فالذي لم يعرف يومًا التاريخ لن يعلم السرّ في تلك البنايات المرصوصة أو حكاية كلّ حجرٍ على الطريق، بأوّل خطوةٍ لنا مرّ علينا مجموعة من الأولاد يركضون خلف بعضهم وقهقهتهم تتعالى فضحكَت وابتسمتُ لضحكتها، أيُّ بساتين أزهرت حينها بقلبي وعجزتُ عن عدّ الزهور التي اجتاحتني بوقتها فعجزتُ عن كلّ شيء عدا الابتسامة.

سرنا بقيادتها وتوجيهها، حتى بلغنا بابًا حديديًا رماديّ اللون، مُنتصبٌ بحائط بيتٍ من آجر غير مُكتمل، توقفَت عنده وهمّت تنظر نحوي فما كادت تنظر حتى رفعت نظري نحوها فالتقت عيناي بعسل عينيها وفي حينها أدركت أنّ الابتسامة أحيانًا كثيرة ما هي إلّا هروبٌ من فضح المشاعر دفعةً واحدة.

-وصلنا يا «عُمر»...

دقّت الباب بأناملها وانتظرنا الباب أن يُفتح، وما هي لحظات حتى فُتح الباب وظهرت عنه عجوز طاعنة في السن، تلف شعرها بوشاح أبيض، بقيَت تنظرُ نحو «رهف» وتُدقّق النظر وحينها عرفتُ أنّ نظرها ضعيف، ترتدي فستانًا بأزهار بيضاء صغيرة وعلى كتفيها وشاح قطنيّ آخر يشي أنّ البرد يتغلغل في أطرافها رغم أنّنا لا نزال في بدايات الخريف، هزيلة الجسد لكنّ وقفتها لا تزال ثابتة غير مُقوّسة بعد، سلّمت عليها «رهف» بعد أن تركَت لها الفرصة بأن

تتعرّف عليها ثم قدّمتني لها فقبّلت يدها وصارت تحضنني والعَبَرَات تُذرف عن عينيها ما إن تذكّرت أمّي، وما لبثنا طويلًا حتى دخلنا البيت.

لا أعلم إن كان تعوّدي على بيتنا هو السبب الذي جعلني أرى البيت صغيرًا أم أنّه بالفعل كذلك، غرفتان ومطبخ صغير وحمام، جلست بالغرفة الأولى وهي أوسع غرفة في حين غابت «رهف» خلف باب الغرفة الثانية الذي كان يظهر لي من باب الغرفة حيث كنتُ أجلس، بقيَت تحادثني سِتّي «سُها»، تسأل عن أمّي مرّاتٍ وعن أحوالنا وأخبارنا ومراتٍ أخرى تعتب على أمّي وعلينا لأنّنا رغم معرفتنا بوجودها لم نزرها أبدًا، تردّد أنّ أمّي حرمَتها من نفسها وحرمتها منّا نحن كذلك، لكن ما ذنبي أنا ضمن هذا؟ لا أعلم. تشرّبت الصبر لِكبر سنّها وكنتُ أجيب كلّ أسئلتها التي تكرّر بعضها كثيرًا، انتبهَت أخيرًا وسألتني إن كنتُ جائعًا أو أريد أيّ شيء يُؤكل، لم أمانع عرضها لأنّي كنتُ بالفعل مُنهكًا من التعب وأتضوّر جوعًا، وإن خُيِّرتُ بين الجوع والتعب فسأصبر على التعب ولن أصبر على الجوع أبدًا. قبل أن تقوم سِتّي «سُها» صارت تُنادي على «رهف»، عندما أشرقت من الباب طلبَت منها أن تبقى معي لأنّني ضيفٌ على حدِّ قولها ولا يجوز تركي بمفردي مع الحيطان، كانت ذات السنابل قد غيّرت ثوبها حين عادَت وكانت تخبر جدّتها وهي قادمةٌ أنّها جهّزت الشاي، متى كان ذلك؟ لم أذكر، لكن ولا بدّ أنّ حكايات الجدّات مُخدّر يُنسيك الزمن وذاك السبب خلف عدم انتباهي لحركة «رهف» وأنا الذي

كُنت مقابلًا لباب الغرفة. قبل أن تجلس استسمحتها وطلبتُ منها كوب ماء أروي به عطشي، والعطش في الحب لا يُروى أبدًا، لكنّ الكأس التي ناولتني إيّاها غَدَت ساقيةً عذبةً بين يديها، شربتُ الماء وعيني لم تبتعد عن مُراقبتها، ثمّ تذكّرت أنّ عليّ أن أعود لرشدي وأتوقّف عن استراق النظر نحوها فأنا في بيتها الآن...

مضت ساعة أو أزيد بدقائق، كانت سِتّي «سُها» تُطلّ علينا بين الفينة والأخرى وتُطمئننا أنّ الأكل قريبًا سيجهز، بينما كانت «رهف» مُنشغلّة تحكي عن المخيّم وتصف ذكريات طفولتها وكيف تحوّل إلى هذه الصورة التي هو عليها الآن وباتت الخيم بيوتًا شُيّدَت على أنقاض الأمل بالعودة، ودُفنت ذكريات الأراضي الأصليّة للعائدين، جيل اليوم استكانَت شرارة الشوق لأرضه لأنّه تعوّد على المكان وألِف الجوّ وألفَته التربة هنا، فلم يعد مُتلهّفًا للرجعة كما كان الأجداد حاملي المفاتيح... وعلى ذكر المفاتيح نهضت «رهف» من مكانها وتوجّهت لأدراج الخزانة المُتواجدة بالغرفة فتّشت بين الأوراق المتواجدة هناك وأخرجت مفتاحًا بحجم يدها الأنثويّة، وذكرَت أنّه مفتاح بيتهم بـ 'يافا'، حتّى ما إن كُتبت لهم يومًا الرجعة يعودون لبيتهم... في حديثها أحسستُ نبرة الحزن، هي تسمع القصص عن 'يافا' ولا تستطيع رؤيتها أو الرجوع حاليًا لها، أخبرتني أنّ حتى والدها لا يذكر شيئًا عن يافا غير الذي تحكيه جدّتها من أوصاف للدّير هناك والحياة التي كانت برغم وجود الانتداب البريطاني آنذاك...

أتت ستّي «سُها» بالطعام فهجمتُ عليه لشدّة جوعي

حتى نفد وأنا أكرّر عبارات الامتنان لمن طهته وهي تُردّد أنْ صحّةً وعافية. أكملنا ما تبقى من حديثنا بعد الطعام، ثم انتبهتُ أنّي لم ألتقِ لحد الآن بـ «أدهم» ولا «جولييت»، فأجابتني «رهف» على عجل أنّ والدها بالغرفة الأخرى وأمّها بالعمل، لم تُكثر الحديث بالأمر فلم أسأل أكثر من ذلك السؤال، كانت الساعة حينها قد تجاوزت الخامسة مساءً تذكّرت الصلاة التي لم أصلّها فقمتُ توضأت وقضيتُ ما عليّ من صلوات، ثمّ استلقيتُ بإصرارٍ من ستّي على أن أستريح لأنّني ولا بدّ مُتعبٌ جرّاء الطريق، فما وجدتُ نفسي غير نائمٍ لشدّة التعب، ولم أستفق إلّا على صوت «رهف»:

-ألا تكتفي من النوم أيّها الكسول؟

فتحتُ عيني وللوهلة الأولى ظننتُ نفسي أحلم، فقد كانت أوّل مرّة تتعامل معي دون رسميّة مُمازحةً إيّاي وهي دانيةٌ منّي لغرضِ إيقاظي، صرتُ أرمش بقوّة علّني أستفيق لكنّي تيقّنتُ بعد ثوان أنّي لستُ أحلم، ضحكتُ وقلتُ:

-من تتحدّث؟ التي قضت إجازتها عند عمّتها كلّها وهي نائمة !

-أنا؟!

-ما قولُكِ؟ أم أنّني أنا؟

عقدَت حاجبيها بنظرة العتب الطفوليّ وقامَت مُتظاهرةً بالغضب، أحسستُ بشخصٍ قريبٍ منّي فاستدرت لأجدها ستّي «سُها» بيدها سبحة تُسبّح بها، نظرت نحوي وابتسمت فرددتُ الابتسامة، ثم استدرتُ إذ بالحسناء المُستيقظة هذه

المـرّة تعـود:

-أبي يطلبك، تعال معي للغرفة الأخرى!

-قادم... أغسل وجهي فقط لو تسمحين.

أومـأت برأسـها، ثـمّ قبـل دخـولي الغرفـة حيـثُ والدهـا سـألتها هـل نمـتُ فعـلًا طويـلًا فلـم تجبنـي. دلفـتُ الغرفـة إذ بهـا كهـلٌ يجلـس عـلى السريـر يُغطّـي رجليـه ببطانيـة، سـلّمتُ عليـه وسـألته عـن حالـه، فـكان صامتًـا فقـط ينظـر نحـوي، بقيـتُ أنتظـر ردًا منـه وابنتـه واقفـة خلفـي، فاسـتدرتُ نحوهـا وأشرتُ بـرأسي مـا بـه، لكـن حتـى هـي لم تفهـم.

-يابـا... ايـش فيـك؟ هينـي مـا جبتلـك عمتـي بـس جبتلـك «عُمـر».

في حـين بقـيَ نظـره مثبتًـا عـليّ وأوجسـتُ منـه خيفـة، ارتبكـتُ وسـألتها هامسًـا:

-هل أنتِ مُتأكدةٌ أنّه هو من طلبني؟

رفعَـت حاجبهـا حـين نظـرَت نحـوي ثـم اقتربَـت منـه تمسـح عـلى رأسـه وتسـأله مـا بـه، نظـر نحوهـا وأجهـش بـكاءً ومـا أصعبـه مـن بـكاءٍ، بـكاءُ الرجـال.

-يابـا... طلبـتُ منـكِ «غـادة»، وهـذا «عُمـر»، لكنّـه يابـا أشـدّ شـبهًا منهـا لنفسـها، فكيـف تجـد الكلـمات سـبيلًا للخـروج مـن هـذا الثغـر؟ يابـا و«غـادة» ليـش منعتنـي أشـوفو قبـل هيك؟ أليـسَ أهـوَن عـلى قلبـي أن أراه وأشـفيَ قلبـي برؤيتـه قبـل اليوم؟ أم أنّ ذلـك عنهـا بعزيـز...

وهـو يمسـحُ دموعـه المُتطفّلـة، أحسسـتُ بشـعورٍ لم أشـعر بـه

من قبل، اختلط ما بين عتب على نفسي وحزن وعدم رضا وتساءلتُ ما أوصلنا لهذا الحال عجبًا؟ ما الذي تسبّب لهذا المسكين أن يُقعد على الفراش دون حراك؟ حتى ولو كان الملامُ على والدتي وعلينا ما الذي يجعل السفر لغزّة أمرًا نستصعبه لو لم تكن تلك الحيّة قابعةً بكلّ منطقة تغرس قنابل قابلة للتفجير في أيّ لحظة وتمنعُك حيثما كنتَ من استكمال طريقك والأسوأ لو منعوكَ حتى من العودة وتُصبح في عداد المفقودين لدى عائلتك وبحسب حقيقتك إمّا وسط السجون أو رقمًا آخر بين الشهداء، القنابل التي تُسميها الحيّة نقاط مراقبة وتفتيش، وعن أيّ شيء تُفتش لو لم تكن ترتعش خوفًا... أفقتُ من شرودي المجنون الذي لم يكن بالوقت المناسب أبدًا، كانت تلك الفتاة التي سافرت كلّ تلك المسافة برًا بوالدها تحاولُ تهدئته وكيف لها ذلك وهي بالذات صارت تذرف دموعها، جلستُ أمامه وأمسكتُ يده وقبّلتها:

- لا داعي يا خال من ذكر الماضي، ها أنا الآن أمامك، وأمّي بإذن الله ما هي إلّا أشهر وتأتي لغاية عندك تدقّ هذا الباب كما دققته أنا وتلتقي بك، وإنّي أشكّ أنّها لو أتت ها هنا لن تقبل العودة للقدس أبدًا... لا عليك ممّا مضى... والحق كلّ الحق عليّ أنا، فقد كان بإمكاني القدوم من قبل لكنّي لم أتخذ لنفسي أيّ عذرٍ للمجيء... آسف...

قيل أنّ النساء يزددن جمالًا عندما تدمعُ عيونهنّ، ولا شكّ أنّ القائل مهووس بإزعاج المرأة التي يحبها حتى تدمع، فاخترع هذه المقولة تبريرًا لتصرفاته، لكنّي أؤيّد القول

على أيّة حال، فأن ترى عسلًا بعيونٍ يدمع فقد رأيت من آيات الله عجبًا. بعد كلّ ذلك العتب والكلام والدموع التي لم تستطع «رهف» حبسها حتى غادرت الغرفة، راح الكهل يروي لي أيّامه وقت كان مجاهدًا، وهناك بدأ المسلسل يتتابع بعقلي مع كلّ حكاية وكلّ تفصيل يذكره... أخبرتُه بنيّتي في الالتحاق بصفوف المجاهدين، لم يمانع الأمر، بالعكس قال إنّه لو لم يكن هذا مصيره لكان اليوم هناك أيضًا وأنّ ما جعله لا يفكّر في الرجعة حتى لو مُقعدًا أنّه نال خيباتٍ عدّة دفعةً واحدة... غاص أكثر في تفاصيل الأمر وحكا لي حكايات قال أنّه لم يشأ يومًا ذكرها عمّا عايشه...

لم أمكُث عندهم إلّا بِضع ليال، وغادرتُ صباح يوم السبت عائدًا للقدس، رحلة العودة لم تكن «رهف» وحدها التي تنقص فيها، بل اكتشفتُ أنّ بعضًا من سعادتي اختفى والغالب أنّ بعض الحزن استفاق في قلبي أيضًا... لم أكن أعي هذا الكمّ الهائل من التناقضات التي يعيشها المرء في مشاعره بين ليلةٍ وليلةٍ أخرى، والأحقّ أنّ الإنسان دائم التناقضات... لكنّي بنفس الوقت اهتديتُ للتفكير بأشياء عديدة، واتخذتُ قرارًا أخيرًا أن أتقدّم لخطبة «رهف» ما إن تنوي أمّي زيارتهم، حتى لا أدين للحب بعد ذلك بأيّ شيء، أحببتُها فخطبتها، ولها الحق بالرفض لكنّي لن أجعل إمكانيّة رفضها أمرًا يحول بيني وبين مطلبي... ولم يكن هذا القرار الوحيد الذي اتخذته برحلة عودتي، فقد كان للأرض نصيبٌ ممّا سعى عقلي للفصل فيه، مسألة الأرض مسألة موتٍ أو حياة، وأن أموت في سبيل هذا الوطن أحبّ إليّ من أن

أعيش فيه كلّ هذا الهراء، هات بطاقتك هات ترخيصك، سر على الطريق لا تعبر من هنا والعديد من الاستفزازات كأنّما الأوامر لا تكفي بل تُتبّل بالكثير من الشتائم والإهانات، أكاد أنسى أنّهم يزعمون نفسهم شعب الله المُختار وأنّنا من كبيرنا لصغيرنا خُلقنا لِخدمتهم، ربّما تلك اعتقاداتٌ تبرّر هذا الكمّ من البُغض نحونا... بأيّ حقٍ تمنعني أنت أو غيرك عن التنقل في أرض الله التي لم تدفع فيها أنت لا عَرَقًا ولا دمًا؟ أيُّ الخرائط وهبك الله إيّاها ومتى، لتغتصب ترابًا ليس من حقك؟ وأيّ سندٍ امتلكنا نحن لنواجه استبدادك وأنتَ تحتمي بخُرافات العالم التي يُهدِرُون فيها كمًّا عظيمًا من الحبر وتُسنّ علينا ويكون الجميع مُرتدًا، نكون وحدنا نحفظها وتُطبّق علينا والجميع البقيّة لا يهمّه من أمرنا شيء... سأعود للقدس، أطوي أيّامًا كنتُ فيها على صبر، فليس لي الآن مع الصبر اتفاق أبدًا، نُقضت العهود وتبخّرت أحلام انتظار يقظتنا وكلٌّ منّا يُحاول التصفيق بيدٍ واحدة، حتى لو لم أحمل بُندقيّة، يكفيني الشرارة التي تندلع بها نار قلبي كلّما تذكرت أرضي التي يبيتُ بها الغريب ويتحكّم فيمن يدخلها ومن عنها يغيب... وأنا كذلك على التفكير اقتربتُ من القدس العتيقة، إذ بي أصطدم بشاب للوهلة الأولى لم أعرفه اعتذرت منه وإذ بالذاكرة تعود بي لأيّام دراستي وعرفتُ من رافقني عامين من عمري:

-«نِزار»؟ كيف حالك يا رجل؟

-مستحيل! «عُمر»! صدّقني لم أعرفك، لقد تغيّرت كثيرًا... وأصبحت هزيل الجسم ما بك؟

-ههههـه، هـذا كلّ همّـك منـذ أن عرفتـك، كيـف حالـك أنـت؟ ما أخبــارك؟

-الحمد لله بخير... إنّي أتنقّل هنا وهناك...

-تتنقّل؟ أتممت دراستك، أليس كذلك؟

-أكيـد، منـذ حـوالي سـنة، لكـن أنـت أدرى أمـر الحصـول عـلى عمـل أمـرٌ كإيجـاد إبـرة في كومـة قـش.

-احرقه لتجدها، ههههه، ألا تعلم يُسرَ الأمر؟

-بلى، وماذا تظنّ أنّي أفعل؟

صمَـتَ برهـة ثـم سـألني عـن وجهتـي فدعوتـه للبيـت لنـدردش قليـلًا ونسـتذكر أيّـام المدرسـة التـي قضيناهـا معًـا، كان قـد انتقـل بعـد أن عرفتـه بعامـين إلى ’بيـت لحـم‘، ولم أعـد ألتقيـه إلّا نـادرًا، وبـما أنّ الفرصـة جـاءت تزحـف نحـوي فلـماذا أبخـل عـلى نفسـي... والـده مُنخـرط بحركـة التحريـر الوطنـي، أذكـر بفـترة العامـين اللذيـن أمضيناهـما معًـا وحدهمـا أُعتقِـل والـده حـوالي الخمـس مـرّات وأُطلـق سراحـه، وكـما ذكـر لي في خِضـمّ الحديـث فـلا يـزال الأمـر عـلى حالـه، إنّهـا حيـاة المناضلـين سياسـيًا، أولئـك الذيـن يسـعون للظفـر بالحريـة دون خـوض حـربٍ جاعلـين منهـا آخـر بطاقـة لعـب يرمونهـا عـلى الطاولـة.

اسـتضفت «نـزار» وتغـيّر حديثنـا ومواضيعـه مـا إن دخلنـا البيـت، وهنـاك علمـتُ مـا كان يقصـد بحـرق كومـة القـش، تسـاءلتُ كيـف أنّ اللهَ يُسـخّر لـك الأقـدار مـا إن تعـزم عـلى الـشيء، وتذكّـرت قـول والـدي الـذي لم أسـتطع معرفـة تحـت أيّ سـماء وبـأيّ أرضٍ هـو يُناضـل، لم يكـن ذلـك همّـي فالمهـم أنّنـا

نسعى لنفس الهدف... «نزار» كأنّما أُرسِل إليّ من السماء، هو مُخبِرٌ لصالح المجاهدين ويعينهم في بعض العمليات بغضّ النظر عن والده وميوله السياسيّ، وذاك ما يُفسّر قوله بالانتقال هنا وهناك، لا يبقى أبدًا في مكانٍ واحد، وقليلًا ما يعُود لبيته من الأساس، لكنّه يحاول القيام بالأعمال على أكمل وجه، لا مجال للخطأ فأيّ زلّةٍ قد تُبيتُك بسجون المُحتّل أو قد تكون أرحم عليك فتُنهيك، المعضلة أنّك لو أخفقت فلا عفو ولا صفح في الأمر، وذلك أمرٌ لا بدّ منه، فإمّا أن تنتهي على يدٍ صهيونيّة أو تُقصى من أهلك ومعهم كلّ الحق في ذلك...

-لا مجال للريبة بيننا، الوفاء هو الأهم والثقة، ولا بدّ أنّك لو تمّ قبولك معنا فستمرّ بالعديد من الاختبارات لمعرفة مصداقيتك، البلاد ليست لُعبةً نلهو بها لكنّنا بالتأكيد نعرف أنّ الدّم الفلسطينيّ أنقى من أن يخذله حامله (خاطبني «نِزار» في أمر التحاقي ثم قام وهو يُضيف) أظنّ أنّي مكثت هنا أكثر من اللازم، لا بدّ لي من اللحاق بأحد العناصر اليهوديين، سأمرّ عليك ذات يوم بعد أن أخبر والدي بأمرك، إلى ذلكم الحين لا تُحدث صوتًا، حتى بين أهلك.

-أكيد... لا تخف... لكن لا تُطل الأمر رجاءً، بالأساس لي شهور أنتظر فرصة كهذه...

-بإذن الله... إلى اللقاء قريبًا...

1986 (كانون الأوّل)

ودّعته يومها، وانتظرته بعدها طيلة أسابيع، فلم يأتني عنه أيّ خبر، حتى ظننت أنّه نسي أمري برُمّته، لم أتحسّر على ذلك، بالعكس، كنتُ أتابع عملي ببساتين «جوزيف»، أمضي أيّامي هناك، أتحسس الجوّ الذي تغيّر وحلّ الشتاء كانت الغيوم كلّ يومٍ تتجمّع في سماء المدينة لكنّها لا تبكي، ربّما جفّت بعد أن بكتْ حالنا طويلًا دون جدوى... حتى تلك الليلة من كانون الأوّل، والتي وُسِمت بغيثٍ من السماء ورعدٍ وبرق، كأنّها تُعبّر عن غضبٍ حاولَت كظمه واليوم انفجر، بكَت السماء حتى ظننتُ أنّها لن تعرف راحةً، لم أنم بليلتها باكرًا، كمن أحسّ بإمكانيّة حدوثِ أمرٍ ما قريبًا، أُطلُّ من النافذة أراقب الشارع والسيول التي لم يوقفها شيء، لمحت البيت المقابل لبيتنا، فوجدتُ الأنوار مُضاءةً فيه، تذكّرتُ أنّ ابنهم «سيف» عاد صباح اليوم وتمّ إطلاق سراحه، كنتُ أعزم على زيارته مساءً لكنّني آثرت أن أترك أمر زيارته للغد، لا بدّ أنّ أهله قد اشتاقوا له، تذكّرتُ حكايات صديقي «نِزار» عمّا قد يلقاه الواحد منّا بالسجن، أحسستُ بألمٍ يمزّق صدري لمجرّد تخيّل الأمر، طُرق التعذيب التي صار أولاد صهيون يتفنّنون بها خلال التحقيق مع الأسرى ناهيك عن العذاب النفسيّ الذي يحقنونه في دمك، ومن آخر ما توصلّوا له أنّهم يربطون الأرجل بالأيادي خلف ظهر الأسير وهو جالس فوق كرسيّ، فيتّخذ جسده شكل موزة، يديْهِ مُكبّلتين

بقدميـه تحـت الكـرسي ورأسـه ممـدود في الهـواء، ويتـم ضربـه وتعذيبـه بُغيـة اسـتخراج أيّ معلومـة منـه، وقـد تسـتمرّ حالتـه تلـك لأيّـام حتـى يُـؤذن بتحريـره مـن هـذه الوضعيّـة التـي دائـمًا مـا تُخلّـف أمراضًـا عصبيـة، بـات الأسرى يُلقبنهـا بشـبح المـوزة، تخيّـل رأسـكَ مرميًـا للـوراء طيلـة أيّـام في الهـواء حتـى تدفّـق الـدم سـيختلّ في جسـدك، أخـبرَني أنهـا عيّنـة بسـيطة وأنّهـم لا يتوقفـون عـن ابتـكار طـرق جديـدة يوميًـا، فهـم لم يبقـوا ذئابًـا بشريّـة، فالذئـاب لا تتلـذّذ بتعذيـب أحـد، هُـم خلـقٌ لم يُعـرف لهـم تصنيـف في عـالم الكائنـات.

اهتـدى أخـيرًا النـوم إليّ، وتثاقـل جفنـايْ، سرت نحـو سريـري ومـددت جسـمي المُتعـب، وغفـوت. إذ بي أسـمع صـوت ارتطـام حجرٍ بالنافـذة، أفقـت مُسرعًـا والنّـوم الـذي كان في عينـي غادرني آنِيًـا، اقتربـتُ مـن النافـذة، الجـو لا يـزال عاصفًـا، لوهلـةٍ فكّـرتُ أنّي خلطـت الحلـم بالحقيقـة مـن فـرط التعـب أو أنّي ربّـما خِلـتُ ذلـك، لكـنّ أمـرًا مـا شـدّني حـين هممـت بالرجـوع لسريـري، رأيـت شُـعاع ضـوءٍ موجّهًـا نحـو النافـذة، يخـفّ وهجه ويسـطع، فتحـت النافـذة عـلى مهـل إذ بالشـعاع يختفـي عـن النافـذة ممّـا حسّـن مـن رؤيتـي، وسـط تلـك السـيول والأمطـار يقـف «نِـزار»، يحمـي وجهـه بيـده مـن قـوة الأمطـار التـي تتسـاقط عليه وهـو يرفـع نظـره نحـوي، لـوّح بيـده التـي كانـت تحمـل المصبـاح الـذي كان أصـلَ الشـعاع الـذي وجّهـه نحـو النافـذة، فأغلقـتُ النافـذة مسرعًـا ورحـتُ أفتـح لـه بـاب البيـت محـاولًا ألّا أُصـدر أيّ صـوت. دخـل عتبـة الـدار وثيابـه المبلولـة تقطُـر، وسـألني بصـوتٍ خافـتٍ قبـل أن يبـدأ حديثـه هـل أحـدٌ مـن عائلتـي عـلى

علـم، فحرّكـت رأسي نافيًـا، ثـمّ سـألني هـل منهـم مـن اسـتفاق الآن فنفيـت الأمريـن مُكـرّرًا لـلأوّل...

-حسـنًا، إليـك مـا أقـول، ومـن دون أن أذكّـرك بالـلازم... ومـن دون مقدّمـات، اسـمعني، تـمّ تعيينـك مسـاعدًا لي...

-من طرف من؟ (قاطعته فأكمل كأنّه لا يهتم).

-مـن طـرفي، وأعنـي بذلـك حـين غيـابي سـتخلفني كـما لـو أنّي لم أغـب، الأخبـارُ يجـب أن تصلنـا نحـن الفلسـطينيين حرفًـا بحـرف، لا أذكّـرك بـما أخبرتـك المـرّة الماضيـة أنّـه سـيتم اختبـارك، لكـن كذلـك يجـب أن تعـرف أنّ المفـروض ألّا أخـبرك حتـى لا تتخـذ احتياطـات... آه، كِـدتُ أنسـى، طـال غيـابي عنـك وعـدم إخبـارك بالأمـر لأنّي كنـتُ في مهمّـة بـ ’رام الله‘، واعلم أنّ المهـام مـن هنـا فصاعـدًا سـتُوكّل إليـك، ليـس بالـضرورة منّـي أنـا مبـاشرة، بـل قـد تُـدسُّ في جيبـك عـلى غفلـة، قـد توضـع مـع اقـتراب وقـت عودتـك للبيـت أمـام البـاب، كلّ مـرّة بشـكل والأيـسر حـين يقابلـك أحـدٌ ويطلـب منـك كلمـة الـسر، ويُكلّفـك... سـتتدرّب مـع الوقـت عـلى هـذه الأمـور...

-حسنًا... بإذن الله...

-حـضّر نفسـك جيّـدًا، فبعـد أيّـام قـد تكـون لنـا مُهمّـة في إحـدى دواويـر ’طولكـرم‘، أقصـد جِـد لـك مـن تبريـرات مـع عائلتـك...

-حسنًا... «نِزار»!

-ليـس وقـت الأسـئلة فعجّـل، عـليّ العـودة... ولـولا الجـوّ بالأسـاس مـا كنـتُ خاطـرتُ بالقـدوم إلى هنـا...

-فقط، هل يُمكنني إعلام الذي أعمل عنده؟

-كيف؟ أنا أقول لك عائلتك يجب ألّا تعلم وأنت تقول من تعمل عنده؟ هداك الله يا رجل... على كلّ حال أمر عدم معرفة عائلتك لن يدوم طويلًا، لكن بعد معرفتهم الأمر ستكون تعوّدت على العمل جيّدًا ممّا لن يُؤثّر عليك أو يُقلقك أو حتى يُربكك، أظنّ أنّك الآن علمتَ سبب إخفاء الأمر...

-نعم، لكن افهمني يا «نِزار»، بغضّ النظر عمّا قلته، هو بالأصل يُريد منّي ذلك، وقد يُعيننا كَونه شيخًا كبيرًا ومسيحيًّا...

-ليست مشكلة ديانة أبدًا، نحن هنا بوطنٍ واحد وقضيّة واحدة، مسلم أو مسيحيّ أو صابئيّ أو حتى من اليهود القليلين ممّن عاشوا معنا قبل الأزمة -وهذه مُعجزة- لو أتوا قالوا أنّهم معنا ضدّ الإرهاب الصهيونّي لن يمنعهم أحد، مصلحةُ فلسطين فوق أيّ تعصّبٍ دينيّ، لكنّي أفضّل ألا تخبره... وأنت أدرى... هل من أسئلة أخرى أكثر إفادة؟

سأل سؤاله مُستهزئًا بسؤالي الذي طرحته عن «جوزيف»، ولم أطرحه عبثًا، لكنّي لا ألوم «نزار» في جوابه، ليسَت لديه معرفة به فكيف له أن يُصدر حُكمًا... مسحت أرضيّة البيت التي ابتلّت من ثياب «نزار» حتى لا أُثير أيّ ارتياب وعدتُ أشحذ النوم أخيرًا.

1987 (09 كانون الأوّل)

يُقال أنّ ديسمبر مقبرة الأمنيات، لكن كيف لأمنياتٍ وأحلام لا تموت أن تسكن المقابر؟ وكيف وهي بقلوب تضخّ دمًا فلسطينيًّا؟!

مضى عام ولم ألتقِ «رهف»، التجأتُ بعد أن أتعبني الحنين لأمّي عسى أن تجد لي حلًا فقالت لي أن أكتب، اقترحَت عليّ أن أرسل لها فلم أرسل، لكنّي كتبتُ فيها بُلدانًا وددتُ لو كانت لها أحنّ من بلدٍ حزينٍ مُقيَّدٍ مُستَعمَر، كنتُ أخطّ كلّما لطمني الشوق كتاباتٍ لا أُصدّق أنّي أنا من خططتها بعد أن أُعيد قراءتها... بهذا العام الذي مضى لم يعد أبي لزيارتنا، فعلمنا أنّها كانت آخر مرّة ودّعنا فيها، ولم تزر أمّي الخال «أدهم» ظلّت على انتظار أبي الذي لم يقرّ عينها بقدومه، كلّ من وعد أخلف بهذا العام حتى أنا، نقضتُ عهدي لنفسي أن أتقدّم لخطبة «رهف»، لكنّي على الأقل أعلنت الأمر بين عائلتي، كأضعف الإيمان، حتى ما إذا حال الموت بيني وبين بلوغ مُناي يُقال لها كان يُحبّك وودّك له حلالًا.

«جوزيف» الذي عشتُ معه أحسن أيّامي وأسوأها، كان مثل ذاك الجدار الذي لا ينقضّ، أعلمتُه بخبر عملي مع المقاومة فكان تلك الصخرة التي تُسنِد أيًّا من كانت الحياة تُريد له السقوط، ساعدني كثيرًا كما لو أنّه منّا رغم أنّ «نِزار» لم يقتنع به أبدًا... لكن كيف لأفاعي صهيون أن تتركه ما إن يتسرّب الشكّ لعقولهم حوله، ولو أقول أنّي

السببُ في موتـه، فـإنّي لستُ مُخطئًـا بذلـك... آخـر مـرّة التقيتُ بـه فيهـا بعـد أنْ سـألوه عنّـي وهـدّدوه وآخـر حـوارٍ لنـا بقـيَ بعقـلي وأشـكّ أنّي سأنسـاه يومًـا مـا، حـين سـلّمني رسـالةً تركهـا لي أحـدُ الفلسـطينيين وحزمـةً مـن الذخـيرة بُغيـة نقلهـا عـن طريـق العـمّ «جوزيـف».

–شكرًا يا عمّ... جزاك الله خيرًا...

–هذا أمرٌ لا أُشكر عليه، هذا واجبٌ وطنيّ عليّ تلبيته.

–أخبروني أنّ أولاد صهيون سألوك عنّي؟

–نعم، لكن لا تهتم...

–أخبرني يا عمّ ما الذي حصل؟

–يـا ابنـي لا تهتـم... اليهـود جميعًـا طُبعـوا بنفـس القالـب وقُطّعـوا بـذات السـكين... إن كانـوا قـد ارتابـوا مـن أمـركَ فأنصحـكَ ألّا تعمـل عنـدي مُجـدّدًا حفاظًـا عـلى نفسـك منهـم، لـن يتركـوك وشـأنك... لا تُظهـر نفسـك كثـيرًا في الأرجـاء.

–وأنت؟ من سيُعينك؟

–لا أحـد، بالأسـاس لـن أبقـى طويـلًا فـلا تهتـم... سـيقتلونني ليحصلـوا عليـك، اتخـذ حـذرك منهـم... بسـتاني هـذا كنـتُ سـأعطيه لـك، هـل أسـجّله باسـم والدتـك يـا تـرى؟

–مهـلًا مهـلًا... تُسـجّل مـاذا ولمـاذا؟ هـل هنـاك مـا تُخفيـه عنّـي؟

–ليـس مُهـمًا... عـلى كلّ حـال أخـبر أخـاك أن يـأتي عاجـلًا ووالدتـك مـن أجـل الأرض... آه ودون أن أنسـى... ابتعـد، اغـرب عـن المـكان ولا تـأتي مجـدّدًا حتـى يظنـوا أنّـك ميّـت،

الـرب يحميـك...

لم يُكمـل حديثـه ذاك معـي، أغلـق بـاب بيتـه مُسرعًـا، وعلمـتُ بعـد أيّـام مـن «عـليّ» أنّـه قـد قُتـل، فـار قلبـي في ذلـك الوقـت وكنـتُ بــ ’أريحـا‘ يومهـا، مـن جنـوني نسـيتُ مهامـي ورحـتُ القـدس... أذكـر أنّي أمضيـتُ أسـبوعًا وسـط دمـاء الصهاينـة ولكـنّ دماءهـم النجسـة لم تُـبرد لهيـب قلبـي، عـلى حـدود القـدس وحدهـا أذكـر أنّي طعنـت أكثـر مـن خمسـة صهاينـة، ولم أهتـم لنفسـي ولا أيّ الألقـاب سـأحمل بعـد مـا يعرف صهيـون أنّي أنـا الـذي ارتكبـتُ تلـك الجرائـم كـما يراهـا هـو، لكنّـي علمـتُ اسـتحالة الرجـوع للقـدس علنًـا بعـد فعلتـي تلـك... اخـترتُ يـوم الأحـد وذهبـتُ إلى كنيسـة ’القيامـة‘ حتـى لا تلتفـت إليّ الأنظـار، توجّهـت لصديـق «جوزيـف» العامـل بالكنيسـة كـي أسـتفسر عـن مـكان قـبره حتـى أزوره، أعلمنـي أنّـه أخـبره قبـل وفاتـه أنّي سـآتي قريبًـا، وجلـس يـسرد لي كيـف أنّ اليهـود ذبحـوه وسـط بسـاتينه بـكلّ دم بـارد. تتبّعـت الطريـق التـي وصفهـا لي «دافيـد» حتـى بلغـت قـبره، لم أعلـم حينهـا أيّ الأمـور أصـحّ هل أقـرأ عـلى روحـه الفاتحـة أم غيرهـا... لم أحمـل معـي وردًا أتركـه عـلى قـبره، ولم أمكـث إلّا مـا اسـتطعت وأتـى «دافيـد» مُهـرولًا يُخـبرني أن أرحـل عـبر السـور الغـربيّ للمقـبرة فـأولاد صهيـون قـد أخلـوا المـكان للتـوّ... لم يكـن لي وقـتٌ لأشـكره، هربـتُ ونفـذتُ بـين أزقـة المدينـة العتيقـة، قبّلـت يـديْ أمّـي لأهـرب مجـدّدا وأسـاعد في العمليـات التـي نُقيمهـا اسـتردادًا للحـق الـذي سُـلب منّـا... إنّي ولا بـدّ لا أنسـى هـذه التفاصيـل ولا تلـك المـرّة الأخـيرة التـي كانـت منـذ شـهر، والتـي زُرت فيهـا

القدس وساعدني في ذلك «سيف» ابن جيراننا، بقيَ مُساندًا لنا وللمقاومة قلبًا وقالبًا إنّما خفّ حِمل الأعمال عليه نظرًا لكونِه مُراقبًا من طرف أعينٍ صهيونيّة، رجعتُ المدينة لأجل لقاء ابن أختي الذي صار عُمره عدّة أيّام ورُؤيته لأوّل مرّة، مكثتُ خلال تلك الزيارة أربعة أيّام وعُدتُ لأعمالي التي يصفها صهيون بالإرهابية، أحتار أيّنا أحقّ باللّفظة، هل من يستردّ حقّه أم من ينهب ويقتل بغير حق؟ نحن أمام العالم بأسره مجموعة قطّاع طرق وإرهاب، وهم الملائكة الذين نزلوا للأرض خطأً.

مساء أمس وعلى حاجز 'إيرز' تحديدًا بمحطّة الوقود القريبة من هناك، تمّ دهس مجموعة من العمال الفلسطينيّين من طرف أولاد صهيون، لم تكن أوّل مرّة تُقترف فيها أفعال كهذه ولن تكون الأخيرة ما داموا يُقاسموننا الهواء عُنوةً، لكنّها كانت القطرة التي أفاضت الكأس بـ 'جباليا'، تذكّرت الحاجز بكلّ زواياه منذ آخر مرّة عبرته، تذكّرتُ ذات العيون العسليّة التي تركتها هناك، ما إن علمتُ بالأمر تبادرت على ذهني كلّ التفاصيل التي عشتها بـ 'جباليا' خلال زياراتي قبل معرفة «رهف» ويوم زرتها معها. استشاط الفلسطينيون ممّن كانوا حاضرين بجنازة شهداء الحادثة في اليوم التالي للواقعة، ولبس الأمر صِبغةً احتجاجيّةً رُجم خلاله موقع أولاد صهيون بـ 'جباليا' ممّا جعل الأخير يردّ الهجمات على طريقته المُعتادة... حينها لم يبق لنا أيّ ذرّة صبرٍ بل إنّنا بالأساس صبرنا أكثر من اللازم، صبرنا حتى ما بقي لنا من قشّة نُشعل بها شموع الصبر وندفأ بها في ليلِنا العاتم، فتلك

القشّة بالذات قصمت ظهر بعيرنا.

هي أيّام وسأزور القدس لو استطعت لذلك سبيلًا، سأسعى لبلوغ البيت وأرى أمّي التي اشتقتُ إليها، تُرى هل بقيت على وعدها؟ أخبرتني «دُعاء» أنّها قررت الذهاب قريبًا في زيارتها لـ 'غزة'، لكنّي أرى أنّ هذه الانتفاضة إن لم تُحدِث نجاحًا فسيحاولون ردم التراب علينا أحياءً والله يعلم ما في عقولهم من تفكير وما في قلوبهم من نوايا... وأخشى أن يتمّ حرمان أمّي من الدخول لـ 'غزة' بتاتًا لو ظلّ الحال على حاله.

في هذه الليلة أنا على حدود مستوطنة 'بيسان' بقضاء 'جنين' بتلك الهضبة المواجهة لها تمامًا أراقب. دوري اليوم اقتصر على أن أكون مراقبًا لخطّ سير العربات الصهيونيّة الداخلة والخارجة من المُستوطَنة، وكأنّي ألمح الذُعر بأعينهم، أيّ خبرٍ كخبر الأيام الماضية قد يُرهق تفكير اليهوديّين وهُم معروفون بالجُبن، كان ظنّهم أنّ الانتفاضة لن تكون أبدًا، مجرّد وقفات احتجاجيّة بـ 'غزّة' ويومان أو ثلاثة وينتهي الأمر كأنّه لم يكن، استبعدوا أن نقف وقفةً واحدة بعد كلّ هذه المدّة، استبعدوا أنّنا باليوم السابع بعد الواقعة والأمر لا يزال يتصاعد بدل أن يخمد، لم يتوقعوا أن يخرج طلّاب الجامعة الإسلاميّة بـ 'غزّة' للمشاركة بالأمر، استبعدوا أنّ الاحتجاجات ستغوص بالأراضي الفلسطينيّة أجمع وتصل حتى 'الضفّة' هذه الأخيرة التي حاولوا مرارًا تفريقها عن 'غزة'، لم يُدركوا أن ما تفنّنوا في مُزاولته ومُمارسته علينا جعلَ قلوبنا تنفجر، وها هم مع أوّل البوادر لاح شبحنا يؤرّق

لياليهـم... مـا عـاد بقلوبنـا مـكانٌ لأيّ إحسـاسٍ سـوى كرههـم ومـا عـادت لنـا مـن أُمنيـة سـوى ركلهـم خـارج حدودنـا الأصليـة، تلـك التـي قُـدّرت لنـا بأواخـر أيّـام الحُكـم العثـماني، وقـت جُزئـت الدولـة العثمانيـة، ولسـتُ أتحسّر عـلى مملكـةٍ قُـضيَ وقتهـا وفنـيَ بهـا العهـد، لكنّـي أتحـسّر عـلى مـا عاشـته الـدول جميعًـا بعدهـا ومـا بقـيَ لنـا نحـن مـن حـال حتـى وجميعهـم اليـوم أحـرار... لكـن مـا نفـع تذكّرهـم وقلبـي بالـذات يفيـضُ غُـلًّا نحوهـم، شُـلّت أيديهـم وغُلّـت كـما غُلّفـت قلوبهـم وماتـت وصمُّـوا عـن صوتنـا، شـعوبهم اليـوم تُنـدّد بحالنـا، الجميـع ينادي لأجلنـا لكـنّ حُكّامهـم ليسـوا إلّا مريـاع الغنـم... فعـلًا يُذكّروننـي بـذاك الخـروف الـذي يُعـزل عنـد ولادتـه عـن قطيعـه ويُوضـع مـع الأحمـرة يعيـش معهـا كـما لـو أنّهـا أهلـه، ثـمّ مـا إن يكـبر يُخـصى ولا يُجزّ صوفـه حتـى إذا رأيتـه حسـبت لـه هيبـة عُظمـى، تُعلّـق عـلى رقبتـه الأجـراس الرنّانـة وتـرى القطيـع كلّـه يتبّـع خُطـاه ظنًـا أنّـه الأقـوى، لكنّـه في حقيقـة الأمـر لا يخطـو خطـوةً بعيـدًا عـن خطـوة أيّ حمـار... وإنّي ليُحزننـي أمـر المسـكين المريـاع إذ شـبّهتُ أولئـك الرؤسـاء بـه.

إنّي أعلـم وقـد مـضى عـن الأمـر أزيـد مـن شـهر، أنّ أبنـاء صهيـون سـيثأرون منّـا ثـأرًا عجيبًـا، لم أهتـم بتهديداتهـم، فهـي لا تقـترب مـن صحّـة الأمـر بتاتًـا، سـيتخذوننا جُثّـا يُنكّلـون بهـا يمينًـا وشـمالًا، أخرجـوا دباباتهـم وسـياراتهم الحربيّـة وراحـوا يُطوّقـون كلّ تجمّـع يرونـه خشـية تفاقمـه، وإنّهـم يـرون أنّهـم وقعـوا في الـشَرَك حـين لم يتخـذوا الأمـر عـلى محمـل الجـدّ منـذ البدايـة. لقـد تـمّ نـشر البيـان الـذي كان الأوّل لــ 'حمـاس' مـع

بدء ثوران بركان الفلسطينيّين بعد الحادثة بأيّام، أوّلًا انتشر بـ 'غزّة' ولاحقًا هنا بـ 'الضفة'. قيل ممّا أذكر: «جاءت انتفاضة شعبنا المرابط في الأرض المُحتلّة رفضًا لكلّ الاحتلال وضغوطاته، ولتوقظ ضمائر اللاهثين وراء السّلام الهزيل، ووراء المؤتمرات الدوليّة الفارغة» سمعته قبل قراءته عبر المذياع حين مررت بدكان لأشتري ما أسدّ به جوع تلك الليلة من ليالّي التي أمضيتُها بـ 'جنين'، بعد ساعات تمّ تداوله بين شبكتنا نحن المجاهدين فأرسله لي من كان الأقرب لي وأرسلته بدوري حتى يبلغ آخر واحدٍ فينا. لم يكن عملي كمراقب عملًا دون فائدة، فذاك كثيرًا ما جعلنا نُقدّر قوّة العدوّ وتحصينه ونقاط ضعفه، ضِف على ذلك أنّنا بِتنا نحفظ الأوقات التي نستطيع فيها التنقّل أو نقل ما نشاء دون انتباه صهيون، يقول لي «نزار» أنّهم ليسوا أصحاب الأرض فهم لا يعرفونها وهي تجهلهم تمامًا، بل إنّها لا تُريدهم، وإنّي بعام رأيت من قوله مُعجزاتٍ بالفعل، كأن يحاول الاختباء يهوديًّ عبثًا، فيُلمح دون أدنى جُهد، ونختبئ نحن عن غير احتياطٍ ولا نُلمح أبدًا، الأرض هُنا معنا لنُصرتنا وذاك ربّما يُغنينا عن آلاف البشر خلف هذه الحدود.

خلال زيارتي للقدس التي لم تدم إلّا ساعةً من الزمن فالوقتُ الذي كان بجُعبتي ضيّعته قبل بُلوغ البيت. وأنا على أعتاب 'باب الأسباط' لمحت فأرًا من فئران صهيون خلف خوذته، ممّا جعلني أحوّط أغلب المدينة بحثًا عن باب لا يقف عنده فأرٌ ما، لكنّي وبعد ساعتين من الهرولة عدتُ لـ 'باب الأسباط' لأطلّ هذه المرّة وألمح الفأر يقرض خبزًا:

-جعله الله زقومًا ببطنك! تأكل ما ولدته طينة هذا البلد الطاهر بكلّ وقاحة؟!

تفلتُ وعبرتُ أمامه وهو مُنهمكٌ بالتهام ما بين يديه، أكاد أجزم أنّه لم يلمح عبور أحدٍ أبدًا خلال تلك الدقائق المعدودة... وصلتُ البيت، دقدقتُ بالباب، وطال وقوفي حينما كنتُ مُستعجلًا بالفعل، حتى فتحت الباب «ندى» كانت شاحبة الوجه والسواد تحت عينيها المُحمرّتين الدّالتين على بُكاء طويل الأمد، ابتعدَت حين عرفتني عن الباب كي أدخل، دخلتُ مُمسكًا بالباب وأحاول غلقه دون الالتفات له برويّةٍ وأنا أسألها وقد بلغ منّي الخوف مبلغه:

-ما بكِ يا «ندى»؟

ظلَّت تنظر إليّ دون صوت ممّا زادني هلعًا، عَلَت وجهها نظرة حيرةٍ كيف تُلقّيني الأمر، عاودتُ طرح سؤالي بنبرة حادةٍ هذه المرّة، لعلّ الأولى لم تصل مسمعها، فردّت هامسة:

-أخي «عادل».

-ما به «عادل»؟

-أخذوه ولاد الكلب!

ليس أمرًا هيّنًا أن يُسلب «عادل» منّا، فقد كان هو أساس البيت ولغيابه أعلم أنّ أخي ليس نِدًا لتحمّل مسؤوليّة الجميع على عاتقه، هو نفسه لا يعي كيفيّة تحمّل مسؤوليّة نفسِه... تنهّدت وسألتها متى فأخبرتني أنّ الأمر وقع منذ ليلتين، ما قصّتهم مع الليل يا ترى، لم أبحث عن السبب فهم لا يأخذون بسبب ما. ربتُّ على كتفها ثمّ سألتُها عن

أحواهلم جميعًا قبل أن أدخل مُحاولًا بذلك تخفيف الصدمة علّي. أختي لم تتوقّف عن البكاء ولا دقيقة، عمّتي لم تجد سبيلًا فحبست نفسها في غرفتها فكلّ الأماكن الآن تُحسّسها بالاختناق، أمّا والدتها فصارت تحدّث نفسها كالمجنونة في إحدى زوايا البيت... أمّا «عُلا» فقد كان وجهها يدلّ على الكمّ من الدموع التي ذرفتها، بحثتُ عن «عليّ» فلم أجده بالبيت، سألت لكنّ لا واحدة منهنّ تعلم أين هو، لم أُكثر حديثي مع أيّهن، دخلتُ غرفة أمّي وجدتها على سجادة الصلّاة جالسة، رفعت رأسها تهمّ بطردي على ما يبدو ظنًّا أنّي لستُ أنا، ثم ما إن لمحتني ابتسمت وذرفت عيناها فيض دموع، حضنتها فصارت تردّد أنّنا جميعًا غادرناها، أنّ الوطن استنزفنا وما كان الله ليقضي بفرج منه... قالت الكثير، وأنا كنتُ غائبًا عن التركيز فيما تقولـه، كنتُ أحاول حمل هذا الأمر على كتفي فلم أستطع.. عندما هدأَتْ والدتي خرجتُ من غرفتها عائدًا فوجدتُ «هيفاء» سألتُها أين كانت فأخبرتني أنّها كانت بالعمل، سجّلَت كمُدرّسة بالمدرسة الإعداديّة الأقرب للبيت هي وجارتنا «ريتا» والأصحّ أنّ «ريتا» من ساعدتها في الحصول على العمل، لم أعلّق على الأمر، هممتُ بالمغادرة حين لحقت بي «هيفاء» تُعلمني بأنّ أحد زملائها يودّ خطبتها، كان ابن عمّتي «عادل» الأحق بالقبول أو الرفض أو حتى النظر في الأمر، وأنا حاضرٌ غائبٌ عن المدينة بأسرها فأنّى لي الفصل في وضعٍ كهذا، سألتُها عنه، ثمّ هممتُ بالخروج ما إن أجابت أتممتُ مسيري غير مُعلّقٍ للأمر، أفكّر بيني وبين نفسي لماذا لا ينتظر حتى خروج

أخيها من دهاليز الاحتلال ويطلبها منه، كان الهمّ الذي وقع عليّ أكثر شيء يستحقّ التفكير في الوقت الراهن، عزمتُ أن أخبر «سيف» بالأمر حتى يتواصل مع «عليّ» وينظرا فيه، ذاك «عليّ» الذي لا أعرف أين أقدامه تخطو الآن...

بين شوارع المدن ستجد الخراب أينما كنت، بصمة أبناء صهيون فوق الأرض التي يزعمون لها حبًا، وهل الحبّ أن تعصي الله فيمن أحببت؟ يجتمع الشباب يرمون الدبابات بالحجارة فذاك كلّ ما نملك حاليًا، حتى الذخيرة التي كنّا ننقلها بيننا لم تكن لتكفي بضعة هجومات، وإن قُلت أنّ المشاركة في الأمر ليست شيّقةً فقد كذبت، أن تقف وأنت أعزل معك الله بقلبك والحجر بيدك، ولا شيء آخر. شاركتُ في كلّ ما مررتُ به من مظاهرات تحوّلت لمواجهاتٍ دامية، الحجر لا يخذلنا أبدًا حتى ولو لم نكن نُتقن الرمي، يُدجَّج الواحد منّا حاملًا كومة الحجر بطرف قميصه الداخليّ الذي يعقده إلى خاصرته ويلفّ الكوفيّة حول رأسه، كنّا كلنا شباب نقف بوجه العدوّ، أحيانًا يتم حرق العجلات وجعلها حواجز... لقد جرّبتُ كلّ شيء مع الشباب، حتى تفريق المناشير كنتُ أساعد فيها أحيانًا، فغالبًا ما يُكلَّف الأطفال بهذه الأعمال، الأطفال الفلسطينيون لم يُخلقوا ليعيشوا مرحلة الطفولة، تلك المرحلة مرّت مع أعوامهم الأولى وصاروا بعدها أعقل أطفال العالم، نحن أطفالنا لا يحملون ألعابًا، بل يدسون مناشير ويحملون حجارةً يرمون بها المُستعمر، أيّ وطنٍ عاش كهذه الأمور؟ أيّ عربيّ يرضى أن يكون حاله مثل حالنا؟ لا أظنّ أحدًا يرضى على نفسه أن

يكـون، أو أن يواجـه فوهـة الدبابـة بقلـب أسـد وليـس لـه غـير ذاك الحجـر بيـده لكنّـه لا يعـرف كلمـة استسـلام.

رغـم عـدم بقائـي بمـكانٍ واحـدٍ طويـلًا فـإنّ ذلـك لم يكـن ليمنعنـي مـن مزاولـة مهامـي كعنـصرٍ ذي خـبرة بالمقاومـة ومسـاعدة المتظاهريـن بـأيّ شـكل... كانـت الأيّـام تتسـارع جـدًا خلالهـا ولم يكـن لنـا وقـتٌ نُهـدره في التفكير بمن تـمّ إلقـاء القبض عليـه مـن بـين المحتشـدين، ومـن الجـليّ أنّ ردة فعـل أبنـاء صهيون اتسـمت بالوحشـيّة، بالقطـاع وحـده تـمّ غلـق الجامعـات وفـرض عقوبـاتٍ عـلى جميـع المدنيـين، اعتقلـوا الصحفيّـين الناشريـن للواقـع الـذي نعيشـه تحت كلمـة انتفاضـة، ممّـا أوقعهـم في شـباك التصويـر الصحفـيّ وأدّى بذلـك لارتفـاع صـدى صرختنـا عـبر العـالم لَمَـا انتـشر مـن صـورٍ للقمـع الصهيـونيّ لشـباب وأطفـال لا يملكـون أدنـى سـلاح، حتـى الجيـل الـذي لم يكـن يعرفنـا عـبر العـالم صـار بفضـل تلـك الصـور التـي نُـشرت يعـرف قضيّتنـا ويتعـرّف عـلى أطفـال الحجـارة وممارسـات صهيـون، نـدّد العـالم بالأمـر كثـيرًا، لكنّـي قـد فقـدتُ الأمـل مـن العـالم بـأسره منـذ زمـنٍ طويـل، لـو لم نحمـل رايتنـا بأنفسـنا لـن يسـاعدنا بثقلهـا أحـد، لذلـك لم يكـن تنديدهـم مـن عدمـه يهمّنـي كثـيرًا.

بعـد أشـهر عديـدة عـن بـدء الانتفاضـة، تـمّ تعيينـي كعضـو ضمـن اللجـان المحليّـة كَـوني قديـم المعرفـة بأمـور المقاومـة، وتـمّ إنشـاء هـذه اللجـان مـن طـرف حركـة فتـح والجبهتـين الشـعبية والديمقراطيـة والحـزب الشـيوعي بتنظيـم مـن منظمـة التحريـر الفلسـطينيّة بُغيـة تأطـير الغضـب الفلسـطيني وتوحيـد صفـوف الشـعب، كنّـا ننقـل المؤونـة للمناطـق التـي تمّـت مُحاصرتهـا مـن

قِبل صهيون أو التي تمّ إعلان حظر التجوال فيها، لخبرتنا بتفاصيل المناطق والسياسة الصهيونيّة، وكان أهمّ ما أُقدّمه من مساعدة هي توقيت دخول المساعدات وإعانة توصيلها للمناطق الصعبة الوصول... طوال هذه الأشهر لم أحاول زيارة القدس، كنتُ كهارب عن الأمر، لكنّهم لم يُغادروا أبدًا دُعائي، كنتُ حين أختلي بنفسي تحت الأشجار أو قريبًا من مناطق المراقبة أتذكّرهم، أتساءل بيني وبين نفسي تُرى كيف حالهم الآن، ثمّ ما يلبث صوتٌ في داخلي يردّد أنّني استودعتهم الله فلن يُصيبهم شرٌ وهل نسيهم الله من قبل حتى ينساهم وهم أشدّ حاجةً له الآن؟

***

صباح اليوم وقد مرّ عامٌ من عمر الانتفاضة، هذه الفوضى التي أعيشها بيني وبين نفسي صرتُ مؤمنًا أنّني لن أتخلّص منها، أحسّ أنّ تفاصيل أيّامي كلّها تتسرّب من بين يديّ وتهرب بعيدًا وأنا أركض ولا ألحق بها... كنتُ بـ «بيت لحم»، حين التقيتُ «نزار» ولم يكن كلانا مُداومًا، فاتخذناها فرصةً لجلسة صديقين، فقد اشتقنا للراحة بالآونة الأخيرة. سألته عن أخباره وعن حاله وتبادلنا الأخبار حول الوضع وما تتناقله الألسن عن الانتفاضة، حتى انتفض فجأة قائلًا:

-كدتُ أنسى يا رجل... (أدخل يده لجيب معطفه واستخرج ورقةً مطويّة وهو يتابع كلامه) هذه رسالة أعطاني إياها «سيف» حتى أوصلها لك ونسيت الأمر تمامًا...

-كم مضى من الوقت يا ترى؟ (ساخرًا منه وأنا أمدّ يدي لتناول الورقة).

-ليس كثيرًا ههه أسبوعان كأقصى تقدير.

-ممّن؟

-لا أعلم، إن لم تكن من «سيف» فلا بدّ أنّها من أهلك، عجبًا لعقلك يا فتى!

ضحكتُ، ولم أشأ فتح الرسالة لأنّي لستُ على استعدادٍ لما قد ألقاه بين سطورها، لكنّ الواضح حين أمسكتها علمتُ أنّها ليست ورقة واحدة بل أكثر من ثلاث أوراق واستطعتُ بذلك وضع احتمالٍ لمن كتبها.

أمضينا ساعات ونحن معًا نشتم الاحتلال ونُخطّط سويًا لما قد نتمكّن من القيام به في ظلّ هذه الأوضاع، وسألتُ «نزار» عن العبور لـ 'غزة' فصاح:

-أين تعيش يا رجل؟ ألا تعلم أنّ العبور نحو القطاع صار حلمًا؟ المجانين وحدهم من يفكّرون بالذهاب خِفية، بعض المجاهدين من لا يخشون خسارة شيء وحدهم من يحاولون العبور، لكنّ الطريق وحدها أمرٌ يجعلك تتردّد ألف مرّة...

-ما بها الطريق؟

-أظنّ أنّ الأمر يهمّك فعلًا! هل شربت شيئًا غريبًا يا ترى؟ ضِف على ذلك، لماذا أنت مُهتمٌ بالأمر لهذا الحدّ؟ عجبًا لك، لا تشبع منك رقعةٌ بهذه الأرض! ألا تتعب؟

-هههههه، لا... أريد معرفة أيّ مدى أستطيع بلوغه قبل أن أُدفن تحت هذا الثرى وأصير منه.

رمقني بنظرة تعجّب وهو يردّد «لا حول ولا قوة إلّا بالله».

بالليل كنتُ على مشارف 'أريحا' مُتكئًا على شجرة زيتون نِمتُ تحت ظلّها بعد العصر لأستطيع البقاء يقظًا بالليل، أراقبُ سيارات العدوّ لكنّ مراقبتهم لم تعُد تُعزّي قلبي، حتى المشاركة بالاحتجاجات، تدبير كم من العجلات ونقلها بُغية إضرام النار فيها، إخبار الصحفييّن بأن يتجهزوا للأمر، جمع الحجارة وقذفها مع الشباب، تبليغ السكان للمشاركة... كلّ هذا لم يعد يكفيني، أريد أمرًا يُنهي وجودهم آنيًا، أريد سمًّا يتجرّعونه فيتغلغل بين خلاياهم فنُصبح بالغد وقد صاروا نسيًا منسِيا، نكتفي بدفنهم حتى لا تفوح من جثثهم رائحتهم النتنّة، لكن لماذا ندفنهم، هم يقتلوننا ويُصادرون أجسادنا الطاهرة حتى لا نستطيع دفنها! فلماذا نكون نحن ذوي ضميرٍ وندفنهم؟ يقتلون الواحد منّا عصرًا ولا يكون لأحدٍ من أهله الوقت بإلقاء نظرةٍ أخيرةٍ عليه، نسرعُ به لدفنه حتّى لا يُسرق منّا قُبيْل المغرب... هُم أساسًا لم يتركوا لأيٍّ منّا الفرصة أن يُفكّر للحظةٍ أنّهم بنوا بشر فلماذا نتعامل معهم على هذا الأساس أصلًا؟

تذكّرتُ الرسالة التي أعطاني إيّاها «نِزار»، مددتُ يدي لجيبي وأخرجتها منه، فتحتها وتعرّفتُ على خطّ «دُعاء» وانتبهتُ أنّ الورقة الأخيرة كانت بخطٍ آخر:

«كيف حالك يا عزيزي «عُمر»؟ إنّنا نقتفي أخبارك عن «سيف» بما يستطيع، لقد كان أفضل أخ لنا منذ غيابك حتى الآن... منذ أيّامٍ دبّر هو وأخوه لي ولعمّتي زيارةً لـ «عادل»،

نعم لم يتم إطلاق سراحه بعد... ابني كبر وصار يتكلّم وهو لا يعرف والده، تخيّل! لا أظنّ أنّ ما عاشه من أيّام في وجوده بقيت في ذاكرته، أيُّ حظٍ هذا... «عادل» يُسلّم عليك، قال لي أن أخبرك ألّا تتراجع عمّا تفعله أبدًا، كنتُ أرى شرارةً بعينيه لا أعرفها يا «عُمر» وكأنّما بقاؤه هناك جعل منه رجلًا آخر غير الذي أعرفه، رأيتُ الحزن بين تقاسيم وجهه والحقد وسط النّار المُلتهبة بعينيه، رأيتُ فيه غيظًا لستُ مُتعوّدةً على رؤيته... أظنّني لن أعرفكَ أنتَ أيضًا حين تعود... الحرب غيّرتكما واليهود خلقوا بين ثنايا عطفكم ورحمتكم كرهًا وحقدًا... هل فكّرتَ يومًا في العودة يا عزيزي؟ أين وعدُك بخصوص «رهف»؟ تلك المسكينة... آخر رسالةٍ لها وصلت قبل الانتفاضة لم أخبرك بتفاصيلها، بالأساس لم أخبرك أنّنا نتراسل منذ عودتها... لم أشأ أن أشغلَ بالك وأنتَ بعيدٌ عنّا... أخوك لا يزال على عادته يغيب ولا نعرف أين هو، لكنّك أحسنت بتوصية «سيف» عليه وعلينا، لقد صار صديقه، رأينا من ذلك الفتى كلّ خير بالفعل وكأنّ ما يربطنا به أكبر من مجرّد جيرة، يقول كلّما كلّف نفسه بعناءٍ ما أنّنا وصيّةٌ منك ولا بدّ له من الحفاظ على الأمانة، لكنّه كذلك لم يَسلَم من فخّ الحبّ، إنّي أرى في تفاصيل مُعاملته حبًا خفيًا لـ «عُلا» فإن طلبَكَ فيها فلا تحرمه كما حُرِمَ قلبُك من «رهف» إنّ فاقد الشيّء أَعرَفُ بدويّ ارتطام الخيبة بقلبه فلا يترك لأحد الفرصة أن يتذوّق نفس السمّ من ذات الكأس، وإنّها حياةٌ واحدة وأنتَ أعرف بالفتى وبابنة عمّتك... أمّي أيضًا تُسلّم عليك، لو أطعناها كنّا

كلّ يـوم نبعـث لـك برسـالةٍ منهـا، لقـد كتبـت مئـات الرسـائل لـك وتهـمّ بـأن تبعثهـا وأمنعهـا، اشـتاقت لـك أيّـما اشـتياقٍ يـا «عمـر» وليسـت الوحيـدة بهـذا الإحسـاس، حتـى عمّتـي التـي أحـسّ أنّهـا بالفعـل جُنّـت مُشـتاقةٌ لـك كاشـتياقها لابنهـا... أمّـا أنـا، فـإنّي انهزمـتُ أمـام الحـزن مـرّاتٍ عـدّة منـذ غيـاب «عـادل» خصوصًـا أنّـك لسـت بقُربنـا، تسـندنا الحيطـان الآن يـا عزيـزي، نعتصـم بـالله فـلا غـيره كفيـلٌ بأمرنـا، أنتظـر هـذا الصبـيّ أن يكـبر، علّمتـه منـذ أيّـام أن يتلفّـظ اسـمك، تجـاوز عمـره السـنة، أمّـي متكفّلـة بتلقينـه آيـات القـرآن وتقـول عندمـا أذكّرهـا أنّـه لا يـزال صغـيرًا أنّ تعليمـه الآن أسـهل وأنجـع وأنّ عليـه التعـوّد عـلى الآيـات... لا أعلـم إن كان قـد أخـبرَك صديقـك أنّ «عـليّ» زوّج «هيفـاء» لزميلهـا «أشرف» اتضـح أنّـه قريـب ذلـك الـذي كُنـتَ تعرفـه بكنيسـة ’القيامـة‘ عـلى مـا أذكـر اسـمه «دافيـد»؟ ولم يهتـم كثـيرًا بالأمـر وأنـت تعـرف «عـليّ» جيّـدًا كان يكفيـه أن عـرف بقرابتـه بأحـد معارفـك فلـم يهتـم بعدهـا. «أشرف» شـخصٌ مُثقّـف سـأحدّثك عنـه حتـى تعرفـه ولـو لم تُقابلـه حتـى الآن، وللدقّـة فهـو أسـتاذ اللغـة الأجنبيّـة، والدتـه ابنـة أخـت «دافيـد»، تفاجـأتُ للصدفـة الغريبـة حـين علمـتُ بذلـك، أمّـا والـده فهـو مـن الفلسـطينيّين المُسـلمين، تخيّـل أنّ «أشرف» كان مسـيحيّ الديانـة! كـم أنّ البعـض يضحّـي مـن أجـل مـن أراد، وكـم بعـض الخطـوات تبـدو صعبـةً فيخطوهـا أحدهـم مُثبتًـا عـدم اسـتحالتها... حـين سـأل «هيفـاء» لم تكـن تنـوي القبـول وحـين أتيـتَ أنـتَ وأخبرَتْـكَ كانـت نيّتُهـا بذلـك أن ترفـض، لكنّـك عـلى حـدّ قولهـا لم تُـولي الأمـر أهميّـةً بالغـة، كانـت تلـك

الفترة كفيلةً بأن يتخذ الرجل قراره ويُسلم عن قناعة، وقد أخبرنا في يوم زيارته أنّ الإسلام لم يكن غريبًا عنه ووالده مُسلم، لكنّه كان ينتظر دافعًا لاعتناقه وكانت «هيفاء» هي الدافع لذلك، بعض القصص كهذه سمعتُ عنها كثيرًا لكنّي لم أتوقّع أبدًا حدوثها على مرأى عينيّ، ونحن معشر النساء يلين قلبُنا ما إن علمنا أنّ أحدًا قدّم شيئًا ولو صغيرًا لأجلنا، فنال بذلك قلبها... مضت أسابيع على زواجها رُغم أنّ أخاها ينام في عتمة سجون المحتّل... إنّي أوّل ما أنوي تلقين ابني «وائل» هو ما تعلمناه نحن من كرهٍ لمن انتزع أرضنا غصبًا وتلذّذ بتعذيبنا، لمن شرّد أمّنا وقتل أهلها، لمن كان السبب في موت جدّتنا، لمن اختطف أختنا، لمن أخذ زوجي منّي طوال هذه المدّة ظُلمًا، ولمن لأجل طرده أنتَ هائمٌ في الأرض دون قرار... لو لم يتم الإفراج عن «عادل» فبأيّ قوةٍ سأملأ فراغ وجود أب هذا الصغير يا «عُمر»... تخيّل أنّي شعرتُ بالذنب أن أنجبته لهذه الحياة ليشقى... البيت صار كئيبًا جدًا وتفاقم ذلك بعد ذهاب «هيفاء»، كانت هي التي حين تحلّ علينا بعد انتهاء دوامها تُحيي البيت قليلًا، أو حين يأتي إليها أحيانًا الأطفال لتُدرّسهم بعضًا ممّا لم يستوعبوه بالمدرسة، هي غابت عنّا والبسمة ما عادت تعرف طريقنا أبدًا، حتى العيد منذ أشهر لم نُحسّ بقدومه ورحيله عنّا أبدًا، نحن أمواتٌ على قيد الحياة... أعلم أنّي أشغل بالك بكلّ هذه القصص وأنتَ مُنشغلٌ فيما أنت فيه مُنشغل... أتمنّى أن يكون حالنا دافعًا لك ومُحفّزًا لا أن تتّخذ رسالتي مسارًا غير الذي أردتُه وتُغرقكَ همًا... إن كان من نصيبك أن تزور ولو مارًا ’جباليا‘

فقرّ عين تلك المسكينة بزيارةٍ لها، وافهم طلبي هذا وقَولي كما تشاء... كُن بخيرٍ أينما كُنت، دعوات أمّي لم تنقطع أبدًا منذ ذهبتَ، إنّي لأدخل غرفة عمّتي وهي تُصلّي ساجدةً وأسمع اسمك واسم «عادل» يتردّدان، وأشقّ باب غرفة أمّي لأطلّ عليها فأجدها على نفس الحال ونفس الهمس يتردّد، نعلم أنّ لنا ربًا لن يُخيّبنا، فكونا بخيرٍ لأجلنا.

أختك «دعاء»»

اقتنعتُ بداخلي حينها أنّي ولابدّ زائرٌ ’غزة‘ حتى أفهم تلميحات أختي، رحتُ أتساءل في قرارة نفسي هل يستوجب عليّ فعلًا العبور عبر الأردن للعودة عن طريق ’رفح‘ وهل سأصل عجبًا؟ وكأنّها مُقامرة وجدتُ نفسي ألعب فيها، شردتُ طويلًا بعد إتمام قراءة الرسالة وكدتُ أنسى الرسالة الثانية، انتبهتُ لها ما إن هممتُ بطيّ الأوراق مُعيدًا إيّاها لجيبي، أخذتُ الورقة مُدقّقًا في الخطّ الذي لا أعرفه قبل أن أنغمس في القراءة، لم تكن رسالةً طويلةً كرسالة «دعاء»، أساسًا أختي تحبّ الثرثرة وأعلم جيّدًا أنّها ودّت لو كتبَتْ أكثر ممّا كتبَت... نظرتُ مُسرعًا لآخر الرسالة حيثُ كُتب المُرسِل فكان «سيف»:

«سلامًا لمن تُصافحه جبال ’نابلس‘ ومن تنحني له هضاب ’طوباس‘ فينطلق كشبلٍ مُحرَّرٍ نحو سهول ’أريحا‘... يُثير حفيظة المُستبدّ حيثما كان دوره بالمرور عبر أحراش ’بيت لحم‘، كفتيلةٍ مُلهبةٍ لخوف المغضوب عليهم، إنّهم تالله باتوا يخشون أيّام دوريّتك حين تُكبّدهم خسائر جمّة، وإنّي لمُتابعٌ لكلّ أمرٍ لك فيه يدٌ، لا أنمّق القولَ بل أفخر بك صديقًا وجارًا،

وأعلـم حـقّ العلـم مـا تُخلّفـه الأعـمال بنفـس الواحـد منّـا... أحـثّ الخُطـى أسـأل عـن أمانـةٍ أودَعتَهـا بعُنقـي، أسـأل عنهـم حتـى ملّـوا مـن سـؤالي، هُـم أهـلي بعـد الذيـن هـم مـن دمـي، أنقـل لهـم أخبـارك حتـى أنّهـم باتـوا يعلمـون كلّ تحرّكاتـك مـع الشـباب... أعلمَنـي «نِـزار» أنّـكَ ضمـن اللجـان المحلّيـة لكنّـي لم أفهـم لمـاذا لم تهـدأ بمـكان، جميـعُ مـن أعرفهـم عُيِّنـوا ضمـن اللجـان صـار عملهـم مرتكـزًا عـلى البقـاء بمـكانٍ واحـد إلّا أنـت... مُتفـرّدٌ كالعـادة بطريقتـك يـا رجـل، ربّـما ذلـك مـا يقهـر العـدوّ الـذي لم يسـتطع حتـى الآن اللحـاق إلّا بخيالـك، عـلى ذكـر المغضـوب عليهـم، قـد أتـوا مـرّاتٍ عـدّة للبيـت يُفتشـونه وأقصـد بذلـك يقلبونـه رأسًـا عـلى عقـب بحثًـا عنـك غالبًـا، وأظـنّ أني بهـذا الخـبر فتحـتُ شـهيّتَكَ عـلى دمائهـم النجسـة... في كلّ الأحـوال متـى مـا أردتَ القـدوم أعلمنـي كـما تعوّدنـا وسـأدبّر لـك الأمـر، لقـد سـحبوا شـكوكهم عنّـي ذات تمثيليّـة أتقنتهـا وغالبًـا لا خـوفَ عـليّ حتـى حـين... أرجـوا ألّا تُطيـل غيابـكَ أكثـر فحجـر القـدس اشـتاق لخطواتـك ولا أخفيـكَ سرًا أنّي أحتاجـك لأمـرٍ يسـتوجب اللقـاء.

إلى ذلكم الحين كُن في أمان الله صديقي. «سيف»»

طويـتُ الورقـة وأنـا أعلّـق كمـن يُحدّث ظـلًا: أصيـلٌ وابـنُ أصيـلٍ يـا «سـيف»، وإن كان سـؤْلُكَ مـا قالتـه «دُعـاء» فقـد أُوتِيتـه.

أعـدت الأوراق لجيبـي عازمًـا حرقهـا حـين ألتقـي بالشـباب فليـس لـديّ قدّاحـة أو كبريـت، لا أثـق بـشيء هُنـا ولا محـلّ للوثـوق مـن الأسـاس، قـد أُغـدَر رُغـم يقظتـي مـن حيـثُ لا

أدري وتمسكُ بي أيادي أبناء صهيون، وإنّ وجود رسائل كهذه قد يُلحق الأذى بكلّ من ذُكروا فيها، وأنا أُفضّل الغرق وحيدًا على الغرق بضميرٍ يُعذّبني. أبناء صهيون يبحثون عن أيّ فجوة للإطاحة بأكبر عدد من الفلسطينيين، ولذلك فإنّ وجودُ كهذه الأوراق بين جيوب الموقوفين يُعتبر بحدّ ذاته هزيمة مُضافةً للهزيمة التي لاقوها حين تمّ الوصول إليهم والقبض عليهم...

نهضتُ عن مكاني تحت شجرة الزيتون حاملًا قنينة الماء التي أحافظ عليها وأملأها كلّما استطعت، شربتُ منها ومسحت قطرات المياه التي بقيَت على وجهي بكوفيّتي التي كنتُ ألفّها حول عنقي ومضيت.

- ٥ -

صاح ذلك الطفل راكضًا نحو أخيه وعمّه، شابّان أحدهما سقط أرضًا بعد أن أصابت قدمَه رصاصةٌ صهيونيّة، والآخر كان يهمّ لنجدته فأمسكت به عناصر اليهود، يجرّونه وهو غير مهتّم لأمرهم كلّ ما يهمّه هو ابن أخيه الذي يستند إلى الأرض مُمسكًا قدمه ويتأوّه، يُجرّ هو وثلاثةٌ آخرون غيرَ بعيدين عن مكانه يُجرّون مثله بوابلٍ من الشتائم والضرب على رأسهم والرّكل من طرف اليهود، لمحَ ذاك الصبيّ مُقبلًا فأمره أن يبتعد فالأوغاد لا يعرفون شيخًا ولا صبيًا، عقد الصبيّ حاجبيه مُبيّنًا أنّ أمر ابتعاده عن المكان أمرٌ لا يرغب فيه، كان الحجر بيده، استدار ليلمح أصدقاءه ممّن هم بعمره جمعتهم صفوف العلم وتجمعهم صفوف الرشق بالحجارة، ذاك القابع خلف خوذته لا يهمّه أمرهم فكلّ ما يملكونه لا يتعدّى حجارةً وما يحمله هو سلاح مُتطوّر جادت عليه به مجموعتهم التي تزعم أنّها جيشٌ ذو أركان وتُموَّل والله وحده العالم من أيّ الخزائن يتمّ تمويلها. كانوا ستّة صبيان وهو سابعهم، أشار لهم ولمعرفتهم به انقضوا جميعًا وسط ذاك الدخان الرماديّ المتصاعد عن العجلات المحترقة، جميعهم يغطّون أفواههم وأنوفهم حتى لا يختنقوا من كمّ ذرات الكربون المتصاعدة، أمّا من هو بين يديّ اليهوديين فأكره ما يكرهه صهيون هي تلك الكوفيّة التي تلفّ أعناق الشباب، يحاول انتزاعها وغالبًا لعقدتها المُحكمة لا تنتزع فيكتفي

بإبعادها عن وجه المُعتَقل كما هو الحال مع عمّ الصبيّ الذي اندهشّ لانقضاض الأطفال على الجنديين بالحجارة... رصاصاتهم معدن، وحجارتنا تمثّل أنّها رصاصات حتى باتت تُخيف العدوّ أكثر من لو كانت مجرّد معدن، تلك الصورة لا تغيب عن عقل أيّ بشريّ لمحها، إنّهم ينطّون عليهما ويضربونهما من كلّ صوب، حتى أولئك الذين كانوا يجرّون الفلسطينيين الثلاثة بُغية اعتقالهم تركوا ما بيدهم وراحوا لنجدتهما، كيف لمن شهد الأمر أن يُؤمن أنّ هؤلاء تماما هم أطفال الحجارة، هؤلاء هم من يجعل للحرب غاية ويجعلون لها لذّة إذا ما انتصروا في يوم ما أو سعوا خلف دبّابة فبقوا عليها يضربون حتى ينفذ سائقها بجلده ويتركها تلقى نهايةً كنهاية أخواتها، مجرّد خردة على الطريق... على الحدود مع المخيمات تجد عديد الدبابات في مشهد تظنّ للوهلة الأولى أنّه من مخلفات الحرب العالمية وأنّ صاحب الدبّابة لا بدّ أنّه لم يعد له وجود فوق هذه الأرض... ذلك ما كان ليكون في الأصل لو لم يكن للعالم جميعًا يدٌ في بقائه.

حاول أبناء صهيون بشتى أفكارهم إخراس صوت الحق، فرضوا الضرائب، أعلنوا حظر التجوال لأيّام متتالية حتى أنّ بعض المدن شارفت مدّة حظر التجوال بها العشرة أيّام، قطعوا المياه على المدن وجعلوا لياليها عاتمةً بقطع الكهرباء أيضًا، أغلقوا أبواب المدارس والجامعات وبالأساس الأطفال حاليًا لا يُزاولون دراستهم فهم مُنشغِلون بزراعة الخوف في قلوب اليهود، منعوا المساعدات القليلة التي كانت تصل عبر الأردن، ذاك البلد العربيّ العزيز الذي منع استيراد بضائعنا،

نعم... كوجهٍ من أوجه العون ربّما! أو ذاك ما يَرونه هم... أيّ عون...

كلّ من أبدى دعمه للعصيان المدنيّ الذي يخوضه الفلسطينيون كوجهٍ من أوجه الثورة بُغيةَ استرداد حقّهم، تمّ توقيفه فاليهود يخشون تفاقم الأمر... آخر مرّة مرّ «عُمر» بـ 'بيت لحم'، سمع من أخبار أهل 'بيت ساحور' ما أضحكه وأسرّ قلبه ككلّ من سمع القصّة، كيف أنّ الأهالي هناك وقفوا ضدّ المُحتّل وقت فرضه للضرائب، وسلّموا وثائق هويّاتهم لحاكمهم العسكري، ما أدخل اليهود بأمرٍ يدعو للخوف ألّا يتمكنوا بعد ذلك من التعرف على المواطنين. وكيف حين حاول اليهود مصادرة أنعامهم صاروا يهرّبونهم كلّ ليلة لمكان، مما أدخل اليهود في دوّامة البحث عن أنعام الفلسطينيين طيلة أسابيع... وليست الوحيدة في الأمر، جلّ أهل الأرض امتنع عن دفع الضرائب، فما كان من اليهود غير مصادرة أملاكه أو تدمير بيته...

عودةً لتلك الخوذة التي ثُقبت بفعل الضرب المتكرّر بالحجارة، وتلك الكدمات التي ظهر احمرارها على أيادي اليهوديين وأرجلهم، نشبَت مشاجرة بين اليهود ممّن أتى للنجدة والأطفال والشباب الذين كانوا يُجرّون للاعتقال... أطفالنا يفعلون بالحجارة ما يعجز العالم أن يفعله لو جمع كلّ أسلحته معًا ووقف... أطفال الحجارة مُعجزة لن يُكرّرها زمن ولا مكانٌ سوى هذه الأرض.

لقد كان «عُمر» حاضرًا بذلك الوقت بنفس المكان، غارقًا بسحابة الدّخان الكثيفة تلك، يرشق الحجارة مُساعدًا لشبّانٍ

آخرين مُحاولين كسر دبّابة يهوديّة. لمحَ الحادثة، فانسحب من بين الشباب مُشيرًا للأمر، حتى ما إذا احتاج عونًا ناداهم، فيُغيثونه... لم يُنفق أيّ وقتٍ في التفكير، يعرفُ جيّدًا خطواته، مسح بنظره ما حوله كي يُدقّق توقعاته حول خطورة الأمر من يُسرِه، مشى خطوتين وسحب سكينه الذي طعن به العشرات من اليهود حتى الآن، والذي حافّته عرفَتْ تغيّرًا في شكلها من كثرة ما اخترقت من أجساد، وانقضّ على من حوّطوا الأطفال مُحاولين تخليص صديقَيْهم من بين أيديهم وحجارتهم، كانوا مُنشغلين بهم ولم يُدركوا للوهلة الأولى وجود «عُمر» حتى أسال دماء اثنين منهم، استدار أحدهم ليتفاجأ بالأمر وما كاد يُبدي ردّة فعل حتى اخترق السكين ظهره... «عُمر» سريعٌ في طعناته دقيقٌ فيها، اكتسب مهارة ذلك كجُلّ الفلسطينيين من التدريب المُتكرّر، إنّما يتّسم بالسرعة والمُباغتة، وذاك ربّما ما حال بينه وبين أن يتمّ إلقاء القبض عليه، يعلم أنّهم يولون ظهورهم ولا ينتبهون، وتلك نقطة استغلّها لصالحه... حين انتبهوا له صار الأمر أكبر من مجرّد ضرباتٍ تتلقّاها الأجساد أو أيادٍ نجسة تسحب الأطفال الحاملين للحجارة، أو محاولاتٍ للشبّان الثلاثة وعمّ الصبيّ من ردعهم، لم يعد الأمر مجرّد حجارة تدقّ خوذة، بل صار الأمر أكبر بكثير... ركض الشباب المُتواجدون قريبًا نحوهم لإعانتهم، لكنّ أحد اليهوديين كان أسرع بالضغط على زناد سلاحه...

ثلاثة أطفال شهداء من بينهم من أراد أن يُغيث عمّه، وجرحى أربعةٌ منهم في حالةٍ حرجة، هي حصيلة الشجار،

أو مـا قدّمـه أولئـك الشُـجعان لوطنهـم بهـذا اليـوم... أمّـا أبنـاء الحيّـة، فلـم يبـق منهـم مـن هـو حـيّ سـوى واحـد، لـو تسـأل لمـاذا تركـوه حيًـا لأعلمـوك «حتـى يُخـبر أبنـاء جنسـه مـا نحـنُ قـادرون عـلى فعلـه» لكنّهـم تركـوه بإعاقـة حركيـة، عـلى حـدّ قـول أحـد الشـبّان وهـو طالـبٌ بكليّـة الطـب.

-اتركـه يـا «أبـو فضـل» فإصابتـه بالغـة... دعنـي أرى... ليـس غائبًـا عـن الوعـي إنّـه يُحـاول التخلّـص منّـا حتـى نظـنّ موتـه، ههههـه، غبـيّ، أو ربّـما هربًـا مـن الواقـع؟ ههـهـه، يـا لـه مـن جبـان، الواحـد منّـا يقبـع أيّامًـا بسـجونهم يـرى الوَيـلات ولا يغفـى لـه رمـش أبـدًا... شـتّان بيننـا وبينهـم... لكنّـه فعـلًا لا يسـتطيع تحريـك يديـه.... بربّـك كيـف كنـتَ دقيقًـا في طعنـه لهـذه الدرجـة يـا رجـل!.... هـااي... أنـت، أيّهـا الملعـون... افتـح عينيـك، أعلـم أنّـك تفهمنـي، آآآي... (ثـمّ راح يُحدّثـه بالعبريّـة حتـى فتـح الصهيـونيّ عينيـه) تسـمعني جيـدًا الآن... هـذا الـذي بيـدي حجـر، أتـراه؟ أعلـم أنّـك تـراه لكنّـك لا تعلـم أبـدًا مـا قـد يُفيدنـا بـه الحجـر ضدّكـم... هـل تعلـم أنّ قتلَـك سيُهوّن عذابـك؟ لكنّـي أريـد لـك أن تتعـذّب كـما عـذّب أهلُـك والـدتي، لا أريـد لـك المـوت... هـذه جثـث أصدقائـك، حـين يـأتي فريقكـم لأخذهـا أعلِمهـم بـما يسـتطيع الأطفـال منّـا فعلـه، أعلمهـم كيـف أنّ الـذي خـرقَ خـوذة صديقـك مـا هـو إلّا حجـر مـن الأرض التـي تنهبـون فيهـا... إيّـاك والكـذب أيّهـا الملعـون... إيّـاك...

وسـحب سـكّين اليهـوديّ مـن جيبـه، في حـين كان أصدقـاؤه مُنشـغلين بحمـل أجسـاد الأطفـال الذيـن استُشـهدوا ومُسـاعدة

بعضهم... أمسك بوجهه بقبضة يده، فانتبه له «عُمر».

-ما الذي تفعله يا «أبو ناصر»؟

-أعلّم على وجهه، حتى ما إذا تطوّر الطبّ وعرف لإعاقته علاجًا تبقى العلامة كلّما لمحَ وجهه بمرآةٍ تذكّره بالأطفال الذين أحرق قلوبَ أمهاتهم عليهم... وحتى ما إذا وجدتُه يومًا في طريقي تفلت عليه وتابعتُ طريقي...

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله... كفاك دراميّةً يا رجل وتعال ساعدني لأقف...

1996 (يناير)

إنّـه الأسـبوع الأوّل مـن هـذه السـنة، بِضعُـة آمـال عرفـت الطريـق لقلـوب الكثيريـن منّـا، رغـم أنّنـا كنّـا نريـد أن يكـون رغيفنـا لنـا لوحدنـا، لكـنّ مـا سـارت لـه الأوضـاع جعـل الأمـر يسـتوجب القبـول والخضـوع لاقتسـامه لأجـل أنفسـنا وبلدنـا... فلـو سُـئل يهـوديّ وفلسـطينيّ مـن يقبـل بحـرق هـذه الأرض عـلى آخـر شـبرٍ فيهـا ومـن ثـمّ امتلاكهـا لمـا رضيَ فلسـطينيّ أن تُـوأد هـذه الغاليـة مهـما تكـن الغايـة مـن وأدهـا. نُحـضّر لأوّل انتخابـات لنـا منـذ أشـهر... تداعيـات الانتفاضـة جعلَـت أبنـاء صهيـون بـين فكّـيْ إيجـاد حـلٍ سـياسيّ ولـو عـن غـير رغبـةٍ منهـم، خصوصًـا وأنّهـم باتـوا عـلى يقـين أنّ نتائـج سياسـاتهم المُمارَسـة كلّهـا ضدّهـم، وفي حـين أصبحـت الأوضـاع التـي يُعايشـها العـالم العـربيّ لصالحهـم تمامًـا خُلقَـت لهـم الشـجاعة لينـشروا -حسـبهم- السـلام بالاتفـاق بينهـم وبـين العـرب، وإنّـه لأمـرٌ يُفجّـر براكـين القلـب أيّ سـلامٍ ترضـا بـه مـع مُغتصـب وطـنٍ يُنـادى أُخـت العـرب الصُغـرى، والغالـبُ أنّـما يحـلّ بهـا مـا هـو إلّا شـبه تِكـرارٍ لمـا حـلّ بــ «يوسـف» (عليـه السـلام) مـع إخوتـه، إنّـما مـا يُبيتُهـا في كَـدَر أنّ مكوثهـا طـال بالجـبّ ولم تمـرّ قافلـة العزيـز بعـد. هـذه فلسـطين فـماذا قدّمتـم لهـا؟ تلـك الحيّـة تسـعى بـين الظُفـرِ والأنامـل، لا تعـرف مكوثًـا أو راحـة، والجميـع يسـتريح عـلى أفرشـةٍ مـن جلـودٍ لم يعرفـوا بعـد طعـم الرغيـف حـين يُطهّـره دم الشـهداء.

كان مؤتمر مدريد، ويومها كانت أوّل مرّةٍ أُعطيَ لفلسطين أملُ ما يُسمّى (الحُكم الذاتيّ) ولو أنّ أصحاب الأرض لا يُقنعهم إلّا اختفاء الغريب عن الثرى وانتهاء وجودهم على آخر نفرٍ منهم، إلّا أنّه أمرٌ أحسن من الوضع الحاليّ، في نفس المُؤتمر تمّ عقد الصُلح بين أبناء العمومة، العرب وأولاد صهيون... وإنّ الأمر ليُناسبهم تمامًا وهم يقفون لأخذ صورٍ للذكرى ودّ لو تُخلّد ويُسجّل على أسفلها كعنوانٍ أبديّ: قلوبهم غُلف، فهم أبناء عمومة فكيف لا يتشابهون بالقلوب يا ترى! لكنّ من سبقوهم لم يكونوا هكذا، أَعادَ لهم الحنين أم أنّ الإسلام الذي كان يُثبّت الأقدَمِينَ بات مشكوكًا بصدق نواياه في قلوب هؤلاء يا ترى؟ حتى الانتفاضة عرفت هدوءًا بتلك الأيّام، بعد المفاوضات التي جرت بين فلسطين واليهود كانت المحطّة الأخيرة 'اتفاق أوسلو' منذ ثلاث سنوات والحمد لله أنّ الأرض تنفّست قليلًا بعد انسحاب المُستبدّين من عدد من المدن بدءًا ببضع مناطق من 'غزة'... أمرٌ أسعد أهلها الذين عرفوا من مُمارسات اليهود ما لا يعرفه سِواهم... ورغم أنّ 'القدس' ضمن المُعاهدة، فإنّها لم تعرف تحركًا صهيونيًا للابتعاد عنها أبدًا، ولا حتى نوايا لذلك، إمضاؤهم كان حبرًا على ورقٍ كالعديد من البنود التي أمضوا عليها من قبل وتجاوزوها، إنّها عادات صهيون التي لا تتغيّر ولو تغيّر الكون، أمّا عن 'القدس' فإنّ الأمر كما لو أنّ لهم هدفًا يُخطّطون لبلوغه ذات يومٍ وعليه لن يتزحزحوا من أماكنهم أبدًا.

اعترفوا أخيرًا بنا تحت لواء منظمة التحرير، لم يعترف بنا

أحدٌ من قبل على أنّنا شعبٌ ووطنٌ مُستبَدٌ يريد الخلاص من مُستبِدّه، لكنّ الواحد فينا ربّما أكثر وطنيّةً من الكثيرين ممّن يعيشون بين كنفات وطنٍ مُحرّر. كلّفَنا الأمر قبولهم وقبول العيش معهم على ألّا يُنقض اتفاق السلم، وغالبًا نحن لن ننقض عهدًا فدومًا ما يكون المُستبد والظالم في الأمر هو الخارق الأوّل لهدنة السلّام. إنّ غايتنا لم تكن أبدًا هذه، لم نُرد شريكًا في أرضنا بل أردنا العودة لبيوتنا واستعمال مفاتيحنا التي حافظنا عليها أبًا عن جد! أردنا أن ننام ونحن مُرتاحو البال، وحين نسمع جلبة في الشارع لا نجزع أن يكون أحد جيراننا تمّ إلقاء القبض عليه بل نظنّ حُسنًا أنّها إحدى مُناوشات الأطفال... أمنياتُنا التي انتفضنا لأجلها أخرسناها، طويناها وأَودعناها رفوف الغايات المُؤجّلة، بعضنا لم تكفه دموعه لغسل حزنه على الأمر الذي لا يُريده، بعضنا لم يسعه أيّ مكان فظلّ هائمًا من فرط كُرهه لمفاجآت الحياة، بعضنا حاله أشبه بحال ذاك الشاب على مشارف عمر الثلاثين الذي قضى عمرًا بأكمله مُجاهدًا في سبيل حريّة بلده، يجلس اليوم تحت نخلة لا يعرف أين ستأخذه رجلاه وقد صار كلّ ما عملَ لأجله أمرًا غير مُقدّر، أيقفلُ عائدًا لبيته وقد عزم يوم خرج ألّا يعود إلّا براية الحريّة وإمّا في كفن! رغم كلّ الآمال لكنّ أيامنا صارت رماديّة، لطالما قَرأنا الفاتحة على أرواح من فقدناهم والأعزّاء علينا، ونسينا أن نقرأها على أحلامنا المُؤجّلة وآمالنا المُنكسرة... عدوّنا لا يُؤتمن، وقد يُقسم باطلًا ويفعل عكس ما أقسم، وتلك كانت أكبر مخاوفنا، نُعزّي أنفسنا أنّنا على الأقل تمكنّا من الوصول لنتيجة لكنّنا نتذكر

أنّها ليست ما وقفنا لأجله طويلًا، كشيخٍ يكاد لا يقوى على المشي يقف بطابور ينتظر الحصول على بعض الخبز وحين يصل دوره يخبره الخبّاز أنّ الخبز نفد.

في أيلول الماضي تمّ توقيع 'اتفاقية أوسلو الثانية' الضامنة لتشكيل المجلس التشريعي الفلسطيني الذي يُسيّر فلسطين خلال الحكم الذاتي الذي وُعِدنا به. خرج أساتذة المدارس على أثر ذلك منذ شهرين في عمليّة أشبه بالإحصاء بُغية تسجيل المواطنين النّاخبين، وشارك في ذلك «أشرف»، تنقلوا بين منازل الفلسطينيين، تمّ تسجيل كلّ من هو بعمر السابعة عشر فما فوق، وبذلك أُنشئ سجل الناخبين الفلسطينيين أخيرًا.

«وائل» صار بعمر التسع سنوات منذ حوالي شهرين، كبر بسرعة وسط ازدحام تلك الأيّام، احتفل بمولده على طريقته حين طلب من خاله أن يأخذه في جولة للبساتين بـ 'جبل الزيتون' كي يقطف اليوسفيّ الذي يحبّه... تلك الأرض التي أتت النار على نصفها من سنتين والمُفتعل للأمر مجهول فلم يتبقّ سوى بضع أشجار الحمضيات والزيتون. لم يحدث أن رآه والده طوال هذه السنوات فبقيَ خياله كما كان صاحب الشهرين في آخر يومٍ كان فيه بين ذراعيه، وإحساس اليُتم بقلب الصبيّ راح يشتدّ حتى ولو كان والده مجرّد أسير... يدُ الفراق لا يختلف وجعها باختلاف علّته فلا فرق في الغياب ولو تعدّدت أسبابه. حتى أكبر أخواله الذي حفظ اسمه وسمع عن قصصه ومغامراته الكثير، لا يزال في انتظار أن يلتقي به في أيّ يومٍ مُتبّلٍ بحُسن الحظ... خاله

الـذي لم يعـرف أبـدًا الغيـاب الطويـل الأمـد، لكـنّ قدومـه دائـمًا مـا كان يتزامـن مـع غيـاب «وائـل» إمّـا في المدرسـة أو في زيـارةٍ لإحـدى عمّتيْـه، يـصرخ في كلّ مـرّة يعـود ويُخبرونـه أنّـه فـوّت لقـاء «عُمـر» ويُلقـي اللّـوم عـلى جدّتيـه وأمّـه في تركـه يُغـادر مجـدّدًا دون انتظـار لُقيـاه وأحيانًـا يقـول أنّـه يتهـرّب هـو بالـذات مـن لقائـه مُتعمّـدًا، فأُضيـفَ الأمـر عـلى أحاسيس اليُتـم وجعـل منـه طفـلاً بقلـبٍ يـكاد ييـأس مـن الحيـاة مُبكـرًا جـدًا. لم تتغـيّر شروط قـدوم «عُمـر» بـل ازدادت تعقيـدًا، فحركتـه خفّـت كثـيرًا وتنقلاتـه تضـاءل عددهـا، فبـات يمكـث أطـول في مـكان واحـد قبـل أن يتنقّـل ويمـر بــ ’القـدس‘.

صبـاح اليـوم، حـين قـدم «سـيف» الـذي تـزوّج «عُـلا» منـذ سـت سـنوات وصـار أبًـا لطفلـين، جلبهـم معـه ودقّ البـاب، فتحـت «نـدى» البـاب بعـد أن سـألت عـن الطّـارق، حملـت «قُـصي» الـذي سُـميَ عـلى اسـم شـهيد العائلـة في النكسـة مـن ذراعـيّ والـده وراحـت تُلاعبـه، أمّـا «عُـلا» فكانـت تُمسـك يـد «محمـود» صاحـب الأربـعِ سـنوات ومـا إن دخـل المنـزل أفلـت يدهـا وراح يركـض باحثًـا عـن جدتـه. أمضـوا صبيحـة اليـوم كلّهـا معًـا، وحـين اقـترب وقـت العـصر أخـذ «سـيف» ولـده الأكـبر «محمـود» و«وائـل» معـه نحـو ’جبـل الزيتـون‘ حيـث «عـليّ» آخـذًا لـه غـداءه ولأجـل أن يلهـو الطفـلان قليـلًا بـين الأشـجار مـا دام الجـوّ صحـوًا. مـا إن صـاروا خلـف أسـوار ’القـدس‘ ومـرّ عـلى خروجهـم وقـتٌ بسـيط حتـى دُقّ بـاب البيـت مُجـدّدًا... قامـت «عُـلا» ظنًـا أنهّـم عـادوا فتحـت البـاب لكـنّ توقّعهـا كان خائبًـا حـين وجـدت رجلـين، دقّقـت في

أصغرهما فإذا به «عُمر» لم تُعر الثاني أهمّية وراحت تُنادي من فرط فرحتها على من في البيت أنّ هلال «عُمر» أطلّ عليهم فقد صاروا يُلقبونه بالهلال، يختفي طويلًا ويأتي قليلًا زيارةً لا تدوم سويعةً من الزمن، ابتسم «عُمر» بدوره ثمّ انتبه أنّ ابنة عمّه لا تزال تُدقّق في الرجل بملامح عدم معرفة هويّته.

-ما بكِ يا «عُلا» كمن لم يعرف الرجل!

-بربّك هل أعرفه؟ إنّي أرى فيه بعضًا من سنواتي غير البعيدة لكنّني لم أتوصّل له...

ما كادت تُتمّ جملتها حتى بلغت «صفيّة» مدخل البيت وصرخت:

-«عادل»!!!

صُعقت «عُلا» ما إن سمعت الاسم من والدتها، كيف لعقلها أن ينسى ملامح أخيها الأكبر، هل لفارق تسع سنوات أن يمحو ملامح النّاس من عقولنا لهذه الدرجة؟ نعم تغيّر كثيرًا ولا إنكار في ذلك، السجون تجعل من الشاب شيخًا آخر تمامًا لا يُشبه نفسه، لكنّ بعض اليقين الذي نعيشه أنّ غائبًا ما لن يعود ربّما ذاك ما جعلها تستبعد أن يكون هو الواقف أمامها وجعل عقلها لا يعمل على نحو إمكانية أن يكون هذا هو «عادل» الذي تعرفه. في اتفاقيةٍ لتبادل الأسرى كان ذا حظٍ هذه المرّة بالخروج، وما إن علِم «عُمر» بالخبر أتى للقاء العائلة مُجتمعةً أخيرًا بعد شتات سنين.

-«عُمر» اذهب وناد أخاك يا بُنيْ... ألم تلمح في طريقك

«سيف»؟

-لا يا أمّي...

كانت تتلعثم في الكلام من شدّة فرحها تُشير له بيدها لعلّه يفهم كلامها قبل أن تتلفّظ به أخيرًا... بعضُ الفرح يُعجزنا عن الكلام وبعضُه يجعلنا لا نعي ما نقول... لمعت عيناها وكادت تدمع من فرط سعادتها، لطالما انتظرت هذا اليوم الذي يدخل فيه الرجلان من هذا الباب بعد طول غياب.

-ناد «سيف»... أعلِمه... سـ سنحتفل برجعة «عادل»...

-بإذن الله يا غاليتي، بإذن الله... هم في بساتين 'المنصوريّة'؟

-نعم... لا تُطل.

قبّل يدها وخرج مُهرولًا... خطواته عبر المدينة أعادت له شريط ذكرياته، أيّام عمله في البساتين، يُحلق بعينيه في كلّ زوايا الشوارع والأزقة، يلمحُ بضعة تغيّرات لم يلمحها في المرّات المعدودة التي كان يأتيها على غرّة وبمشقّةٍ هارب من أن يُمسَك به ولا يُكمل مهمّته. وصل البساتين، همّ مُناديًا لكنّ الذاكرة كانت تلعب على أوتار قلبه فكاد أن يُناديَ أن يا «جوزيف»، ابتلع الغصّة التي تكدّست عن رواسب الذكريات وامتنع عن أيّ مناداة ورجّح البحث عليهم مُعتمدًا على بصره.

طفلان يلهوان، ورجلان يجلسان أرضًا تحت شجرةٍ فقدت أوراقها بفعل تغيّرات الأيّام وارتدت ما يليق لفصل الشتاء من حلّة... واحدٌ يأكل والثاني يعبث بغصن زيتون بين

يديـه، رفـع الأخـير رأسـه ووسـط حـيرة دامـت بضع لحظـات نـادى مُلوّحًـا:

-وا «عُمر»!

لـوّح لـه «عُمـر» بـدوره، وإذ بـذاك الصبـيّ يسـتفيق مـن تركيزه فيـما يلعـب، ينظـر نحـو خالـه وزوج عمّتـه ويسـألهما ثـم مـا يلبـث ينطلـق راكضًـا نحـو الرجـل القـادم الغريـب عنـه الحـاضر الدّائـم بمخيّلتـه، حتـى وصـل إليـه ومـا ظـلّ يفصلهـما سـوى بضـع خطـوات، كـردّةِ فعـل أيّ طفـلٍ مُتخـوّفٍ مـن أمـرٍ لا يعـرف مصـيره بقـي ينظـر بإعجـاب نحـوَ خالـه الأكـبر، هـل هـذا الـذي أحفـظ قصصـه التـي تحكيهـا لي أمـي؟ هـل هـذا فعـلًا «عُمـر»؟ إنّـه أطـول ممّـا كنـتُ أظـنّ وتلـك الكوفيّـة، يـا الله! تمامًـا كـما تخيّلتهـا تلـفّ رقبتـه، لكـنّ لحيتـه لم تكـن ضمـن الصـورة التـي تقبـع في عقـلي، قـويّ البُنيـة تمامًـا كـما خِلتـه...

-أنت «وائل» أليس كذلك؟

أومـأ الصبـيّ برأسـه لكـنّ ملامـح الدهشـة والإعجـاب لم تُغادر وجهـه الـبريء، انحنـى نحـوه خالـه وحملـه بـين ذراعيـه وضمّـه لـه، ولـبراءة الطفـل نـسي عـشرات المـرّات التـي كان يغضـب فيهـا لأنّ خالـه لم ينتظـره ولم يلتـق بـه وظنُّـه أنّـه لم يشـأ لقـاءه.

لم يكـن «سـيف» عـلى علـمٍ بمجـيء «عُمـر» هـذه المـرّة، وذلك مـا جعلـه يشـكّ في أمـر قدومه.

-أتيتُ لأجل أمرٍ آخر، لستُ في زيارة من تلقاء نفسي...

-عمل؟ ألم يتم منع أعمال المجاهدين بعد المعاهدة؟

حرّك رأسه نافيًا وراح يحمل «محمود».

-من هذا؟ لقد بتّ لا أعرفهم... آخر مرّة رأيت أولادك كان أكبرهم يخطو ويقع، أهذا هو؟

-إنّه «محمود» ... أكبرهما، نعم... أجبني إذن؟

-لقد كبرتَ يا فتى...

مُتخطيًا سؤال «سيف» كأنّه لم يسمع سؤالًا من أحد، ما لبث الصبيّ أن أراد البكاء لعدم معرفته لمن يحمله، فردّه «عُمر» لوالده وهو يقول مُلخصًا كمن لا يُريد شرح أيّ شيء.

-«عادل» بالبيت، هيا...

تُرى ماذا كان ينتظر منهما غير الصمت تعبيرًا عن تفاجئهما، بقيا ينظران نحو بعضهما ونحوه، هو غير الآبه بشيء، أمسك يد ابن اخته وأخبره أنّهم عائدون للبيت ومضى، ثم توقف بعد خطواتٍ معدودة واستدار.

-تنتظرون ماذا هناك؟

ركض «عليّ» نحوه مُتسائلًا:

-متى وكيف؟ أخبرنا لنفهم يا رجل.

-وكأنّ شيئًا سيفوتكما، في البيت اسألا ما يحلو لكما.

سار عائدًا وقد سبق أخاه وصديقه، يحكي لابن أخته بعض التفاصيل التي لن يعرفها الصبيّ عن أحدٍ غيره، حكى له عن 'باب الأسباط' وكيف شُيّد، وعن ذاك الجدار الذي وقعت حجارته منذ آخر احتجاجات هنا، أخبره حكايات الحجر الفلسطينيّ الذي يقف شاهدًا على آلاف الوقائع، أخذه سائرًا عبر 'عقبة درويش' يعدّان كم درجًا

صعـدا، لـو رأيتهـما لظننـت أنّهـما عاشـا طـوال حياتهـما معًـا لا أنّ لقاءهمـا كان منـذ نصـف سـاعة... قريبًـا مـن البيـت توقّـف «عُمـر» ليُخـبر الصبـيّ أنّ هنـاك مفاجـأةً خلـف البـاب، وسـتكون ربّـما أمـرًا سـيُغيّر حياتـه، فجـلّ الأمـور غـير المُتوقعـة تُغـيّر مسـار الحيـاة، و«وائـل» بطبعـه صبـيّ ذكـيّ اسـتوعبَ الفكـرة مُنتظـرًا تفاصيلهـا خلـف هـذا البـاب الـذي لطالمـا فتحـه ودخـل ولم يتغـيّر شيء واليـوم قيـل أنّ كلّ الأمـور قـد تتغـيّر، إنّ الأمـر يسـتوجبُ شـجاعةً عقـب كلـماتٍ كهـذه فرغـم السـعادة الظاهـرة فيهـا إلّا أنّ كلّ مـا هـو مجهـولٌ قـد يُثـير مراكـز الخـوف في خلايانـا العصبيـة.

دقّ «عُمـر» بـاب البيـت، ثـوانٍ وفتحـت «عُـلا» البـاب، دخـلا لكـنّ «وائـل» ظـلّ ممسـكًا بيـد خالـه ينتظـر معرفـة الأمـر، دلفـا الصالـة حيـث كان الجميـع مـا عـدا «عُـلا» التـي كانـت بالمطبـخ، بَحلَـقَ بعينيـه بـين الوجـوه الحـاضرة، جميعهـا يعرفهـا، ثـم وقـعَ نظـره عـلى ذلـك الرجـل الغريـب الملامـح، ذي صلعـة صغـيرة تتوسّـط رأسـه، والـذي كان بـدوره يراقبـه، عينـاه غائرتـان تُحيـط بهـما هـالات سـوداء يـكاد يُخـال أنّ عمرهـا سـنوات، تجاعيـد تُحيـط بثغـره لكنّهـا ليسـت مـن فعـل الضحـك... شرد فيـه الصبـيّ بُرهـةً ثـمّ رَمـقَ أمّـه بنظـرة تعجّـب كان فحواهـا سـؤال مـن هـذا الغريـب الـذي يتوسّـط صالتنـا يـا أمّـاه؟

انخفض نحوه خاله واضعًا يديه على كتفيْ الصبيّ.

-«وائـل»، هـذا والـدك الـذي كان غائبًـا عنكـم بسـجون الاحتـلال...

عـاد بـصر الصبـيّ ليُثبّـت نحـو الرجـل كمـن يسـأله داخليًـا

هـل فعـلًا أنـتَ هـو والـدي الـذي بِـتّ أيامًـا أنتظـر رؤيتـك؟ هـل فعـلًا انقضـت تلـك الأيّـام التـي كنـتُ أراهـا سـوداويّة حـين ألمـح أصدقائـي مـع آبائهـم؟ هـل أنـت هـو الأب المُنتظـر الـذي تمنيـتُ وجـوده مُـذ عرفـت نفسـي؟

-تعال يا بُنيّ...

اقـترب الصبـيّ مـن والـده الـذي لم يـره منـذ أن كان ذا شـهرين مـن العمـر، يخطـو خطواتـه عـلى خجـل، يحـدّث نفسـه سرًا لكـنّ عيونـه كانـت تقـول مـا يجـول بعقلـه الـبريء: إنّـه التغـيّر الـذي أخـبرني عنـه خـالي منـذ قليـل إذن، إنّ الله أخـيرًا اسـتجاب لي عندمـا كنـتُ أهمـس لـه أنّي أغـارُ حـين ألمـح آبـاء أصدقائـي وأنـا لا أملـك أبًـا يحنـو عـليّ أو يمسـح عـلى رأسي ويشـتري لي مـا أشـاء، إنّ أمّـي صدقتنـي القـول حـين أخبرتنـي أنّ الله يسـتجيب للأطفـال المُهذبـين حـين يطلبـون منـه ويتيقّنـون مـن اسـتجابته وينتظرونهـا...

حضـن «عـادل» ابنـه «وائـل» لأوّل مـرّة بعـد غيـاب تسـع سـنوات تقريبًـا... إنّـه لعمـرٌ طويـلٌ ضـاع منـه، الصبـيّ سـيكبر وربّـما سينسـى لـو عُـوِّض عـمّا فـات، أمّـا مـن عايشـوا الحـزن بدقائقـه وسـاعاته فـإنّ نسـيان كلّ ذاك الألم سـيكون أثقـل عليهـم.

كانـت «غـادة» بهـذا اليـوم أسـعد امـرأة ربّـما، أو عـلى الأقـلّ أسـعد مـن عرفـت مـن النسـاء، عـاد شـمل عائلتهـا، وهـل لهـا مـن أمنيـة أكـبر؟ جلسَـت بعـد العشـاء الـذي عُـزِم فيـه كلّ الجـيران مـن بيـت «مادلـين» و«ريتـا» لبيـت أهـل «سـيف» بـكلّ إخوتـه وأعمامـه فغـدَا الأمـر أشـبه بوليمـة عـرس، جلسَـت تُفكّـر

باسـمةَ المُحيـا، دخلـت عليهـا «دُعـاء».

-مممم، أراكِ مُبتهجةً كما لم أعرفكِ من قبل يا أمّي.

-نعـم... إنّ غيـاب بعـض الأشـياء والحرمـان منهـا يجعلهـا ذات أهميّـةٍ أكـبر ويجعـل عودتهـا أمـرًا يسـتحق كلّ الثنـاء للمـولى والبهجـة أو السـرور إنّـما يكـون شـعورًا قليـلًا عـلى أمـرٍ كهـذا... أخـيرًا اجتمعنـا جميعنـا...

-الحمد لله...

-لو كان «رامز» هنا لسعد أكثر منّي ومنكِ.

-لا بـأس يـا أمّـي، قـدرٌ مـن الله والخـيرة فيـما اختـار الله لنـا... هـل تظنـين أنّـه سـيعود؟

-لا... إنّي لم أعـد أحـسّ بـذاك النبـض الـذي كان بـين ضلوعي، ولا أسـمع صـداه بعقـلي، كأنّـما نفـسٌ انقطـع عـن إحـدى رِئتـاي، لقـد تـشرّد الفـؤاد وغـاب والغالـب أنّ والـدك يسـمعنا الآن ولـن يعود...

هنـاك دلَـف «عُمـر» الغرفـة عازمًـا مُنـاداة أختـه فصديقتهـا «ريتـا» تبحـث عنهـا، انتبـه لحديثهـما وكأنّ الحـزن يبـدو عـلى مُحيّاهمـا فسـأل لكـنّ والدتـه نفـت قائلـةً:

-ما الذي سيُحزن قلبي وجميعكم حولي الآن؟

ابتسـم وحضـن والدتـه قائـلًا أنّهـم بـإذن الله لـن يفترقـوا بعـد هـذا أبـدًا، فنطقـت «دُعـاء» رافعـةً حاجبهـا:

-آآه، انتابتني الغيرة...

اسـتدار نحوهـا ودعاهـا تُشـاركهما الحضـن بعـد أن مازحهـا أن

اغتاظـي!

-عـلى فكـرة يَـمّا (نطقـت «دُعـاء») إحنـا مـش كلنـا حولـك هـا...

نظر نحوها أخوها باستغراب.

-لا تنظـر أنـتَ إليّ هكـذا... أقصـد شـخصًا تعرفـه أنـتَ بالـذات جيّـدًا.

رفـعَ حاجبيـه مُندهشًـا فأتمّـت قولهـا بذكـر اسـم «رهـف»، عَلـت وجهـه حُمـرة، مـا عُرفـت أكانَـت عـن خجـلٍ أم عـن كبـتٍ لحـزنٍ مُندثـر، لقـد استماتِ يدفنهـا تحـت ثـرى الذكريـات، ذهابـه الآن أشـبه بالحلـم فـأيّ تصريـحٍ هـذا الـذي سـيتمكّن مـن نيلـه عـن اليهـود للعبـور وهـم يمنعـون حتّـى الحـالات القصـوى، لكنّـه لا يـزال يُخبـئ بعـض الأمـل مـا دامـت لم تُحسـب عـلى عـدّاد الذكريـات بعـد.

أغـاني ’فـيروز‘، شـعر ’محمـود‘ ومقالاتـه، روايـات ’غسـان‘... كلّهـا لم تُحرّرنـا مـن السـجن الـذي فرضـه صهيـون علينـا... إنّ الحيـاة لـو لم تكـن فـوق أرضنـا لكنّـا مللناهـا ومـا صبرنـا عليهـا أبـدًا... ربّـما كانـت كلماتهـم كفيلـة أحيانًـا بتشـجيعنا أو بزيـادة صبرنـا، لكنّهـم عـلى الأقـل لم يمنعونـا ممّـا جـاد بـه الله عليهـم مـن موهبـةٍ بالسـرد أو الكتابـة أو الصـوت العـذب، عـلى الأقـل نصرونـا بـما اسـتطاعوا إليـه سـبيلًا... إنّنـا ولليـوم موقنـون أنّنـا لسـنا مُنهزمـين، وأنّنـا خرجنـا مـن هـذه الانتفاضـة بخـبرات لا حـصر لهـا، خصوصًـا في المجـال العسـكري، بـات المجاهـدون بعـد حُسـن اسـتغلال معلوماتهـم ونقلهـم للذخائـر مـع المؤونـة والمسـاعدات قادريـن عـلى التعامـل مـع هكـذا أوضـاع عـلى

أقـصى مـدّة تقديـر، إنّنـا قـد رأينـا أسـوأ مـن هـذا فلـن يكـون القـادم أكثـر سـوءًا أبـدًا، آخـرون منّـا تعـزّزت روحـه بالثقـة في نفسـه حـين غـدره صهيـونيّ ولم يملـك لنُصرة نفسـه غـير سـكينه الـذي لم يُحسـن اسـتغلاله أبـدًا وحـين الأزمـة جـاد بـه فـأردى اليهـوديّ صريعًـا... أطفالنـا أولئـك، أتظنّونهـم سينسـون يـوم كانـوا خلـف اليهـوديّ يركضـون حاملـين حجارتهـم؟ شـكرًا يـا 'نـزار قبـاني' حـين كتبـتَ فيهـم مـا لـن يخـطّ شـبيهه أحـد، حـين ذكـرتَ أطفـال غـزّة وصدحـت بقصيدتـك منـذ سـتّ سـنوات... إنّ البطـل بفلسـطين لا يحتـاج أن يتعلّـم البطولـة، إنّهـم يولـدون أبطـالًا.

***

مـضى يومـان وقـرّر «عـادل» الذهـاب للتسـجيل بعـد إعـادة فتـح المجـال للتسـجيل في قوائـم الناخبـين لمَـن أُطلـق سراحهـم مُؤخـرًا، طالـب بحقّـه ولـو كان مجـرّد أمـر لم يسـع لـه مـن ثَـارَ مُعلنًـا حربًـا يسـتردّ بعدهـا مـا نُهـب منـه. أمّـا «عُمـر» فـكان بـين الأمريـن أيُسـجّل أم يعفـي نفسـه، لكـنّ «أشرف» تكفّـل بأمـر تسـجيله.

عـاد «عُمـر» عـصرًا للبيـت مُنهـك القـوى، والحـال أنّـه اشـتاق نسـيم «زهـرة المدائـن» فرغـم تنقلـه الدائـم فإنّـه لا مـكان أحـبّ لقلبـه كــ 'القـدس'. رمـى نفسـه عـلى أقـرب كنبـة وغـطّ في نـوم عميـق. دخلـت «نـدى» الصالـة بعـد أذان المغـرب لتجـد أنّ ابـنَ خالهـا لا يـزال غارقًـا في نومـه كانـت تهـمّ بالمغـادرة حـين لمحـت دمعـةً عـلى خـدّه، ضحكـت وراحـت تخـبر أختـه سـاخرةً أنّ

أخاهـا يبكـي وهـو نائـم، ابتسـمت في حينهـا «دُعـاء»، لكنّهـا لم تـولِ القصّـة أهميّـة بالغـة، لنـا في دنيـا أحلامنـا مـا يُسـعدنا حـد القهقهـة في المنـام ومنـه مـا قـد يُباغتنـا بحـزنٍ دفـينٍ في قلبنـا نـودّ محـوه في يقظتنـا لكنّـه يأبـى إلّا العيـش في أحلامنـا...

بالجهـة الأخـرى مـن أرضنـا، والتـي يفصلنـا عنهـا قـومٌ شـاءوا أن يزرعـوا أنفسـهم عُنـوةً رُغـم أنّ الأرض لا تُريدهـم، وبضـع مراكـز تفتيـش وحواجـز، وبالمخيّـم الأكـبر بالقطـاع، 'جباليـا'، ذات السـنابل الذهبيـة بشـعرها وأنهـار العسـل بعينيْهـا واقفـة تنظـر بعجـزٍ نحـو والدهـا المُقعـد حـين أتـى الطبيـب لمعاينتـه وقـد اشـتدّت بـه أعـراض الحمّـى، جدّتهـا العجـوز تُطـلّ حينًـا وتذهـب، والدتهـا سـافرت مـع السـنوات الأولى للانتفاضـة مـع أهلهـا وقـد أصرّت عليهـا بالذهـاب معهـا إلى أوروبـا لكـنّ الفتـاة أبـت أن تـترك أرضهـا، ليـس جميـع مـن تركـوا هـذه الأرض خانوهـا ولا جميـع مـن بقـوا فيهـا قدّمـوا لهـا كلّ خـير، التبايـن يتواجـد في كلّ الأحيـان ولـو بنسـبةٍ ضئيلـة، تمامًـا كأولئـك الذيـن وقفـوا إبّـان الانتفاضـة مـع العـدوّ، بئـس مـا صنعـوا فجعلـوا لأنفسـهم تصنيـفَ الخَونـة... «جوليـت» لم تكـن خائنـة للبلـد، لم تكـن ذات أصـلٍ فلسـطينيّ لكنّهـا وُلـدت، عاشـت هنـا وعملـت طويـلًا لصالـح الوطـن الـذي احتضنهـا وأحبّتـه كـما لـو أنّـه وطنهـا أبًـا عـن جـد، حـين قـرّر مـن تَبقَّـى مـن أهلهـا مـن إخوتهـا وأبنـاء عمومتهـا العـودة حيـث أراضيهـم وأموالهـم اختـارت الذهـاب معهـم، رجّحـت كفّـة العـودة في ظـل تلـك الأوضـاع التـي آلـت إليهـا البـلاد، ارتـأى لهـا أنّهـا قدّمـت مـا يكفـي للبلـد ويمكنهـا العـودة لمسـقط رأس جدّهـا، انتظـرت طويـلًا ابنتَهـا لعلّهـا تُغـيّر

رأيها وتُرافقها لكنّ البنت كانت مُصرّةً على البقاء مع والدها، ذاك الممنوع من الخروج خارج حدود ’غزّة‘ لتصنيفه من الإرهابيين -حسب الإرهاب الحقيقيّ- الذين لم تُثبت عنهم جريمة ليُزجّوا بفضلها في غياهب السجون، عرضت كذلك «جولييت» على «سُها» الذهاب معها لكنّها رفضت هي الأخرى أن تترك فلذة كبدها وبلدها وتلوذ بالفرار على حدّ تفكيرها وقولها... مضى أسبوع على محاولات الأمّ لإقناع ابنتها لكنّ إصرار الفتاة خيّب أملها فغادرت فلسطين نحو أراضيها بأوروبا لوحدها... ربّما لو كان لـ «أدهم» الحق بالرحيل لرحلوا جميعًا، لكنّ الظروف شاءت أن يغدو واقعهم هكذا.

تعوّدت «رهف» حاليًا على الأمر، وقد تحصّلت أيضًا على وظيفة بمدرسة وسط ’جباليا‘، لكن بالآونة الأخيرة صار والدها كثيرًا ما يمرض، ممّا يستوجب عليها أحيانًا أخذ إجازة عدّة أيّام حتى شفاء والدها. «أدهم» ليس له علم أنّ المرور من ’الضفة‘ لغاية ’القطاع‘ بات أمرًا شبه مستحيل، لا يزال كلّ يوم يسأل ابنته هل هناك جديد ما؟ ظنّه أنّ السلام المُعلن أمرٌ سارٍ مفعوله منذ إعلانه، وأنّه يتضمن المرور وحريّة التنقل بين طرفِي البلاد التي فرّقوا شرقها عن غربها. أمّا «رهف» فقد اقتنعت أنّ الأمر آل لما كانت تعتقد هي في بادئ الأمر حين زيارتها للقدس وأيقنَت أنّ والدها لن يرى «غادة» أبدًا، تُحاول إبعاد عقله عن التفكير بالأمر، أحيانًا كثيرة تُجلسه خارج البيت مع قليلٍ من الجيران لعلّه يمسح تراتيل الملل التي حفظها وهو جالس منذ زمن،

وربّـما إحـدى خرجاتـه هـي التـي جعلتـه الآن يُحـارب الوهـن النّاتـج عـن ارتفـاع درجـة حرارتـه.

قبـل أشـهر طلبـت «سُـها» مـن حفيدتهـا محاولـة التواصـل مـع «غـادة» مـن أجـل تمكينهـا مـن الحصـول عـلى ترخيـص للعبـور في زيـارة لهـم، ولا تعلـم إن كانـت الفتـاة لا تـزال تذكـر الأمـر أم نسـيَته تمامًـا، وغالبًـا «رهـف» سـتمتنع بإرادتهـا عـن ذلـك، تـرى أنّـه أمـرٌ مفـروغٌ منـه وأنّ مـن أراد بلـوغ أمـرٍ سـعى لـه وهـم لم يسـعوا لـشيء، حتـى في بضـع الرسـائل التـي تبادلتهـا مـع «دُعـاء» لم تُـصرّح الأخـيرة بـأيّ نيّـة لأمّهـا في زيارتهـم، فـلا داعـي لطلـب الأمـر مـرّة أخـرى دون التوصّـل لنتيجـة. تذكّـرت مـا أعلمتهـا بـه «دُعـاء» عـن نيّـة أخيهـا في خطبتهـا، لكـن أيـنَ السـعيّ ولـو كانـت هنـاك نيّـة بالأمـر... تعـود بهـا دومًـا الذاكـرة للأيـام التـي أمضتهـا عندهـم، كانـت تعلـم جيّـدًا أنّ في عينـيْ «عُمـر» شـيئًا تجاههـا، لكنّهـا لم تأبـه للأمـر ولم تتخـذه عـلى محمـل الجـدّ كَونـه لم يُقـدِم عـلى أيّـة محاولـة بالاعـتراف، عنـد عودتهـا لبيتهـا بعـد ذلـك نسـيت الأمـر واتخذتـه أمـرًا طُويـت أوراقـه، وربّـما كان فعـلًا مُعجبًـا بهـا لكنّـه لم يُقـدّم لشـعوره أيّ شيء ولـو محُـاوِلًا، حتـى يـوم صرّحـت لهـا أختـه عـن أمـره وأعلمتهـا أنّـه ينـوي خطبتهـا، ربّـما عـاد عقلهـا للتفكـير بـه، لكـن إلى متـى؟ «رهـف» ليسـت تلـك الفتـاة التـي تعيـش عـلى أوهـام، إمّـا واقـع الأمـر وغـيرُه فهـو منفـيّ الوجـود حتـى في الخيـال، رغـم ذلـك لا تـزال تنتظـر، لعـلّ وعسـى تـشرق شـمس الغـد ويُـدقّ هـذا البـاب، لعلّهـا تسـعد برُؤيـة «غـادة» ويسـعد والدهـا، ولعلّهـا بحينهـا تكـون مـن نصيـب مـن أحبّهـا.

في الغد ستنسى الفتاة كلّ تفكيرها، لتعيش لليوم لا للأمس، كلّ ما مرّ عليها مجرّد تفاصيل قد تمرّ بها أيّ فتاة، تنوي البقاء مع والدها لكنّه يصرّ عليها أن تلتحق بعملها فقد طالت إجازتها هذه المرّة وخشيَ أن يتمّ فصلها نهائيًا... خرجت من البيت بقلب مُنقبض، تغلق الباب بإحساس أنّ هناك أمرًا قد نسيته، تُحاول تذكّره ثم تحدّث نفسها أنّها لم تنس شيئًا ربّما مجرّد وسوسة شيطان، تعرج على الدكان الصغير هناك توصيه بمشترياتها أن يوصلها للبيت وتنقده، تكمل طريقها لـ 'جباليا' حيث المدرسة التي تشغل منصبًا تعليميًا بها. تفكّر في طريقها، أنّنا حين لا نبلُغ أحلامنا سنرضى بأيّ واقعٍ بعدها...

ما إن ينقضي اليوم، تجمع أغراضها وتعزم العودة للبيت، تسير خطواتها داخل حدود المخيّم أو ما كان يُشبه المُخيّم ذات زمان، تسير مُفكرةً في هذا الكمّ من الرتابة في الأيّام، بعد نجاح انتخابات العشرين من يناير وتنصيب 'ياسر عرفات' رئيسًا للسلطة الوطنيّة الفلسطينيّة، أين حقّنا الشرعيّ في لمّ شمل الغزاويين بأهل الضفّة، وعلى غرار قضيتها ووالدها، هناك عائلات تشتّت لأجل منع صهيون التنقل بين الطرفين، بعض النّاس صاروا يفضّلون الدخول عبر 'رفح' مرورًا بالأردن على أن يمرّوا وسط البلاد، أيّ بلادٍ تركها لنا صهيون؟ لقد علمَت أنّ الحصول على الترخيص الذي يخطّه أبناء صهيون للعبور صار أكثر صعوبة منذ الانتفاضة لكنّ الأمل يبقى معلّقًا لعلّهم يفتحون الحدود بيننا ذات يوم. وصلت الشارع الذي تسكن فيه، تلتفتُ حيث منزلها

فتجد جلبةً حول الباب، تركض نحوهم، تسأل ماذا هناك غير مُنتظرةٍ لجواب، تدخل راكضةً البيت حتى أوقفها أحد جيرانهم.

-لا شيء يا ابنتي لا داعي للهلع...

-كيف لا شيء، ماذا هناك؟ ولماذا الناس مجتمعون حول البيت؟

-خرجت جدّتك ولم نعرف أين، ومررتُ بالبيت فوجدتُ والدك بالباب يُنادي أيّ أحدٍ للمساعدة...

-سِتّي وين هسا؟

-مش عارفين... لساتنا عم ندوّر عليها.

-منذ متى؟؟

-دقائق فقط.

-إذن ما الذي يُبقيكم هنا مُتجمهرين، فلتبحثوا عنها!

دخلت نحو والدها، ربتت على كتفه وقبلت يده، طمأنته أنّهم سيجدونها، ثم راحت تسأله ما الذي جعلها تخرج وما الذي أخافه حتى راح يطلب المساعدة للبحث عنها...

-لا أعرف، كانت جالسة كالعادة وقد تعوّدت أحيانًا أن تلتقي بإحدى الجارات إمّا أن يأتوا إليها أو تذهب إليهم وأنتِ تعلمين ذلك، لكنّها اليوم كانت تروح وتجيء ثم تسألني عن أمورٍ كما لو أنّها من الماضي، تخيّلي أنّها سألتني لماذا لا أنهض عن فراشي! كرّرتُ أجوبتي عليها عدّة مرّات لكنّها تجيب بنعم مُندهشة ومن ثمّ تُكرر سؤالها... سألتني ما الذي أتى على ملامحي حتى تغيّرت، وآخر ما قالته أنّ

«أمّ أحمد» تُناديها وخرجت.

-من «أم أحمد»؟

-خالة «غادة» التي سكنت بجوارنا حتى ذهابهما للضفّة...

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله... ما بال هذه العائلة مهووسة بعائلةٍ كانت هنا واختفت! كنت أنتَ وحدك المجنون بـ «غادة» «غادة» «غادة»، ألا يكفيني ذلك حتى تلحق بك جدّتي وتصبح مهلوسةً بخالة «غادة» الميّتة منذ عشرات السنين! سأُجنّ من تلك العائلة...

قامت والغضب قد امتلك عقلها، تركت حقيبتها وأغراضها وخرجت باحثة، أنّى لتلك العجوز أن تعرف طريقها وهي خرجت ظنًّا أنّها ستلقى حالة المخيّم كما كان منذ سنوات والله أعلم بأيّ سنة توقف عقلها الآن...

-حسبي الله عليكم... جنّنتو أبوي ونويتو عليّ وهسا سِتّي! يا ربي إيش هالمصيبة لي اجتنا من هاي العيلة؟

تركض بين الشوارع الضيّقة، أملًا في العثور عليها قبل أن تتخطّى حدود المخيّم، أيّ أنواع المصائب هذه التي حلّت عليها. في حين كانت تلعن رتابة الأيّام لم تكن تقصد بذلك حصول حدثٍ كهذا أبدًا، لكنّه قدر الله قبل كلّ شيء، وذاك ولا بدّ ما يجب عليها أن تتذكّره في هكذا مصيبة.

تتمايل أشعة الشمس وتتغيّر ألوانها مع غروبها، تلك الفتاة لا تزال تمسح دموعها عن خدّها وتركض بين الشوارع باحثة، تردّد الأدعية تارةً في سرّها وتارةً جهرًا... يُساعدها

بعض جيرانها في البحث هنا وهناك، لا يزال أمامهم شارع واحد يفصلهم عن نهاية المخيّم... بعضٌ من الجيران استسلموا وتركوا الأمر عائدين لشؤونهم الخاصّة والبعض لم يفكّر أساسًا في ترك الفتاة تُعايش الأمر وحدها، حتى أنّهم يُصرّون عليها العودة للبيت وأنّهم سيُتابعون البحث لكنّها تأبى التوقّف وتمسح عن جفونها الدّمع المُنسكب وتمضي، ترى أنّ جدّتها مسؤوليّتها وقد ضيّعت الأمانة حين سهت عنها.

وقفت بأوّل آخر شارع لم تبحث عنه داخل المخيّم، انفجرت باكية حين لمحت الشارع فارغًا تمامًا من دونِ الأطفال... كأنّما رُبع الأمل الذي دسّته بجعبتها سقط خائر القوة لرؤية الشارع، غطّت وجهها بكلتا يديها، اقترب منها أحد جيرانهم وقال:

-يا ابنتي لا داعي لأن تفقدي الأمل من الآن، سنذهب للأمن ونبلّغ عن اختفائها، هذا في أسوأ الأحوال... كما أنّنا سنكمل البحث عنها نحن هذه الليلة، سنجدها يا ابنتي...

-لستُ أبكي لأنّي فقدت الأمل بل أبكي كيف ستُمضي هذه الساعات وقد غربت الشمس وازداد الصقيع، مؤكّدٌ أنّها لم ترتدِ ما يَقِيها من هذا البرد الذي يلسع... وإن هطل المطر أين ستختبئ؟ أين ستبيت الليلة وحيدة تحت هذه السماء الغائبة نجومها؟؟

-يا بنتي إنّ الله على كلّ شيء قدير، وما الذي يُؤكّد لك، قد تجدينها فجأة الآن وأنتِ بهذا الحال، كوني مؤمنةً بالقادر على خلق هذه السماء التي تتحدّثين عنها، أَيُعجزُه أمرٌ في

السماء أو في الأرض؟

-لا... لا يُعجزه... اللهم لكَ المُشتكى...

مشت حتّى بلغت أولئك الأطفال، فسألتهم عنها، لو رأيتها من بعيد تُحاول تقليد مشية جدّتها للأطفال، تصفها بأدق تفاصيل تعلم أنّها تُريد أدنى أمل في رؤيتهم لها، شكرتهم وهمّت بإتمام الشارع حين ركض خلفها صبيّ بحدود الثالثة عشرة من العمر.

-يا أختي...

-نعم... (وهي تمسح دمعها).

-هل التي تبحثين عنها هنا؟

عقدت حاجبيها كعلامة لتعجّبها وعدم فهمها لسُؤاله، فاستدار الصبي يمينًا وشمالًا كمن يُغيّر برمجة أمرٍ ما حيث إنّه بعد ذلك نطق بما يُفهم أخيرًا:

-قصدتُ هل تبحثين عنها هُنا بالضبط أم أنّها من مكانٍ آخر وأوصلتكِ أقدام البحث لغاية هنا؟

-آاه... لا ليسَت من هنا... من منطقة...

-... منطقة المقبرة الشرقيّة ... بحسب ما وصفتِ فإنّي قد رأيتُها قريبًا من هناك...

-بالله يا فتى! متى؟ وكيف؟

-لقد أوقفَتني وأنا أهمّ بالمغادرة وقد كنتُ في زيارةٍ لخالتي هناك، وسألتني أسئلةً كثيرةً أخذَت من وقتي طويلًا لكنّي لم أعرف ما كانت تريده بالذات، ربّما منذ ساعتين أو أزيد عن ذلك بقليل، أسئلتُها جعلتني أخمّن أنّها ضائعة، حاولتُ فهم

من أيّ مكان هي ومن أيّ بيت فلم أعرف عنها شيئًا، كنتُ على عجلةٍ من أمري فمشيتُ عائدًا للبيت ثمّ انتبهتُ حين اقتربتُ من بيتي أنّها تلحق بي...

-وأين هي الآن؟

-أخذتها للبيت عازمًا أن يأخذها خالي عند عودته إلى مركز الأمن من أجل إيجاد أهلها...

-الحمد لله يا رب... الحمد لله... أين بيتك يا عزيزي؟

-حسنًا يمكنني أن أدلّكِ عليه، لكن لا تدخليه من فضلك...

كانت نظراته وهو يتفوّه بكلماته الأخيرة خجولةً حدّ الاقتناع أنّ هناك أمورًا خلف أسوار بيته ستُفضح لو فعلت «رهف» عكس ما طلبه منها... مشى يدلّها على بيته مُمسكًا يدها وقد كانت ورغم حداثتها في مجال عملها إلّا أنّها تُجيد التعامل مع الأطفال.

-إذن يا عزيزي ما اسمك؟

-اسمي «رُستم» لكن ناديني بما يُلقّبني به الجميع «الشبح».

-أوه، ولماذا يُلقبونك بـ «الشبح»؟

-قصّة طويلة لكنّ الأهمّ منها أنّني منذ وقوعها صرت كالشبح، مرّة أظهر ومرّةً أختفي ولا يعلم مكاني أحد.

نظرَت للفتى مُبتسمةً من قوله ثم سألته مجدّدًا:

-هل تدرس يا «الشبح»؟

-لا... أتلقّى تعليمي من هذه الحياة، فهي أجوَد مدرسة.

-غريب...

-ما هو الغريب؟

-لأنّ جميع من هم بعمرك يدرسون...

-فلنقل أنّها كانت مسألة قُرعةً وكسبت أختي، وهي تدرس الآن... على كلٍ فأنا أذكى منها بكثير... فما نفع دراستها إن لم تُجد رميَ حجرٍ وقت كنّا نرميه بوجوه صهيون.

-أنتَ كنتَ معهم؟ كم عُمرك يا فتى؟

-أولًا لا تُناديني بـ (يا فتى) ما دمتِ تعرفين اسمي... ثانيًا منذ بلغتُ السادسة من العمر وأنا أهيم مع كلّ من يقف راشِقًا الحجارة حتى بلغت التاسعة، توقفت الأعمال وهدأ الصخب وذاك لم يُعجبني أبدًا فالأيام صارت لا تُطاق الآن...

-رغم أنّي لم أخض ما خُضتَه وإنّي أشكو رتابة الأيّام فكيف بمن اعتاد منذ عرف نفسه على أمرٍ وانتزعوا منه حقّه في استرداد حقّه المشروع...

-هل أنتِ فيلسوفة؟

-ههههه... اقتربنا بلوغ بيتك أم لا يزال بعيدًا؟

-خلف البيت الأخير هناك مُنعرج نحو اليمين... لكنّنا لن نسير فيه سنتابع لنهاية الطريق هناك منزلي...

رفعت حاجبيها مندهشةً من هذا «الشبح» وعلت ثغرها ابتسامة لتصرفاته... كان من بقيَ من جيرانها يُساعدها في البحث خلفها يسيرون وكانوا بتعداد الثلاثة لم يرضوا ترك الفتاة حتى تعود إلى بيتها مع جدّتها.

دقّ «الشبح» الباب الخشبيّ المُهترئ، المُتوسّط لسورٍ متوسّط العلوّ من الحجارة حاله كحالِ سورٍ يُريد أن ينقضّ... جاءه صوتٌ مبحوحٌ لعجوزٍ من الداخل يسأل عن الطارق، أجابها أنّه «الشبح» وكرّر جوابه أربع مرّاتٍ حتى تسنّى لها أن سمعته، وهي تهمّ بفتح قفل الباب الذي يُصدر ضجّةً همس لـ «رهف» أنّها جدّته وهي لا تسمع جيّدًا، ثمّ نظر إليها ما إن فُتح الباب وقال:

-انتظريني هنا.

أومأت رأسها بهدوء. أطلّت العجوز بعد أن دخل الصبيّ ورمقتها بنظرةٍ مُتفحصّة مُحاولةً التدقيق في كلّ تفاصيلها ممّا أربك «رهف»، استدارت نحو جيرانها مُبتسمةً بامتنان على وقفتهم معها كمُحاولةٍ لعدم الخوف من المكان، ثم عاد بصرها نحو الباب فلم تجد العجوز، للوهلة تفاجأت باختفائها ثمّ ما لبثت أن لاحظت عبر فتحة الباب المُوارب حديقةً صغيرة، بها العديد من الخردوات والأغراض غير المُستعملة كأنّما تمّ تجميعها عن النفايات، تنمو بينها الحشائش بعشوائيّة، ممّا أثار فضول «رهف» وجعل نظرها لا يقف عند ما رأت، كان الضوء الخافت الذي ينعكس على الأغراض ينبعث عن قنديلٍ مُعلّقٍ أمام بابٍ الغالب أنّه باب البيت، باب لا يختلف عن الباب الذي بوجه «رهف» قديمٌ وتجاعيده كأنّما حدودٌ تفصل قطعه من شدّة تعمّقها، على الأغلب كان طلاؤه سابقًا أحمر أو ربّما ذاك ما يبدو تحت ضوء القنديل، انتبهَت «رهف» أنّ الجدار الذي به الباب مُحطّمٌ نصفه الأيسر، ما جعلها تتأكدّ أنّه ليس بيتًا عاديًا بل

بيتًا طالـه الخـراب مـن قبـل ولا بـدّ أنّ مـن يعيـش فيـه لم يسـتطع إعـادة إعـماره أو مغادرتـه، فجـأة أُبعـد البـاب الـذي اتضـح أنّـه لم يبـق بابًـا بـل هـو لوحـةٌ مُنتصبـة مـكان البـاب، وخـرج منهـا أربعـة أطفـال، راحـوا يبعثرون أكـوام الخـردوات وكأنّهم يُفتشـون عـن شيءٍ ضائـع، لم يلحظـوا أنّ البـاب مفتـوح ولا أنّ غريبـةً تقـف عنـد البـاب تراقبهـم بدهشـة. بعـد دقائـق ظهـر «رُسـتم» مُمسـكًا يـدَ «سُـها» مُعينًـا إيّاهـا عـلى المـشي، همّـت «رهـف» للمسـاعدة لكنّهـا تذكـرت وصيّـة الصبـيّ ومنعـه لهـا مـن الدخـول فبقيـت بمكانهـا والأحـرى أنّهـا تراجعـت خطوتـين للـوراء كمُحاولـةٍ منهـا لإقناعـه أنّهـا لم تـرَ ولم تلمـح شـيئًا خشـية أن ينزعـج... توقّـف في وسـط الطريـق نحـو البـاب واسـتدار نحـو الأطفـال الباحثـين هنـاك وأمرهـم بالدخـول فـورًا، امتثلـوا لأمـره وسـدّوا فتحـة البـاب الداخـليّ باللوحـة تلـك كـما كانـت، وصـل البـاب وفتحـه بهـدوء.

-يا سِتّي، هاي حفيدتك...

-أيّ حفيدة يا ابني، ليس لديّ غيرك.

انفجـر ضاحـكًا مـن قولهـا بينـما «رهـف» كانـت تحـت صدمتها مـن جدّتهـا ومـا تقوله.

-هيا يا ستِّي هيا، «أدهم» بانتظارك...

-أنا لا أعرفكِ لن أذهب معكِ لمكان.

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله... سِتّي طيّب يلّاع البيت؟

-بعرفكيـش... يـا ابنـي انـتَ ليـش جايينـي عنـد هـاي البنـت؟

-أتذهبين معي أنا يا سِتِّي؟ (سأل «رُستم»).

-نعم، لكن إلى أين؟

-ممم، عند ابنك.

-«أدهم»؟ هل عاد؟

نظر الصبيّ لـ«رهف» والحيرة قد نالَت من ملامحه، ثمّ أغلق الباب وأخذ يُساعد «سُها» على المشي، في حين قال أحد الجيران أنّه سيُقوم بإحضار مركبة لنقلهم في هذا الليل أحسن. ساروا على مهلٍ بينما يعود الرجل، وأخذت «سُها» تحكي قصصًا لم يكن أحدٌ من قبل يعرفها عنها، فـ«رهف» بالذات لم تكن تعرف أنّ جدّتها ليست من 'يافا' بالأصل، أخذت تسترسل في السرد حتى وصل الجار بمركبته، رفضت الركوب معهم حتى أقنعها «رُستم»، هناك صمتَت عن الحديث تمامًا.

عندما بلغوا البيت، نزلوا وساعد «رُستم» الجدّة بالاقتراب للباب، همّ يدقّه فأخبرته «رهف» أن لا داعي لذلك، فهي لديها المفتاح، وقالت ضاحكةً أنّ لا أحد سيفتح الباب لو بات يدقّه، فتحَت الباب ودخل الجميع حتى جارهم الذي أوصلهم، في حين صار «أدهم» يحمد الله ويشكره أنّهم وجدوها، بقي الصبيّ شاردًا في ذاك الرجل الذي لا يتحرّك عن فراشه، كأنّما يُريد معرفة علّته، بينما سأل «أدهم» ابنته عنه.

-هذا «رُستم الشبح» يا أبي، هو من ساعدني في إيجاد سِتّي.

-حقًا!

تـورّد خـدّا الصبـيّ صاحـب البـشرة البيضـاء كالثلـج وابتسـم بعـد كلـمات الثنـاء والشـكر التـي تلقّاهـا مـن «أدهـم». أمّـا الجـدّة «سُـها» فحـين دخلـت البيـت هـدأت ولم تعـد تسـأل أسـئلتها الكثـيرة التـي تهاطلـت عليهـا اليـوم وجلسَـت قريبًـا مـن ابنهـا كمـن عـادت لهـا الذاكـرة لكنّهـا بـذات الوقـت لا تعـرف مـن هـذا الصبـيّ الـذي يجلـس معهـم. نهضـت «رهـف» وهـي تقـول:

-أيّهـا «الشـبح» سـتتناول عشـاءك اليـوم عندنـا، عرفانًـا لمـا قدّمتـه... أنـت أيضًـا يـا عـمّ (قاصـدةً جارهـم «أبـو هشـام»).

ابتسم الصبيّ وهمّ بالإجابة بَيْدَ أنّ الرجل سبقه:

-أعلـم أنّ لا مفـرّ مـن كلامـكِ يـا فتـاة، تمامًـا كـما والدتـك، إن قلـتِ أمـرًا فـلا داعـي لُمعارضتـك...

-أمّـا أنـا، فكنـتُ سـأُمانع لكـنّ قولـكَ يـا سـيّدي جعلنـي أتـردّد.

-لا أنصحـكَ أبـدًا فـإن ظننـتَ نفسـك عنيـدًا سـتحتار لعنـاد هـذه الفتـاة.

ضحكوا ثمّ قال «الشبح» قاصدًا أن تسمعه «رهف»:

-حسـنًا أبقـى إن كان الطعـام يسـتحق، فأنـا مُتطلّـبٌ جـدًا... لكنّـي لـن أمنـع نفـسي مـن طعـام شُـكر فذلـك وحـده كفيـل بإبقائـي أنتظـر لـو كلّـف الأمـر عامًـا مـن الزمـن.

-لا داعـي لأن تـصرخ يـا أيّهـا «الشـبح» أسـمعك جيّـدًا، ولـن يطـول الأمـر أتمنّـى أن تكـون جائعًـا فعـلًا (جـاءه ردّهـا مـن

المطبخ).

بعد ساعةٍ من الزمن كانت «رهف» قد ملأت المائدة بما استطاعت له سبيلًا ممّا لذّ وطاب.

انقضّ «الشبح» على المائدة وراح يأكل بنهم، شردت في طريقته «رهف» وكانت تُخاطب نفسها مُتسائلةً في أمره...

-شبعتَ يا «شبح» أم تُريد المزيد؟

-هناك المزيد؟

-بالطبع.

-ممم، لكنّي أخشى أن يُقال عنّي أكول، جميعكم أتممتم الأكل ما عاداي!

-ييي، أبدًا يا عزيزي...

قاطعتها جدّتها آمرةً إيّاها أن تزيد للصبيّ من الطعام حتى يُشبع بطنه، ابتسمَت وراحت مُسرعةً للمطبخ لتزيد له، عادت لتجد «أبو هشام» يهمّ بالمغادرة، طلبت منه البقاء.

-لا بأس يا ابنتي، الحمد لله على سلامة «أم أدهم» لا بدّ لي من العودة للبيت وإلّا انشغل بالهم عنّي... بخصوص الصبيّ سأوصله لبيته عندما يُريد العودة.

-حسنًا... بلّغ سلامي لـ «أمّ هشام» و«علياء».

أوصلته للباب وأغلقته وعادت للجلوس معهم.

-أَشبعتَ الآن؟

-نعم... الحمد لله (وهو يمسح فمه بطرف قميصه).

انتاب «رهف» الفضول لتسأل الصبيّ عن بيته لكنّها

امتنعَت عن ذلك حين بلوغ الكلمات طرف لسانها، ستزوره ذات يوم وتفهم السرّ خلف ذاك السور، فبعض الأمور هُناك تستدعي الرّيبة بالتأكيد. فجأةً تذكرَت أمر دراسته، قد تجعل منها سببًا للزيارة ما إن عزمت عليها. بعد ما ظلّ معهم قليلًا من الزمن يتبادل معهم أطراف الحديث همّ بالمغادرة، فأخبرته «رهف» أن ينتظر حتى تُناديّ جارهم لأنّه أوصاها بأن يوصله.

-لا داعي لذلك... سأعود مشيًا، أنا أحبّ هذا الجوّ كثيرًا، بالأساس كنتُ أنوي المشي هذه الليلة وها قد أتتني الفرصة على قدميها.

-لا يجوز تركك تعود وحدك في هذا اللّيل يا ولدي، والبرد يلسع الأطراف. أيّ جوٍّ تقصد؟ (نطق «أدهم» مُعلّقًا على كلام الفتى).

-والله يا سيّدي أنا متعودٌ على المشي بهذا الوقت وبعده أيضًا إن شِئت، ههههه.

نظر إليه «أدهم» باستغراب ثمّ طلب من ابنته أن تُناديّ «أبو هشام» كما لو أنّه لم يسمع الفتى، في حين عاد الفتى ليجلس مُنتظرًا خائب الأمل، لكنّه لم يسكت عندما أتاه تعليقٌ بباله.

-حسنًا سيُوصلني وأخرج بعدها...

-أسألك...

-ممممم.

-والدك يسمح لك بالخروج ليلًا يا بُنيّ؟

-جدّتي تفعل...

-تعيش مع جدّتك إذن؟

-يا «رُستم» أتى «أبو هشام» (نادت «رهف»).

ابتسم بوجه «أدهم» ابتسامة انتصار أنّه لن يُتابع جلسة الاستجواب، ثم ودّعه وهمّ مُغادرًا، توقف حين كان سيُودّع «رهف».

-أولًا كانت أوّل مرّة تُناديني فتاة باسمي الحقيقيّ، لكنّي أحببته هه، ثانيًا شكرًا على لُطفكِ وكرمك وعلى العشاء تمنّيت لو أخذتُ منه بعضًا لإخوتي... إلى اللقاء لأنّي الآن بتّ أعرف بيتك وسأزوركم كلّما اشتاقت معدتي لطعامٍ مميّزٍ...

مسحَت على رأسه وهي مُبتسمة لكنّ قولًا ممّا قاله لم يُغادر بالها، أنّه تمنّى لو أخذ معه لإخوته... أشارَت له بيدها بعد أن سارت مركبة «أبو هشام» وعادَت للبيت فأخبرها والدها بالحديث الذي دار بينه وبين الصبيّ.

-أبتِ، هل تسمح لي بزيارته بين الحين والآخر؟

-أنا لم أفهم هذا الولد أبدًا... لكن لا بأس، أنتِ أعلم، لكِ ذلك.

***

مضى على الأمر حوالي الشهر، ولم تزر «رهف» الفتى، لكنّها لم تنس أنّها قطعت وعدًا على نفسها. قدّمت إجازةً طويلة المدى هذه المرّة حتى العام الدراسيّ الجديد لتستأنف مع بداية الدروس، علمَت منذ أيّام عن جارتها «علياء» أنّ جميع التنقلات مُتوقفة بين غزة والضفّة، كأنّما أهل المكانين يعيشان بقُطبيْ العالم لا يلتقيان أبدًا، أو بينهما برزخٌ. أعلمتها أنّهم يرفضون كلّ الطلبات ما عدا طلبات من يريد الذهاب للضفة وهو بالأساس مُسجّلٌ كقاطنٍ بها، رُغم ما ذُكر في الاتفاق الانتقالي منذ سنة وأشهر حول نقل الصلاحيات فيما يخصّ السجل السكاني في كلا الشطرين من فلسطين من الحكم العسكري إلى الجانب الفلسطيني، إلّا أنّ اليهود لم يكونوا يومًا في مستوى كلماتهم... لقد مات حُلمها أنّ «عُمر» سيأتي يومًا ما، لكن رغم ذلك لم تقبل بمن تقدّم لها من جيرانهم منذ أسابيع، دون سبب، نالت وابل توبيخ من والدها، خصوصًا أنّ الذي تقدّم لها جارٌ لهم وأصرّ أنّه لن يمنعها من زيارة والدها وجدّتها بأيّ وقتٍ شاءت خصوصًا أنّها ستقطن لجوارهما، ذاك الأمر الذي كانت تزعمه «رهف» كشرطٍ تُعجز به من يتقدّم لها وتُصرّ أنّها لن تستطيع ترك والدها وجدّتها، ولم تختلف ردّة فعل صديقتها «علياء» بخصوص الموضوع ووصفتها بالمجنونة كَونها رفضت من تتمنّاه جميع فتيات الحيّ وعلّقت عليها «رهف» باستفزازٍ أنّها من أجل ذلك تركته لبنات الحيّ... نحن أحيانًا حتى ولو فقدنا الأمل في شيء، إلّا أنّنا لا نرضى بديلًا عنه، كما لو أنّنا نُصرّ رُغم كلّ الأبواب المؤصدة بوجه أملِنا أنّ الأمر قد

يحدث عقب مُعجزة... كانت كُلّما ذُكرت أمامها (القُدس) شردت، تتذكّر أنّ ذا قلبٍ تمنّاها هُناك، والقلوب تميل لمن يهتمّ بها ولو محضَ اهتمامٍ بسيط، تمامًا كما كان الحال مع «عُمر» حين يُذكر اسم (جبّاليا)... «عُمر» الذي قدّم عدّة مرّات طلب الحصول على ترخيص لوالدته لزيارة (غزّة)، كان تفكيره أنّ والدته لو ذهبت وعادت بهم جميعًا سيكون أحسن، وغالبًا ستُحلّ المشاكل، وهو لم يكن يستطيع الخروج بعد الخناق الذي فُرِضَ على تحرّكاتهم، ولا أن يُغامر برمي نفسه وسط أبناء الحيّة، قدّم طلبًا عن كلّ فردٍ من عائلته حتى ما إن كان أحدهم صاحب حظٍ سافر وأراح قلب الجميع، لكن لا فائدة، حيّة صهيون لم تُطوّقنا نحن فقط كأجساد، بل طوّقت أرواحنا وحطّمت قلوبنا... أتظنّ ذاك الثلاثينيّ سينسى ما قدّم له الاحتلال فوق كلّ ما انتزعه منه؟ قدّم سجونًا أمات فيها العديدين جوعًا أو من فرط التعذيب، قدّم وحشيةً واستبدادًا، قدّم للأرض نارًا تلقف ما وهبت ودمارًا لكلّ جميل، قدّم للصبيّ الصغير تشريدًا ويُتمًا ولأُمّه ترميلًا، قدّم حبال مشانق لم تكن باتساع رؤوسنا بل بعمق قلوبنا، حوّطتها حتى ما عادت تعرف للنبض عنوانًا، فحطّمتنا بسلاحٍ أندَل من سلاحها، تُحاول جاهدةً الحصول على ما طُوِّرَ من رصاصات العالم وذخائره وإمداداته، مُستهينةً بما تسقيه في جوفنا من نبات صبّارٍ عجوز، سُمي ذات يوم الحنين... لم نعد نُريد إخراجهم من أرضنا فقط، بِتنا نودّ الانتقام لسنواتنا الضّائعة منّا، لأرواحنا المُنتزعة فور وُلِدنا تحت سماء أطهر بقاع الأرض وأقدسها، كانت

«جوليت» إبّان الانتفاضة وحين تشتدّ الاشتباكات تحضن الصليب المُعلّق برقبتها بكلتا يديها وتُصلّي: «أيّها اليسوع أين أنتَ لتُنقذنا من كلّ ما نحن فيه من ظُلم، هل الربّ لم يقبل رجوعَكَ لنا بعد؟ إنّنا ننتظركَ وحتى المُسلمون ينتظرون رحمتك فلا تتأخّر إنّ هؤلاء الطُّغاة يتخذوننا أراذل ما خُلقَ على وجه الأرض ويقسُون علينا كما لو أنّنا لسنا من نفس الطين...».

تذكّرت «رهف» تلك الكلمات التي كانت تسمعها من والدتها بكثرة وقت الأزمات، كانت تُردّد معها خلف كلّ صلاة «آمين» فدُعاؤها أو دُعاء والدها كلاهما لفلسطين، في هذه الأرض تسقط العقيدة لتكون وحدها فلسطين عقيدتنا، ويسقط أيّ تباينٍ بين الديانات، إيماننا المُوحّد فلسطين، أو ‹بيليست› أو ‹أرض فلسطيا› أو حتى ‹فلستو›، وتلك أسماء قيل أنّها ذُكرت عن أرض فلسطين في العهد الأشوري (حوالي 8000ق.م)، وورد أنّ تسمية الأرض ذات أصلٍ من أربعة: إمّا نسبةً لأحد أحفاد سيّدنا نوح وكانت ‹فيليشين› وعُرّبت، أو أنّ الاسم ذو أصلٍ رومانيّ معناه ‹أرض الإله بعل› حيث إنّ الاسم palastine مُركّب عن pale والمقصود بها الإله ’بعل‘ وstine وتعني الأرض، أو كما يُرجّح البعض أنّ أصل التسمية كانت نسبة لقبائل ’الفلسطو‘ وهم العرب الذين هاجروا نحو فلسطين من الجزيرة العربيّة، أو أنّها ببساطة من كلمة ’بلشت‘ التي يُقصد بها الهجرة والبدايات وأخذت الكلمة تُترجم حتى بلغت ما هي عليه وذاك المعروف عن فلسطين أنّها أرض البدايات... لكنّ أيًّا كان أصل تسميتها وكما يحلو

للمؤرخين الكتابة عنها، فاسمها راسخ ومُدوّنٌ منذ عهد الفراعنة أو ما قبلهم، وهو اسمها الذي لن يُحرّفه لا مُستعمر ولا مُغتصب لها، فهي عقيدتنا وهي أصلنا وهي قضيّتنا التي نولدُ ونموت لأجلها.

صوت الرعد يكاد يُرجف الأرض من شدّة قوّته، الكهرباء فُصلت منذ المساء، على ضوء الشموع كانت جدّتا «وائل» تتسامران وحفيدهما يحلّ واجباته المدرسيّة أمامهما، إنّ السماء لتَبكي لِكَدَرِنا وتسعد لِما يُسعدنا، والأرض سيّان، بلّلَت قطرات الغيث الأرضَ وارتفعت بذلك رائحة الأرض المُبتلّة عن المطر، كان «عُمر» عائدًا نحو المدينة فتعوّده على عدم المكوث بمكان جعله لا يُفارق عادته في التنقل بين الأحياء المجاورة بالقدس الشرقيّة ربّما يجد في سيره عبر الشوارع مُتنفسًا يهرب إليه عن أفكاره المُختلطة برأسه، عودته بعد سنواتٍ من الغياب وكلّ أوضاع أفراد عائلته قد تغيّرت، أصغر أبناء الجيران صار شابًا أمّه تبحث له عن عروس، إنّ العودة عقب غياب سنوات تجعلك تحسّ أنّك سافرت عبر الزمن، في حين لا تزال ذكرياتك تتلخّص في تفاصيل أيّامٍ ورتابة أحداثها التي عهدتها، هؤلاء جميعهم لهم ذكرياتٌ بعمر سنواتٍ وأحداث لا تُعدّ وُلِدت خلال أعوام، ولم يكن الأمر يختلف بالنسبة لـ «عادل» بل كان أشدّ تأثيرًا عليه، في حين قضى «عُمر» سنواته حُرًا طليقًا هائمًا بين الأحراش والبساتين وبعض المدن يقتات الأخبار ويعلم المستجدّات ولو عن بعيد، كان «عادل» بين أربع جُدران ميّتٌ تمامًا عن العالم الخارجيّ، وحين يُرحم يُنقل لزنزانة أكبر بِشِبرَيْن يتشاركها مع عددٍ من الموقوفين بدون إدانةٍ مثله.

1999

الأعمار تُسرق منّا كما تُسرق منّا الأحلام، يُقال: إنّ الأيام تمرض وتبرأ من سقمها والصبر وحده هو دواؤها. وهو بالذات ما وصفناه عقارًا لأنفسنا، نعلم أنّ الصبر سنجني منه شيئًا ولو طال الزمن أو قصر...

مضت ثلاث سنوات، لكنّ الواقع لم يكن مثل ما حاولنا شرحه مُتمنّين إيّاه لأنفسنا بُغيّة رعاية الأمل المريض فينا، مواساتنا لأنفسنا لم تعد نافعةً ونحن لا نرى أيّ تقدّم، نحن كمن حاول أن يقترب من بئرٍ ولم يصل لها ولم يشرب منها وقيل له اجثُ حيث أنتَ سنسقيك فعاد مُوَجًّى ولم يسقنا أحد... الحلول التي ننتظرها لم يحن موعد مخاضها بعد، ولاحَ شبح الإحباط على نوافذنا كلّ ليلة يقف مُتردّدًا الدخول أو البقاء في شوارعنا هائمًا. شوارعنا التي تجرّعَت أكثر ما تجرّعناه نحن أنفسنا، أزقتنا التي تمرض ولا تجد الشفاء عند أحد.

تلك الزهرة التي نمت حديثًا بجانب ذاك الباب المُوارب، لم يعد «رُستم» يأبه لفتحه من إغلاقه، فقد اقتنع أنّه ليس أشدّ بُؤسًا من أحد... منذ أوّل مرّة زارته فيها «رهف»، حين دقّت الباب ولم تُجبها أسوار البيت، وكانت عازمةً على ألّا ترحل دون لقاء الشبح فجلست أمام الباب العتيق على حجرٍ تنتظر، أطلّ بعدها وجه «رُستم» من آخر الشارع وبدت عليه علامات الاستغراب، علّق ما إن وصل عند

البـاب:

-ظننتـكِ لـن تـأتي أبـدًا، كالجميـع وعودكـم كـ ’وعـودِ عرقـوب‘.

-أهكذا تستقبلني يا فتى؟

سـدّد نحوهـا نظـرةً مُلئـت غيظًـا، ثـمّ أدار وجهـه كشـاردٍ في الطريـق وهـو يسـألها مـا الـذي أتـى بهـا، فـردّت عـن سـؤاله بسـؤالها أنّهـا لا تحتـاج سـببًا للاطمئنـان عنـه، وحـين طـال صمتـه أردفـت:

-هـاا فهمـت سرّ نظرتـك يـا «شـبح»... عندمـا ناديتـك بالفتـى، أليـس كذلـك؟

صمـتَ ومكـث كصنـم أمامهـا ينتظـر جـواب سـؤاله الـذي لن ينالـه، فراحـت صامتـةً هـي الأخـرى عنـادًا لـه حتـى استسـلامه، لكنّـه اسـتدار ودقّ البـاب بقـوّة صائحًـا:

-يا «أبو الشبح».

نظـرت نحـوه «رهـف» مُسـتغربةً ثـمّ استسـلمت لعنادهـا وسـألته إن كان هنـاك مـن أحـد في البيـت فقـد دقّـت طويـلًا.

-كـم مـرّة علـيّ أن أذكـركِ أنّ جـدّتي لا تسـمع جيّـدًا؟ وكـم مـرّةً علـيّ طـرح السـؤال حتـى تُجيبـين؟

-إذن جدّتك هنا؟ كيف حالها؟

-لا حول ولا قوّة....

-ميييين (بصوت العجوز الطاعنة في السنّ المبحوح).

-الشبح ياما...

نظر نحوها أثناء فتح الجدّة للباب وسألها إن كانت مُصرّةً على ألّا تُعلِمه سبب مجيئها، وعندما صمتت، دخل وأغلق الباب خلفه تاركًا إيّاها وسط حيرتها، بقيَت لحظاتٍ تعيدُ بعقلها ما حدث مُحاولةً تفسيره، وحين همّت بالذهاب فتح الباب وناداها:

-أختي... بالله عليكِ ما سبب مجيئك؟

-لا داعي لمعرفة السبب، فأنت لا تودّ ذلك من الأساس... دُمتَ بخير.

ركض خلفها وسدّ طريقها، وكانت في نظرته عديد الحكايات التي فضحت خوفه الدّائم والمفرط من الغرباء.

-إن كنتِ تودّين الذهاب دون أن تكوني حققتِ ما سعيتِ لأجله فاذهبي، لكن اعلمي أنّي متيقّن الآن أنّ هدفكِ الذي أتيتِ لأجله هو نفسه الهاجس الذي يدور ببالي منذ يوم أخبرتني بعملك...

-وما الذي تظنّ أنّي أتيتُ لأجله؟

-ليس لأجله، بل نقل لأجلي أنا... هل سيقبلونني بعد أن غبتُ عن الدراسة سنواتٍ عدّة؟ بل إنّي لا أذكر أيّ شيء عنها سوى بضعة شهور...

تنهّدت «رهف» وكانت بينها وبين نفسها تتساءل أيّ الأطفال هذا الفتى؟ وكيف قرأ نيّتي.

-لكنّي لم آتِ لأجل ذلك فقط... أخبرتك وأنتَ لا تُحبّ الصراحة.

-ستُقنعينني أنّكِ أتيتِ لزيارتي والاطمئنان عليّ؟ (شبك

يديه خلف رأسه وابتسم بمكرٍ وأتمّ) لن أقتنع... لا أحد في هذا العالم يسأل عن أحد، كلّهم يُنادون 'نفسي' مُبكرًا جدًا... لا أحد لأحد...

-ألا تُحسن نيّتك أبدًا؟

-فليكن سُؤالك: ألا أكون حالمًا مثلكم؟ أو ألا أخرج عن الواقعيّة يومًا؟ هذا أصحّ بنظري...

-اسمع، إن كنتَ لا تُريد زيارتي فاعتبرها لم تكن بالأساس، وبخصوص ما تظنّني أتيت لأجله فلم تُصبه هذه المرّة، أمّا الآن فعن إذنك فقد تعبت من الانتظار على عتبة هذا الباب...

-آآه كدتُ أنسى أنّ جدّتي دعتكِ لفنجان شاي...

-لا بأس، لن أشرب، أعتذر لزيارتي ولن أكرّرها مرّة أخرى... ابتعد عن طريقي الآن لأذهب.

-والشاي؟ جدّتي ستُوبّخني... اعتبريني ممسوسًا بجنيّ وأخرّف أحيانًا.

أطلّت بذلك الحين الجدّة عن الباب الذي تركه «رُستم» مواربًا وكانت تريد معرفة إن كان أمام البيت أم خرج لتُغلق الباب خلفه، رآها فلوّح لها حتى تستدير «رهف» وتخجل منها وتدخل البيت الذي مُنعت من دخوله...

عندما دفعَت ذلك الباب الثقيل ارتفع صوت صريره أحسّت للوهلة الأولى أنّها تدخل لمكانٍ لا يوجد بـ'جباليا'، بعض القطط التي مظهرها يُفزع وتبدو متوحشّة كانت عيونها شاخصةً تُراقب الغريبة التي تدخل عبر الباب وربّما

الصرّير هو ما لفتَ انتباهها، أحد القطط بلا أذن، والآخر يده مبتورة، في لوحةٍ مُفزعة، أبعدت «رهف» بسرعةٍ نظرها عنهم بعد أن أحسّت بالغثيان، تلك الأغراض المترامية هنا وهناك، أغصان الأشجار الميّتة والمرميّة على الأرض، والتي تجمعت تحتها برك مياه الأمطار، كأنّ القائل حديقة أسماء التسميّة، رفعت نظرها وهي تسير نحو البيت إلى الجدار الذي لمحت من قبل أنّه مُنهار لتراه هذه المرّة بوضوح تحت نور الشمس، لا يزال الأثاث المُهترئ كما هو قابعٌ يُطلّ بوضوح عبر النصف الأعلى للجدار غير الموجود كأنّما لم يحصل للغرفة شيء، فقط جدارٌ محطّمٌ نصفه والسقف فوقه مُختفٍ... وصلَت الباب واتضح أنّ لون طلائه أو بالأحرى ما تبقى منه برتقاليّ ولم يكن أحمر كما خالت رُؤيته آخر مرّة، أزاح الباب «رُستم» ودخلت «رهف» وجدّته، كانت الحُجرة مُظلمة، أشعة الشمس تختلس الدخول عبر الستائر الغليظة للنافذة الوحيدة، راح «رستم» يفتحها فتسرّب النور ليُفاجئ زوايا الحُجرة، ممّا جعل «رهف» ترى بوضوح وتجد طفلين أحدهما نائم هناك، والآخر يراقبها في صمت. لم تختف ملامح الحيرة عن وجه «رهف» بل ارتبكت أكثر.

-لم أقصد إزعاجكم يا جدّة.

-أخبرتُك أنّها لا تسمع صوتك هذا يا أختي، يا إمّا أن تصرخي أو لن تنالي أيّ جواب.

بقيَت تنظرُ نحوه مُنتظرةً أيّ كلمةٍ منه يُحاول فيها لفتَ انتباه جدّته فهي لا تُرجّح الصراخ خصوصًا بعد رؤيتها للطفل النائم هناك. أشارَت الجدّة لها أن تجلس، واتجهت

لزاويةٍ حيث يوجد فرن خشبيّ صغير لتجهّز الشاي و«رهف» تُراقبها بعينيْها، فقاطعها «رُستم»:

-إذن... ما الذي أتى بكِ؟

-ستعرف عندما أغادر... هل تطبخون طعامكم فوق ذلك الفرن؟ (مُشيرةً إلى الفرن).

-نعم... ونعيش هنا، في هذه الغرفة...

-دُمّر بيتكم؟ متى؟

-لا أعلم... أذكر أنّه كان بَيتًا من غرفتين، وصار غرفةً واحدة... لم أعش فيه إلّا وهو على هذا الحال.

-لم تولد بهذا البيت؟ آه صحيح، أين والداك؟

-لا... (شرد وهو يُكمل قوله) والداي، كانت تُخبرني جدّتي ذات زمان أنّهما سافرا عند الله، كُنت أسأل أين الله؟ تقول أنّه فوق السماء، كان كلّ همّي كيف سأبلغ السماء لألتقي بهما، ومرّت أيّامٌ كان كلّ طموحي هي الغيوم وكيف أصل لها، كانت جدّتي الثانية قاسية القلب عليّ وعلى أختي وكنتُ أُرجع ذلك بتفكيري البريء أنّني ربّما لأنّي لا أسمع كلامها فتقسو عليّ وتُخبر والديّ ألّا يأتيا لزيارتنا، حين بدأت أستوعبُ أمر فقدهما للأبد وأنّ الوصول للسماء لن يكون إلّا بعد تذكرةٍ بلا رجعة كُنت مع أصدقائي الأكبر منّي بسنوات نجمع الحجارة، أو بالأحرى لم يكن لديّ أصدقاء، كان لي إخوة، وكما تقاسمنا الحجارة وعلّموني الرميّ بها تقاسمنا حياتنا وعشنا سويًا أيّامنا... كنتُ عندما أتذكّر حزني الذي لا أجد لنفسي من مهربٍ منه، أدفن نفسي طويلًا تحت لحافي

وبوسـادتي، ذاك كان يُزعـج العجـوز الشـمطاء فكانـت تُعاقبنـي في كلّ مـرّة وتخـبرني أنّنـي سـكبت المـاء مـن كثـرة إهمـالي عـلى وسـادتي والتـي لم يكـن يبلّلهـا سـوى عَـبراتي... كنـتُ أخشـى أن تلمـح أختـي دمـوع عيـوني فتُصـاب بالإحبـاط، أخـاف مـن تلـك العجـوز عليهـا...

توقـف واسـتفاق عـن شروده ونظـر نحـو «رهـف»، تنهّـد ثـم ابتسـم.

-لقـد تخلّصـتُ منهـا، فـلا يُحزنـكِ أمـري... ظننـتُ أنّ زوجـة عمّـي سـتكون أرحـم عـليّ في وقتهـا وكنـتُ أسـأل لُطفهـا عـليّ ورحمتهـا كأنّي أحـد أطفالهـا لكنّهـا كانـت تُعلِـم جـدّتي في كلّ مـرّة فيزيـد احتقانهـا عـليّ وحقدهـا... حتـى يـوم أتيـتُ خفيـةً في زيـارةٍ عنـد جـدّتي والـدة أمّـي لأنّهـم كانـوا يمنعوننـا مـن زيارتهـا، كانـت تعيـش بمفردهـا ولم أفكـر في الهـروب عندهـا مـن قبـل حتـى ذلـك اليـوم حـين أتيـت ووجـدت البيـت تغـيّر ومـا عـاد يصلـح ليكـون بيتًـا... لم أكـن وحـدي أبـدًا تـردّد عـلى زيـارتي أصدقائـي دومًـا خصوصًـا بأيّـام خروجنـا للمظاهـرات، خصوصًـا أنّ خـالي كان دومًـا يُشـارك فيهـا، ولأكـون صادقًـا فـلا أذكـر عنهـا الكثـير، فقـد كانـت ذاكـرتي رخـوةً للحـدّ الـذي يجعل أيّ حـاضرٍ يخلـف بعـض المـاضي بسـهولة، قـال لي أحـد أصدقائي يومًـا وهـو يقـرأ أنّ أحدهـم قـال أنّ المـاضي جميـلٌ لأنّـه ذهـب، فلـو عـاد لكرهنـاه...

-مقولة «هيتلر» غالبًا.

-اييـه يـا أختـي، لا أهتـم لمـن قالهـا بقـدر مـا يهمّنـي مـا قيـل، لسـتُ بعـالمٍ حتـى أحفـظ أسـماء لا تحفـظ أسـمائي ولم يعلمـوا

عنّـي شـيئًا مـن الأسـاس.

-لكنّهـم خلّـدوا أنفسـهم بـما توصّلـوا لـه مـن نجاحـات وبـما حقّقـوه خـلال حياتهـم، ألا تـرى ذلـك؟

-بـل إنّي ناجـحٌ أكثـر منهـم، فلـو عشـنا نفـس الظـروف لشـققنا ذات الـدرب وذاك جـليّ ومعقـول لا بـل أكيـد، لـو عـاش أحـدٌ الحيـاة نفسـها التـي أعيشـها ونجـح هنـاك أرشّـحه ناجحًـا بـلا مُنـازع، لكنّـي لم أر تفاصيـل أيّـام مـن تتخذونهـم في هـذه الدنيـا ناجحـين، لـو عدنـا للنجـاح فكلّنـا ناجـحٌ في معركـة الحيـاة التـي فُرضـت عليـه فلـماذا لا نُبجّـل أنفسـنا كـما نُبجّلهـم؟

اندهشـت «رهـف» لـردّ الصبـيّ، في حـين جلسَـت الجـدّة وسـكبَت الشـاي وراحَـت تحادثهـا و«رهـف» تُحـاول جاهـدةً أن ترفـع تـردّد صوتهـا حتـى يتسـنّى للعجـوز سـماعها، كانـت مُحادثتهـم بسـيطة وسـطحيّة، ثـمّ تدخّـل «رُسـتم» يُعلِـم جدّتـه أنّ «رهـف» مُدرسّـة، رمقتهـا العجـوز بنظـرة إعجـاب ثـمّ سـألته إن كان قـدّم طلبًـا للحـاق بالمدرسـة دون علمهـا.

-لا يـا سِـتّي، هـداكِ الله، أنـا أعـود لذلـك المـكان؟! هنـاك تمـوت الأحـلام لا تُبنـى...

-بل تُقوّي الأحلام كي تخطو نحوها يا «شبح».

-ومـا قولـكِ عـن طوابـير البطّالـين الذيـن ينتظـرون مـن وكالات تشـغيل اللاجئـين أن تجـود عليهـم بعمـلٍ مـا؟ أيـن شـهادتك وأيـن مـا أفنيتـه مـن وقـتٍ تركـض فيـه خلـفَ العلـم، والعلـم حيثـما بحثـت عنـه تجـده لا أرى أنّـه مُقـترنٌ بمدرسـة.

-لك وجهة نظرٍ لم ألتقِ بها في حياتي يا فتى.

-لـو ناديتِنـي مـرّة ثالثـة بالفتـى فـلا تنتظـري منّـي أن أحدّثـكِ بعـد ذلـك أبـدًا.

-حسنًا... ألا تُريد فعلًا الالتحاق بالمدرسة؟

-لا.

-السبب؟

-لا أمـر يجذبنـي للدراسـة وليـس لي مـا يجعلنـي أتكفّـل بمصاريفهـا، يكفـي أنّ خـالي مُتعلّـم وأنّ أختـي تـزاول دراسـتها...

-لكـنّ مدير مدرسـتنا طلبـك (أخرجـت مـن جيبهـا ورقـة وتابعـت) وهـذه رسـالته لـك.

-أيّ مدير؟ لا أعرف أيّ مدير.

-لكنّـه يعرفـك... سـألتُه بخصوصـك رغـم أنّي لا أعـرف تفاصيـل الأمـر إلّا أنّـك زاولـت دراسـتك شـهورًا واعتزلتهـا وعـلى هـذا الأسـاس جـاء ردّه.

-لكنّي...

-لا 'لكنّ' في الموضوع، خُذ الورقة!

-ألا يجـب عـليّ أن أسـتدرك مـا فاتنـي عـلى الأقـل؟ أتـرابي لا أعلـم أيّ فصـل هـم أساسًـا.

-لا عليـك، سنرى مـن أيّ النقـاط سـنُتابع معـك حتـى تلحـق بهـم أو عـلى الأقـل تقـترب مـن صفّهـم.

اقـترب الصبـيّ مـن جدّتـه وأخبرهـا بالأمـر، فاسـتدارت نحـو «رهـف» بوجـهٍ حائـر ثـم همسـت في أذن الصبـيّ فأخـبر بـدوره «رهـف» أنّ جدّتـه غـير قـادرة عـلى التكفّـل بمصاريـف دراسـته

وليست مستعدّة لطلب المساعدات فقد طلبت عشرات المرّات لأجل التكفّل بحالها لكنّ المساعدات لم تكن تصلها أبدًا.

-لا تقلق بخصوص ذلك، لن تحتاج شيئًا إلّا ويكون متوفرًا لأجلك... لكن، أودّ طرح سؤال يُراودني... لقد كنتُ سأسأله لكنّك أشرت للأمر بقولك، ألا تصلكم مساعدات الوكالات المُتكفّلة باللاجئين؟

-ما الذي سيكفي كلّ هذا الكمّ من الأفواه اللاجئة؟ مساعداتهم لا تكاد تصلنا لأنّنا آخر من يدقّ باب عقولهم، وإن وصلَت فهي لا تكفينا كَون جدّتي مذكورةٌ في أوراقهم أنّها تعيش بمفردها، لا يعلمون ما يوجد خلف أسوار هذا البيت ولا يدركون كم من يتيم وطفلٍ لاجئ هنا.

أن تجد ملجأً في قلب ملجأ فذلك ربّما أمرٌ يدعو للاستغراب بادئ الأمر، لكن أين سيلجأ هؤلاء الأطفال المشردون والذين يتوجسون خيفة من أولئك الأغراب الذين يساعدونهم تحت لواء الوكالات، إنّهم لكثرةِ ما شاهدَت أعينهم ما عادوا يثقون بأحدٍ غريب. يعرفهم «رُستم» لأنّه طفل مثلهم، ويدعوهم إن احتاجوا أمرًا لبيته، لم تُمانع جدّته مكوثهم عندها، بل ترى أنّهم يملؤون حياتها الفارغة، حتى خاله لا يُمانع وجودهم فهو الآخر لا يُمضي الكثير من الأيّام بالبيت، للبعض أقرباء يزورونهم بين الحين والآخر والأمر لا يُزعجها. رغم وضع الجدّة فإنّها تتدبّر أمرها وأمر الأطفال ممّا يُعطيها ابنها ومن صدقات الجيران ومساعداتهم وممّا يأتي به الأطفال نفسهم. شرد قليلًا الفتى فيما قاله ثمّ نطق:

-هل تعلمين يا أختي؟ الوالدان سند، لو غابَ تقف حياتك على شفا حفرة، إن كنتِ ذات حظٍ فإنّك تقفين مجدّدًا مبتعدةً عن تلك الحفرة، لكن غالبًا السقوط أرحم من الكفاح، يكذب من يقول أنّ أحدًا من البشر سيعامله بمثابة والديه بعد أن يُدثرهما التراب، حتى أقرب النّاس له من دمه، تعاملهم معك سيختلف ما إن يختفي ظلّك السّاند لك... أذكر المرّة الماضيّة أنّي لم أرَ والدتكِ، لكنّ لمعة عينيْكِ لم تختف وذاك جعلني أستنتج أنّ كلا والديكِ بخير... تلك اللمعة التي تمنيّت رؤيتها بعيون أختي وسعيتُ لأجل ذلك ولا زلتُ أسعى...

-أين هي الآن؟

-أختي؟ تعود بعد دوام الدراسة... وأنتِ أين والدتك؟

-أمّي بأوروبا حاليًا... لقد وُلدتُ من أبٍ مُسلمٍ حدّ النخاع وأمٍ مسيحيّة بامتياز...

-أظنّ أنّكِ نِلتِ الكثير من المغامرات لأجل ذلك، لكن كيف لستِ مسيحيّة؟

-لم يُجبرني أيّ منهما على دين، كانت لي حريّة الاختيار في ذلك ورغم علم والدي أنّ الإسلام أحق إلّا أنّه لم يُوبّخني يومًا حين أحتفل مع والدتي بأعياد المسيح، بالعكس، كان يُخبرني أنّنا كمسلمين أحقّ بالفرح لأجل نبيّ الله عيسى، ونحن أولى بالإيمان به وبتصديق رسالته التي أُرسل بها قبل تحريفها، والأصحّ أنّها لم تختلف عن رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام، بل كلّهم دعوا لتوحيد الله، ووالدتي كذلك لم يكن يفصلها عن الإسلام سوى أن تؤمن بالرسول وتشهد

به، لولا ذلك فقد رأيتُ من أعمالها أصحّ ممّا رأيته من بعض المسلمين... لقد أساء المسلمون لدينهم حين لبسوا ثوب التعصّب والتشدّد وأعطوا لأنفسهم الحقّ بمحاسبة الغير، يدّعون اتباع سنّة الرسول ناسين أنّه هو بالذات كان ذا خُلقٍ وذا طيب حتى مع المشركين... ربّما لذلك تغيّرت في هذا الزمن نظرة الناس للمسلمين بعد أن كانوا يرونهم قديمًا أصحاب خلق ولين... وربّما ذاك ما منع أمّي أن تتبع الإسلام، خوفًا منها أن تنسى الحقّ وتتبع تفاهات الباطل... أخذتُ عن كليهما ما أراه مناسبًا ففي حين أدعو الله وأومن برسوله أنا كذلك في صلاتي أسلّم على المسيح ولا أنساه...

-جميل... ظننتُ أنّ المسيحيين دومًا على خطأ في كلّ ما يفعلون.

-وهل نحن المسلمين كلّنا على صواب؟ المعضلة أنّ المُخطئ منّا بدل أن يُتّهم هو بخطئه يُتّهم الإسلام بداله... الإسلام دين مثاليّ، لكنّ المثاليّة لا يبلغها إنسان مهما حاول.

أتمّا حديثهما وعيون الطفلين مُتابعةٌ لهما، الطفلان اللذان أفاق النّائم منهما على صوت «رُستم» يُحادث جدّته، التفتت نحوهما «رهف» وسألتهما عن اسميهما لتعلم أنّهما من أقرباء الجدّة وأنّهما يحبّان قضاء الوقت معها وعندها. بعد الحديث الطويل قامت «رهف» وذكّرت «رُستم» برسالة مدير المدرسة إليه وأخبرته أن يُفكّر في الأمر بجديّة ويُعلمها بقراره في زيارة إليها، فرح الصبيّ بعد أن أخبرته أنّها ستطهو له ما يريد، ثمّ خطت نحو الخارج وهي تفكّر في مساعدة هؤلاء الذين يلجؤون لهذه الغرفة من المخيّم، هي نفس قصص

أطفال العالم بأسره لكنّها هنا بتركيز حزن أكثر بوجود من يشدّ الخناق على كلّ الأرواح ويطعن كلّ الأحلام التي لا تكادُ تُبنى. من يومها لم تتكاسل يومًا «رهف» عن مساعدتهم، كانت تقول لوالدها أنّ الله أرسلهم لها كعائلةٍ أخرى لها، كانت تطهو لهم هي وصديقتها «علياء» ما لذّ وطاب كلّ يوم جمعة، فصار الأطفال يتخذونه عيدًا لهم. مضت الأيّام فالسنوات على هذا الحال والتحق «رُستم» بالمدرسة وكانت تُساعده «رهف» في كلّ أمور دراسته كتلك الأخت الكبرى التي لم يكن ذا حظٍ بامتلاكها ولا هي كانت ذات حظٍ بامتلاك أخ لها. تدريجيًا عادت للصبيّ ثقته بنفسه التي كانت قد اندثرت وتصرفاتُه ما هي إلّا محاولات لتغطيّة ذلك، إنّ الذي يعلم بنقصه يُحاول جاهدًا ألّا يلاحظ الناس ذلك النقص فتجد في تصرفاته اختلافات جمّة. لم يعد «رُستم» يخشى أمرًا، بعد أن أصبحت «رهف» تأخذه معها لزيارة بعض العائلات المُعوزّة بالملجأ فقد انخرطت كيَدٍ مُساعدة في إحدى وكالات 'الأونروا' للمساعدات، اقتنع أنّه ليس أشدّ بُؤسًا من أحد وأنّ الحياة تُعطي ظهرها للجميع وعلينا ألّا نأبه لذلك إنّما نستمرّ مهما كان الأمر. بعدَ يقيننا أنّ ما لم يُؤخذ بالقوّة لن يُؤخذ بالسلم، لم نعد نأمل بشيء، ساد الأزقة صمتٌ مرعب لم نتعوّد عليه، حتى أمطار ذلك الشتاء كانت شحيحة، لم نعد كما كنّا، الأطفال الذين بداخلنا والذين أقنعناهم أنّ هذا الزمن سيمرّ وأنّ من قطع وعودًا سيفي بها وأنّ القاطع لها تحت مرأى العالم سيُخزيه أن ينقضها أمامه، أولئك الأطفال بالذات ما عادوا يُصدّقوننا، أيقنوا أنّها خُزعبلات العالم التي

تقبّلناها كما تقبّلنا ما كان قبلها وما جَعلنا شِطرين، ما جعل الله من قلبين في جوف رجل والله الذي لا يُعجزه شيء فكيف هؤلاء جعلوا قلبين في دولة واحدة؟ أيّ النبضين سيضخّ القوّة في عروقنا الآن؟ وأيّ كلمات المواساة ستكفينا؟

تركيز إحباطنا بين ثنايا دمائنا يرتفع تدريجيًا، خصوصًا بمدينة القدس التي كان مفترضًا أنّ حالها أحسن ممّا هي عليه الآن، لم يتمّ تحقيق ما نصّت عليه الأوراق والصفقات التي أُبرمت وأمضوا عليها فكيف سيقفون بوفاءٍ تجاه وعودٍ لإيجاد حلٍ لنا خلال سنوات، قد نُسينا كما يُنسى أيّ شيء في هذا العالَم التعيس، لقد تجرّعنا الألم كما لم يتجرّعه غيرنا ولم يتقبّله أحد، في حين كان العالم بعد انقضاء الحروب يُحارب مُدمني المخدّرات والمهلوسات وآخرون يُحاربون الإرهاب، نحن نُحارب إدماننا للصمت وتصديق الخرافات التي تُقال لنا ونُجبَر على تصديقها أيّامًا طويلة وتضيع سنواتنا على ذلك الحال... لم تعد الحيّة إلى العيش ضِمن حدودها التي أُعطيت لها بُهتانًا وزورًا، لا تزال تبني ومستوطناتها تعمر قريبًا منّا دون خوفٍ وأيّ خوفٍ سيزور قلوبهم والعالم أجمع معهم كأنّما نحن الذين أخطأنا حين كنّا أصحاب الأرض أو نحن أخطأنا حين لم نتقبّلهم كمُستعمرٍ لنا، كيف يخشون أمرًا ولو كان ما يقومون به مُنافيًا لما أمضوا عليه وهم يعلمون أنّنا مقطوعون من شجرةٍ عن العالم، كأنّهم لهم كلّ السند وليس لنا لا في العرب ولا في الغرب من سندٍ نطمع به. إنّهم لم يتوقّفوا عن اعتقالاتهم لأولادنا، لا بدّ لهم من ملء تلك السجون التي بنوها منذ سنوات، نحن لا نخشاهم لأنّنا على

يقينٍ من مشروعيّة قضيّتنا، أطفالنا وحدهم قادرون على إخافتهم فما بالك بالرجل منّا، ما يُبقيهم ويشدّ ظهرهم هم من يقفون وراءهم، أولئك الذين اختاروا الباطل ظنّا أنّه يخدم مصلحتهم، نسوا أنّ الباطل باطلٌ ولو كان غير ظاهر، وتناسوا أنّ اليهود لا يعتبرونهم سوى وسائل لمصالحهم سيتخلّصون منها ما إن يقفوا ويشتدّ عظم ساعدهم، تمامًا كما فعلوا بأقوامٍ قبلهم، ألا يتعظون ممّا علموا عن تاريخ الحيّة أمْ أنّهم لا يعقلون؟

2000 (29 أيلول)

مرّ عامٌ من عمرنا، تُحتسب أيّامه علينا لتُذكّرنا بكلّ تلك الجروح التي انتبذت مكانًا قصيًا في قلوبنا، لياليه كانت تمضي كسنواتٍ ونحن نتقلّب على حدّ سيفٍ حاد، توتّرنا جليّ بكلّ تفاصيل أيّامنا وحياتنا، إنّ تلك الغصّة التي نحسّ بها تخنقنا لا تختفي مهما حاولنا تناسيها أو التعايش معها... نهرب من حزننا ولا نهرب، نبكي لربّنا بُكاء المُضطر أن يرفع عنّا بلاءه، وننتظر بقلوبٍ وجلةٍ واجمة.

على طريق 'باب حطة'، كان «عُمر» ممسكًا أيادي الأطفال «وائل»، «محمود» و«قُصي»، يحكي لهم عن تاريخ المسجد الأقصى وهم يُسارعون الخُطى نحوه، ووالداهم خلفهم يتبادلان أطراف الحديث عن السياسة وما كان من أوضاع البلاد، مرّوا بذلك الدكّان العريق، الماكث بتقاطع طريق 'باب حطة' ودرب 'الآلام' والذي يبيع من الأغراض الضاربة أصولها بأصول القدس، توقّف «عُمر» مُقتربًا منه يسأله عن ثمن الكوفيّة القطنيّة التي عُلّقت للعرض ليقتنيها لأصغر شبلٍ بالعائلة «قُصي»، ابتاعها له وراح يلفّها على رقبته ويُحسّن من تعديلها ثمّ أكملوا مسيرهم، دخلوا عبر 'باب حطّة' الذي تزيّنه علّاقات حجريّة كانت تُستعمل لتعليق القناديل قديمًا. لاح شبح أولئك الفئران بنظراتهم إذ إنّ عددهم اليوم أضعاف عددهم المعتاد، ربّما كتبعيّة لما حصل البارحة من أحداث. لم يأبهوا لوجودهم ولم يهتمّوا

لوقوفهم فذاك كلّ ما يُجيدون فعله... امتدّت أمامهم الطريق الموصلة لساحة مسجد ’الصخرة‘ بقبّته الذهبيّة تجاوره قبّة ’السلسلة‘، راح «قُصي» يركض قريبًا منهم ما إن وصلوا الحرم فنبّهه والده ألّا يبتعد عنهم في حين راح «عُمر» يُتابع حديثه للولدين عن أبواب الأقصى المُبارك:

-أمّا عن الأبواب فهي جميعها خمسة عشر بابًا: «الأسباط» الذي تعرفونه وهو خلفنا بأقصى اليمين لو استدرنا، باب «حطة» الذي دخلنا منه، باب «العتم» وهو ليس بعيدًا عن باب «حطّة» وعلى نفس السور، ثم سبعة أبواب على السور الغربيّ، يعني عن يمينكما (مُشيرًا بيده لكلّ باب ظاهر للأعين): باب «الغوانمة» أو «الخليل»، باب «الناظر»، باب «الحديد»، باب «القطانين» وهو أجمل الأبواب وأبهاها وتعلوه تلك القبّة التي ترونها، بعده باب «المطهرة»، باب «السلسلة» وآخرهم وهو بعيدٌ عمّا ذكرتهم قليلًا باب «المغاربة» والذي يفصل بينه وبينهم حائط «البُراق» أو «المبكى» وهو حائطٌ يرى فيه اليهود ما لا نراه نحن ويجعلون عليه أدعيتهم ويبكون أمامه ويدسّون أوراقًا عليها خطاياهم بين أحجاره ظنًا أنهم كذلك تُغفر لهم خطاياهم -إن كانوا يُصدّقون أنّهم أخطأوا أساسًا فهم شعب الله المُختار كما يزعمون- وبخصوص باب «المغاربة» فهو الأقرب إلى المسجد «القِبْلي» وقد سُميَ نسبةً للحارة المُجاورة له هو الوحيد الذي لم يُغلق لكنّنا لا نتمكّن من الدخول منه في نفس الوقت فقد تمت مُصادرة مفتاحه واقتصر على غير المسلمين والعساكر المُقتحمين لباحات الأقصى الشريف

كما حدث البارحة، أمّا خلف المسجد الأقصى أيّ على سوره الجنوبيّ فهناك ثلاثة أبواب «المزدوج»، «المفرد» و«الثلاثي»، ثلاثتهم أُغلقوا ويدّعي اليهود أنّ الباب «الثلاثي» والباب «المُزدوج» من أبواب معبدهم المزعوم، أمّا شرقًا عن يساركما فهناك باب «الرحمة» وهو كذلك مُغلق، يُلقّب كذلك بـ«الذهبي» حيث إنّ المسيحيين يقولون أنّ عيسى نبيّ الله دخل الأقصى من خلاله وسيفتحه مجدّدًا في المستقبل، وباب «الجنائز» وهو كذلك مُغلق بل لا يُعرف عنه سوى أنّه كان في السور الشرقي وكانوا يخرجون منه الجنائز نحو مقبرة «الرحمة»...

-خالي، هدول كلهم مين أغلقهم؟

-بحسب، فمثلًا باب «الرحمة»، باب «الجنائز» والباب «الثلاثي» أُغلقوا بأمرٍ من «صلاح الدين الأيّوبي» في محاولةٍ لحماية الأقصى، أمّا باب «المغاربة» فتصُدّنا عنه أيادي اليهود...

ارتفع صوت الأذان، وكان الجميع قد بلغ صفوف المصلّين واصطفوا معهم، همس «وائل» سائلًا أباه:

-يابا إيش صار مبارح هان بعد ما صاح المؤذن بغير الأذان وطلعتوا؟

-ممم، بعد الصلاة أخبرك يابا...

-عاوز أعرف طيّب...

-لقد اقتحم أحد الإرهابيين اليهود المسجد وصدّه المصلّون ممّا نجم عنه اشتباكات، انتبه الآن للخطبة وبعد

الصّـــلاة ســـأخبرك بالتفاصيـــل.

امتثـل الصبـيّ لأمـر والـده، وراح يُتابـع بخشـوع خُطبـة الإمام. لقـد أصرّ «عـادل» ألّا يُحـضر الأطفـال هـذه المـرّة لصـلاة الجمعـة بعـد أحـداث البارحـة، لكـنّ «عُمـر» لم يكـن ليمنـع الصغـار بعـد رجائهـم لـه بملامـح وجوههـم البريئـة فهـم يحبّـون قضـاء وقـت الصـلاة بالمسـجد فيظنّـون أنّهـم صـاروا أكـبر حـين يقفـون بصـفٍ واحـدٍ ويتابعـون بـبراءةٍ قـول الإمـام. أمّـا مـا وقـع يـوم أمـس فقـد كان أمـرًا مَسـتفزًّا لنـا مـا جعـل دماءنـا في عروقنـا تغلي حتـى تـكاد تنفجـر وكيـف لا وأحـد زعـماء الاحتـلال يدخـل عبر بـاب «المغاربـة» مُحاطًـا بـآلاف الحـرّاس والفئـران ممّـن يسـمّيهم جنـوده، يُسـارعون مُشـكلّين أربعـة صفـوف في باحـات الأقـصى، وهـو يصـول ويجـول كأنّـما بيـت أهلـه ويصـل المصـلّى «المـرواني» وسـاحته الشرقيّـة، والأدهـى مـا تلفّـظ بـه كزَعـم أنّ الحـرم القـدسيّ حـق اليهـود ودعوَتُـه إيّاهـم لدخـول الأقـصى، أنّـى لمسـلم أن يـرى ذلـك أمـام منـأى أعينـه ولا يُحـرّك سـاكنًا؟ تعالـت مكـبّرات الصـوت بالمسـجد مُناديـةً المسـلمين لنُـصرة الأقـصى وحمايتـه، وكان كذلـك بالفعـل ممّـا نتـج عنـه اشـتباكات بـين المسـلمين الذيـن راحـوا يصـدّون اليهـود عـن مقدّسـاتهم ذاكريـن أنّـه مـن أظلـم ممّـن سـعى في خـراب بيـوت الله... رغـم كلّ هـذا الأمـر كان لسـيّد اليهـود رأيّ نـشره عـبر وسـائل الإعـلام كافّـة يُفيـد بـأنّ الفلسـطينيين دبّـروا للأمـر تدبـيرًا وسـعوا للانتفاضـة وأنّهـا لم تكـن مجـرّد قطـرةٍ أفاضـت كأسـهم بـما حمـل أو أنّهـا ردة فعـل لاقتحامـه طهـارة المسـجد بروحـه النجسـة وقلبـه العفـن قبـل حذائـه الوسـخ الـذي لعلّـه أنظـف قليـلًا مـن نوايـاه.

كانت صفوف المصلّين كلّها خاشعة، ارتفع صوت السلام بانتهاء الصلاة «السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله»، ابتسم «محمود» لوالده الذي مسح بدوره على رأسه وهو يذكر الله بين حركة شفتيه، قام «وائل» من مكانه وراح نحو ابن عمّته يُعلّق على صلاته البريئة كالعالِم المُتقن المُعلّم للأصغر منه. قام المصلّون عائدين لبيوتهم، كلٌّ منهم كان له شأنٌ يجعل رأسه يعجُّ صخبًا، لكنّ جرذان اليهود كانوا يتربّصون لهم، كانت جماعتنا قد سارت خارج المسجد نحو ساحة الحرم، ووسط زحامها علا صوت الرصاص غير بعيدٍ، وبردّة فعلٍ سريعة اختطف كلّ من «عادل» و«سيف» الأولاد بين يديهما.

-الله أكبر... «عادل» ع السريع خود الأولاد للمسجد ارجعوا... ارجعوا....

كان «عُمر» يصدح بأعلى صوته آمرًا ابن عمّته بأخذ الأطفال والاحتماء داخل المسجد فحُرمته قد تنفع في ردع هؤلاء النجسين كيْ لا يدخلوه وقد اقتحموا ساحاته... كانت مواجهةً غير مُرتقبة، يركضُ ذلك حاملًا طفليْ أخته وولده يركض أمامه يسأله الأخير هل بإمكانه البقاء لمساعدتهم فهو لطالما طمع بحضور حدثٍ كهذا يُفرغ فيه غضب سنواتٍ بطعم الحنظل عاشها لم تُخلق لتُمحى مرارتها من ذاكرته. نفى والده إمكانيّة ذلك وهو يقول أنّه سيحرس أبناء عمّته فهذه هي بطولته لهذا اليوم، كانت العبوات النّاسفة تملأ المكان ودخانها يحجب الرؤية أحيانًا كثيرة، ترى النّاس يركضون في الساحة ردعًا لليهود، يرمونهم بكلّ ما أوتوا أمامهم علّهم

يحملـون أوزارهـم وخيبتهـم عـلى ظهورهـم ويوَلّـون الأدبـار، تـرى جنديًـا يحمـل درعـه يحتمـي بـه، مـا دُمـتَ أقدمـتَ عـلى أمـرٍ كهـذا فكيـف تخشـى مصـيرك يـا فـأر صهيـون؟ كانـوا أقـوى بأسـلحتهم وبأكاذيبهـم علينـا وكنّـا أقـوى بحقّنـا وإيمانـنا بالقضيّـة، سـقط بهـذه المواجهـة منّـا سـبعة شـباب أكبرهـم «بـلال عـلي خليـل» الـذي كان بعمـر السادسـة والعشريـن، وأحـد معـارف «سـيف» وجـاره «أسـامة محمـد آدم» والـذي لم يتجـاوز عمـره الثالثـة والعشريـن، وطفـلان لم يبلغـا الثامنـة عـشر ربيعًـا بعـد، أيّـان لنـا مـن سـكوت عقـب مـا حـدث؟

بعـد خمـود نـار المواجهـة بسـاحة الأقـصى خـرج «سـيف» برفقـة الأطفـال عـبر «بـاب الأسـباط» راكضًـا خشـية أن تندلـع اشـتباكات جديـدة، كان غـير مُبـال بالتفكـير في أيّ شيء، عليـه إيصـال الأطفـال والعـودة لمسـاعدة الجرحـى والبحـث عـن «عـادل» الـذي لم يلمحـه في طريقـه. دقّ البـاب عـلى عجـل، فتحـت «هيفـاء» البـاب بوجـهٍ مُرتعـبٍ مـن الصـدى الـذي يصلهـم عـن أصـوات الرصـاص:

-«سيف» إيش لي صاير؟ طمّني أنتو كويسين؟

-أدخِلي الأطفال، نحن بخير...

ومـضى مُسرعًـا فأغلقـت البـاب وراحـت تتحسّـس أولاد أخويْهـا وتسـألهم عـن حالهـم في حـين أتـت «دُعـاء» التـي كانـت الدمـوع مـلآى جفونهـا، بعـد سـماعها للرصـاص خشـيَت ألّا يعـودوا بتـمامِ عددهـم وصـارَت تُناجـي الله لأجلهـم وهـي التـي كانـت رافضـةً كذلـك لفكـرة أخـذ الأولاد هـذه الجمعـة بسـبب مـا وقـع البارحـة... أقبلـت عـلى الأطفـال تحضنهـم وتقبّـل

وجناتهـم، تسـأل ابنهـا مـا الـذي حـدث وهـل هـم بخـير، لكنّـه كان عابـس الوجـه.

-ما بك يا «وائل»؟ هل حصل شيء؟ أخبرني.

-لم يرضـوا أن أسـاعدهم وأدخلـوني المسـجد خائفـين عـليّ، لكنّـي لسـتُ خائفًـا مـن أسـلحة أولئـك، أنـا لا أخـاف منهـم يـا أمّـي...

-أعلـم (وبيدهـا مسـحت عـلى خـدّه وهـي تبتسـم لشـجاعة ابنهـا).

الأطفـال الذيـن يُعايشـون أوضاعًـا مُماثلـة أو حتـى شـبيهةً مـن ليـالٍ عصيبـة وأيّـام مريـرة تُغلّـف قلوبهـم شـجاعة يسـتمدّونها مـن قناعتهـم أنّهـم هـم القـادرون عـلى إنهـاء عـذاب مـن حولهـم تتولّـد بجوفهـم أنّ ذاك المُسـتبدّ لا بـدّ ألّا يعيـش علقـم اسـتبداده أحـدٌ آخـر غيرهـم، هكـذا تمامًـا يولـد الأبطـال، وهكـذا هـي نشـأتهم، وتمامًـا هـؤلاء هـم أبنـاء فلسـطين.

***

عندمـا تغـرب الشـمس في (جباليـا)، فهـي بالتأكيـد سـتُداعب بأشـعتها زُرقـة البحـر قبـل أن تختفـي عـن الأنظـار... عـادت «رهـف» للبيـت بيدهـا مـا اقتنتـه مـن السـوق وهـي تفكّـر فيـما سـتطبخه اليـوم لتُرسـله لبيـت الشـبح، تعـوّد كلّ جمعـة أن يـأكل مـن طبخهـا فصـار كلّـما حـان موعـد العشـاء يزورهـا ليأخـذ حصّتـه وإخوتـه ويذهـب. دقّ البـاب مـا إن بـدأت بتحضـير الطعـام وعلمـت أنّهـا صديقتهـا «عليـاء».

-أهلًا عزيزتي، كيف حالك؟

-ييييي ييبي إيش د أخبرك ييبي.

-إيش في؟ خير؟

-ما سمعتيش؟ لك إنتِ وين عايشة وين؟ افتحي افتحي هالتلفزيون يلاااا.

-ايش صاير؟ خبريني!

فتحت «علياء» شاشة التلفاز على الأخبار وأشارت إلى أنّ هذا ما هي تقصده، في حين صُدمت «رهف» بالأمر فتحت فاها في اندهاش وهي ترى صور الاعتداء على المصلّين بالقدس، لاحت ذكريات تلك الساحة التي زارتها منذ سنوات وأيّامًا قضتها مع «دُعاء» وبنات عمّتها، لاح في خيالها ذاك الذي تمنّى لُقياها ولم يستطع لها سبيلًا، ذاك الذي تمنّت لو يعود بها الزمان لتلقاه مجدّدًا ذاك الذي لم تر في أيّ عينٍ لمحتها ما رأته في عينيْه حين كان ينظر إليها.

-عـ... «علياء».... ما هذا بربّك؟

-هذا الذي يحدث وأنتِ لا تعلمين عنه شيئًا... ثمّ أين كنتِ منذ المساء؟

-أحسستُ بغصّة فرُحت أتمشّى قريبًا من الساحل أتنفّس قليلًا من هواء البحر... ثمّ مررت بالسوق وقفلتُ عائدة...

-آه آه، روحي واتنفسي وعيشي حياتك واخواتك ما بتعرفيش عنهم اشي...

-«علياء» لا تقتليني بكلامك أكثر، أرجوكِ...

-لا فعلًا كيف لم تسمعي عن الخبر أبدًا، كلّ فلسطين انقلبت يا بنت!

فجأةً وعندما لمحت شاشة التلفاز مجدّدًا شهقت... يهوديّ يمسكه من أعلى قميصه يدفعه للسير وهو يُقاومه ويضربه بيديه حتى أفلت من قبضته وراح يركض مُتعثرًا بادئ الأمر ثمّ راح يعرج بقدمه،

-ماذا هناك؟ ماذا؟

-عُمر...

وانفجرت بُكاءً حينها... حتى مُحاولات «علياء» بتهدئتها فشلَت، سمع صوت بكائها والدها الذي كان بالغرفة الثانية فناداها، مسحَت عينيْها وراحت مُلبيّةً نداءه:

-نعم يابا...

-ما بكِ؟ ما الذي حدث؟

-لا شيء... كنتُ أشاهد التلفاز...

-هل رأيتِ يا ابنتي ما حصل بالقدس؟ منذ الصباح وأنا أستمع لهذا المذياع حتى مللت سماعه، يجرفني الألم كلّما تذكرتُ عجزي أن أبوح لمن حولي أنّي فعلًا أتعذّب...

وراح هو الآخر يبكي حاله الذي جعل منه عاجزًا بعد أن كان مُناضلًا في سبيل وطنه، جلست أمامه ابنته وحضنته وتركت لنفسها المجال بأن تبكي أكثر.

-يابا... هل تعلم من رأيت على التلفاز؟

-مين يابا؟

-«عُمر» ... ابن عمتي «غادة».

-هل حصل له شيء؟

-بين يديّ يهوديّ.... وذاك الحقير يجرّه...

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله، يا رب... يا رب لطفك بعبادك فما لنا سواك...

قامت مُتثاقلةً بعد أن سمعت طرقًا بالباب، هناك فقط تذكرت أمر «رُستم»، لم تتكبّد عناء أن تمسح الدمع المُنسكب على خدّيها، فتحَت له الباب بابتسامةٍ دخيلةٍ على لون الحزن في ملامحها.

-السلام عليـ... ما بكِ يا أختي؟

-تفضّل يا «شبح»... وعليكم السلام.

دخل المطبخ كعادته وتوجّهت «رهف» لغسل وجهها، وجد «علياء» هي التي تطهو العشاء، سحب أحد الكرسيين المتواجدين في المطبخ الصغير وجلس مُنتظرًا، ثمّ سألها ما سبب عَبرات صديقتها فقالت:

-رأت في صور اليوم عن المواجهات بالأقصى ابن عمّتها بين يديّ أبناء صهيون...

-ابن عمّتها؟

-نعم يا شبح ابن عمّتي...

-ظننتُ أنّ ليس لكِ أقارب!

-يمكن القول...

-لماذا لا تزورينهم؟

-هل تذكر يوم ضلّت سِتّي سبيلها ووجدتَها؟ كانت

تبحث عن «أم أحمد» والتي أخبرتكَ أنّها كانت جارتنا فيما مضى هي وابنتها «غادة»، وهي بالذّات من أسمّيها عمّتي فقد عاشت مع والدي طفولتها، أمّا عن الزيارة فقد زرتهم قبل أربع عشرة سنة، ومنذ ذلك الحين ومع تضييق إمكانيّة العبور للضفّة فلم أزرهم بعدها، قدّمت عدّة طلبات قوبلت بالرفض لأنّهم بسجلاتهم لا تربطني بهم صلة قرابة... وليتها كانت... كذلك بالنسبة لهم، تمّ رفض محاولاتهم غالبًا ولذلك لم يزوروني ولا مرّة...

-لماذا لم تُجرّبي الذهاب عبر مصر فالأردن؟

-لا داعي للمحاولة في الأمر، سيستوجب عليّ بعدها العودة مرّة أخرى وأجد ألف قانون أُصدر جديدًا يمنعني من العودة...

-ربّما سيكون ذلك جيّدًا بالنسبة لكِ، أنتِ غالبًا لم تُفكّري بالأمر يا «رهف» (علّقت «علياء»).

-إن كنتِ تقصدين أمر «عُمر» فأظنّه أمرٌ مقضيّ، مُستحيل أنّه بعد كلّ هذه السنوات لم يتزوّج، ليس حاله كحالي أنا يا «علياء».

-انتظرا... لأفهم قليلًا ما يدور هنا من حوار.

تنهدت «رهف» ثمّ سحبت الكرسيّ الذي كان أمام «رُستم» وجلسَت، نظرَت نحوه وقالت:

-حسنًا أيّها الشبح، أوصيكَ بأمرٍ واحد، عِدني ألّا تنساه أبدًا، وسأحدّثك فيما بعد بالقصّة التي تريد سماعها وقتما شئت.

-حسنًا، أعدك.

-إن أحببت فتاة فلا تتركها، أخبرها ولا تترك نفسك مُعلّقًا بحبال الريْب والخوف من ردّة فعلها، لا بدّ أن تتحلّى بالشجاعة لأن تُخبرها، فربّما فارقُ لحظةٍ واحدةٍ سيُغيّر قدركما... وإن لم تكن ذا شجاعة، فلا تُقدِم على اعترافك بعد فوات الأوان أبدًا، اعتبره أمرًا وانقضى لجُبنك، لا تُعلمها بالأمر حتى لا تغيّر حالها وتفكيرها كلّه لأجلك وأنتَ لا تستطيع إليها سبيلا...

-أظنّني فهمت قصّتكِ...

-الأهمّ لديّ أن تكون فهمتَ ما أودّ قوله لكَ وأن تعيه جيّدًا... القلوب أشدّ هشاشةً من البلّور، فأحسن إليها إن استطعت أو لا تُرهقها...

-فهمتكِ يا أختي... لا عليكِ، ثمّ ما أدراكِ لعلّه لفرط حبّه لكِ خشي إعلامكِ بالأمر، ولعلّه اليوم يقف وأنتِ لا تزالين تعيشين في ذاكرته، ذاكرة القلوب لا تصدأ...

ابتسمت «رهف» ثمّ أمسكت وجنته بين سبّابتها وإبهامها وراحت تُمازحه:

-كُن أنتَ أحسن منهم جميعًا وما إن تنَل إعجابك إحداهنّ أعلمنا بالأمر نطلبها لك.

-ههه، لا زلتُ صغيرًا وهمّي كلّه مُنصبٌّ على البلد، لم أعش يومًا لنفسي، لقد عشتُ منذ طفولتي لفلسطين...

-تكاد تتمّ الثامنة عشرة من العمر، أيّ صغيرٍ هذا يا «رهف».

-هههههـه، هـل تريـن يـا «عليـاء» نحـن نُفكّـر في مصلحتـه وهـو يقـول البلـد، يُذكّـرني بمـن أمـضى أعوامًـا بعيـدًا عـن بيتـه بـين المجاهديـن وكانـت أختـه تُراسـلني تشـتكي خوفهـم عليـه... أنـت تُشـبهه يـا فتـى! أقتلـك لـو كـرّرت فعلتـه!

تغـيّر الموقـف إلى مـزاح مـع وجـود «رُسـتم»، لقـد كان كأخٍ لـ «رهـف» التـي لم تكـن تمّلـك إخـوة، لا تـزال تُسـاعده في دراسـته متـى مـا احتـاج يـد العـون، أكثـر مـا تُجيـده هـو رفـع معنويّاتـه للعمـل أكثـر، لكنّهـا بهـذا الوقـت أَحـوَج لمـن يرفـع معنوياتهـا هـي.

***

لقـد طـال غيـاب رجـال البيـت، اتصلـت «عُـلا»- بأختهـا «هيفـاء» وأعلمتهـا بالأمـر فأتـت عـلى الفـور هـي وزوجهـا الذي بقـيَ معهـم بعـض الوقـت ثـمّ خـرج باحثًـا عـن الرجـال، أعلمـه أخـو «سـيف» الأصغـر أنّهـم غالبًـا بالمشـفى، فقـد أُصيـب أحدهـم، لم يشـأ رفـع التوتـر في البيـت فتوجّـه مبـاشرة للمشـفى دون إعلامهـم.

صعـد الـدرج الرخامـيّ القديـم، وجـد ممرضًـا مـارًا فاسـتوقفه يسـتعلم عـن جرحـى المواجهـة أيـن يتـمّ إسـعافهم فأعلمـه أنّهـم لكثـرة عددهـم تـمّ تجزئتهـم ووجّهـه أيـن يسـأل عـن مريضـه، شـكره «أشرف» ثـمّ راح يسـأل حيـث أرسـله، مـن سـؤال أحـدٍ لآخـر حتـى بلـغ قاعـة المـرضى المقصـودة، كان يسـمع الأنـين عبر أروقـة المشـفى، عندمـا يكـون الأنـين عـن وجـع القلـب ووجـع

الجسد فإنّ من يئنّ ليس الإنسان بل هي روحه التي تتعذّب لأجل هذا البلد. دخل القاعة، بعض الجرحى يجلس على الأرض وآخر نائم على فراشٍ ممزّق، كحالة حربٍ وضعت أوزارها واشتدّت حدّتها، إنّ هذا اليوم أقسم أنّه لن يمرّ إلّا بعد أن يُتخِمَنا وَصبًا... راح يبحث بنظره بين المتواجدين هناك حتى لمحهم قريبًا من الزاوية الشرقيّة للغرفة، لوّح بيده لـ «سيف» حتى رآه بدوره، فاقترب منه، مرّا بين الممدّدين أرضًا المُضمّدة كسورهم وجروحهم حديثًا.

-أين أنتم يا رجل، لقد بحثتُ طويلًا ولو أنّي لم ألتقِ صدفةً بـ «قيس» الذي أعلمني أنّكم بالمشفى لما علمتُ أبدًا!

-لم أشأ أن أعلمهم في البيت فسيقلقون دون حاجةٍ للقلق.

-من المصاب؟ «عادل»؟

-كلاهما... «عُمر» كسرت قدمه و«عادل» أُصيب بطلقٍ ناريّ.

-كيف حالهما الآن؟

-أنتظرُ الطبيب فقط ليُعاين «عادل» وسنعود للبيت، والله أعلم ما الذي سيحدث عندما يعلمون بالأمر.

-إصابته ليست خطيرة، أليس كذلك؟

-إصابة في كتفه اليمنى، هو بخير الآن أسعفناه بسرعة وذاك ما ساعده...

-حسنًا سأنتظركما لنعود معًا...

-آه، جاء الطبيب...

تحدثـا مـع الطبيـب المُعايـن وطمأنهـما أنّـه سـيكون بخـير، همّـا لمسـاعدة «عُمـر» في المـشي بعـد أن اقتنـى «سـيف» بعـض مـا يصـبّر «عـادل» عـلى الجـوع حتـى الغـد.

وصلـوا بـاب البيـت الـذي ظلّـت أنـواره مُضـاءةً تختلـس خيوطهـا عـبر ثقـوب النوافـذ رُغـم تأخّـر الوقـت، دقّ «سـيف» البـاب فلـم يُجبـه أحـد، دقّ مـرّة أخـرى ولا أحـد يـردّ، فنـادى «عُمـر»:

-ياما أنا «عُمر»... يا «وائل» افتح...

-سأرى ببيتنا ربّما هم هناك (قال «سيف»).

مـا كاد يخطـو خطوتـين حتـى فُتـح البـاب، وظهرت عـبره عيون جميـع مـن في البيـت مصطفـين مُرتقبـين خلـف بعضهـم، سُرّت «غـادة» بعـودة ولدهـا ثـمّ لمحـت قدمـه المكسـورة فتفاجـأت، في حـين اختلطـت المشـاعر بـين سـعادة بعودتهـم وحـيرة حـول مـا حصـل، تسـاءلت «دُعـاء»:

-أين «عادل»؟

-في المشفى يا أختي...

-إيش؟ ليش إيش صارلو؟

فـأسرع «سـيف» لتهدئـة الوضـع وطمأنتهـا عـلى حالتـه أنّـه بخـير ومجـرّد جـروح بسـيطة لا أكثـر.

أسـند رأسـه إلى الحائـط، لم يكـن يُريـد النـوم، مـا يجـول في رأسـه كان أكـبر مـن أن ينـام ويتركـه، مـدّ سـاقه ينظـر إلى الجبصـين الـذي يلفّهـا، كـم سـيكفي مـن الوقـت ليجتمـع شـطرا عظمـه؟ مؤكـدٌ ليـس بقـدر مـا كلّـف شـطريْ فلسـطين للاجتـماع كدولـةٍ

واحـدة، ليـت كنّـا نملـك حـلًّا يجـبر صدعنـا الكبـير، ليـت ذاك الشـق الهائـل في قلوبنـا نجـد لـه إبـرًا بعُمقـه ونخيطـه... شردَ في ذاك الخـرق في الأرواح والأنفـس وتـراءت لـه فجـأةً سـماء (طبريـا) والـبرقُ يشـقّها شـقًّا وسـط سـماءٍ حالكـة الظلمـة، لقـد مـرَّت عليـه ليـالٍ كهـذه مـن قبـل في (طبريـا)، ينظـر مُتأمّـلًا كأنّـه يـرى المـكان حقًّـا، الـبردُ يلسـع وجنتيـه، انكمـش عـلى نفسـه، ثـمّ رفـع رأسـه إذ بـه يلمـح مـن بعيـدٍ شـخصًا يقـترب، قـام ببـطء واختبـأ خلـف الزيتونـة التـي كان يسـند رأسـه عليهـا، لكـنّ هـذا الشـخص ليـس قادمًـا لوحـده وكأنّ الشـمس في أعقابـه، بيـده عـصى لكنّـه لا يرتكـز عليهـا، وخلفـه أشـعة الشـمس تتغلغـل بـين الحشـائش النديّـة وتُـورث المـكان دِفئًـا، أسرعَ «عُمـر» بيـده إلى جيبـه ليسـحب خنجـره تحسّـبًا، لكنّـه لم يجـده، ثـمّ انتبـه أنّـه حيـث كان مُتكئًـا عـلى الأرض، مـدّ يـده ليلتقطـه ورفـع رأسـه فـإذا بالشـخص أمامـه تمامًـا، كان مُلثّـمًا كالفلسـطينيين بكوفيّـة بيضـاء وسـوداء، ويلفّـه رداءٌ طويـل عاتـم يُغطـي كلّ تفاصيلـه، أشـار بعصـاه نحـو «عُمـر» آمـرًا إيّـاه أن يقـوم مـن مخبئـه فنحـن -عـلى حـدّ قولـه- لا نختبـئ، هنـاك علـم «عُمـر» أنّـه فلسـطينيّ، لكـنّ الصـوت كان أنعـم مـن أن يكـون لرجـل، أراد «عُمـر» أن يقـف لكـنّ رجلـه آلمتـه بشـدّة حتـى كاد يـصرخ مـن الألم.

-لقـد تألّمـتَ مـن قبـل كثـيرًا وآلمـتَ أقربـاءك ومـن أحبّـوك أكثـر، اجتـزتَ مـا هـو أصعـب مـن هـذا أيصعُـب عليـك اليـوم أن تتجـاوز الأيْـسَر؟

-من أنت؟ أو من أنتِ؟

رفعـت يدهـا مُزيلـةً عـن وجههـا الـرداء فلمعَـت عيونهـا

كالـدُرر ولاحـت الكوفيّـة تحجُـب مـا تبقّـى عـن وجههـا، فـصرخ مصعوقًـا:

-مستحيل! «رهف»؟!

سـحبَت عـن كتفهـا بندقيتـين كانتـا تحـت الـرداء مُتخفيتـيْن، أعطتـه واحـدة وهـي تقـول:

-مـا دُمـتَ بـدأتَ فتابـع مسـيرتك حتـى يقـضي الله أجلـك، لـن أرضى عنـكَ إلّا وأنـت شـهيدٌ في سـبيل هـذا الوطـن فغـيرَ هـذا أنـا لسـتُ راضيـةً عنـك أبـدًا.

-وأنتِ ما الذي تفعلينه هنا؟

-سـأحذو حـذوَك، وأخطـو خُطـاك، فغـير ذلـك لم تبـق لي مـن حيـاة كـي أعيشـها...

عـلا صـوتٌ مـن بعيـد يُناديهـا، فتركَـت البندقيّـة بيـد «عُمـر» خَطَـت بضـع خطـوات ثـمّ اسـتدارَت ورمَـت لـه العـصى.

-أنتَ أحوَجُ إليها منّي الآن...

-لكن يا «رهف» انتظري...

يحـاولُ اللحـاق بهـا لكـنّ ألم قدمـه يقطّعـه فـلا يسـتطيع خَطـو خُطـوة، ينـادي بأعـلى صوتـه عليهـا:

-«رهف» انتظري... يا «رهف»...

ويسـتفيق مفزوعًـا ليجـد والدتـه وأختـه أمامـه مُندهشـتين، النـور ينبعـثُ عـن شـمعةٍ بيـد والدتـه وهـي تسـتعيذ بـالله مـن الشـيطان وأختـه تُغطـي فاهـا بذهـول، وخِيـلَ لـه كأنّ ظِلّهـما عـلى الجـدار كان أيضًـا مُندهشًـا وهـو يتراقـص مـع حركـة لهيـب الشـمعة، عـاد لوَعيِـه مُـدركًا أنّـه مجـرّد حُلـم، فمسـحَ وجهـه

براحة يده... لقد كانت «رهف» مُقيمةً دائمةً بأحلامه، حين غابت لياليَ كثيرة لم يكترث ظنًّا أنّ الأيّام تكفّلت بتعليمه النسيان، لكنّها حين عادت هذه الليلة زائرةً لمنامه على غير عادتها كانت كعنوانٍ لوجع قلبٍ فما كان لِزامًا على النوم إلّا أن يتشرّد بعيدًا عن عينيه فترى هذه الأخيرة فجر اليوم مُتربصة له...

لم يكن منامه الذي رآه عاديًا في نظره، ممّا جعله أمرًا يتردّد على ذهنه فكانَ يتذكّر تفاصيله ويُحاول جاهدًا فهمها، بينما أعدّت «دُعاء» مائدة الفطور وانشغلت بإطعام بناتها الصغار و«وائل» يُساعدها كأخ يُمكن الاتكال عليه أخذ يُمازحها «عُمر» ليعرج في الأخيرِ على موضوع المنام الذي رآه.

-كيف حال بناتك يا «أمّ وائل»؟

-ييييه، بناتي الحمد لله، مش شايف كيف صاروا زي القمر؟

-ما شاء الله، بيشبهوا خالهم عشان هيك.

-الظاهر أنّك غُرِرتَ بنفسك يا رجل! يشبهوا أخوهم الكبير ليش ليشبهوك أنت؟

-هل انتابتكِ الغيرة يا ترى؟

-بل أنتَ انتابك الغرور... متى نزور «عادل» يا «عُمر»؟

-ممم، قُبيْل صلاة الظهر، حضرّي للرجل شيئًا يُؤكل... آه كِدتُ أنسى، لقد أوصاكِ ألّا تُحضري البنات، فهو يعرفكِ تمامًا لا تفكرين وتأخذينهنّ معك.

عقــدت حاجبيهــا ومالــت شــفتاها وهــي تُحــدّق بــه مُنزعجــةً مــن قولــه:

-لم يقل هذا أليس كذلك؟ أنتَ من قلتَه.

ضحــك «عُمــر» حينهــا، ثــمّ أومــأ رأســه مؤيّــدًا وراح يُحـرّك الملعقـة بداخـل كأس الشـاي يمينًـا وشـمالًا كـما يُحـرّك التفكـير عقلـه.

-حسـنًا، إذن فسـأتركهنّ أمانـة عنـدَك مـا دمـتَ ماكثًـا هنـا، وليـس فقـط بنـاتي، حتـى «هيفـاء» سـأعلمها لتجلـب أولادهـا وبالطبـع «عُـلا» لتُحـضر ولديْهـا... مـا قولـك؟

-تظنّـين أنّ وجـود الأطفـال يُزعجنـي؟ بالعكـس، تعلمـين جيّـدًا أنّهـم جميعًـا يُحبونني وأحبّهـم، ثـمّ إنّ «وائـل» معـي سيُسـاعدني.

نظـر لابـن أختـه وغمـز بعينـه اليـسرى وهـو يبتسـم مُحـاولًا اسـتفزازها بذِكـر ولدهـا بينـما ابتسـم الصبـيّ وهـو يُحـسّ أخـيرًا أنّ هنـاك مسـؤوليّةً ستُوضع عـلى عاتقـه. سـكتا قليـلًا ثـمّ أفـرج أخـيرًا «عُمـر» عـن التفكـير الـذي يـكاد يفيـض عـن عقلـه:

-«دُعاء»... هل لكِ علمٌ بتأويل الأحلام؟

-ممـم، صراحـةً لا... اسـأل «نـدى» عندمـا تزورنـا ربّـما سـتُجيب سُـؤالك...

-متى ستأتي؟

-لا أعلـم مـع الأوضـاع، أتمنـى أن تسـتطيع القـدوم مـن ’رام الله‘ حتـى هنـا في أمـان... عـن الحلـم الـذي راودكَ البارحـة؟

-نعم...

-كنتَ تُنادي «رهف»... هل كانت بمنامك؟

-نعم... كانت كجُنديّة لكنّي لم أرَ وجهها هذه المرّة...

-هـذه المـرّة؟ مُعتـادٌ عـلى رؤيتهـا إذن! ظننتُـك يـا أخـي نسيت وجودهـا بعـد كلّ هـذه السـنين التـي غـيّرت حتـى مـن ملامحـك.

-بـل قـولي أنّي لا أذكرهـا أبـدًا فهـي لم تُفـارق ذهنـي لتعـود إليـه... إنّـما منـذ مـدّةٍ طويلـة لم أرهـا بمنامـي، ولم أكـترث لأنّي أظـنّ أنّ الأحـلام تنبـع مـن عقـلي أنـا، إنّـما منـام البارحـة كان مُختلفًـا... قالـت أشـياء مهمّـة...

حـين ذلـك توقفـت «دُعـاء» عـمّا كانـت مُنشـغلةً بـه وأنصتَـت بخشـوعٍ لمـا يقولـه أخوهـا وهـو يُكمـل:

-لقـد كنـتُ في ’طبريـا‘، إنّي أعـرف المـكان جيّـدًا بـل إنّ المـكان يحفظنـي لمـا أمضيتـه مـن ليـال وأيّـام هنـاك وكانـت السـماء كأشـدّ الليـالي وأطولهـا عـليّ بالشـتاء، إذ بهـا تقـترب مـن بعيـد وأوجـس قلبـي خيفـةً فلـم أعرفهـا اختبـأتُ ورحـتُ أبحـث عـن خنجـري إذ بهـا واقفـة أمامـي، عرفتهـا مـن لـون عينيْهـا الكبيرتـيْن، لم تبتسـم لي كـما تعـوّدَت أن تفعـل في أحلامـي، بـل إنّهـا لم تكشـف عـن وجههـا أساسًـا، ناولتنـي بندقيّـةً وكانـت معهـا أخـرى، ورمَـت لي بعصاهـا قائلـةً أنّي أعـوَزُ منهـا إليهـا...

-لعلّـه خـيرٌ يـا أخـي... ثـمّ مـاذا ستسـتفيد مـن تأويـل منامـك وهـو بـيّن؟ عـلى كلّ حـال لقـد ذكّرتنـي بأمرهـا، منـذ زمـنٍ لم نُحدّثهـا ولم نُرسـل لهـا، سـأحاول البحـث عنهـا عـبر الهاتـف لعلّنـي أصـل لهـا...

-كلامها ليس بيّنًا يا «دُعاء»... كيف ستجدينها؟

-سأتصل بمركز ملجأ «جباليا»، آمل أنّها لم تُغيّر مقرّ سُكناها.

-أعلميني إذن حالما تعثرين عليها.

-بإذن الله.

دخلَت والدته وقد سمعَت آخر ما تحدثا فيه لكنّها لم تشأ أن تسألهما عن الأمر أكثر، آثرت أن تسأل ابنتها على انفراد خيرًا من أن تسأل ابنها وهو في أغلب الأحيان لا يُحبّ التحدّث كثيرًا.

كما كان تخطيط «دُعاء» فقد بحثت عن رقم «رهف أدهم ياسر» بمساعدةٍ من أحد أصدقاء «سيف» الغزاويّين ووجدَته عقب أسابيع من البحث لتعلم أيضًا أنّها أصبحت أستاذة بوسط محافظة 'جباليا'. خلال تلك الأسابيع الأولى من شهر رجب كان «أبو وائل» يتماثل للشفاء تدريجيًا، بينما استطاعت أخته الصغرى «ندى» القدوم من 'رام الله' رغم صعوبة الوضع ولهيب الانتفاضة المُشتعل، لم يُمضِ أكثر من يوم في المشفى فقد خشيَ الأطباء عدم توفّر أماكن للمصابين الجدّد فسمحوا لكلّ من يرون أنّ وضعه بخير بالخروج شرط أن يتردّد كلّ يوم على المشفى للمعاينة، كانت عشية خروج «عادل» من المشفى عشية يوم خُلّد في ذاكرتنا جميعًا، آخر يوم من شهر أيلول وتحديدًا بجنوب قطاع غزّة... كان أحدَ المصوّرين الصحفيّين مراسل إحدى القنوات الفرنسيّة «طلال أبو رحمة» في شارع 'صلاح الدين'، وشاء القدر أن

يكـون بيـده جهـاز الكامـيرا، حيـث وثّقـت عدسـته أكثـر لحظـات مأسـاويّة كفيلـة بإدخـال الحـزن عـلى قلـوب النـاس عـلى مـدى أشـهر بعقبهـا، لحظـة اغتيـال الطفـل الشـهيد «محمـد جمـال الـدرة»، ذاك الطفـل الـذي فوجـئ ووالـده بوجودهمـا فجـأة في إحـدى بـؤر النـار وإطـلاق الرصـاص الصهيـونيّ، فاحتميـا خلـف برميـل إسـمنتيّ كان شـاهدًا عـلى جريمـة الإعـدام الشـنعاء التـي اقترفهـا أبنـاء الحيّـة صهيـون، والـده يرفـع يـده مُسـالمًا مُشـيرًا للإرهـاب الصهيـونيّ أن يوقفـوا إطـلاق النـار، ولا أحـد يسـمع طلبـه أو يحـترم وجـوده ولجـوأه هـو وابنـه صاحـب الأحـد عـشر عامًـا خلـف ذلـك البرميـل ولا أنّهـم عُـزّل، صورتـه التـي ظلّـت قابعـةً في ذاكرتنـا كيـف لم تبـق في ذاكـرة مـن قتلـوه؟ أنّـى لصاحـب تلـك الرصاصـات أن يهنـأ بنـوم بعـد الواقعـة؟ وجهـه المفـزوع وتشـبّثه بوالـده الـذي حـاول حمايـة ابنـه وأُصيـب بطلـقٍ في يـده اليُمنـى التـي كانـت تتصـدّى محاولـةً حمايـة «محمّـد»...

أيّ شـجاعة كانـت لـكَ يـا «محمّـد» حـين سَـعت نحـوك تلـك الرصاصـة ولمّ تعرهـا اهتمامًـا بالغًـا أم أنّهـا سَـعت نحـو رائحـة الجنّـة المُنبعثـة منـك؟ أصابتـه الرصاصـة الأولى في رجلـه اليمنـى، لكـنّ ذلـك لم يمنعـه مـن إعـلام والـده بالأمـر أنّـه قـد أُصيـب ليلتفـت أبـوه مُحـاولًا بعـث الصـبر في قلبـه بقولِـه أنّ سـيارات الإسـعاف سـتصل لنجدتـه، لكنّـه فُوجـئ خـلال لحظـات ببضـع رصاصـات أخـرى تتتابـع لتخـترق جسـد «محمّـد» وتعـبره... «اطمئِـنّ يـا أبي أنـا بخـير سـأنتظر الاسـعاف... مـا تخافـش انـتَ منهـم يابـا» وينحنـي عـلى سـاق والـده تـاركًا جسـده مُلتحقًـا بـأرواح مـن حلّقـوا نحـو ربّهـم قبلـه... تعـالى صراخ مـن يـرون

الواقعة في الجزء المقابل للشارع، وحتى سيارة الإسعاف التي وصلت بعدها لم يتمكّن المُسعفون فيها من الوصول للصبيّ وسط وابل الرصاص الصهيونيّ الذي لم يتوقّف والذي اخترق بعدها بدقائق سيارة الإسعاف واستقرّت إحدى الرصاصات بجسد المسعف «بسام فايز البلبيسي» فاستشهد هو الآخر وهو يُحاول نجدة الطفل ووالده...

يا «محمّد» أتُواسي والدك أم تُواسي نفسك أم تُؤكّد حُسن ما لاقيتَه عند ربّك باستشهادك؟ ومن يُواسي من شاهد مشهد استشهادك حينها؟ من يُواسي دموع آلاف البشر ذوي القلوب على ما رأوه من شجاعة فيك وما شاهدوه من ظلمٍ لطفولتك يا ولدي؟

اختصر ذلك المشهد الحيّ ما يُعايشه الفلسطينيّون داخل أرضهم وممارسات اليهود اللاإنسانيّة عليهم ونهبهم لطفولة أبنائهم، كانت تلك أهمّ رسالةٍ حيّة للعالم المُتناسي لقضيّتنا وأكثر دليلٍ وحقيقةٍ وُثقت عبر التاريخ في صورة... وكأنّ اليهود اهتزّت ضمائرهم للواقعة وقلوبهم على أقفالها، وحتى لا يبقى أمرٌ يُذكّر العالم بما حصل، هدّموا الحائط الذي اختبأ أمامه «محمّد» و «جمال الدرّة» عقب يومينِ من الواقعة، الحائط الذي كان كغربالٍ من كثرة الرصاص الذي اخترقه، جرفته آلاتهم كأنّه لم يكن ولم يعرف المكان من حائطٍ ولا قام هنا يومًا جدار! أمّا من قلوبهم غُلف من إخواننا العرب فاكتفوا بالتنديد والاستنكار وكأنّ لسان حالهم يُدين توثيق الأمر ويُبيح حدوثه في الخفاء وهل الأمر جديدٌ عليهم؟!

لم يكن الحادث ولا انتشار خبره في العالم ليُوقف أبناء صهيون

أو يردعهم، كيف لا وهم يُلاقون التصفيق أكثر ممّا يُلاقون من تنديد واستنكار، حتى التنديد وكلّ تلك التهديدات هل ستشلّ أيديهم؟ أم تُوقف أسلحتهم؟ مُظاهرات الشوارع العربيّة والشعوب التي لم يتحرّك حكّامها، أقلامٌ نزفت حبرًا عظيمًا لأجلنا، أغاني الكثيرين، هل أوقفت كلّ ما نحن فيه؟ هل صدّتهم عنّا؟ وقوفنا نحن وانتفاضتنا التي لم تكن كسابقتها أبدًا وليست كفيلةً ما دام العالم يرانا ويُشيح عنّا... لقد شطّبنا كلمة السلام من قواميسنا فهي لم تُجد نفعًا ولم نتعرّف إلى غاية اليوم على مضمونها من الأساس، إنّنا حين رفعنا راية السلام كنّا وحدنا من يرفعها، وما تُعطيه ليس ما يعود إليك أبدًا فلا تنتظر ممّن تهبه سلامًا أن يكون معك مُسالمًا أو يتعلّم منك السلام... ورُغم أنّها أرض السلام لكنّها لم تعرف يومًا السلام... ليالي الانتفاضة صارت كأيّامنا، لا تختلف إلّا بالعتمة والنّور. لقد تعلّمنا من تلك الأيّام التي سبقت الانتفاضة ما لم يكن أحدٌ أن يُعلّمنا إيّاه، كان ذلك الوقت الذي أمضيناه نعدّ الأيّام على انتظار حلول تشفي سقم أرضنا كوقتٍ استجمعنا فيه قوّتنا، فوقفنا كما لم نقف من قبل. ما أربَك صهيون أنّنا هذه المرّة تقدّمنا بأشواطٍ عظيمة، وصارت عملياتنا الفدائيّة وسط حدودهم المزعومة ومستوطناتهم، ضربنا مراكزهم، وبِتنا أكبر هاجسٍ يُريقهم بلياليهم، لم نأبه لاعتقالاتهم ولا تهديداتهم، شهداؤنا! بربّكم ألم نعش أسوأ أحاسيس الفقد من قبل؟ تعوّدنا عليها وصارت لا تكسر ظهورنا إنّما تزيدنا ثباتًا وعزيمة، نعيش ونصدح بقول أنّنا نعيش رغم أنوف الملايين ممّن يروننا ولا يهتمّون

لقضيّتنا، نعيش وذلك أكثر شيء يقهر أعداءنا، رحلتنا رحلة مقاومة وقد أجدنا اللعبة التي نحن فيها، وإنّ أعداءنا لكُثر، من عملاء صهيون إلى من يقف معهم ويموّلهم ويجود عليهم بالأسلحة، مرورًا بالعارف لكلّ ما هي تقوم به والأخرس عن صدّها... بأيّامنا هذه أكثر ما يُقال أنّ الساكت عن الحقّ شيطان أخرس، لكنّ الحقيقة أنّه أكثر من شيطان، الشيطان لا يُنكر الحق ويعترف بتضليله للإنسيين وإنّما هم من يتّبعونه، لكنّ الساكت عن الحق أساسًا غير معترف بالأمر وصحّة وجوده! كأنّ كلّ تلك الصور التي تناقلها العالم منذ بدء الانتفاضة حتى اليوم وكلّ تلك الأرقام ولوائِح شهدائنا تلفيقٌ وزورٌ وبُهتان!

***

مرّ عام على شرارة الانتفاضة الأولى، لقد قرّر «عادل» الانتقال والعيش في ‹رام الله› قريبًا من بيت أخته «ندى»، بعد أن تمكّن من الحصول على عملٍ هناك، الأمر الذي جعل «أشرف» هو الآخر يُفكّر بالانتقال أيضًا بعد أن توفيّت والدته، لقد أصبح أبًا لخمسة أطفال أكبرهم «مصطفى» الذي رُزق به بأوّل سنة له بعد زواجه من «هيفاء» وأصبح اليوم صبيًا بعمر الثالثة عشر، وأصغر أبنائه «نُهاد» بعمر السنتين. خلال هذا العام الذي مرّ علينا اتصلت «دُعاء» بـ «رهف» مرّاتٍ كثيرة لكنّها لم تكن تُجيب على اتصالاتها، كان يرن حتى تنقطع رنّة الهاتف ولا ردّ في الجانب الآخر فأرجحت أنّ الرقم غالبًا خاطئ، أوصت صديق «سيف»

الغـزّاوي بالبحـث عنهـا شـخصيًا وظـلّ الأمـر مُتوقّفًـا عنـد ذلـك الحـد. «عُمـر» اجتـاز أيّـام نقاهتـه بصعوبـةٍ بالغـة، كان يعـدّ الثـواني بـدل السـاعات لأجـل العـودة للنضـال، واليـوم يخـرج مـن بيتـه وعيـون صهيـون تحـرس هـذا البيـت الـذي لم يبـقَ أحـدٌ منهـم لم يكـن لـه يـدٌ في الكفـاح، يخـرج بيـده عـصى، فلـم يعـد قـادرًا عـلى المـشي لولاهـا، وفي كلّ مـرّة هـو يتـوكّأ عليهـا يتذكّـر آخـر حلـم زارتـه فيه «رهـف»، نصحـه «سـيف» بالانتقال نحـو (رام الله) هـو أيضًـا لكنّـه أبـى ذلـك، فبقـي بالقـدس هـو ووالدتـه وبقـي معهـا «وائـل»، فصـار أولاد «سـيف» و«عُـلا» يـتردّدون عـلى البيـت كلّ مسـاء للبقـاء مـع ابـن خالهـم الأكـبر. يعـود «عُمـر» بعـد الظهـر وقـد مـرّ عـلى مدرسـة «وائـل» والتـي في ظـل الأوضـاع صـارت أحيانًـا تفتـح أبوابهـا وأحيانًـا يتعطّـل كلّ شيء في المدينـة حتـى المـدارس فتُغلـق، يصـلان البيـت ويسـلّمان عـلى «غـادة». أيُّ وجـع تحمّلتـه هـذه العجـوز الستينيّة والحـقّ أنّ تفاصيـل وجههـا كأنّهـا لا تمـتّ بصلـة لسـنّ السـتين، إنّنـا نكـبر بهمومنـا، ونشـيبُ بأوجاعنـا، تلـك السـنوات لا تُفيـد بمعلومـاتٍ وليسـت عمرنـا الفعـليّ، أحزاننـا هـي الكفيلـة بحفـر تلـك التجاعيـد بأيادينـا ووجوهنـا، والكَـدر وحـده مـا يقـدر عـلى أن يُرهـق أرواحنـا فتشيـخ والأرواح عـادةً لا تشـيخ... يحكـي «وائـل» لجدّتـه عـمّا تلقّـاه في مدرسـته وعـن تفاصيـل يومه، وهـي تُتابـع باهتـمام وتركيـزٍ بالغـين، أحيانًـا تتذكّـر أيّـام دراسـتها هـي كذلـك وأحيانًـا تعـبر عـلى خيالهـا أشرطـة الذكريـات فـلا تستوقفها، أو أنّهـا لا تُعيرهـا اهتمامًـا فتُنفـث كغُبـارٍ عائـدةً لأدراج النسـيان المُؤقّـت. يـدقّ بـاب البيـت فيقـوم «عُمـر» مُرتكـزًا بيـده

علـى الجـدران حتـى يبلـغ البـاب ويفتحـه، ليجـد أنّهـا عمّتـه وابنهـا وأختـه «دُعـاء»، مـرّت أسـابيع عـلى آخـر زيـارة لهـم، والحقيقـة أنّ اليهـود صـاروا يمنعـون تنقلاتهـم خصوصًـا وأنّ «عادل»أسيرٌ سـابق. تركـض «تقـوى» و«سلسـبيل» وأختهـا الصغـرى «أحـلام» خـلال رواق البيـت بحثًـا عـن جدّتهـا، بينـما تتكاسـل والدتهـنّ وهـي تُعـبّر عـن إرهاقهـا بآخـر أسـابيع حمـلٍ لهـا. يجلس الجميـع، يسـتذكرون أوقاتهـم وهـم معًـا تحـت سـقفٍ هـذا البيـت، وكيـف لعمـلٍ أن يُبعـد ويُشـتّت أفـرادًا، ثـمّ تتذكّـر «دُعـاء» الأمـر الأهـمّ في زيارتهـا تلـك موجّهـة الـكلام إلى أخيهـا:

-تذكّرت... الأستاذة «رهف أدهم» تسلّم عليك...

-من؟

وسـؤاله لم يُقصـد كمـن لم يعـرف إجابتـه إنّـما كان كـرد فعـلٍ عـن مُفاجـأةٍ لم تكـنّ ضمـن مـا هـو مُتوقّـعٌ أبـدًا، خصوصًـا عندمـا يكـون الاسـم عُنـوان تسـارعٍ لنبـضِ قلبـك.

-«رهف» يا أخي...

-أين وكيف؟ متى؟ لم أفهم...

-ييـي، عـلى مهلـك... ألم أوصي صديـق «سـيف» بالبحـث عنهـا؟

-بلى...

-إيييـه، ذكّرتنـي بقصّتـه هـو الآخـر... المسـكين، مُنـع مـن البقـاء هنـا بالضفـة، كان مُقيـمًا هنـا طيلـة سـنوات دراسـته ودائـمًا مـا كان يـزور أقربـاءه هنـا وأحيانًـا يعـود لغـزّة حتـى اسـتطاع

كسب منصب عمل بأحد المصانع لكنّه مُسجّل في سجلات الساكنين لدى اليهود أنّه من ʻغزّةʻ مع الأوضاع الحاليّة لم يُحاول العودة لـ ʻغزّةʻ والآن بعد ما تمّ تجميد السجلات، اُتّهم أنّه مُقيمٌ غير شرعيّ وتمّت محاكمته وإعادته مُرغمًا للقطاع، المسكين فقد عمله الذي كان هنا...

-يا بنت لا تجننيني كمّلي كلامك بخصوص «رهف» وبعدين احكي عن لي انت عاوزه.

-دائمًا أنتَ هكذا يا «عُمر»، مُتسرّعٌ في كلّ شيء، أحكي لك عن الوضع وأنتَ لا تهتّم إلّا بمن تريد أنت أن تهتمّ بهم! والحقيقة أنّها لو كانت فعلًا تهمّك لما فعلتَ بها ما فعلت وتركتها مُعلّقةً بحبال أوهامك!

على صدى تلك الكلمات توقّف «عُمر» عن الإنصات، ولم يُكمِل سماع أيّ شيء تقوله أخته، ترك الصالة واختفى في غرفته مُغلقًا الباب وراءه، لكنّ «دُعاء» لم تهتم لذهابه بل تابعت سرد القصّة لوالدتها بخصوص صديق «سيف» ثمّ راحت تقصّ عليها قصّة أخت «علياء» صديقة «رهف»، والخطأ منها هذه المرّة إذ نسيت أمرَ «رهف» وراحت تسرد عن كلّ النّاس قبل بلوغ غايتها، ولربّما تعمّدت الإطالة حتى يهدأ أخوها ويعود سامعًا القصّة بالتفصيل كما تحبّ هي أن تسرد الوقائع والأحداث.

-إييه ياما... ايش د أخبرك... هاي «علياء» رفيقة «رهف» عندها أخت من أبوها اتزوجت هان بالضفة، قبل شهور مرِضت أمّها بغزّة، فقدّمت طلبًا لأجل أن تزورها هي وأولادها وزوجها، تخيّلي أنّهم منعوها من العبور نحو

القطاع، ولم يُحرَّر لها أيّ ترخيص، تخيّلي أنّهم سمحوا فقط لابنتها بعمر السبع عشرة سنة بالعبور نحو القطاع... بعد ذلك رجعِت قدّمت ع طلب تاني، انرفض كمان، ضلّت تقدّم طلباتها إلى غاية ما تمّ قبولُ الطلب وسمحوا لها بالمرور، سافرت إلى غزة وبقيت هناك شهرين من الزمن، عندما أرادت تقديم طلب لتعود لبيتها بالضفّة تمّ رفض طلبها، كرّرَت تقديم الطلبات بعدها لأزيد من شهرين، لكن دون جدوى، وزوجها ضلّ هنا بالضفّة وحيدًا مع ولدها الصغير، تخيّلي...

–وإنتِ مين خبرك كل هاذ؟

–«رهف» ياما... ألم أُخبركِ أنّ صديق «سيف» وجدها؟ صباح الخميس الماضي رن الهاتف، لم أكن أنوي الردّ فأنا أعرف أوقات اتصال أخوات «عادل»، دائمًا ما يتصلون صبيحة الجمعة ونلتقي في المساء غالبًا، كأنّ الهاتف لم يكفِ، آه على فكرة، حتى «هيفاء» صار لديها هاتف، ذكّريني أن أدوّن لكِ رقمها... فلمّا رن الهاتف، تفاجأت وخِفت أن أردّ فألقى أخبارًا لا تسرّ، ظللت على تردّدي حتى صمت الرنين، التفت لأعمالي بعدها، وأنا كذلك إذ به يرنّ مرّة أخرى، فأجبتُ، وجدتُه صوتًا لا أعرفه على الهاتف، سألتني هل أنا «دُعاء» لتتأكّد من أنّ الرقم صحيح، فسألتها من هي؟ قالت أنّها «رهف»، ما لاقيت حالي غير جلست ع الكنبة أمام الهاتف وبلّشت الحكي معاها، وعلى حكي حكي حكي يمكن شي ساعة أو أكثر...

بذلك الحين خرج «عُمر» من غرفته مُغتاظًا، مرّ بالصالة

فأطـلّ حانيًـا رأســه مُعلـمًا أمّــه بجملــة أنّــه ســيخرج، وســار بخطواتـه العرجـاء نحـو البـاب، وهـو يبحـثُ عـن عصـاه فسـمع «دُعـاء» تسترسـل في حديثهـا، فتوقّـف.

-زي مـا قلتلـك يامـا، أخبرتنـي أنّهـا قدّمـت عـشرات المـرّات لأجـل ترخيـص العبـور ولم يتـم قبـول طلبهـا، وبالطبـع لـن يسـتطيع كذلـك لا والدهـا ولا جدّتهـا القـدوم، تـزاولُ عملهـا منـذ سـنواتٍ بمدرسـةِ جباليـا، وانخرطـت بـوكالات غـوث ومسـاعدة اللاجئـين، أمّهـا سـافرت منـذ سـنوات إلى أوروبـا، تخيّـلي ظلـت لوحدهـا مـع والدهـا وجدتهـا... وجدّتهـا هـي الأخـرى، خرفـت، صـارت تنسـى كلّ شيء، حكـت لي أنّهـا ذات مـرّة بينـما «رهـف» بعملهـا خرجَـت مـن البيـت ظنًّـا أنّ المخيّـم لا يـزال عـلى حالـه قبـل سـنوات وأنّـكِ هنـاك! عندمـا راحـت تبحـثُ عنهـا قيـل لهـا أنّهـا خرجـت بحثـا عـن «أم أحمـد» وعنـكِ يـا أمّـي...

-وهل وجدوها؟

-آه، وجدهــا صبــيّ مــن المخيّــم، وكــردٍ لجميلــه ســجلته «رهــف» بالمدرســة بعــد أن كان منقطعًــا عــن دراســته...

-الحمـد لله أنّهـا وجدتهـا، تخيّـلي ذاك الحـزن الـذي كان سيَتسـلّط عليهـا لـو لم تجدهـا ووالدهـا مُعـاق، كانـت سـتُرجع الأمـر كلّـه عـلى كاهلهـا وتقـول أنّهـا السـبب في كلّ الأمـر...

هنـاك سُـمع صـوت بـاب البيـت قـد أُغلـق، فابتسـمت «دُعاء» لأنّهـا أدركـت بذلـك أنّ أخاهـا كان يسـمع حديثها عـن «رهف». إنّ الحـب يجعـل الإنسـان مُعاقًـا فكريًـا، ومريضًـا بسـقم الصـبر، ليـس الصـبر المُعتـاد، بـل أشـدّ أنـواع الصـبر عذابًـا لكنّـه لأجـل

الحبّ تجد المُحبّ يحتمل، فتلك التي انتظرت في ظل هذه الأزمة الوضع أن يتحسّن وتُجزى أخيرًا بمن أحبّها، أليس سقمها صبرًا واهنًا عن حب؟

أمضت العائلة ليلتها هناك لتعود في الغد إلى 'رام الله'، بينما بقيت التوأم «سلسبيل» و«تقوى» عند جدّتهما بعد طلب الأخيرة وهي التي اشتاقت لوجود صوت الأطفال بالبيت، رغم أنّ «وائل» أصبح ابنها الصغير المُدلّل، لقد أصابت حين طلبت من ابنتها أن تتركه يعيش معها ومع خاله فوجوده كان كفيلًا دومًا بامتصاص بعض الأحزان التي تتراكم عن الذكريات ما إن تمكث وحيدة بالبيت، وجوده بمثابة دواء يمنعها من الغوص بتلك الحفرة الكبيرة التي تُسمّى الذاكرة، وكان «وائل» ولا يزال الابن البّار بهم جميعًا.

مضت بضع ليالٍ على وجود الفتاتين عند جدّتهما، صباح اليوم اتصلت بهما والدتهما على هاتف منزل «سيف» فألبستهما جدّتهما معطفيْهما وراحت في أثر «قيس» الذي استدعاها لأجل الهاتف، هناك التقت «غادة» بـ «عُلا» وخاضتا في حديثٍ طويل. قُبيْل الظهر عُدن للبيت، وعادت «غادة» لكرسيّها المُزدحم بلفائف الصوف وأعواد الحياكة، جلسَت عليه وظلّت تحيك للفتاتين قميصين من نفس اللون الورديّ الفاتح. عندما انقضى وقت دوام «وائل» بالمدرسة قدم نحو البيت، وكعادته يُخبئ بجيبه مكعبات الحلوى ليُقدّمها لشقيقتيه وجدّته، يجلس قريبًا منهنّ ويفتح كُتبه ليستذكر ما درسه في المدرسة ويحلّ واجباته.

لم يعد «عُمر» للبيت باكرًا تلك الليلة، لقد كان كعادة

أيّ مُناضلٍ صاحب عزيمةٍ يهيم بين أزقّة المدينة ليُساعد في أيّ شيء يقدر عليه، يُقدّم ما يستطيع لأجل وطنٍ نُحاول تحريره ولو كُنّا ذوي علّة، فالإعاقة إعاقة الروح والقلبِ التي أصابت العالم وليست إعاقة أطراف المُكافحين منّا، تلمحنا بعِصيّنا وعكّازاتنا ونحنُ أقوى من عساكر العالم لو اجتمعوا لتحريرنا من هذه الحيّة... يجلس الواحد منّا وهو بعزّ الأوضاع تأزّمًا، يجلسُ وسط الاشتباك وأولئك الحمقى أمام عيونه، ما كان جلوسه إلّا لأنّهم أضعف من أن يجتهد في مقاومتهم ويقف على رجليه مُقدّرًا قوّتهم، إنّهم أضعف منّا بقلوبهم، إنّهم أضعف لأنّها ليست قضيّتهم، بل قضيّتنا نحن...

كاد الفجر أن يتغلغل وسط الليل مُمتصًّا لظلامه، استفاقت «غادة» من نومها وراحت تتوضأ لصلاة الفجر، افترشت سجادة صلاتها وكبّرت، سمعت باب البيت يُفتح وتلا ذلك إيقاع العصى على الأرض، فاستكان قلبها لأنّها أدركَت أنّ ابنها قد عاد، دعت الله له بالتوفيق، فلا مُوفّق لنا سواه، أتمّت صلاتها وسلّمت لتجده واقفًا يتأمّلها مُنتظرًا إيّاها أن تفرغ من الصلاة، قبّل رأسها وجلس أمامها.

-تقبّل الله منكِ يا غاليتي...

-آمين، أنتَ كذلك قُم وصلِ!

-أكيد، سأفعل... أودّ أن أسألكِ يا أمّي.

-اسأل يا قلب أمّك وروحها.

-ألم تشتاقي لأخي «عليّ»؟

-بلى... (قالتها والغصّة تزدحم بكلماتها) أيُّ أمٍ لا تشتاق فلذة كبدها يا بُنيّ؟

-تواصلتُ معه، وطلبتُ منه العودة...

-لماذا لم تتركه كما يشاء يا بُنيّ؟ أنا راضيةٌ عن ذهابه، حتى ولو كنتُ قُلتُ عكس ذلك عندما غادَرنا منذ خمس سنوات، لكنّه خياره وقرار حياته وأنا احترمته أيّما احترام... رأى في اللحاق بعمّه «محمّد» ما لم نره نحن، وكان ذلك عنده أجوَد حلّ... التجأ إلى لبنان، صحيح أنّ ذهابه ملأ أيّامي حزنًا لكنّني تعوّدت ورأيتُ أنّ ذلك أهون على قلبي من أن أراه يومًا هنا معطوب اليد أو القدم...

-تقصدينني ياما؟

-لا يا عزيزي... أنتَ لم تكن يومًا مثل «عليّ»، لو كان «عليّ» مكانك بنفس حالتك لفكّر في الانتحار بدل التفكير بمحاربة العدو، وأنتَ تعرفه أكثر منّي ربّما...

-معكِ حق... لكنّ اغترابه غيّره كثيرًا يا أمّي لو تعلمين... حتى ظننتُ أنّي أخطأت العنوان.

-كيف حاله؟

-بخير... تزوّج هناك وأصبح أبًا لطفلين، أوّل أيّام ذهب فيها بحث عن عمّي، وعمّي تكفّل به حتى اشتدّ عضده هناك، عندما كان يحكي لي لم أكن أصدّق الأمر، هل نفسه هو «عليّ» الذي كان مُدلّلًا بيننا؟ علمتُ حينها أنّها فعلًا الظروف هي التي تصقل الشخص منّا صقلًا...

-وعمّك وأولاده، هل هم بخير؟ منذ أعوامٍ فقدَت

«دُعـاء» التواصـل معهـم ولم أعـد أعـرف عنهـم شـيئًا...

-جميعهـم بخـير... تمنّيـتُ يـا أمّـي أن تعـود أيّـامٌ مضـت... عندمـا كنـتُ صغـيرًا يـا أمّـي أذكـر أنّ هـذا البيـت لم يعـرف السـكينة في لحظـة، لقـد كان صوتنـا يعلـو ونحـن صغـار، كانـت جـدّتي بيننـا، كانـت الغُـرف لا تكفينـا حـين نُريـد النـوم، كانـت عمّتـي «سُـعاد» تـأتي لزيارتنـا وتجلـب معهـا دومًـا الفواكـه التـي نسرقهـا مـا إن تُدخلهـا عـبر بـاب البيـت... اشـتقتُ يامـا إلى تلـك الأيّـام... كان والـدي هنـا بيننـا... كنـتِ أنـتِ يـا غاليتـي تبتسـمين كلّـما رأيتِـه يحمـل أخـي «عـليّ» وتقولـين لـه أنّـه سـيكبر مُدلّـلًا بيننـا، وبالفعـل كـبر ذلـك الشـقيّ كذلـك... كنّـا رغـم آلامنـا جميعًـا إلّا أنّنـا بوجودنـا معًـا نتناسـى كلّ الوجـع... مـن يـرى حـال البيـت اليـوم كيـف سـيُصدّق أنّ غُرفـه التـي التهمهـا الغبـار اليـوم كانـت تعـجّ قديـمًا بالنـاس! مـن يُصـدّق أنّ النـور كان لا ينطفـئ بالليـل فبعـد سـهراتنا تسـتيقظون أنتـم لصـلاة الفجـر؟ إنّ زوايـا هـذا البيـت تسـحبني لذاكـرتي العميقـة وإنّي لا أسـتطيع الهـروب عنّهـا يـا أمّـي... إنّي مشـلول... أعجـز عـن نسـيان بضعـة أيّـامٍ أمضتهـا تلـك الغالية عـلى قلبـي بيننـا... أعجز عـن إغـماض عينـيّ ليـلًا دون أن أرى خيالهـا، أراهـا بـين دقائـق صمـت أركان البيـت يـا أمّـي بشـعرها الذهبـيّ تطـوف في المـكان، أسـمع همـس صوتهـا كلّـما انقطعـت الكهربـاء وعمّـت السـكينة، تتسـلّل نـبرة صوتهـا بـين دقّـات السـاعة عـلى الحائـط، وحـين أكـون غاضبًـا أجـد سـكينتي مـا إن أسـمعها عـلى ذلـك الحـال... هـل أنـا مهـووس يـا أمّـي؟ الأمـر ليـس بيـدي، حاولـتُ عـدّة مـرّات معرفـة أيّ سـبيلٍ يُلاقينـي بهـا، لكنّنـي غالبًـا ضمـن قوائـم

اليهـود مـن الممنوعـين مـن أيّ تحـركات ومـن أدنـى حقـوق، لـو فقـط اسـتطعت معرفـة قبولهـا لتزوّجتهـا وكتبـت الطلـب لأولاد صهيـون مُختلفًـا هـذه المـرّة، لم أحـس في حيـاتي بالنّـدم يـا أمّـي عـلى أيّ شيء فعلتـه، إلّا بقصّـة «رهـف»... ندمـت عـلى ارتبـاكي وخـوفي مـن رفضهـا لي، فدفعـت ضريبـة ذلـك وجعلتهـا تدفعهـا معـي، ولا ذنـبَ لهـا في ذلـك... يـا أمّـي إنّي ذات يـوم همسـتُ لهـا باعـترافي، لكنّهـا لم تنتبـه لي، فأيـن الخطـأ مـن كلّ هـذا الأمـر؟

كانـت بحّـة صوتـه لوحدهـا كفيلـة بإيـلام سـامعه فكيـف بالمُنصـت لكلماتـه، والـذي عايشـها معـه. تُفضي حروفـه تحسّراتـه وعلقـمًا تشـبّعت مـن تجرّعـه روحـه. والدتـه تُحـاول تهدئتـه وهـي الأخـرى عـلى أحزانهـا تقـف مشـلولةً بـلا أمـل. يتحـدّث وقـد سـاءت حالتـه وصـارت الكلـمات تخـرج مـن فمـه بصعوبـة، وتهاطلـت عَبراتـه... إنّ الدّمـع لا يعـزّي قلوبنـا إلّا بعـد تراكـم الغصّـات واختناقنـا بهـا، كالنّـار لا تنطفـئ إلّا وقـد أتـت عـلى مـا أمامهـا، ورمـاد القلـوب أشـدّ سـوداويّة ممّـا تخلّفـه نـارٌ تلقـف كلماتنـا، تلـك النـيران التـي تندلـع بقلوبنـا جـزء بسـيط عـن جحيمنـا الـذي نُسـجن بداخلـه، أيـادي الذكريـات تسـحبنا لقـاع الجحيـم ونحـن عـلى استسـلامنا مـا لنـا غـير تقبّـل الأمـر، ذاكرتنـا وتفاصيلهـا أحجـارٌ تُشـيَّد حولنـا، ترتفـع فتحجـب عنّـا كلّ نـور وكلّ هـواء... مُخطـئ مـن قـال أنّ المـوت هـو فـراق الروح لجسـدٍ كانـت تسـكن فيـه، بـل إنّهـا تُفارقـه عنـد كلّ عتبـة كَـدر، مُبيحـةً بذلـك موتنـا بشـكلٍ آخـر، فنمـوت ألفًـا وسـبعين مـرّةً قبـل أن تخمـد روحنـا وتُسـافر سـفرتها الوحيـدة للسـماء... إنّنـا نمـوت عنـد كلّ فـراق، نمـوت عنـد كلّ ألم يُقطّـع قلبنـا ويصلـب

روحنـا...

قـام وأكمـل بـكاءه عـلى سـجادة صلاتـه، فـما عـاد يحـس بالـروح التـي نُفخـت فيـه بـل يعـدّ كـم طعنـة ألم بصـدره، مـن أبـاح الغيـاب ومفارقـة مـن يهواهـم القلـب فمثلـه كمثـل مـن أبـاح القتـل، الفـارق بينهـما أنّ أحدهمـا قـد يُدينـه العـالم أو ينـال جـزاءه والآخـر لا أحـد يهتّـم لـه ولمـا أبـاح مـن ألمٍ في القلـوب.

أشرقـت شـمس اليـوم، ولنـا في ليلـةٍ مضـت حنـينٌ لغائبـين، اسـتيقظ «وائـل» والتحـق بجدّتـه التـي كانـت جالسـة تسـتمع للمذيـاع في المطبـخ، أغـاني «فـيروز» عـن أرضنـا لا تشـيخ ولـو شـاخت القضيّـة وعرفـت مـن العمـر قرونًـا.

«لأجلـك يـا مدينـة الصـلاة أصـلّي... لأجلـك يـا بهيّـة المسـاكن... يـا زهـرة المدائـن... يـا قـدس يـا مدينـة الصـلاة أصـلّي... عيونُنـا إليـكِ ترحـل كلّ يـوم... تـدورُ في أروقـة المعابِـد... تُعانِـق الكنائِـس القديمـة... وتمسـحُ الحـزنَ عـن المسـاجد».

هـل أعـين العـرب يـا «فـيروز» تعانـق كنائسـنا وتمسـح حـزن مسـاجدنا حقًـا؟ عيـون العـرب عُميَـت يـا «فـيروز» عنّـا، آذانهـم صمّـت عـن صراخنـا، بـل إنّنـا مـا عُدنـا نـصرخ لأننـا نعلـم أنّ صوتنـا وإنْ بـحّ جـرّاء الـصراخ لـن يسـمعنا أحـد ولـن يهـبّ لنجدتنـا أحـد...

اسـتيقظ «عُمـر» وأيقـظ بنتـيْ أختـه ودخـل المطبـخ يحملهـما عـلى كتفيـه رغـم مشـيته العرجـاء، جلـس ليفطـر، مُتناسـيًا عيونـه التـي تـصرخ مـن كثـرة مـا ذرفـت هـذا الفجـر، يبتسـم لأولاد أختـه ويُمازحهـم، ولعـلّ هـذا سرّنـا في البقـاء مـع هـذه الحيّـة،

إنّنا ولو متنا فقبورنا تبتسم مُغيظة بذلك الاحتلال، إنّنا نبكي همومنا غسق الدّجى ونسناها ما إن تُشرق شمس اليوم وتتوهّج في كبد سمائنا، إنّنا لا نركع لُمستبدّنا، واقفون هنا مُتشبّثون بالحياة.

-إذن يا ابني، ما أحوال الأرض بالمنصوريّة.

-لا أعلم ياما... بالأصل منذ أحرقوها منذ سنوات ما عادت الأرض كما كانت، كأنّها تلومنا على النيران التي التهمتها... لم أذهب إليها منذ أن تركنا العمل فيها في يد «قيس»، والصراحة أنّي لم أعد أحتمل الوجود هناك وصاحبها قد فارق هذه الحياة، كلّ شبرٍ فيها يُذكّرني به، لكن لأجلكِ سأزورها عن قريب وأخبرك بالمستجدّات.

-خالو، ما بروح معاك هالمرّة؟ بناخد «سلسبيل» و«تقوى» معانا.

-مممم، لا أظنّ يا عزيزي... ليس هذه المرّة.

أسرّ «وائل» الحزن في نفسه ورضِي بقول خاله. الأوضاع منذ سنة لا تُبشّر بخير كثير فالخوف من الغوص في اشتباكات هنا وهناك أمرٌ يُؤرّق الأولياء ممّا يجعلهم أكثر حرصًا على أطفالهم... تدخّلت «غادة» بعد ذلك قاطعةً للأولاد عهدًا أنّها ستأخذهم هي بنفسها في زيارة إلى هناك عن قريب، وفي سرّها تدعو الله أن تستكين الأوضاع أو نتخلّص من الأفاعي التي تسعى بيننا بشكلٍ أو بآخر.

كان كلّ ما يجول في خاطر «عُمر» هي العمليات الفدائيّة التي صار المناضلون يتوغّلون بين الأراضي المحتّلة ويُنفذونها،

يُفكّـر أيّ الأمريـن أقـوَم حـالًا، الفـداء بروحـه أم محاولـةٌ أخـيرة للوصـول لحـب حياتـه، لم يكـترث مـن ناحيـة عائلتـه فهـو عـلى خـيرِ إدراكٍ أنّهـم بحمايـة الله ورعايـةٍ منـه، وهـو المتعـوّد عـلى البقـاء شـارد الذهـن إنّـما كانـت لغـة عيونـه هـذه المـرّة أكثـر غموضًـا وتيهًـا.

مـا إن مـضى عـلى بقـاء بِنتـيْ أختـه أسـبوع عندهـم، استشـار والدتـه بأخذهمـا إلى ’رام الله‘ ومنهـا سـتكون زيـارةً لهـا هـي أيضًـا ولـ «وائـل» إلى هنـاك. جهّـزوا متاعهـم وغَـدَوا صبـاح اليـوم التـالي نحـو ’رام الله‘. وصلـوا إلى ’قـراوة بنـي زيـد‘ حيـث تسـكن «دُعـاء» وزوجهـا «عـادل»، دقّ البـاب ولم تكـن «دُعـاء» عـلى علـم بقدومهـم، فتحـت وتفاجـأت بزيارتهـم لهـا، وكانـت تلـك الزيـارة الأولى لـ «وائـل» إلى بيـت والديـه بـ ’رام الله‘. لم يُضيّـع «عُمـر» الكثـير مـن الوقـت، فبعـد مُـضيّ أقـلّ مـن سـاعة كان قـد طلـب رقـم هاتـف «رهـف» وهـو جالـسٌ بيـده سـماعة الهاتـف ينتظـر أن تجيبـه...

-ألو.

ودبّـت بشرايينـه الحيـاة مجدّدًا وكان كمـن سِـيقَ إلى منبـع الحيـاة فـشرب منـه حتـى ارتـوى.

-«رهف»!

-مين معاي؟

-أنا «عُمر» يا «رهف»... «عُمر» ابن عمّتكِ «غادة».

ولم تكـن يـده وحدهـا ترتجـف، كانـت كلّ أناملـه كذلـك وحتى صوتـه، والدتـه وأختـه تنظـران نحـوه في اندهـاش فلـم يسـبق لهـما

أن رأوه على هذه الحالة أبدًا، لم تستطع والدته إلّا أن تبتسم ابتسامةً حانيةً على وجهها شحيحة الفرح مُنتشيةً به رغم شُحّه، والعبرات تتجمّع بمُقلتيها تتسارع لتنسكب تِباعًا على وجنتيها... أمّا تلك التي كانت في الجهة الأخرى من السمّاعة فلم يكن حالها أحسن منهما، وبعد صمتٍ نطقت كمن كان يُحاول عبثًا أن يستجمع قوّته:

-كيف حالكَ يا «عُمر»

-بـ... بخير... أنتِ كيف حالكِ؟

-الحمد لله، كما هو حال بلدكَ، فنحن كذلك مثلنا مثله... ما هي أخبار عمّتي و«دُعاء» و«عليّ»؟

-بخير، أمّي بخير وتُبلّغكِ سلامها، و«دُعاء» كذلك، أمّا «عليّ» فهو في لبنان، منذ أعوام ولا أسمع عنه إلّا نادرًا... وأنتِ ما حال والدكِ وجدّتك؟

-الحمد لله... على حالهما، كما تعرفهما...

-الحمد لله...

-كيف تذكّرتنا؟ وأنتَ الذي لم يعرف عنك أحدٌ شيئًا ولم يبلغك أحد ولو سعى إلى ذلك واجتهد؟

-فلتكوني عادلةً في سؤالك فلم ننساكِ حتى نذكركِ... إنّما سارت الظروف عكس ما اشتهينا... وتمنّينا لو أنّنا كنّا أسرع من الأوضاع بلحظات لتغيَّرَ حالنا وكان أحسن...

-...

-حسنًا... «رهف» لن أُطيل كلامي، حتى لا أزعجكِ... لم أتصل بكِ لغرضٍ غير الذي سأقوله، أعلم أنّي قد أطلتُ

حتى استطعت القول، لكن يُقال أنّ الوصول مُتأخرًا أهوَن من عدم الوصول أبدًا، وأنا ليتني لم أكن في هذا الوضع من الأساس. لا أُخفيكِ سرًا... كنتُ مرّةً حاولت الاعتراف لكِ لكنّني لم أنجح، وأظنّ همسي لشدّة خوفي حينها لم يبلغ مسامعكِ أصلًا... بعد عودتي من 'غزة' لم أستطع ألّا أُعلمك بأنّي أحببتكِ، والحبّ من عند الله، وإنّما هواكِ نُفخَ في قلبي نفخًا فما كان منّي غير الرضا لما قدّره الله... أعلمتُ أختي، وكنتُ أنوي بذلك أن أتقدّم بخطبتك، لكنّ الأوضاع آنذاك ساءت أكثر من اللازم، ولم أجد نفسي بعدها إلّا هائمًا لا أعرف منزلًا ولا ملاذًا! لقد أمضيتُ أسوأ أيّامي ولم يكن غيركِ بخيالي في حينها، كان حُبّكِ قدرًا وإنّي مؤمنٌ بقدري، ودعوت ألف مرّةٍ أن ألقاكِ وأن تمضي أيّام شقاء بلادي، وتعلمين حق المعرفة أنّ شقاء الوطن من شقائي، عرفتني يوم عرفتني شابًا غامض الملامح إنّما أدركتِ فلسطين بلون البنّ بعيوني، ولم أنس يومًا قولكِ ذاك حين قُلتِ أنّ الغريب عن البلاد لو رأى عيوني لعرف فلسطين دون الحاجة لزيارتها، أظنّ عيوني الآن صارت تعكس تفاصيل فلسطين أكثر من ذي قبل... مضت سنواتٌ يا «رهف»... بل مضى أكثر من خمسة عشر عامًا، ورغم ذلك لا زال طيفكِ ببيتنا كلّما ساد السكون فيه تظهرين، لا زال قلبي مريضًا بكِ ولا زلت أنتِ هي أنتِ كما يوم عرفتكِ ولو مهما غيّرت فيكِ السنون... لم أملّ يومًا انتظار حالنا أن يستقيم، أنتِ وفلسطين كلاكما سبب صبري يا «رهف»، أنتما سبب وقوفي يا «رهف»، وحدكما كنتما بقلبي حين أهمّ بطعن صهيّونيّ مُحتل، وحدكما

كلّـما تضاءلـت شـجاعتي أتذكّـر أنّي سـأُجزى بكـما فأقـوم مجدّدًا، لطالـما كان خيالـكِ وقـودًا لقلبـي يـا «رهـف»... وإنّي بحـقّ ربّـك لم أعـد أعـرف سـبيلًا للصّـبر أكثـر مـن هـذا... وقـد حكـت لـكِ مـن قبـل «دُعـاء» عنّـي الكثـير، وإنّي لا أشـكّ في أنّـكِ اليـوم تعرفينني أكثـر ممّـا أعرفـك... لا أعلـم أنّـى لي القـدرة عـلى التلفّـظ بـما في قلبـي مـن قـول....

-«عُمر»...

-نعم.

-إنْ قُلتَهـا تمـت، وإن لم تقلهـا تمـت، فقُلهـا ومُـت.... حـرّر هـواك يـا «عُمـر»، فالحـبّ بـات مُعلَنًـا...

-حسنًا... أتقبلينني زوجًا لكِ؟

-وقـد انتظرتُـكَ وانتظـرت ومـلّ الانتظـار منّـي وعجـز أمـام صـبري، وكنـتُ عـلى اسـتعدادٍ أن أنتظـرك حتـى تبلـغ هـذه الكلمـة شـفاهك وتحرّرهـا فأجيبـكَ قبـولًا... نعـم يـا «عُمـر» فـإنْ لم تكـن أنـتَ فمـن سـيكون غـيرك بعـد كلّ سـنوات انتظـاري...

***

فتـح بـاب غرفتـه وخـرج منها، عـرج عـلى الصالـة وأطفـأ النور الـذي كان يُنيرهـا، وعندمـا أوصـد البـاب خلفـه وسـار بخطواتـه لم يُـدرك أنّـه أطفـأ مـا يُنـير عتمـة البيـت بـأسره، اسـتدار بعـد أن أحـسّ شـيئًا مـا يجذبـه لفعـل ذلـك، ولمـح ظـلّ والدتـه وابـن أختـه عـبر النافـذة الصغـيرة المُطلّـة عـلى الشـارع. في آخـر حديـثٍ

لوالدته معه أدركَت أنّ كلامها لن يزيده إلّا إصرارًا، وأنّها وإن باتت تُحاول تهدئة براكينه لن تخمد نيران الجحيم بفؤاده، لم يعد هناك من أمرٍ يُبقيه على صبره، لم يعد هناك من مكانٍ في جوفه ليزرع فيه صبرًا ولا أن يسقيه أبدًا، كان مُنفعلًا مساء اليوم لدرجةٍ جعلت ابن أخته يحتمي خلف جدّته، لم يُطق حُكم اليهود برفض طلب مجيء «رهف» للضفة، وبالطبع ليس له الحقّ بأيّ تصاريح للعبور هو الآخر، أيْ أنّ اليهود وضعوه بين أعينهم وأقسموا ألّا يتركوه إلّا عقب تدمير روحه، يصرخ ملء صوته «بأيّ حقٍ تمنعونني عنها»، دموع والدته الحزينة على حاله لن تكفي لإخماد نيرانه.

-ألم أصبر يا أمّي أربعة أشهر مُنتظرًا قرارهم؟ ألم أفعل؟ ألم تمتدّ أيديهم إلى ’طولكرم‘؟ أيّ حقٍ يا الله، أيّ حقٍ؟ واليوم... ياما كيف فيكي تعيشي وهما دمّروا ناس ياما، ياما كيف راح أصبر ياما، محاصرين ’بيت لحم‘ وأبصر لي صاير في ’جنين‘ وفوق كلّ هاد مش راضيين يخلوا الناس تعيش ياما... مش راضيين طب ليش، ليييش يمنعوها من المجيء ليش، طيّب وأنا، لم أدخل سجونهم ولا بعرفها من وين جايبين عريضة عليّ وكيف حاطيني براسهم يا الله كيف؟ كيف؟!

استمرّ على غيظه مساءً بأكمله، يختفي لحظات بغرفته ويظهر أحيانًا وهو على توتّره لا يستكين بمكان وأيّ سكنٍ له أو سكينة؟

وُضع العشاء، جلس «وائل» يتناول طعامه، وجدّته أمامه تُحاول جعل أيّ لُقمةٍ تنزل عبر حلقها، وقف أمامها، وظلّ يُراقبها ووالدته تنتظر أيّ البراكين ستنفجر هذه المرّة كذلك،

ثم قال بصوتٍ هادئ تمامًا كما لو أنّه لا يعني ما هو يتلفّظ به :

-أنا طالع ع 'جنين'... إن ما رجعت، كونوا بخير...

عاد لغرفته بعدها، هل كان يُلملم الذكريات آن ذاك؟ ربّما كان يُحاول إشباع قلبه بها لتكفيه لأيّام الحنين التي سيلقاها... حالته لا يجد لها من وصف دقيق، قام دون إدراكٍ وراح ينظر عبر النافذة، لا بدّ أنّ كلّ ما هو فيه كذبة كبيرة، بل إنّ هذا العالم كلّه أكاذيب، من خرافات السلم إلى حقيقة الموت، كلّ ما بينهما كذب، الكون كلّه كومة نفاق وأكاذيب وقد تعب من الانتظار مُعلّقًا الآمال بتصديقه لها... مكث في غرفته حتى ظنّت والدته أنّه عَدل عن قراره، ثم خرج فجأة... سمعت صوت الباب يُغلق... حال نفسها يقول لا تُغلق الباب يا ولدي كي تعود إلينا... سارعَت هي و«وائل» إلى النافذة، يلمحونه وهو ظلٌّ يتلاشى بين ظلام الشارع، يعرج في مشيته وذاك ما يُذكّره بكلّ الآلام التي لقيها من الحيّة المُسماة صهيون... كانت ليلة أوّل أحدٍ من شهر نيسان العام الثاني بعد الألفين... لم يعد من يومها ولم تره حجارة شوارع 'زهرة المدائن' يخطو عليها خطواته الاستثنائيّة، راح 'جنين' ومكث فيها حتى خمدت نيرانها هي الأخرى ومن ثمّ إلى 'بيت لحم'، كانوا يعزمون على تشييد جدارٍ بطول سبعمائة وسبعين كيلومترًا، جعله الله يُهدم فوق رؤوسهم جميعًا، جدار العار أو كما يُسمّونه جدار الفصل القوميّ الذي عُميَ عنه كلّ سكان العالم، كانوا منشغلين بالتصفيق لذكريات هدم جدرانٍ أخرى ونحنُ نُطوّق هنا، كان يقف

«عُمر» من بعيد يُراقب حركة الجرّافات وهي تحفر بعمقٍ تحت ثرانا، وظلّ بليالي القيظ التي لحقت تلك الأشهر لا يهمّه من الأمر سوى فداء الوطن والانتقام له، حتى حلّ تشرين الأوّل، وكان يهمّ مُغادرًا تاركًا غيومه التي تجمّعت فوق سمائنا، وصل «عُمر» مستوطنة 'حلميش' بشمال فلسطين، لم تكن أوّل مرّة يُقدِم فيها على مثل هذه العمليات، لكنّها كانت الأخيرة، طعن صهيونيّين وراح يركض نحو آخر، في حين قدِمت سيارة مُدعَّمةٌ من خلفه، سمع صرير العجلات، وعلم أنّه في خطر، لكنّه خاطر كعادته، سحب سكينه المُضرجة بالدماء النجسة من تحت ذراعه حيث كان يُخفيها وطعن ثالث صهيونيّ، لقد كان سلاحه الذي حصل عليه ذات عمليّة من يد صهيونيّ في جيبه، كان يُفكّر في سحبه والتسديد به نحو السيارة، لكنّ راكبيها كانوا أسرع منه... تركوه جثّةً هامدة وسط دمائها الطاهرة، استشهد تاركًا وراءه كلّ ما كافح لأجله. استشهد يا فلسطين ابنك، ألن تُزغردي زَفَّ رُوحِه عند ربّه؟ دماؤه تلك لماذا تأبى إلّا البقاء أيّامًا على ثراكِ؟ حتى وأولاد صهيون يخال لهم أنّهم نظفوها! يا فلسطين ألن تُعلِمي أمّه بحاله؟ ألن تشفي غليل قلبها؟ أولادكِ المستشهدون بين إخوانهم تتخاطف الأيادي فيحملونهم لذويهم، أمّا المُستشهد بقلب عمليّة وفي قلب مُستوطنةٍ كيف لحيوانٍ صهيونيّ أن يترك لثراكِ الحقّ في ضمّه؟ ضمّي رُفاته بعد أسابيع من احتجازها يا فلسطين، ضُمّيها بعد تحريرها فقد أسروه حيًا وأسروا قلبه وأسروا أحلامه ويأسرون جسده وهو شهيد! ضُمّيه فقد نال كلّ هذا لأجلكِ، ضُمّيه فليس

لـه مـن أحـدٍ غـيركِ اليـوم وكنـتِ أنـتِ كلّ حياتـه... مثلـما وُلِـدَ مـن طينتـكِ يعـود إليهـا يـا مُقلـة أعيننـا التـي لا نملـك لهـا غـير الدعـاء والأمـل. شُـدّي عليـه فقـد تشـبّع مـن الظلـم فـوق ثـراكِ فعوّضيـه تحتـه أرجـوكِ...

كان يُـردّد في سرّه وهـو يفقـد بـصره تدريجيًـا وأحاسيسـه تخمـد أنّـه لم يتقـدّم لخطبـة «رهـف» أبـدًا كـي يكـون سـببًا لإسـكانها في حـزنٍ عـلى فراقهـا، بـل كـي تكـون نصيبـه في الجنّـة، مُتيقّـنٌ أنّ الله أرحـم مـن هـذه الدنيـا وأنّـه يُعوّضـه عـلى صـبره، لم يهـرب منهـا كـي يُحزنهـا أبـدًا بـل كـي لا يـترك في ذهنهـا تاريخًـا تربطـه بالفقـد فتعيـش أيّامهـا كلّهـا غـير مُدركـة ليـوم لُقيـاه بربّـه... استشـهد وهـي لم تُفـارق أبـدًا عقلـه، لم تسـمع المسـكينة خـبر استشـهاده، ولم تكـن بالأصـل تصلهـا أيّ أخبـارٍ عنـه، لقـد اعتزلهـا برغـم أنّهـا لا تملـك مـن ذنـب، لم يكـن قـادرًا عـلى مُواجهتهـا بإحسـاس الخيانـة وعـذاب الضمـير الـذي لم يكـن لـه فيـه مـن يـد، وهـو لم يكـن وفيًّـا لوعـدٍ قطعـه لهـا، عجـزه رمـاه في دوّامـة لا سـكينة لهـا فهـرب عـن الجميـع حتـى عنهـا هـي، لم يكـن عـلى اسـتعداد لمواجهـة نفسـه العاجـزة وذنبـه الـذي لم يقترفـه... ورغـم ذلـك لم يمـضِ يـومٌ لم تبكيـه فيـه، إلّا يـوم استشـهاده، شردت بتلـك الليلـة تتسـاءل لمـاذا لم تُمطـر اليـوم عيونهـا فـتروي وجنتيهـا، لكنّهـا عـلى غـير العـادة لامسـت راحـةً عجيبـة في ثنايـا فؤادهـا، ابتسـمَت بعـد أن لمحـت صورتـه مـا إن أغمضـت عينيْهـا وراحـت تُحدّثـه كمـن يُحـدّث طيفًـا «مـضى الكثـير يـا «عُمـر»، أشـهر عديـدة وأنـتَ مُختـفٍ، لم أعلـم عنـك أيّ شيء ولا أحـد يسـتطيع معرفـة شيء عنـك... لربّـما اليـوم بـالي سـيهدأ، مُطمئنـةٌ عليـكَ ولا أعلـم

سـبب السـكينة التـي نزلـت عـلى قلبـي بغتـة، غـدًا سـأتصل بوالدتـك، ربّـما هـي أدرى منّـي... أمّـا عـن هـذا المُحتـل، فهـو يركـض بيننـا، أراهـم يمـرّون كلّ سـاعة بـين الشـوارع، لقـد صرنا بـين يديهـم، هـل تُـراك علمـت حـالي أم لم تعلـم عنـه شـيئًا...».

-٦-

حين تعصف أقدارنا فإنّنا لا نملك لأنفسنا غير الرضا... تمامًا كما هو حالي... إنّي بالكاد أتذكرّ تفاصيل طفولتي التي شاء الله أن تكون بأيّام انتفاضة الأقصى، وُلدتُ بكانون الأوّل باليوم العاشر منه تمامًا، تخبرني أمّي أنّها كانت الليلة الوحيدة الهادئة بذلك الشهر، فكلّ الليالي التي سبقتها أو تلتها كانت عاصفة، أتيتُ بعد توأم بنتين «تقوى» و«سلسبيل» وكان أخونا الأكبر «وائل»، الذي لا أذكره إلّا زائرًا لمنزلنا لا مُقيمًا، كانت بيننا فجوة سنوات لكنّ تلك لم تكن تمنعه أبدًا من جعلنا نحسّ أنّه مهتمٌّ دائمٌ بنا، لم يسبق أن زارنا بيدين خاويتيْن، كان حتى قلبه عامرًا بالحب الذي لم يحرمنا يومًا منه، يُردّدُ على أسماعنا أنّنا أخواته مهما كانت المسافة بيننا، ذاك لأنّه يقطن مع جدّتي التي لم تقبل ترك القدس والعيش معنا هنا بـ ‹رام الله›، والآن ما يُبقيه أنّه أسس عائلته هناك أيضًا وتزوّج بالسنّة الثامنة خلف الألفين من «فيفيان» ابنة صديقة أمّي «ريتا». أعلمتني والدتي أنّهم انتقلوا إلى هنا بعد أن أتممتُ عامين من عمري، لكنّي رغم ذلك لا أذكر أيّ شيء عن ‹القدس›، ربّما لقلّة زياراتي إليها، رغم ذلك أحيانًا في مناماتي أرى بيتًا كبيرًا لا أعرفه كثير الغرف ومُظلم الزوايا، منذ أيّام استفقتُ ووصفته لـ «تقوى» فقالت أنّه بيت العائلة في ‹القدس›، لا أعلم أيّ الألاعيب تُحاول ذاكرتي العبث بها معي. برغم عيشنا في ‹رام الله› فإنّ والدتي

لهـا الكثـير مـن الصديقـات، كصديقتهـا «ريتـا» المقدسـية التـي تزورنـا كلّ شـهر، وصديقتهـا الغزاويّـة «رهـف» التـي مقـتُّ الاحتـلال الـذي يمنعنـا مـن رؤيتهـا، رغـم ذلـك فـإنّ والـدتي وعدتنـي إن تحصّلـت عـلى نتيجـة جيّـدة في دراسـتي ستُقدّم طلبًـا لنزورهـا عـن قريـب، وأعلـم أنّ الوعـد الـذي قطعتـه أمّـي ليـس بيسـير، الفضـول يقتلنـي حتـى أراهـا فهـي مجـرّد خيـالٍ بعقـلي، قالـت لي ذات مـرّة «سلسـبيل» أنّهـا كانـت خطيبـة خـالي لكنّهـا لم تسـتطع الحصـول عـلى تصريـح بالعبـور إلى الضفـة وإتمام مراسـيم زواجهـا، وذلـك كان سـبب ذهـاب خـالي ورحيلـه، أرى أنّ قصّـة ذهابـه لأجـل هـذا السـبب أمـرٌ خيـاليّ أو بـه بعـض الإضافـات بعـض الـشيء، فـلا أرى أنّ الأمـر قـد يُوصـل شـخصًا مـا إلى الهـروب مـن الواقـع والعيـش في زنزانـة الحـرب وحيـدًا، وهـو بالأصـل كان مُناضـلًا كـما يذكـر لنـا والـدي، وأعجـب كيـف أنّهـم جميعًـا نسـوه، أنـا لـو كنـتُ أذكـره لمـا نسـيته، لكنّـي لا أملك سـوى ملامحـه التـي وُثِّقـت بصـورة فوتوغرافيّـة تضعهـا والـدتي في غرفتهـا مـع أغـراض زينتهـا، تقـول لي دومًـا أنّ القـوّة والعزيمة تكمـن في اصفـرار أطـراف تلـك الصـورة القديمـة لخـالي، لا تمـلّ مـن إخبـاري أنّ عينـيّ تُشـبهان عينيـه لحـدٍ كبـير، خصوصًـا لـو دخلـتُ غرفتهـا وكانـت هـي تقـف قريبًـا مـن أغراضهـا، تُمسـكني مـن يـدي وتحمـل الصـورة وتسـألني ألَا أرى الشـبه؟ لكنّـي بالـكاد عقـلي الطفـوليّ يُحـاول إيجـاد التشـابه بيننـا. دخلـتُ المدرسـة الابتدائيّـة حـين اقتربـت مـن بلـوغ سـنّ السادسـة، كان الحديـث بتلـك السـنوات التـي أذكرهـا عـن جـدارٍ يُحـاول اليهـود تشـييده بـين الحـدود المزعومـة بيننـا وبينهـم، زوج عمّتـي الأسـتاذ

«أشرف» دائـمًا مـا يسـقي فضولنـا بأجوبـةٍ عـلى أسـئلتنا التـي لا تنتهـي، خصوصًـا أنّـه يـأتي لزيارتنـا كلّ مسـاء جمعـة هـو وعمّتـي، وأولادهمـا «مصطفـى»، «محمـد»، «عصـام»، «سـعد»، و«نهاد» التـي تصغـرني بسـنة، كانـوا دومًـا بمثابـة سـندنا الأخـويّ الدائـم. بالصـفّ السـادس لي وبعـد عيـد ميـلادي الثـاني عـشر بأيّـام، أُصيـب والـدي برصاصـة طائشـة، وكانـت إصابتـه بليغـة للحـدّ الـذي أنامـه طريـح الفـراش بالمستشـفى، قبـع هنـاك ثـلاث ليـالٍ سـويًا، واستُشـهد بعـد ذلـك مُتأثـرًا بإصاباتـه... إنّي أذكـر تلـك الأيّـام وكأنّهـا اليـوم، بعـزّ ذلـك الصقيـع الـذي حـلّ بذلـك الشـتاء، ربّـما كان تمهيـدًا لصقيـع سـيضرب أوصالنـا وفؤادنـا، صـادف يـوم رحيلـه بالـذات أوّل يـومٍ في شـتاء ذلـك العـام، يُقـال أنّ الأب نجمـةٌ ولرحيلـه تنطفـئ نجـوم السـماء، لكـنّ أبي كان قمـرًا ولم تصبـح فقـط سـمائي حالكـة الظـلام، بـل كلّ أيّامـي باتـت كذلـك... والـدتي بأيّامهـا الأولى لم تُصـدّق الواقعـة، عقلهـا الباطـن كان يُقـاوم الأمـر، تقـول أنّـه بـالأسر وتشـتم الاحتـلال أنّهـم أعـادوه أسـيرًا عندهـم، تسـتذكر أيّامًـا مضـت قبـل وجودنـا نحـن، أيّـام كان بـالأسر وأمـضى فيـه مـن العمـر عـشر سـنوات. كان بيتنـا بأيّـام العـزاء عامـرًا بالعائلـة كلّهـا، رغـم ذلـك لم أكـن أرى منهـم أحـدًا، كنـتُ أتحسّـس الفـراغ الـذي يتركـه فقـد أبٍ في جـوف فتـاة ذات اثنتـي عـشرة سـنة، أحـاول فهـم أبجديّـةٍ جديـدةٍ لم أكـن أعـرف معانيهـا رغـم سـماعي الدّائـم عنهـا، لم أعِ يومًـا كلمـة الفقـد حتـى فقـدت والـدي، هـل كان لزَامًـا أن أُعـزّى فيـه حتـى أفهـم معنـى الكلمـة يـا تـرى؟! خالتـي «رهـف» قدِمـت مـن غـزّة بعـد أسـابيع مـن الواقعـة، بعـد أن

بـدأت جراحنـا تندمـل جُزئيًـا، لم نفهـم كيـف تـمّ قبـول طلبهـا هـذه المـرّة، وحتـى هـي أتـت تحمـل دهشـتها بـين عينيهـا، أتـت وهـي تُـردّد أنّهـا تمنّـت لـو زارتنـا في ظـرفٍ غـير الـذي نحـن فيـه، يـوم دخلَـت بيتنـا مـع «وائـل» الـذي انتظرهـا بالمعـبر، كانـت أوّل إنسـانة ألمحهـا وسـط الغيـوم التـي تلتـفّ حـولي، جلسَـت أمـام أمّـي والتـي انفجـرت بُـكاءً كـما لم أعهدهـا مـن قبـل، أمّـي لطالمـا كانـت صبـورةً في نظـري وقويّـةً، لكـنّ وجـود «رهـف» جعلهـا تستسـلم لضعفهـا أمـام كتلـة الحـزن المُندسّـة بقلبهـا، لم نفهـم مـا كانـت تقولـه حينهـا، ظلّـت تبكـي بحرقـة طويـلًا، حتـى اقتربـت منهـا خالتـي «ريتـا» وأخـذت تُحـاول تهدئتهـا، إنّي أذكـر كلّ شيء كأنّـه أمامـي الآن وليـس البارحـة، أذكـر أنّي لشـدّة مـا كان بقلبـي صرت دائمـة الصمـت، فـلا تجـدني إلّا أتأمّـل مـا يـدور حـولي بهـدوء... كانـت أختـي «جنـان» وهـي أصغرنـا ذات خمـس سـنوات حينهـا تحـوم بالبيـت ولا تفهـم أمـرًا، أذكـر جيّـدًا أنّ «وائـل» كان يحملهـا عـلى ظهـره ويُبعدهـا كلّـما سـاء حـال والـدتي، بقـيَ أخـي وزوجتـه معنـا طويـلًا، كـما بقيـت «رهـف»، تلـك المسـكينة التـي علمـتُ فيـما بعـد مـن أختـي أنّ عائلتهـا استشـهدت أثنـاء العـدوان عـلى (غـزّة) قبـل ذلـك بسـنتين، عندمـا أخبرتنـي «سلسـبيل» أذكـر جيّـدًا أنّي سـألتها مـن هـم أهلهـا؟ وحـين علمـتُ أنّهـا لم تكـن تملـك غـير جدّتهـا ووالدهـا بكيـت، لأنّي أحسسـتُ بحرقـة فقـد الوالـد مـرّةً أخـرى، وتخيّلـتُ لـو أفقـد أنـا إحـدى جـدّتيّ... ظلّـت مـا يقـلّ عـن الشـهر، ثـم راحـت مـع جـدّتي إلى (القـدس)، وكان «وائـل» يـأتي أيامًـا ويغيـبُ أخـرى، فطلبـتُ منـه أن يأخـذني معـه إلى

«القدس» كذلك كمُحاولةٍ لنفث الرماد المُتفحّم عن قلبي. بقيتُ هناك أسبوعًا وعدتُ بعدها لأجد أخواتي ينتظرنني بأرواح مُشتاقة، حكيتُ لهنّ عن زيارتي لعمّتي «عُلا»، وعن أزقّة «القدس» ماذا حلّ بها، حكيتُ لهنّ عن ذلك اليهوديّ الذي أوقفنا أنا و«وائل» يسأل إلى أين تأخذنا أقدامنا وأجابه «وائل» بكلّ استحقار بالعبريّة، حكيتُ لهنّ عن ذلك الصبيّ الذي حكا لنا قصّته وضرسه ضاحكٌ لأنّه ببساطة سأل يهوديًّا عن الساعة فأجابه الأخير فردّ عليه الصبيّ أنّها إن اقتربت الساعة من تمامها أن «يبوس صرمايتو» يقبّل حذاءه، فأخذ اليهوديّ يركض خلفه ولم يستطع الإمساك به، أخبرتهنّ عن كلّ القصص التي سمعتها من «رهف» ومن جدّتي، عن شخصٍ اسمه «أدهم» وهو والد «رهف»، عن فقدٍ ألمَّ بحياتها وهي بقلبِ «جباليا» ولم تكن تشاء المبيت عند صديقتها لكنّ الأخيرة أصرّت على بقائها فلم تُشرق شمس الغد إلّا وبيتهم أنقاض، تحكي وعيونها تفيض من الدّمعِ كيف راحت تركض كمجنونةٍ وسقطت على الأرض صارخةً حين رأت بيتها كومة حجر، كيف كانت تنبش بأظافرها ذلك الركام باحثةً عن والدها المُعاق وجدّتها الطاعنة في السن، ومن فرط إعيائها أغميَ عليها، واستيقظت على جسديها أمام عينيها مُغطيين بما وُجد من لحائف، عندما كانت تحكي كنتُ أنا أيضًا أبكي ولو أنّي لم أعش الأمر ولم أستطع تخيّل الكم الهائل للألم بوقتها، لكنّ قلبي كان مُنقبضًا وروحي ذليلة، حين سمعت قصص ألمها هان عليّ فقدٌ أتخبّط فيه، حين سمعتُ عن حكايتها كلّها علمتُ أنّ حُزني

ليس كحُزنها، سألها أخي أيّن صارت تعيش فأخبرتنا أنّها طوال سنوات ساعدت صبيًّا وجدته حتى صار شابًا، وهذه المرّة كان دوره هو في مساعدتها، أخبرتُ أخواتي أنّ عيونها عسليّة وليست كما رأيناها يوم أتت عندنا، بل هي أصفى من ذلك بكثير، الألم هو ما يُذيب لمعة عيونها، فحين كانت تتحدّث عن خالي رأيتُ لونًا جديدًا لعيونها لم أكن قد رأيته من قبل، فأيقنتُ أنّ الذبول الذي أتت وهو على عاتقها يوم زيارتنا كان سببًا حال دون رؤية لون عيونها الحقيقيّ... لقد فادتني زيارتي تلك للقدس كثيرًا، ويوم كنتُ عائدة كان «وائل» مشغولًا، فأرسل «مصطفى» بداله، بيومها اقتربتُ من ابن عمّتي أكثر من ذي قبل، وحكيتُ له بطريقتنا عن كلّ همومي التي تتوسّط رأسي، وكان هو حديثَ الخروج من أسرٍ دام أربع سنوات ذاق فيه الويلات من اليهود، ساعدني الحديث معه كثيرًا، وصرتُ من حينها دائمًا ما يتصّل بي يسأل عن أحوالي وأخبره مستجدّات حياتي ويُساعدني في أغلب مشاكلي، جاء كتعويضٍ لي عن بُعد أخي وفقد والدي، «مصطفى» جاء كشفاءٍ لجروحي وكشيءٍ يملأ عتمةً حاولتُ الاختفاء وسطها والانكماش بالحزن المُركّز فيها.

2014 (08 أيلول)

جالسة أنا وسط كلّ ذلك الضجيج الذي أسمعه داخل رأسي عن التفكير، أفكّر في آلاف القصص التي مرّت على عقلي، غدًا يوم خطبتي لابن عمّتي «مصطفى»، نِعم الأهل ونعم الصديق ونعم السند لي... جلستُ أتذكّر كلّ ما مضى عليّ من أحداث، ثم فتحت هاتف والدتي واتصلت بالإنترنت أسأل عن «رهف» التي منذ حصولنا على هاتف محمول لم نبخل يومًا عليها باتصال أو سؤالٍ عن حالها، وإنّي بعد كلّ ما عرفته عنها أراني أتقاسم معها أوجاعًا عدّة... رغم كبر سنّها بأشواط عديدة بالنسبة لنا، لكنّها لم تكن بالنسبة لي ولأختيّ سوى نِعم الصديقة، بل الأصحّ أنّها كانت صديقتنا جميعًا من أمّي إلى أختي «جنان»، ولا أعلم هل نحن البنات من كبرنا سريعًا حين غلّف الحزن أيّامنا أم أنّ علاقتنا بها مبنيّة على أساس نفس الغصّة ونفس الألم فمِلنا على أكتاف بعضنا البعض... أسأل عنها وكثيرًا ما أسألها عن تفاصيل تخصّ غزّة والوضع السياسي هناك، أمرّر المعلومات التي أتحصّل عليها إلى «مصطفى» فهو كاتبٌ ولا يُريد غير القضيّة الفلسطينيّة منبعًا لكتاباته، كان الفضل يرجع إلى «رهف» في إخباره تفاصيل انسحاب اليهود من القطاع بالسنة الخامسة بعد الألفين وكذلك حول الانقلاب الذي حدث في (غزة) بأيّام كان هو أسيرًا بسجون الاحتلال، أخبرته بخصوص تداعي الأوضاع وسيرها نحو طريقٍ

انحـرافيّ، ومُطالبـة النـاس بإجـراء اقـتراع، وقبـول حركـة فتـح التـي كانـت تحكـم البـلاد إجـراءه لثقتهـا أنّ النّـاس لـن يختـاروا تغيـير شيء، وسـار الأمـر عكـس ظنونهـا، فتحصّلـت حمّـاس عـلى أغلبيّـة الأصـوات، ممّـا جعـل فتـح تحـسّ بالإحبـاط وتمتنـع عـن التخـلّي عـن المراكـز العسـكريّة، ممّـا أشـعل فتيلـة الانقـلاب... نقلـتُ عـن «رهـف» كلّ مـا تُمليـه عـليّ مـن معلومـات، فكتـب «مصطفـى» بفضـل ذلـك عديـد النصـوص والمقـالات عـن الأوضـاع والأزمـات، أصبـح قبـل شـهورٍ مسـؤولًا عـن صفحـةٍ بمجلّـة إلكترونيّـة تُعنـى بالقضيّـة، وكان لـه صديـق مُسـاندٌ لـه، فلـم يبخـلا بحروفهـما بـشيء.

إنّي أكثـر فتـاة سـعيدةٍ لخطبتهـا لأنّي جُزيـت بـ«مصطفـى» بعـد كلّ هـذا الكـمّ مـن الكَـدر والأسـى، جـاء كنسـيم مـن نافـذة الأمـل تُذكّـرني أنّ الفـرح موجـودٌ أينـما أرَدنـا لـه أنْ يكـون فقـط علينـا أن نُمعِـن في النظـر ونقتـات الصّـبر، وأقـول أنّـه لـو لم يكـن كاتبًـا لتمنّيـتُ أن يكـون كذلـك، فـإنّي أهـوى قـراءة نفسي بـين كلماتـه والغـرق في بحـر حروفـه... منـذ سـتة أشـهر اعـترف لي أنّـه يحبّنـي، لم أتقبّـل الأمـر، أذكـر جيّـدًا جـوابي حينهـا، قلـتُ لـه وسـط دهشـتي: «ليـس عـدلًا ألّا أبادلـك نفـس المشـاعر... ومـا أكنّـه لـكَ بقلبـي مجـرّد حـبٍ بـريء، كحبّـي لأخـي «وائـل»، لا أسـتطيع يومًـا أن ألمحـك بغـير نظـرتي هـذه، سـأكسر نفـسي لـو فعلـت، سـأخدش روحـي وأنـا التـي خِلتُـك دومًـا بمقـام أخـي...».

لم يتقبّـل جـوابي ذلـك، كـما لم أتقبّـل أنـا الفكـرة، وبنفـس الوقـت كان ضمـيري يُعذّبنـي اتجاهـه، أحكـي لـ«تقـوى» و«سلسـبيل»

أنّني أحسّ بتأنيب الضمير وأذكر تلك الليلة تمامًا كما لو كانت البارحة حين سألتني «سلسبيل»:

-ما بكِ عابسة الوجه هكذا؟ لا زلتِ تُفكّرين فيما قاله لكِ «مصطفى»؟

-وكيف لي أن أنسى يا «سبيلا»... إنّي كلّما خِلتُ نفسي مكانه أحسّ بغصّة تخنقني، أكاد أكره نفسي...

-ليس ذنبكِ...

-ولا ذنبه هو!

-صحيح... الحبّ لم يكن يومًا قرارًا نتخذه، بل إنّه رزقٌ من الله، ولو كانت مشاعر قلوبنا بيدِنا لكان الأجدر بنا اختيار من يستحقها بالفعل... لكنّها ليست بيد أحد غير الله... رغم ذلك هوّني عليكِ... مُؤكدٌ أنّه لو علم حالتكِ عقب كلامه لما هان عليه الاعتراف ولأسرّها في نفسه...

-وهناك سأموت أكثر يا «سبيلا»... بربّكِ كيف لا تحزنين حين تُدركين أنّكِ عنوان الحبّ لأحدهم وأنتِ لم تفكّري يومًا فيه...

-ألم تفكّري لعلّ قلبكِ سيُحبّه؟

-بل إنّي أحبّه لكنّ حبّي له لا يتعدّى حبًّا أخويًّا...

-كفاكِ هلوسة... من أهداكِ عمرًا مُنتظرًا إيّاكِ، كيف بربّك لا تُحبينه؟

وكانت أختي «تقوى» وقت ذاك مخطوبة لأحد أبناء جيراننا، أمّا «سلسبيل» فقد كانت «رهف» تُلمّح دائمًا أنّها تريدها قريبةً منها فعلمنا أنّها تُريدها لأحدٍ من معارفها

بالقطـاع... أرسـل لي بنفـس الليلـة «مصطفـى» خاطـرةً كتبهـا عنّـي، وإنّي لم أحفظهـا بـل حروفهـا هـي مـن حفظتنـي، لربّـما كانـت كلماتـه هـي مـن أسرتني، فـأن يقـع كاتـبٌ في حبّـكِ فاعلمـي أنّـكِ رائعـةٌ مـن روائـع فنـان، كلوحـةٍ لرسـام قـضى سـنواتٍ لرسـمها أو كمقطـعٍ مـن أغنيـة اسـتنزف مـن ملّحنهـا عقـودًا لإتقانـه، كذلـك كاتبـكِ سـيقضي قرونًـا يُحـاول كتابتـكِ بـكلّ جوارحـه ولـن يقـدر... قـال لي في رسـالته يومهـا:

«بـكلّ أحوالـكِ سـأحبّك... لا تُغرينـي انعكاسـاتك أو ظلالك، مـا أنـا بمـرآةٍ إنّـما رُبـعُ جـدارٍ يـكاد ينقـضُّ مـن ثِقـلِ مـا حمـل، فلـو أُثقِلـتُ همًـا وكَـدرًا لـكان عـليّ الأمـر أهـون، إنّـما مِحـنُ الهـوى عـليّ تُسـتصعب... بُليـتُ بهـواكِ عـلى أيّ حـالٍ وكيفـما تكونـين أهـواكِ، ولـو بُدّلـت الأرض غـير الأرض والسـماء غـير السـماء لا أبـغِ غـير رِضـاكِ... ليـس في الأمـر مـن ريـبٍ فـإنّي مغـرومٌ لـولاَ رحمـةٌ مـن عـالم الغيـب، هـي كلمـةٌ قالهـا لـكِ هـذا القلـب، احفظيهـا بالركـن الأوّل عـلى الزاويـة اليـسرى مـن قلبـك، أنّي بحـقّ ربّـك أحبـك وليـس لي حكـمٌ عـلى قلبـي وليـس بيـدي حيلـة».

تـرك رسـالته لي، تركنـي أردّدهـا طـوال ليلتـي تلـك، ومـن حينهـا أحببتـه...

أفقـت عـن شرودي حـين دخلـت «جنـان» وتذكّـرت أنّ الهاتف المحمـول بيـدي وأنّي نويـت مُراسـلة «رهـف»، سـألتني أختي:

-إيش يا عروس... مش راح تنامي؟

-عم اتذكّر الأيام اللي فاتت عليّ.

-يـوووه يـا قلبـي انـتِ... يـا رب يكمّلـكِ عـلى خـير... بـس لازم تنامـي عشـان بكـرا يومـكِ.

حضنتهـا شـقيّتي الصغـيرة وابتسـامتي عـلى محيّـاي، سـألتُ عـن أحـوال «رهـف» فاتصلت بي عـلى الفور.

-لم أستطع إلّا سماع صوتك يا عزيزتي... ما أحوالكِ؟

-متوتّرة...

-أمـرٌ عـاديّ يـا عزيـزتي... عـلى فكـرة، إيـش رايـك أخطـب منكـم «سـبيلا».

-ههههـه، أخـبري أمـي ومـا أدراني أنـا، ههـهـه، بالـكاد سرتُ خطـاي الأولى في الحـبّ وكنـتُ لــ «مصطفـى».

-أعلمتكِ فقط حتى لا تلوميني بسرقة أختك منكم...

-مش د ألومك بس بمين؟

-بــ «رسـتم»... راح اسـألها إن وافقـت تيجـي هـان لـ ’غـزّة‘ نتونّـس ببعـض.

-إن شاء الله... يعني أردتِ اغتنام الفرصة على ما يبدو.

-آه أكيـد بـما أنّـو الفـرح زار بيتكـم فقلـت خـلي الفـرح يكـون فرحتـين...

-إن شاء الله يا رب. ليتكِ هنا معنا يا «رهف»...

-تعلمـين يـا عزيـزتي... تعلمـين أنّي قدّمـت طلبًـا لأجـل ذلـك لكـنّ قبولهـم اقتـصر عـلى الأعـراس ومـن نفـس العائلـة فحُرمـتُ مـن رُؤيتـكِ بيـوم خطبتـك... لـن أتخلّـف عـن يـوم عرسـك لـو اسـتطعت الحصـول عـلى ترخيـص... للأسـف بعـد الحـرب الأخـيرة عـلى القطـاع تعرفـين أنّ اليهـود يشـدّون خنقنـا عقـب

كلّ معركـة أكثـر...

-آه صحيح، طمنيني، ساروا على الهدنة؟

-الحمـد لله، الوضـع هـادئ إلى حـدّ الآن... يـلا د اخليكـي هسـة، مـا تسـهري كتير عشـان تكـوني بكـرا مصحصحـة بيومـك يـا حلـوة.

-بإذن الله... في أمان الله...

استـلقيتُ عـلى فـراشي، وتابعـتُ بعينـيّ أختـي «تقـوى» حـين دخلـت الغرفـة ونمـتُ بعدهـا ولم يُحالفنـي الحـظ بمعرفـة سـبب دخـول أختـي بالأسـاس...

صبـاح اليـوم، كنـتُ عـلى أتـمّ اسـتعداد، هـل سِيء التقديـر حين ظننّـا أنّ ذاكرتنـا لا يملأهـا سـوى القـرح والأسـى؟ فالذكريـات التـي تجمّعـت بهـذا اليـوم في عقـلي أطفـأت جمـر الحـزن القديـم ونفثـت الرمـاد كأنّـه لم يكـون... نسـيتُ عُمـرًا عشـته حزينـة القلـب، تذكّـرتُ أنّ هـذا الـذي يقـف اليـوم أمامـي بيـده خاتـمُ سيكسـو بنـصري الأيـسر، هـو بالـذات مـن كنـتُ أحكـي لـه عـن كلّ تفاصيـل أيّامـي، كان مـلاذي في كلّ أوضاعـي، وسـندًا واليـوم يقـف نـدًا للوفـاء، عينـاه تقـول أنّـه أحـبّ فـكان عـلى حبّـه ثابتًـا وأنّـه وعـدَ فـأوفى وأنّـه لـو لم يكـن وفيًّـا فلمـن غـيري سـيهب مـا بـين الضلـوع... لأوّل مـرّة اسـتطعت النظـر إلى عيونـه، فرأيتُنـي فيهـا، ابتسـمتُ وظـلّ قلبـي مُبتـدئ الخُطـى يحبـو نحـو الفـرح. كيـف أنّ سـعادتي بـه أنسـتني حـزن الفقـد الـذي كُتـب عـليّ وأنسـاني شـقاء بـلادي وحزننـا عليهـا. ألتفـتُ يمينًـا فـأرى أمّـي ببسـمتها التـي تُعيـد لي الحيـاة بيدهـا «لـؤي» ابـن أخـي صاحـب الأربـع سـنوات، جـدّتيّ اللتـين أكلـت السـنوات مـن عمريهـا مـا

قـدرت عليـه، أخـواتي وأخـي وسـعادتهم لم أر مثيـلًا لهـا مـن قبل، وخلفهـم صديقـة أمّـي «ريتـا» المسـيحيّة وابنتهـا زوجـة أخـي «فيفيـان»، ابنـة عمّتـي وهـي صديقتـي المقرّبـة وبنفـس الوقـت أخـت «مصطفـى» «نهـاد»، عـمّاتي «هيفـاء» «عُـلا» و«نـدى»... إنّي لم أر فرحًـا بعيونهـم منـذ عرفـتُ خطـواتي بهـذه الدنيـا بقـدر اليـوم...

بالأيّـام القليلـة التـي تَلـت خطبتـي التقيـتُ بـ «مصطفـى»، كنـتُ مـع أختـي «جنـان»، اشـترى لنـا المثلجـات، فاختارتهـا «جنـان» بطعـم الليمـون بينـما فضّلـت أنـا الفانيليـا سـاعيةً كعادتي للـون الأبيـض في كلّ شيء عسـى بهجتـه تغـدو لحافًـا أكسـو بـه ذكريـاتي. طلبَـت «جنـان» أن تحصـل عـلى المزيـد فأعطاهـا «مصطفـى» ثمنهـا وأرسـلها تشـتري أمـام ناظرنـا، رفعـتُ حينهـا عينـيّ أتبـع خطواتهـا، ثـم اسـتدرتُ نحـو «مصطفـى» وقلـتُ:

-كم كنتُ أتمنّى أن يعشقني كاتب.

حدّق بي يستطرد كلامي.

-كـي أسـعد في كلّ مـرّة يكتُـب فيهـا غـزلًا يقصـدني فيـه وتقرأه جميـع قارئاتـه ويعلمـنَ أنّنـي أنـا وحـدي المقصـودة.

ضحك من قولي ثم سألني:

-إذن أنتِ تُريدين إغاظتهنّ ليس إلّا!

-ممم، ربّما.

هممـتُ باسـتكمال قـولي مُحاولـةً إيصالـه للمعنـى الـذي يـدور بعقـلي لكنّـه أوقفنـي بعـد أن مُسـحت الضحكـة عـن شـفتيه:

-أحـلام! أتعلمـين... واقعنـا هـو الـذي يجعـل منّـا كتّابًـا

ومثقفّين... تلك الغصّة بقلوبنا، ذاك الاضطهاد اللعين... كلّها تحتّم علينا أن نُصافح الجريد وأن نحمل أقلامًا تُعيننا على فضح ما خبأناه خلف الوتين، صدّقيني لو ما حالنا الذي عايشناه لما رأيتِ كتّابنا بهذا المستوى، إنّ الأدب الفلسطينيّ وليد رحم الظروف، فغدا أحسن بكثيرٍ من الباقين، هل أدركتِ مقصدي يا «أحلام»؟

أومأتُ رأسي إيجابًا فتابع:

-هل تظنّين الآن أنّ محمود الدرويش وغيره من أبنائنا لم يتغدّوا على الحنظل بدل طعامهم؟ بل كانوا يتجرّعون كؤوسًا من الألم حتى صُقل حرفهم وجادوا علينا بما لا نشبع من قراءته... إنّي أحسّهم خلائف الأنبياء على أرضنا حين يكون الكاتب كاتبًا حقًا فإنّه مؤكّدٌ أنّه لن يكون غير كذلك...

تذكّرتُ حينها قول «سلسبيل» أنّ الكتابة نابعةٌ من المعاناة وأنّه لا يوجد كاتبٌ عميقٌ بكتاباته وفخم إلّا وله سببٌ ودافع خلف كلّ ذلك، فالمعاناة تُولّد الموهبة التي لا تعرف نضوجًا إلّا على نار التجربة... ابتسمتُ وأنا أتابع خوضه في غمار الحديث عن الكتابة والكتّاب، وشردتُ في طريقة حديثه وتلك الكاريزما التي تُحيط كهالةٍ به... تحدّث عن بعض أساليب الكتابة التي سيحاول تجريبها مُستقبلًا، ثمّ حكى لنا عن شاب كان أسيرًا معه بأيّام أسره، كان شاعرًا كلّما طغت عليهم الظّروف واستاؤوا منها تلا عليهم قصيدةً تبعثُ في قلوبهم الحياة مجدّدًا، هناك علمتُ أنّه يُريد القصد أنّ هناك من بقولِه يبني أممًا وهناك من لا يسعى إلّا لرصّ الكلمات في

جمـل... سـألته ونحـن في طريـق عودتنـا للبيـت:

-هـل تعلـم يـا «مصطفـى» مـا الاسـم الـذي أتمنّـى أن أسـمي أوّل بنـاتي بـه؟

-مممم، لا، ما هو؟

فابتسمت «جنان» مُعلّقةً أنّها تعرف الاسم.

-سأسمّيها «غزل».

-وإن كان صبيًا؟

-مممم، سأسمّيه «آدم».

-لماذا لا تسمّيه على اسم جدّك «رامز»؟

-ممـمـم، لا أعلـم، أحـب اسـم «آدم»... مـا الـذي ذكّـرك بجـدّي؟

-ههـهـه، يـا لـه مـن سـؤال... أنـا ابـن تلـك العائلـة يـا «أحـلام»، كلّ تفاصيلهـا وكلّ حكاياتها أنـا أحفظهـا عـن ظهـر قلـب... حكايـات المـاضي تعيـش بدمـي حتـى ولستُ أنـا الـذي عـاش تفاصيلهـا... أذكـر أزقّـة القـدس حتـى لـو باعـدني عنهـا ألـف ميـل، خيـوط عقـلي معقـودةٌ عليهـا وعـلى ذكريـاتٍ عايشـها أهلنـا هنـاك... دروب اليـوم لم تكـن تلقائيّـةً بـل هـي طـرق سـنين المـاضي يـا «أحـلام»...

عندمـا تُنصـت لكاتـبٍ فإنّـك تغـوص في بحـرٍ لُجّـي ولـو كنـتَ جاهـلًا بالسـباحة، سـينقلكَ بكلماتـه إلى عالمـه الـذي يعيشـه، فكلّنـا لنـا عـوالم بداخلنـا، لكنّـه هـو وحـده الـذي يتمكّـن مـن جعـل الكلـمات بوابـةً لنـا إلى عالمـه ويفتـح لنفسـه نوافـذ إلينـا... إنْ عشـقكِ كاتـب فأنـتِ مُخلّـدةٌ كإحـدى منحوتـات الإغريـق

العريقة، مهما مرّت بكِ العقود سيتذكّركِ الناس ما إن يلمحوا اسمكِ، نادرون هم من خلّدتهم النساء، النساء لا يُكسبنَ الخلود بل تجعل من أحبّته يعيش حياته بأتمّ معناها فيحسّ بمعاني الخلود كلّها في حياةٍ واحدة، أمّا الرجال فبإمكانهم لو ملكوا قلمًا جعلكِ تعيشين ألف سنةٍ بعد أن يرثوك رثيًا. أشرتُ بيدي مودّعةً «مصطفى» حين أوصلنا للبيت ودخلت، سمعتُ صوت عمّتي «عُلا» بالبيت ما إن فتحتُ الباب، احترتُ وسألت «جنان» هل كان لديها علم بقدومها فأنكرت وسبقتني لتُسلّم عليها وعلى ابنتها التي هي بنفس عمر «جنان». جلستُ معهما فعلمتُ من حديثها أنّها تشتكي لأمّي عن ولديها «محمود» و«قُصي»، لأنّ كليهما يسير بعيدًا عن الآخر، فأحدهما التحق بحركةٍ تحرّريّة والآخر بأخرى.

-أنا لي ما فهمتو يا «دُعاء»، كيفَ أنّ كلاهما ولداي تربيَا على نفس اليد، وكانا أقرب لبعضهما منّي دوام طفولتهما، كيف استحالت الكلمات بينهما فقط لأنّ أحدهما يسير بمنهجٍ سياسيّ معيّن والآخر يُعارضه... أجمعهما بغرفة واحدةٍ بعدَ ألف قسم ويمين، فهما لا يقابلان بعضهما بتاتًا، أحاول توقيرهما ألَستُما الاثنين تريدان النجاة لبلدكما؟ يصمتان كجواب نعم عن سؤالي، أحاول فهم الخلل أين يكمن، وتنتهي حصّة التوقير بعد رفع ضغط دمي وهما الاثنين وكأنّهما لم يحدث شيء أو كأنّهما لم يسمعان أمرًا أبدًا... تعبتُ يا «دُعاء»... حاول كذلك معهما «سيف»، يحكي لهما أنّه لطالما كان مُناضلًا لأجل فلسطين ولم يكن تحت لواء أحد، فكيف

الآن بعدما أنشأوا أحزابًا يكونان ضدّ بعضهما وهما يُناضلان ابتغاء نفس الأمر، ولا يهتمّان لقوله أبدًا، أخواتهما يكدنَ أن تُجنّ... آخ ايش داحكيلك لأحكيلك، أسأل الله الصبر على هذا البلاء...

-صحيح... أن يكون ولداكِ على خصام لا أساس له ولا لزوم أمرٌ مُحزنٌ بالفعل... أتذكّر عندما كانا صغيرين كانا لا يفترقان أبدًا... سبحان مغيّر الأحوال، لطفك يا رب...

ظللتُ أتابع حديثهما فعلمت الأمر الذي أتى بعمّتي... استغربت فعلًا أن يكون أخوان على هذا الحال بعد أن كانا مثالًا يُقتدى به في الأخوّة، ثمّ تذكّرت أنّهما تمامًا كحال أبناء بلادنا، لا يختلفان أبدًا بل إنّهما صورةٌ بحجم مُصغّر، هدفهما واحدٌ، نبضهما واحد، دمهما واحد، لكن لأشياء بسيطة انقسما فريقين... دعوتُ الله لولديْ عمّتي ولأبناء بلادي، فذاك كلّ ما أملك أنا بين يديّ.

بعد خروج عمّتي أدركتُ من أمّي أنّ عمّتي «ندى» مريضة وسنزورها في الغد. بعد وفاة والدي كان من الممكن أن نعود للقدس، لكنّ أمّي رفضت ذلك لغايةٍ في نفسها، بقيَت مع عمّاتي وجدّتي هنا، وبالعكس كثيرًا ما كانت تسأل جدّتي أي والدتها لعلّها تأتي للعيش معنا فترفض، جدّتي «غادة» أكثر إنسان تعرّفتُ عليه يعيشُ حبيسَ الماضي، بل إنّها تُقدّس الماضي وليست حبيسته عن غير إرادةٍ منها، وأخي «وائل» لم يتكبّد عناء البقاء معنا لإدراكه أنّ أبناء عمّتيّ «هيفاء» و«ندى» يسندوننا في كلّ الأحوال، وحتّى وإن أراد المكوث معنا فستمنعه أمّي من ترك جدّتي لوحدها

بالقدس، لكنّه يترك ولده عندنا دائمًا ويقول لأمّي أنّه يتركه عندها كما تركته هي عند جدّتي.

دخلتُ غرفتنا فوجدتُ الموبايل بيد «سلسبيل» وابتسامة عريضة على وجهها، ظللتُ أنظر نحوها فلم تنتبه لي، ثمّ سألتها:

-مع مين عم تحكي ولك «سبيلا»؟

-مع «رهف»...

-مممممم... هل أخبرتكِ بخصوص «رُستم»؟

-آه... وأخبرَت أمّي كمان.

جلستُ أمامها وتابعتُ أسئلتي:

-وافقتِ؟

-ممم، ما في اشي يخليني أرفض.

-وتروحي عنّا؟

-ممكن من هان للعرس الله يفرج على البلد وتصير غزّة أو الضفة أو فلسطين كلّها وحدة.

-يا رب...

-تعرفي يا «أحلام» إيش هو حلمي؟

-إيش؟

-أنّو ولادي وولادك يزوروا بعض كلّ أسبوع، أن تنتهي حيّة صهيون وتُشفى بلادنا فلا يحتاج «عادل» أيّ أوراق كي يزور «آدم»...

-مين «عادل»؟ قررتي من هسة تسمي ابنك ع اسم

أبــوي؟ مــش كنتــو تضحكــو عــليّ وقــت أخبرتكــم برغبتــي في تســمية أبنائــي «غــزل» و«آدم» وقلتــو أنّــو لســا بكــير!

لم يكـن سُـؤالي إلّا مُحاولـةً للمـزاح... لكنّـي بينـي وبـين تلافيـف قلبـي كنـتُ أحـدّث نفـسي مُتمنيـةً أن ينقـضي فعـلًا هـذا الهـراء الـذي نعيشـه، أن ننتـصر بقضيّتنـا، أن نُصبـح في الغـد وقـد طُـويَ وجـود المُحتـلّ بيننـا، أن يخـرج شـقيقي مـن 'القـدس' مُهـرولًا إلينـا نحـو 'رام الله' فـلا يلتـقِ في سـبيله أيّ حواجـز تتأكّـد مـن هويّتـه ولونهـا، ألّا تسـتفزّه أيّ عُثّـةٍ صهيونيّـة فيكظـم غيظـه خوفًـا مـن تمضيـة عـشر سـنوات في الأسر دون علّـة... مُتمنيـةً أن ينقشـع الضبـاب بـين دروب الأرض التـي سُرقـت ذات نكسـة، أن نركـض مـن نبـع 'بـير السـبع' حاملـين جِـرار الميـاه العذبـة حتـى نبلـغ كـروم 'خـان يونـس' ولا نخبّـئ في يدنـا حجـرًا أو بندقيّـة، أن تعـود الحبـال حبـالًا نبنـي بهـا مـا حُطّـم مـن 'غـزّة'، أن نُشـيّد جدرانهـا بحجـر 'طوبـاس' ورمـل 'يافـا'، أن تبتسـم عجـوزٌ بــ 'رفـح' فتُلقـي عليهـا أخـرى مـن 'طولكـرم' التحيّـة، أن نُصـلّي في الأقـصى ظُهرَنـا، وفي 'الخليـل' العـصر، وتـسرق منّـا دقائـق السـاعات عمـرًا فنسـجد صـلاة مسـافرٍ مغربًـا في 'طبريـا'، أن نجنـي تمـرًا مـن 'النقـب' فنتقايـض بدالـه زيتـون 'قلقيليّـة'... مُتمنّيـةً أن يولـد ابنـي ويكـبر بهويّـة فلسـطينيّة، لا ألـوان تُقيّـده ولا حـروف عبريّـة، أن يبيـت ليلـه بــ 'القـدس' ويُصبـح عنـد خالتـه بــ 'جباليـا'، أن نقطـف ورد 'الخضـيرة' لنضعـه عـلى قـبر خـالي الـذي لا نعـرف لـه مكانًـا ولا سـبيلًا، أن تُعلّـق جـدّتي عـلى الحائـط البندقيّـة وتنـام قريـرة العـين كـما لم تُمـض مـن قبـل ليـلًا... إنّي مُتمنّيـةٌ أن أبتسـم وأنـا عـلى 'تـلّ القطيفـة' وأمـدّ

بصري إذ بالصيّادين يبتعدون فاليمّ يمّهم حتى تلتقي السماء والبحر مدّ الأبصار كبُعدِ الثُريّا، أن أعودَ ليلًا للبيت وأسير بين الأزقّة حاملةً سيفًا صُنع عند نحّات 'الرملة' أهداه لي شيخٌ من 'اللطرون'، وأغمض جفني ليلًا على يقين أنّ الغدّ سيحمل أضعاف فرح اليوم...

***

صباح يوم الإثنين الخامس عشر من أيلول ذهبنا غير بعيدٍ عن بيتنا في زيارة إلى عمّتي «ندى»، لم أكن أتوقّع أنّ حالتها بذلك السوء، ارتبكتُ ما إن لمحتها طريحة الفراش، جلسَت أمامها جدّتي وراحت تسألها عن أحوالها، التففنا حولها جميعًا وراحَت تُبادلنا أطراف الحديث مُحاولةً ألّا تُبيّن لنا وهنها وما امتصّ من قوّتها السقم، راحت جدّتي «صفيّة» تُخبرنا عن طفولة عمّتي حين كانت من بين جميع أترابها تمرض ويطول شفاؤها. جدّتي رغم أنّها عاشت عمرًا طويلًا فإنّها لا تزال تذكر أدقّ التفاصيل عن كلّ شيء، كأن تبدأ قصّتها بسنوات الستّينات وأوّل مرّة رُفعت فيه الراية التي يتخذها اليهود علمًا فوق قبّة الصخرة بالأقصى حين سلبوه منّا، إلى إحراقه بعد سنتين من ذلك، تمرّ عبر بوابة التاريخ فتذكر بأوائل الثمانينات شكوى المقدسيّين حول تصدّع البنايات المجاورة للأقصى بسبّب حفريات اليهود، إلى مذبحة الأقصى بسنة التسعين بشهر أغسطس، ولا تتردّد وهي تستنكر فتح اليهود لنفقٍ تحت المسجد الأقصى المُبارك واقتحامه... جدّتي كتاب تاريخ متنقّل، وليست الوحيدة، بل إنّ كلّ من يحمل

دمًا فلسطينيًا يعرف أدقّ التفاصيل عن فلسطين، تذكّرت بحينها قول «مصطفى» عندما أخبرني أنّه لا ينسى أيّ واقعةٍ بالقدس فدمه ينبض مقدسيًّا مهما باعدته المسافات عن القدس... جدّتي «غادة» أيضًا لم يختلف أبدًا حالها، دائمًا ما تُعيدنا لأيّامها بـ 'جباليا'، حتى أنّ «لؤيّ» أحيانًا يحكي لنا حكايات كانت تُردّدها عليه منذ نعومة أظافره، أحيانًا يتصل بها «مصطفى» ليسألها العديد من الأمور التي تخصّ المخيّمات وكيف كان حالها هناك، تضحك لأنّ الوضع تغيّر عن آخر مرّة زارت هي فيها المكان، لكنّها لا تبخل عنه فيما يخصّ الماضي المُندثر، فيجد نفسه كزائرٍ يسير بين تاريخ المكان هناك بين ما تحكيه جدّتي وما يتلقاه من معلومات عن «رهف»... أذكر مقاله الذي خرج به في المجلّة الإلكترونيّة بخصوص الحرب على القطاع منذ حوالي الشهر، لقد كان مقالًا كتبه بالشراكة مع صديقه المقرّب «أيمن» صديق طفولته الذي التقى به ما إن انتقلوا إلى 'رام الله'، شابٌ من 'الخليل' دخل السجن هو الآخر بأيّام أسر «مصطفى» لكنّه لم يُطل بين جدرانه حيث أمضى حوالي العام والنصف فقط، خرج من الأسر وأذكر جيّدًا أنّه أتى بالعديد من أوراق «مصطفى» التي كان يكتبها خفيةً داخل السجن، فقام بنشرها بدلًا عنه في تلك الفترة، إن قلتُ أنّ «مصطفى» يعتبره أخاه فربّما أكون قد قلّلتُ من شأنه فهو أقرب من ذلك إلى قلبه. حين تلتقي كلماتهما في نصٍ واحد فإنّي أعجب من اللغة وممّا قد تحمل الكلمات من نبضٍ بين حروفها، أذكر أنّي حين قرأت المقال أمضيت ليالي بعدها كلّما أغمضتُ جفنيّ أرى الأحداث

وكأنّها أمام ناظري... نحن هنا بالضفّة وقوفنا يختلف عن وقوف الغزّاويين، خصوصًا وأنّهم تحت لواء حماس، كانت ولا تزال وقفاتنا الاحتجاجيّة وعمليّاتنا الفدائيّة هي أهمّ مقاومةٍ لدينا وأهمّ فعلٍ يُبيّن رفضنا للواقع، ليس لعجزٍ منّا بل لأنّنا أكثر اختناقًا منهم، لقد ذُكِر في المقال الكثير من التفاصيل حول بداية الأمر، وكيف أنّ اليهود المُستفزّين يضربون ظهر الحمار وينتظرون منه ألّا يسير! ولسنا أحمرةً بل الواحد منّا بألفٍ من الناس أو يزيدون... كنتُ أتصّل كلّ يوم بـ «رهف»، الكهرباء دائمًا ما تكون مقطوعة، أحيانًا حتى الهاتف مقطوع، الماء المُختلط بمياه الصرف الصحيّ والتي تُقطع عنهم طويلًا هي الأخرى، تحكي لي أنّهم يبيتون على صوت الانفجارات، والشظايا تخترق الأجساد هنا وهناك، بيوتٌ تسقط، وما إن تُشرق شمس الغد تسمع الأطفال مُتجهين نحو المدارس، كانت تستيقظ وتُحضّر قهوتها المرّة بطعم الحياة، تقول أنّ الله يبعث في قلوبهم هدوءًا وسكينةً لا تُصدّق، فترتشف قهوتها كأنّها آخر فنجانٍ لها، تسير نحو المدرسة، حتى بعد اختراق إحدى الشظايا جدران المدرسة التي تعمل بها، تحكي لي أنّها لم تُبال ونصف الصبورة واقعٌ أرضًا وثغرةٌ في الجدار بحجم باب أو أكبر، تقف والأمر كأنّه لا يُثير في قلبها من أحاسيس، والتلاميذ يعكفون على دراستهم كما لو أنّ كلّ الظروف معهم. غدًا سنبني، غدًا سنُعمّر ضعف ما هُدّم، نحن لا يضرّنا أن نبني ونُعيد البناء وهم يهدّمون بيوتنا على رؤوسنا تكرارًا، صاحب الحقّ لا يُضيره أن يقاوم، فالحقّ حقٌّ وإن أُفشيَ الباطل بين ربوع

العالم، لا نهتّم لا لقصفٍ ولا لصواريخ تُلوّن سماءنا كلّ ليلة، المشكلة هل ستكون لهم دائمًا نفس القدرة لتدميرنا؟ السّائر اليوم بين أزقتنا، يرى ما لا عينٌ لمحت بين مدن العالم ويسمع ما لن يسمعه بمكان سوى هنا، هُنا يُخلق الأمل من العدم، ويُكفّن الشهيد بالعلم، هنا يُدفن الشهيد وهو ابن شهيد، وتدمع عين والدته ويُصوّرها شهيد، يحمله على أكتافه صديقه الشهيد، ووحدها فلسطين من تُزغرد وهي تزُفّنا نحو جنّة الخلد... نحن لا نموت هنا، وعدُ الله حقّ والشهيد حيٌّ عند ربّه لا يموت... كم زفّت 'غزّة' وكم نزفت من دماءٍ على أرضها، وإنّي لأظنّها تدفع ثمن فلسطين بأبنائها كضريبة علينا... شهداؤها دومًا أضعاف شهدائنا، اليهود يضعونهم قُبال أعينهم، لأنّهم يُدركون حقّ الإدراك أنّ الثورة لو قامت يومًا مجدّدًا بقيادةٍ واحدةٍ لن تقوم شرارتها إلّا من 'غزة'، يتّبعون نهج فرعون الذي أخرجهم من مصر، حين أباد الجميع خوفًا من نبيٍّ سيظهر، وشاء الله أن يظهر من قصره، أتُراه نبيُّنا يقوم من بين عربنا المُحتجزين بينهم؟ أتذكر حين كانت تخبرني «رهف» أنّها يكاد لا يمرّ يومٌ عليها لا تلتقي فيه شهيدًا يُحمل على الأكتاف أو سيّارة إسعاف... أتذكر وصف «مصطفى» لتلك السماء التي كنتُ أتابعها على شاشة التلفاز، كيف تغفى عيونهم والسماء مُضيئة فوق رؤوسهم، لطالما تمنّيتُ أن يكون لي نصف شجاعتهم. يقول لي «مصطفى» أنّ كلّ ذي دم فلسطينيّ له من الشجاعة ما لا يستطيع تصديقه، هي فقط الظروف التي تفسح المجال لشجاعته أم تخنقها... أحسد «سلسبيل» أنّها ستذهب

نحو ’غـزّة‘، سـترى كلّ مـا كانـت تُشـاهده عـبر الشاشـة هنـا، سـتعيش الأحـداث بحذافيرهـا، لـن يكـون هنـاك مجـالٌ للملـل فبجعبـة اليهـود دومًـا هنـاك خُطـط لاسـتهداف ’غـزّة‘... سـترى مُجاهـدي كتائـب القسّـام، ستسـمع تهاليلهـم وتكبيراتهـم، سـيكون لأولادهـا شرف أن يكونـوا غزاويّـي النشـأة، ستُعاني من الحصـار، ثـمّ سـتعتاد، سـترُبّي الأمـل، كـما نُربّيـه لكنّهـا سـتُجيد تربيتـه أكثـر منّـا، سـيقف أبناؤهـا ذات يـوم عـلى حـدود ’خـان يونـس‘، لعلّهـم يُريـدون العـودة حيـث الأرض المُغتصبـة ذات نكسـة، سـيمضون في ’مسـيرة العـودة‘... سـتنام ليـلًا ورأسـها يعـجّ بالفـوضى، وتسـتيقظ وكأنّ مـا كان البارحـة مجـرّد كابـوس مـرّ ورحـل عنهـا.

***

قبـل مـدّة طويلـة عزمنـا أنـا و «مصطفـى» أن يكـون عرسـنا بعـد اجتيـازي امتحـان التوجيهـي، لكـنّ عمّتـي «نـدى» غـيّرت مُخططّاتنـا بوفاتهـا، فارقتنـا خفيفـة ظـلٍ كـما كانـت طـوال حياتهـا معنـا جميعًـا، دومًـا مـا أظـنّ أنّ النّـاسَ الجيّديـن هـم أسرع منّـا إلى إدراك المـوت، لكنّـي أتذكّـر أنّـه أمـرٌ مـن الله ولا ردّ لقضائـه وقدرِه...كانـت أيّـام جنازتهـا الأكثـر سـوداويّةً عـليّ، حيـث أعـادت إحيـاء بعـض مـا مـات في جـوفي مـن حـزن، لقـد سـبقتنا لحاقًـا بـأبي، هـل كانـت سـتُوصل لـه خـبر اشـتياقنا لـه لـو أوصيتُهـا؟ أظنّهـا سـتُخبره حتـى لـو لم نوصيهـا، فهـي الأعلـم بحالنـا وقـد عاشـت تفاصيـل اليُتـم مثلنـا... كـم بكينـا عـلى فراقهـا، خصوصًـا جـدّتي «صفيّـة»، تقـول أنّهـا يـا لهـا مـن

أقدارٍ أن يموت أبنائي قبلي وأنا أكبر دون هدفٍ بعد فقدهم، ونُحاول إعادتها إلى رُشدها وأن تعتصم بالله وتحمده على قدره. في أيّام عزائها علمتُ أنّ صديق «مصطفى» كان ينوي التقدّم لخطبة «نهاد» لولا فاجعتنا، مازحتُ ابنة عمّتي أنّ موت عمّتي إذن أجلّ موعدينا، فنحن كذلك أجّلنا عرسنا. «نهاد» كانت دائمًا ضد اليهود على غرارنا، لكنّ وجود «مصطفى» و«أيمن» كساندين لها جعلاها هي أيضًا لا تخشى شيئًا، هم لهم الحروف وهي لها النضال بما استطاعت له سبيلًا عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ التي دأب عليها العالم وأحدثت جلبةً كبيرة، لم تتردّد يومًا في استنكار ما يُمارسه أبناء الحيّة صهيون علينا، لقد خلقت بكلماتها نوافذ للعالم لرؤية الأمرِ من زوايا أقرب، وجعلت من نفسها بذلك شوكةً في حلقوم الحيّة، ستدأب هذه الأخيرة على انتزاعها... كنتُ أخبرها أن تهدأ ولو قليلًا، موقنةٌ أنّها على حقٍ لكنّني أخشى عليها فهي صديقتي وابنة عمّتي وأخت زوجي.

2017 (نيسان)

بعد مرور سنةٍ على وفاة عمّتي، حدّدنا تاريخ التاسع عشر يوليو عام السابع عشر بعد الألفين كتاريخ لعرسنا أنا و«مصطفى»، كان قد مرّ شهران على خطوبة «نهاد» و«أيمن»، أراهما مُكتملين مع بعض حقّ الاكتمال، مُناضليْن، قضيّتهما قبل كلّ شيء، يكاد أحدهما أن يقول أمرًا في شأن القضيّة فيقوله الآخر صدفة معه، ومن النادر أن تجد إنسانًا فيكون نصفك الذي يُكمّلك ويُناسبك تمامًا.

هذا العام هو عامي الدراسيّ الأخير بالصفّ الثانويّ، أخيرًا سأجتاز امتحان التوجيهي وتنقضي بذلك رحلتي التعليميّة التي تسبق الجامعة... كان الجوّ ربيعيًا بتلك الأيّام وأنا أذكره جيّدًا، كان كيوم يُهدئ بالك جيدًا قبل أن يعصف بك ويقلب كيانك، تآمر الجوّ بيومها علينا ولا أفهم لماذا، اتصل بي «مصطفى» أخبرني أنّ أخته «نهاد» قد أُصيبت بطلقٍ ناريّ، لم أعلم ما الذي يمكنني فعله، كنتُ بالثانويّة آنذاك، اتصلت على الفور بشقيقتي «تقوى»:

-ألو، يا «تقوى» بنت عمتك «نهاد» تصاوبت.

-كيف!!

-هسة اتصل «مصطفى» خبرني... خُذي أمّي وجدّتي بطريقك وأسرعي عند عمّتي «هيفاء».

-حسنًا... ما وضعها؟

-ما عرفش... روحي وطمنيني، وقت ما أخلّص دوام راح ألحقكم.

أتممتُ دوامي كما لو أنّي لستُ فيه من الأساس، لم أنتبه صباح اليوم لغياب ابنة عمّتي عن دوامها، فهي تدرس بنفس صفّي، ظننتُ أنّي لم ألمحها فقط، لم يكن في بالي أنّها لحظة خروجها صباح اليوم من البيت تمّ إطلاق النّار عليها. حاولت أن أتذكّر كم من مظاهرةٍ ظهرت فيها غاليتي «نهاد» ولم تُستهدف فلم أتمكّن من العد، تساءلتُ لماذا اليوم بالذات... دعوتُ الله وفي قلبي غصّة تتكتّل وأحسستُ أنّ الساعة الثانية بعد الزوال لن تصل أبدًا...

ما إن انتهى دوامي الدراسيّ قمت بسرعة، لا بل إنّي أُهرول وسأتصل بـ «مصطفى» لأسأله في أيّ قسم هي بالمستشفى، حملت هاتفي فإذْ به يرن بين يدي، لقد كان رقم «أيمن»، للوهلة الأولى تذكّرت آخر مرّة اتصّل عليّ رقمه، مُبشّرًا إيّانا بنجاح أخته الصغرى، لا بدّ أنّ اتصاله اليوم كذلك لن يحمل أيّ مكروه أحاول تكذيب أيّ تفكيرٍ سالب قد يزور عقلي.

-ألو...

- «أحلام».

ارتبكتُ من نبرة صوته وهو يُنادي اسمي، تعوّدتُ عليه دائم الضحكة، أمّا «أحلام» هذه ببحّة الدموع أنا أجهلها.

-نعم يا «أيمن»؟

-صديقتك استشهدت يا «أحلام»... بنت عمتك بالجنّة يا «أحلام»...

ما علمتُ أكانت دموعه وصوت بكائه عبر الهاتف وكلماته المُتداخلة هو ما يطعن بقلبي أم أنّها صدمتي بالأمر... لم أكن أنتظر رحيلها أبدًا، ركضت غير مُنتبهةٍ لحالي، حتى كدتُ أن أنسى المرور على «جنان» بالإعداديّة، بلغت الشارع الذي بعد مدرستها فانتبهت أنّ هناك أمرًا ينقص من برنامجي، إذ بها «جنان»، عدتُ ودموعي لم تنشف أبدًا، كان خيالي يستذكر كلّ ما عشناه سويًا أنا و«نهاد»، أمسح تارةً دموعي عن وجهي بكمّ قميصي، وأهرول في سيري. أمسكت يد أختي دون أدنى كلمة، كانت تبتسم لي تريد أن تُسلّم عليّ وتحضنني كعادتنا، فعلمَت بسبب تصرّفي أنّ هناك خطبًا ما.

- «أحلام» ماذا حصل؟

- «نهاد» استشهدت...

- كيف... متى؟!

- هسة، مُتأثّرة بإصابتها...

لم أنتبه أكان الدمع قد زار «جنان» أم اقتصر عليّ ساكنًا بعيوني أنا فقط، ركبنا المواصلات على الفور نحو المشفى، بعقلي شريطٌ طويل من الذكريات يمرّ دون توقّف، أمسح عن خدّي الدموع، أحاول ألّا أغرق في بكائي، أحاول عبثًا الصمود، لمحتُ «جنان» فوجدتُ عينيها هي الأخرى ينابيع، مسحتُ وجنتيها بيدي، وضممتها إليّ، «نهاد» كانت أختنا الرابعة، لم تكن يومًا مجرّد ابنة عمة لنا، ولذلك فراقها سيُحدث شرخًا كبيرًا في فؤادنا... كان قد مضى أشهر على زواج أختي «سلسبيل»، لم نعد نسمع عنها إلّا من خلال تواصلنا عبر الهاتف أو الإنترنت... أحسستُ اليوم بغيابها

أكثر من ذي قبل، ففي حين كنتُ أسير في الرواق مع «مصطفى» و«أيمن» كان ينقصني كتف «سبيلا» لأستند إليه ويميل حزني معي ويرحل... أمضيتُ بسجلّ الوفيّات، ودّعتها وأنا التي كنتُ أعدها أنّنا لن نفترق أبدًا، وعدتها ألّا أتركها، ووعدتني، وها هي خرقت الوعد وخانت العهود، وقفتُ أمام «مصطفى» وأخويه فقد كان أخوه «سعد» مع والدته وأبيه بالبيت. رؤيتها جعلتني أموت داخليًا وأحسّ بالقهر، شهقت واضعةً يدي على فمي في محاولةٍ أن أكبح براكين حزني بداخلي، نظرتُ نحو «مصطفى» وهو على هدوئه رُغم انتفاخ عروق يديه واحمرار وجهه من شدّة ما يُقاوم من حُطام داخليّ. خرجتُ شاخصة البصر وقد جفّت دموعي، لم يكن وجه «نهاد» على غير عادته، لم يكن إلّا ملائكيًا كما لو أنّ الشهادة لم تمسح عليه، لكأنّ روحها لم تُفارق ملامحها وهي غافيةٌ لا أكثر.

- «أيمن» عظم الله أجرك يا أخي...

لستُ أعلم أقُلتُها أواسي نفسي أم أواسيه أم أُواسي قلبه لفقدها... نظرتُ إلى «جنان» فإذا بالدّمع المكبوت بعينيْها يفيض وتنفجر بكاءً عقب ما قلتُه، لستُ أعلم أيّ ابتسامةٍ تلك التي كانت على وجهي، ضممتها إليّ ورُحتُ أهدّئها:

- هي لم تمُت، هي استشهدت، هي عند ربنا وتسمعنا وترانا، بدّلها الله دارًا خيرًا من دار الدنيا يا «جنان»...

لكنّي لم أكن أملك من الكبرياء ما يكفي لأجابه به حزني وأكون ضدّه... مضت أيّام العزاء و«سلسبيل» كادت ألّا تُفارقنا على الهاتف، صارت تتمنّى لو أنّها أجّلت ذهابها إلى

(غـزة) لرأتهـا ولكانـت اليـوم بيننـا في عزائهـا. ليلـة البارحـة عدتُ للبيـت أنـا و«لُـؤي» وأختـي «جنـان»، ورجعـت للصمـت الذي مقـتُّ استحواذه علـيّ منـذ سـنوات مضـت، ليس بقلبـي حـزنٌ وأنـا أعلـم أنّهـا شـهيدة عنـد الله، انقشـع حـزني وخلفـه غضبـي فيمـن تسـبب في رحيلهـا، فيمـن أسـكن في قلوبنـا الكراهيّـة لـه وسـلب كلّ حياتنـا... كنـتُ أنصحهـا بالتريّـث عـن منشـوراتها التـي هـي ضـدّ اليهـود، لكنّـي اليـوم أقـول ليتنـي لم أمنعهـا يومًـا، سـائرةٌ أنـا عـلى دربـك يـا «نهـاد» سـواء شـاء منهـم مـن شـاء وكـره منهـم مـن كـره، إلى متـى نحـن عـلى صبرنـا والعـالم عـلى صمتـه؟ ألـن ننفـض عنّـا الغبـار أم أنّ الصـبر والأمـل الـذي نُربّيـه يكفينـا؟ لم يعـد يكفينـي أنـا... أخـذتُ عـن مذكـرّتي بعـض كتابـات، ولسـتُ بحاجـةٍ لـشيء مـا دام الغضـب بعينـيّ الآن... اتصـل بي «مصطفـى» بعـد سـاعات عـن وصـولي للبيـت

-كيفك يا «أحلام»؟

-الحمد لله.

-شايفك ناشطة على مواقع التواصل...

-آه... ومـش راح أسـكت، لأنـو لـو يرجـع بيـا الزمـن مـش هقـول أبـدًا لــ «نهـاد» انهـا تتوقّـف عـن نـشر إشي... خـلّي العـالم يعـرف، خـلي لي قلوبهـم ميتـة توعـى وتصحـا...

فلتصحُ قلوبهـم الغُلـف، ولتُحطّـم الأقفـال عنهـا... ففلسـطين قضيّـة عمـرٍ وقضيّـة شـعبٍ لم يـرَ مـن العـالم سـوى وعـودٍ وخرافـات السـلام... نحـن هنـا عـلى صمودنـا، لم نطلـب منكـم إسـنادنا، سـنقف بمفردنـا فقـط لا تكونـوا وأفعـى صهيـون ضدّنـا! لا تكونـوا معنـا لكـن لا تُخرسـوا صـوت الحـق! لا تُحاربوا

بدالنـا، أطفالنـا بواسـل حـرب، إنّـما لا تمنعونـا مـن حقّنـا حـين نطلـب سـلاحًا بـدل الحجـر! لم نطلـب منكـم أن تشـفوا أرضنـا مـن مـرضٍ مُزمـنٍ أصابهـا، لكـن لا تحرمـوا مرضانـا العـلاج، لا تسـدّوا معابرنـا معكـم، ألسـنا عربًـا منكـم؟ لا تسـدّوا عنّـا المنافـذ نحوكـم، لا تكونـوا مـع الأفعـى ضدّنـا... لا نطلـب أن تكونـوا معنـا، لكـن لا تبقـوا قلوبكـم عـلى أقفالهـا وتكونـوا ضدّنـا... صـوت الحـق لا يُخـرس، وإن أخرسـتموه فأيـن ضمائركـم؟ أيـن عروبتكـم؟ أم أنّهـا مجـرّد أحبـار؟ أيـن إسـلامكم؟ أيـن نهيكـم عـن المُنكـر؟ بـل أيـن أنتـم؟ لا زلتـم عاكفـين عـلى المناصـب والمـال... فرعـون الـذي فـارق الدنيـا وقـارون لم يكفياكـم لتعتـبروا أبـدًا... غضـب الله عليكـم بقـدر مـا سـالت مـن دمائنـا الطاهـرة حتـى الآن... أقـول، اليهـود لا يعنونـني، هـم مغضـوبٌ عليهـم منـذ آلاف السـنين، إنّي أحـدّث قلوبًـا تظـنّ أنّهـا بخـير! قلـوبٌ تسـتصغر اسـتنكارًا مـن أحدهـم أو قـولًا ضـدّ يهـوديّ، وهـي بالأسـاس فتيلـة الثـورة تبـدأ بكلمـة.

أطفـأت مصبـاح الغرفـة وتوجّهـت نحـو فـراشي، فأتـى «لؤيّ» يطلـب منّـي قصّـةً قبـل أن ينـام... حكيـتُ لـه قصّـة الشـهيد المفقـود، وعنـد انتهائهـا سـألني:

-من نحن يا «أحلام»؟

تذكّـرت أوّل مـا علّمتنـي إيّـاه جـدّتي «غـادة»، فابتسـمت وأمسـكتُ يـده وأنـا أعـدّد عـلى أصابعـه وأقـول:

-نحـن أعقـاب الكـرز الـذي غـرسَ بذرتـه جـدّ جـدّتي يومًـا بـ ’القُبيبـة‘، ونحـن مـن كـبرت شـتلتنا بـ ’غـزة‘، ونحـن شـجر لوز ’طبريـا‘، ونحـن زيتـون ’القـدس‘ العريقـة، ونحـن عطر ياسـمين

’يافا‘... أعقاب الكرز الذين أُبعدوا عن أرضهم عُنوة، وشتلة تلك الشُجيْرة التي سُلبت منها الأحلام في أن تكبر غدًا، وسُرقت طموحات حبّات اللوز ذات ليلة، والزيتون أطلقوا عليه الرصاص فبقيت دماؤه تسقي الأرض، لينمو الياسمين فيصير بلون الدماء أحمر...

2017 (16 أيار)

عِندما تُظلِم الحياة بطريقك، وتزداد العَثرات، عندما تكبر الفجوة بينك وبين أحلامك... ستدرك حينها أنّ الحياة كلّها لا تستحق قَيْدَ أُنملة من عَشم، الحياة دَنيئة بكلّ تفاصيلها، تَهب لمن وهبت له أضعافًا وتترك خاوِيَ البطن خَائِبًا حَسرانًا... من كانت له حَفنة أملٍ فليتمسّك بها بأسنانه بدل يَديه، ولا يُعلّقها إلّا على الله، فهل لَنا بالكون سواه؟ إن ضاق الفُؤاد يومًا فمن بالغيب بيده طيبُ حالك سواه... كذلك نحن، تعوّدنا ألّا نُعلّق الأمل إلّا بالله، هو حسبنا وهو وحده القادر كما طالَنا وباء صُهيون، يُقتلع من بين أحشائنا ويُمدّ لقلوبنا الشفاء... نحن مرضى الآن، وُلدت أجيال مُتعاقبة مريضة، سَقمها أنّها لم تعش ذكرياتٍ سوى آلام، لم يعش حيٌّ منّا أحلامه كما كان لنا من مقدرة... حتى إن كانت الأحلام في بلدانٍ سليمة الثرى تُغتصب من الأطفال، فما بالك بحُلمٍ ابتدأ ها هُنا بين غُبار الأنقاض، صدى الصواريخ وتفاصيل الاعتقالات المُتكرّرة بلا سبب، أنَّى لِأحلامِنا أن تُستأنف بعد أن صِرنا كلّ يوم نخرج من بيوتنا وننتظر أن نعود فاقدين أو مفقودين، إن كانً بجذور العرب شُعراء يفتقرون لغير النحيب على الأطلال، أطلال قديمة يستذكرون ساكني المكان، فنحن نتُوقُ أن نُمضي يومًا لا نعُوز فيه للبكاء على الدمن...

منذ أيّام قليلة خرجتُ وحجزت على فستان زفافي، لقد أصرّ «مصطفى» على ألّا نُؤجّل زفافنا هذه المرّة أيضًا، ولم

أُمانـع لأنّي موقنـة أنّ «نهـاد» لـو كانـت بيننـا لمـا سـمحت لنـا بالتأجيـل، مـا يُحزننـي هـو حـال «أيمن»، صـارت الضحكـة غائبةً عـن محيّـاه، وصـار صديـق الصمـت بعـد أن كان ثرثـارًا كأغلـب الكُتّـاب... لم يـزرني النعـاس هـذه الليلـة، نـشرتُ كـما تعـوّدت منشـوراتي ضـدّ أبنـاء الحيّـة، كانـت منشـوراتِي منشـورات يـوم الثلاثـاء يـوم التعقيـدات والأزمـات لـديّ فأكتـب أحيانًـا عـن الأمـر، تصفّحـتُ جميـع مـا أمكننـي مـن مواقـع لكـنّ النعـاس غـاب عنّـي... تحدّثـتُ مسـاءً مـع «سلسـبيل» وأعربَـت لي عـن قلقهـا بشـأني، لا أعلـم مـا الـذي يُقلقهـم وكلّ الأمـور بمشـيئة الله وبأمـرٍ منـه... سـمعتُ تمتمـةً فاسـتدرتُ أراقـب «جنـان» وهـي تُتمتـم وسـط نومهـا، ابتسـمتُ ضاحكـةً، ثـم أنـرت المصبـاح القريـب مـن فـراشي، هممـتُ بقـراءة أحـد الكتـب التـي أهـداني إيّاهـا «مصطفـى» في مناسـبات كثـيرة ماضيـة، تذكّـرتُ أن زفافنـا لم يتبـق لـه سـوى شـهر وأيّـام، فتحـت أوّل كتـابٍ اختارتـه يـدي، ورحـت أقـرأه مـن حيـث طويـت حافـة آخـر صفحـةٍ وصلتهـا منـذ أيّـام... قـرأتُ قـول «وائـل رداد» في روايتــه «جنـازة الملائكـة» قـولًا توقّفـتُ عنـده طويـلًا:

«مـن يعـش في أرضٍ اغتصبتهـا الذئـاب البشريـة، لا يُضـيره المـوت بأيـة صـورةٍ كانـت»

غفيـت عيـوني، إذ بطـرقٍ عـلى البـاب، لم يكـن طرقًـا بـل كأنّـه دويّ انفجـارات عـلى بـاب بيتنـا، صُعقـت وقامـت «جنـان» مذعـورةً هـي الأخـرى، رحـتُ أذكـر الله وسـط ذُعـري، رميـتُ وشـاحًا عـلى رأسي ولملمـت نفـسي في معطفـي، ولحقـتُ بأمّـي وجـدّتي أمـام البـاب، تردّدنـا بفتـح البـاب، لكـنّ مـن خاطبنـا

كان مُتحدّثًا بالعبريّة... الأمر: إلقاء القبض عليّ أنا «أحلام عادل»، ابتلعتُ ريقي، طلبت منهم أمّي دقائق حتى أجمع أغراضي فأنا الآن ذاهبة للسجن... غيّرت ملابسي مسرعة بعد أن دخلت يهوديّتين في أثري خشية أن أهرب من البيت، وقف «لُؤي» يصرخ عاليًا أنّهم لن يتمكنوا من أخذي عنه... حضنته وأخبرته أنّه أمرٌ بسيطٌ وسيُحل لا محالة.

-تبكيش يا «لُؤي»... هاي ستّك وستّي أمانة برقبتك... وهاي «جنان» ما تتعبهاش، اسمع كلامها زي ما كنت تسمع كلامي أنا بالضبط...

قبّلت رأس والدتي، وسحبتني إحدى اليهوديّات من حضن أختي تجرّني نحو سيارتهم...

قبعتُ بمركز التوقيف طيلة اليوم، وأمضيتُ هناك الليلة التي تبعت التوقيف أيضًا، ثمّ باليوم التالي نقلوني إلى مركز التحقيق، يُحقّقون معي بخصوص المنشورات التي عكفتُ على نشرها بخصوص المقاومة وبلادي، وهل أحتاج ترخيصًا حتى أتغنّى بوطنيّتي يا ترى؟ بعد استكمال تحقيقاتهم جرّوني لأركب بمركبتهم ناقلين إيّاي إلى سجن 'شارون' بـ 'نتانيا' بمدينة 'يافا'، وطئت قدماي المكان، كانت الساعة تقريبًا الحادية عشرة ليلًا، أجروا عمليات تفتيشهم عليّ كما لو أنّهم لم يُفتّشوني للتوّ قبل وصولي إلى هنا، كان قلبي يرتعش لأنّي أجهل ما سألقى، إنّما أناملي ساكنة، وملامح وجهي هادئة للحدّ الذي يستفزّ كلّ من يراني من أبناء صهيون هناك. دخلتُ القاعة وسط سكون الأسيرات الثلاث هناك، ألقيتُ السلام وسرتُ بخطى خجولة، ما إن أُغلق الباب خلفي

قامـت أسـيرة بعمـر الثلاثـين نحـوي.

-أهـلا بـكِ أختـي... تفضّـلي بالجلـوس، مُؤكّـد أنّهـم أتعبـوكِ حتـى وصولـكِ إلى هنـا... مـا اسـمكِ؟

-أنا «أحلام».

-ما هو السبب الذي اختلقه اليهود لأسرك؟

نظـرتُ مـن حـولي فكـنّ جميعهـنّ مشـدودات التركيـز نحـوي، ينتظـرن جـوابي، رأيـتُ في أعينهـنّ إرهـاق أيّـام. إحداهـن شـابة صغـيرة، أظـنّ عمرهـا قريـبٌ مـن عمـري، وأخـرى أقـرب إلينـا كذلـك عمـرًا، وتلـك التـي حدّثتنـي، جـال بـصري في زوايـا المـكان وأنـا أبحـث عـن جـوابٍ مُختـصر يكفـي لإشـباع فضولهـنّ:

-لأجل منشورات على مواقع التواصل الاجتماعي...

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

حاولـنَ مواسـاتي قليـلًا، وتهويـن الأمـر عـليّ بقولهـنّ أنّي بإمـكاني اعتبارهـنّ أخـواتي، ومـا لبثـنَ حتّـى دقّ الحرّاس بالشـبّاك المفتـوح عليهـم قاصديـن بذلـك أن نلتـزم الهـدوء. فرشـتُ لحـافي وحاولـت النـوم، لكـنّ النعـاس أبـى أن يـزورني... أنظـر إلى زوايا المـكان المُظلمـة، مُنكمشـةٌ عـلى نفسـي أضـمّ ركبتـيّ بكلتا يـديّ... لا أعلـم كيـف تغلّـب التعـب عـليّ وغفـوت، وإذ بي أصحـو عـلى صـوت الـدقّ عـلى البـاب الحديـديّ، اسـتفقتُ مرعوبـة، وبقيـتُ أنظـر حـولي، حتـى اسـتوعبتُ أنّ اليهـود دخلـوا بُغيـة حسـاب عددنـا، أشـارت لي أكـبر الأسـيرات ألّا أخـاف، مجـرّد عـدٍّ روتينيّ والظاهـر أنّي سـأتعوّد عليـه مثلهـنّ.

ما إن بلغت الساعة السابعة والنصف أفقتُ على صوت «أم عبد الله» وهي تُحاول إيقاظي لأفطر معهنّ، غسلت وجهي بالماء الساخن رغم دفء الجوّ في الخارج، والتحقتُ بما افترشنه أرضًا كمائدةٍ للإفطار، رُحن يُخبرنني بعض الأمور التي عليّ معرفتها فيما يخصّ سياسة اليهود التي تُطبّق علينا، وعلمتُ بحينها أسماء الأسيرات: «أم عبد الله»، «آلاء» و«سعاد»، وكنّ كما توقعت أعمارهنّ... ما إن بلغت الساعة الثامنة حتى فُتح الباب الحديديّ مُجدّدًا وأخرجونا نحو ساحةٍ صغيرة حيث تجتمع حوالي أربعين أسيرة من نفس السجن وغالبًا نفس القسم... جلستُ أرضًا تحت شمس أيار، كنتُ أتذكّر كتاباتي ومنشوراتي وأضحك، ألِهذا الحدّ يخشوننا؟

ما إن وصلت الساعة العاشرة جمعونا وأعادونا لغرفنا، بعد حساب عدّدنا مرّةً أخرى، ثمّ إنّي أظنّ أنّهم يملّون البقاء وحيدين فيظهرون كلّ ساعةٍ أمامنا فيعدّوننا مُجدّدًا، عندما وصلت الساعة الواحدة أخرجونا مجدّدًا نحو الساحة طيلة ساعتين، وكان هذا هو برنامج كلّ يوم، بعد نصف ساعة من إعادتنا للغرف يدخلون بُغية تفتيشنا والتأكد أنّنا لم نقم بأيّة محاولةٍ للهروب عبر حفريات أو أيّ تخريب، يظنوننا فئرانًا مثلهم ربما... وكفسحةٍ أخيرةٍ خلال اليوم يُخرجوننا نحو الساحة لمدّة نصف ساعة حتى السادسة مساءً، يعني أنّ أيّامي هنا ستمضي كلّها على مشي عبر الأروقة وبقاء تحت الشمس وعودةٍ للمكوث بين أربعة حيطان. أحيانًا ليقتلوا الملل الذي قد يُصابون به يُباغتوننا بتفتيشٍ للغرف، أحيانًا تفتيشهم لا يقتصر علينا نحن، بل يقومون برميّ أغراضنا

على الأرض وقلب الغرفة رأسًا على عقب... ومضت أيّامي كلّها على ذلك الحال... يومٌ يعقبه يومٌ، الليل والنهار يتعاقبان وأنا ساهية البال، كأنّ كلّ شيء في هذه الدنيا يركض وأنا الوحيدة القابعة بمكاني... لم يُخلق السجن ليهون المكوث فيه على أيٍّ كان، لكنّ وجود الأسيرات وعلاقتنا سويًا كانت كفيلة بخلق جوٍ أفضل، يخفّ الحمل على ظهرك لو شاركتَه أحدًا ما، فكيفَ وكلّنا نشترك في المحنة نفسها... كان لدى الأسيرة «آلاء» جهاز راديو، نترقّب وقت الإذاعة بفارغ الصبر كي نسمع أهالينا عبرها، رغم نُظم التشويش التي يعكف على وضعها أبناء الحيّة حتى لا نسمع الإذاعة، ما إن يصل وقتها كنّا نلتفّ حول «آلاء» وننصت بتركيز حتى نتمكّن من السماع جيّدًا، وحين يمنعنا التشويش من السماع إطلاقًا نُحاول تغيير المكان بحثًا عن التردّد، آخر مرّة أذكر أنّنا وقفنا فوق أحد الأسرّة بحثًا عن التردّد حتى تمكنتُ من سماع أختي «سلسبيل» وهي تُطمئنني بصوتها على الجميع... أذكر أنّي كنتُ دامعة العين، الشوق كان يُقطّع فؤادي... ما إن أكملَت «سبيلا» قولها انسحبتُ من بين الأسيرات، وأنا أجرّ حزني الدّفين... ألا يكفيني كلّ الأسى والحرمان الذي جعلتني حيّة صهيون أعيشه، ألا يكفيها حتى الآن ما مرّ عليّ؟

تذكّرت أنّ غدًا تاريخ محكمتي، بعد أن تمّ تأجيلها مرّتين لحدّ الآن، فيوم الخميس الأوّل لي داخل السجن دخلوا إلى الزنزانة بحدود الثانية والنصف قبل الفجر، أخرجوني ليُمارسوا عليّ كلّ طقوس التفتيش المعروفة وغير المعروفة،

ثـمّ جـرّوني نحـو مركبتهـم التـي نطلـق عليهـا اسـم ’البوسـطة‘، ركبـت فيهـا، كأنّهـا زنزانـة متنقّلـة يـكاد الهـواء ينعـدم فيهـا، مظلمـةٌ كالقـبر، لوهلـةٍ تظـنّ أنّـك عشـت لهـذا اليـوم حتـى تُحـسّ بإحسـاس قطـع اللحـم حـين تُنقـل بـين المـدن! سرنـا طويـلًا حتـى تعبـتُ الجلـوس عـلى الكـراسي الحديديّـة وآلمنـي ظهـري منهـا، كنـتُ أتصبّـب عرقًـا وظننـتُ أنّ المشـكلة فيّ أنـا حتـى اكتشـفتُ أنّهـم يُمارسـون فنًـا مـن فنـون تعذيبهـم لنـا... توقّفنـا فهمسـت إحـدى الأسـيرات الـلاتي ركبـنَ معـي أنّنـا وصلنـا إلى سـجن ’الرملـة‘، اسـتغربت لأنّي أعلـم أنّـه سـجن جنائـيّ، فُتحـت الأبـواب وصعـد عـدد مـن الأسرى معنـا، جلسـوا مقابلـين لنـا، وجوههـم مُسـودّة ولـو لم أكـن أعِـي أنّ أياديهـم مُكبّلـة لـكان خـوفي أشـدّ منهـم... أشـارت السـاعة إلى التاسـعة حـين توقّفنـا أخـيرًا مجـدّدًا، اسـتدرتُ أحـاول معرفـة أيـن نحـن مـن أيّ واحدة مـن الأسـيرات، فهمسَـت لي إحداهـنّ أنّنـا وصلنـا وجهتنـا، أي المحكمـة... فُتحـت الأبـواب ونزلنـا، كانـت أشـعة الشـمس قويّـة عـلى عينـيّ وقـد أطلـتُ البقـاء في عتمـة ’البوسـطة‘، أغمضـتُ جفـوني بشـدّة لعلّنـي أقلّـل مـن الألم الـذي أحسسـتُه يمـرّ عـبر عينـيّ ويشـقّها نحـو عقـلي. مـا إن عـاد إليّ بـصري الـذي فقدتـه لحظـات، لمحـت اللوحـة الكبـيرة التـي كُتـب فيهـا «محكمـة عوفـر». دخلنـا مُصطفّـين خلـف بعضنـا البعـض، أسـير خُطـاي وكلّي أمـلٌ لأنّي سـألتقي أهـلي اليـوم، وأنّـه يـوم مُحاكمتـي وسـأتخلّص مـن كابـوس الأسر. كان قـد مـرّ يومـان لكنّـي قـد اشـتقت لهـم كثـيرًا، تُركـت في زنزانـة انفراديّـة، أخبرتنـي عنهـا مـن قبـل «آلاء» أنّهـا بـاردة كثلاجـات الموتـى ولذلـك بـات

الأسرى يُلقّبونها كذلك... مضت الدقائق عليّ وأنا أعدّ كلّ ثانيةٍ منها، أجلس حينًا على الكرسي الاسمنتيّ، ثم أقوم وأخطو الخطوتين اللتين بإمكاني أن أخطوهما داخل المساحة الضيّقة للزنزانة، لا يسعني حتى أن أمارس حريّة وجودي ولو وأنا بين أربعة حيطان، فيداي كانتا مُكبّلتين، تذكّرت كلّ ما أحفظه من أغانٍ وطنيّة، تذكرت بعض الأغاني التي أحبّها، ثمّ انتبهت لنفسي وصرتُ أستذكر بعض ما أحفظ من قرآن فهو أحسن رفيقٍ لي، والغالب أنّي أمضيت طيلة اليوم هناك حتى صارت أطرافي ترتعد بردًا، أمضيت سبع ساعات وثلاثة وعشرين دقيقة ونصف وأنا هناك، حتى كدتُ أفقد الإحساس بأطرافي من شدّة البرد والتعب، أخرجوني بعدها واقتادوني نحو قاعة المحاكمة، ما إن لمحتُ والدتي وعمّتي وأختيّ من بعيد، انتفضتُ كمن عادت له الحياة، ابتسمتُ وقلبي بداخلي قد أحسّ بقوةٍ جديدة للحياة، كان أحد السجانين يُمسكني وأنا أمرّ على أهلي، رأيتُ الدمعَ على خدّ أمّي، وددتُ لو أمسح عَبراتها عن خدّها بيدي، فمدّت هي نحوي يدها لتسلّم عليّ، إذ باليهوديّة الواقفة أمامها تهجم عليها مُبعدةً يدها كما لو أنّ والدتي ارتكبت جُرمًا ما، جرّوها بعيدًا عنّي، فلم أستطع كبح دموعي أكثر ولا الحزن الذي تجمّع بزاوية عيني، بقيتُ مشدودة النظر نحو والدتي وقدماي تتابعان السير. وقفت هناك أمام ذلك الكهل صاحب العيون الجاحظة والدروب الوعرة بجبينه المُحمرّ من الشمس، كنتُ أنظر تجاهه مُنتظرةً كلمته التي سيفصل بها، لكنّه غالبًا آثر مُلاقاتي مرّة أخرى.

-... وعليه، فقد تمّ تأجيل جلسة المحاكمة إلى يوم الأحد الواحد والعشرين من أيار عام السابع عشر بعد الألفين...

لم أكن أنتظر الأحسن من هذا، لكنّي كذلك لم أكن أتوقّع أن يتمّ تأجيلها إلى يومٍ قريبٍ كيوم الأحد، كنتُ أظنّ أنّهم ربّما سيسيرون بحسب ما تقول أفواههم ولو لمرّة في هذه الحياة، لكنّهم على عهدهم كما يُعرفون، وتمّ تأجيل مُحاكمتي إلى يوم الخميس الذي بعده. ركبنا 'البوسطة' عائدين، ولا أعلم أكانت خمس ساعات غير كافية أم أنّهم كانوا يحاولون جعل البنزين ينفد وهم يُعذبون صبرنا. بقيتُ أعيش على تأجيلاتهم، كلّما يصل تاريخ الجلسة أدعو الله أن يُفكّ أسري، لكنّي بعد ما عانيته نفسيًا من التأجيل المُتكرّر صرت آمل فقط أن يُصدر القرار ليهدأ بالي وأجدني على إحدى المرسيين راسية.

***

لقد مرّ أسبوعان منذ تمّ اعتقالي، تمكّنتُ خلالهما من عدّ كم من ثقبٍ بالحائط أمام سريري، وكم من حفرةٍ بالساحة حيث يتمّ تجميعنا، وتعلّمتُ كيف أجعل من حبّة طماطم وجبة عشاءٍ تكفينا نحن الأربعة وكيف أصبر على تلك الطبخة ساعاتٍ طويلة كيْ تستوي على مقاومة الكهرباء الأبرد من لهيبٍ يسكن قلوبنا... طعامنا يقتصر على قطع دجاج أو نقانق نصفٍ نيّئة وحبّة من خضار تُوزّع على كلّ أسيرة، نجمع خضرواتنا لنحضّر ما أمكننا ونطهو مجدّدًا اللحم النيّء. وكلّ أسبوعين تُفتح 'الكنتِينة' وما هي إلّا محلّ

تابـع للسـجن نسـتطيع شراء بعـض الأغـراض منـه، لـكلّ منّـا حسـابُها المـاليّ هنـاك، وتكفّـل أهـلي بتعبئـة حسـابي حتـى يتسـنّى لي شراء مـا أحتـاج مـن أغـراض. «أمّ عبـد الله» هـي المسـؤولة عنّـا، فكنّـا نكتـب لهـا مـا نحتاجـه مـن أغـراض وهـي تتكفّـل بإحضارهـا لنـا مـن هنـاك.

غـدًا يـوم الاثنـين، يـوم الزيـارة، سـأحاول جاهـدةً أن أنـام مـا يكفينـي بُغيـةَ التقليـل مـن هـالات التعـب تحـت عيـوني حتـى لا أقلـق أمّـي عـلى حـالي، علمـتُ مـن آخـر جلسـةٍ مؤجّلـة أنّ «مصطفـى» لـن يتمكّـن مـن زيـارتي لأنّـه مرفـوضٌ أمنيًـا كَونـه أسـيرًا سـابقًا، أحـاول تخيّـل كميّـة الحـزن التـي يعيشـها الآن بهـذا البُعـد، تاريـخ عـرسي لم يبـق لـه إلّا شـهر، تُـراني ألحـق بـه؟ حُلمـي في اجتيـاز التوجيهـي ذهـبَّ مهـبّ ريـح أواخـر أيّـار، فاتنـي الامتحـان الـذي درسـتُ لـه وجهّـزتُ نفسي جيّـدًا لأجلـه... مـا يقهـرني حقًـا ليـس وجـودي في الأسر بـل بقائـي هنـا دون حُكـم، كالمُعلّـق عـلى شـفا هاويـة، إنّي أحـاول ألّا أنهـار غـدًا وأكبـح همومـي التـي تغـدو بعيـوني دموعًـا واحمـرارًا.

***

عدّلـتُ الشـال عـلى رأسي، سرتُ خطـواتي وأنـا ألعـن السـجّان اليهـوديّ الـذي يسـير خلفـي، لمحـتُ والـدتي وأختـيّ عـبر الزجـاج، ابتسـمت رغـم أنّي أرى دمـوع «جنـان» و«تقـوى»، جلسـت أمّـي ووجههـا لا يُخفـي الحـزن، حملـتُ الهاتـف:

-كيفكم يا أمّي؟

-كيف حالكِ أنتِ؟ نحن بخير والحمد لله.

-ستّي كيف حالها؟ ليش ما اجت معاكو.

-لم تستطع المجيء، ستزورك المرّة القادمة إن شاء الله.

-أين «لُؤيّ»؟ كيف حاله؟ أخوي؟ هل هناك خطبٌ ما؟ أين هم؟

-«وائل» لم يستطع المجيء من «القدس»، حتى لزيارتنا لم يعد يستطيع أن يأتي إلّا نادرًا، لقد صاروا يشدّدون الحراسة على مداخل القدس ومخارجها... «لُؤي» لم نشأ أن نجلبه إلى جوّ السجون يا ابنتي، تركناه يُلحّ ويبكي.

-ليته أتى يا أمّي... ليش كسرتو بخاطرو... طيب وشو أخبارو... ان شاء الله مش معذّبكم، عارفة أنّو ما كان يسمع كلام حدا غيري.

-الفقد علّمه أمورًا كان يُعاند عن تعلّمها... أخبريني عنكِ، هل يُطعمونكِ يا ابنتي؟ وجهكِ شاحب...

-الحمد لله، لا تقلقي بشأني، نحن نتدبّر أمورنا هنا.

-والمصاري بيكفّوكي أو بنزيد نبعتلك.

-الحمد لله، أصلًا لي أملٌ أنّي لن أمكث هنا طويلًا...

-إن شاء الله يا بنتي...

ولا أعلم كيف مضت الخمس والأربعون دقيقة دون أن أشبع منهنّ، أعلمنني أنّهن أتين مع «مصطفى» وزوج «تقوى» اللذين بقيا بالخارج. دأبن بعدها على زيارتي كلّ أسبوعين.

أمضيت ثلاثة شهور بسجن 'الشارون' بـ 'يافا'، كانت

تلك زيارتي الأولى لمدينةٍ تمنّيتُ زيارتها ولو كنتُ أعلم أنّ الأماني تُحقّق على شكلٍ مؤلمٍ لما تمنّيتُ ذلك أبدًا... أتى الأمر بنقلي نحو سجن 'الدامونْ' في 'جبل الكرمل' بمدينة 'حيفا'، بعد العديد من جلسات المحاكمة التي كنتُ أتوجّه إليها ويتم تأجيلها وأخرى أنتظر بـ 'ثلاجة الموتى' حتى يُعلموني في نهاية اليوم أنّهم أحضروني هناك خطأً. ودّعتُ الفتيات اللواتي عشتُ معهنّ أقسى أيّامي وأسوأها... رُغم أنّي لم أكن أرى الطريق، لكنّي كنتُ أحسّ بمطباتها ومنعطفاتها، أنظر ليديّ والأغلال تلمع احتفالًا بتكبيلهما... تُرى أالطريق يُشبه ما شاهدته من فيلم «عائد إلى حيفا»؟ أم أنّه لم يعد يُشبهه ما إن نتأت مستعمراتٌ هنا وهناك... صار التعب والوهن رفيقي، الآن فقط صدّقتُ أنّ الجلوس دون حراك أسوأ عذاب قد يُواجه النّفس البشريّة قبل الجسد. غفيَت عيني وإذ بي أنتفض عقِب توقّف الشاحنة التي تُقلّني وعددًا من الأسيرات، نزلتُ بالكاد أرى أمامي، لقد كانت شمس أغسطس تتوسّط كبد السماء، لا بدّ أنّي لو بقيتُ على هذا الحال سأواجه عن قريب مشاكل في النظر... أظنّ أنّي لو كنتُ في إحدى الدول الأُخرى لكان لي الحق كذلك بأن أعرج على طبيب نفسي علّني أفسح الطريق لما أنا أتشرّبه مُكرهةً في قلبي من كَدَر. ابتسمتُ وأنا أُفكّر فيما أفكّر فيه، فُتح الباب واقتادني يهوديّان نحو القسم الذي يضمّ الزنزانة التي سأمضي فيها ما يشاء الله من أيّامٍ. لم تختلف تفاصيل السجن عن سابقه، عدا عددنا الذي يصل إلى الثماني أسيرات في غرفة واحدة... باليوم الأوّل لي هناك تمّت مُعاقبة

إحـدى الأسـيرات بعزلهـا في زنزانـة انفراديّـة أيّامًـا حتـى كِدنـا نسـى أمرهـا. لم أسـأل سـبب معاقبتهـا، كنـتُ أحـاول الغـوص في فقاعتـي التـي حاولـت إنشـاءها حتـى أسـتطيع مُتابعـة العيـش تحـت هذا السـقف الـذي يدنـو منّا، أحـاول أن أتناسـى ما نعيشـه، كمـن يعيـش وهـو يُكـذِّب التفاصيـل التـي تُلاحقـه مُلتصقـةً بأكمامـه. حـين أحـاول أن أغفـو ليـلًا أنتبـه إلى أولئـك الذيـن يسـترقون النظـر نحونـا، يُسـجلّون أتفـه تفصيـلٍ لنـا، أكاد أجـزم أنّي بسـجلّاتهم دائمـة الحضـور تحـت عنـوان «سـاهرة»، والحقيقـة أنَّ وجـود مـن يُراقبنـي يُؤرّقنـي فكيـف وهـي أعـين عـدوّي. إنّي لا أعيـش الفقـد، بـل إنّي أعيـش الحرمـان، هـل في الكتابـة عـن وطنـك جُـرم؟ هـل مجـرّد منشـوراتٍ عـلى صفحـات المواقـع تُردينـي أسـيرة خلـف القضبـان؟ تُـراني لـو حملـتُ البندقيـة لـكان أحسـن؟ تـالله لـو كان ذنبـي تشـهير سـلاح أو طعـن صهيـونيّ لكنـتُ رضيـتُ هـذا الحـال لنفسي عـلى أسـاس أنّي أسـتحقّ لأنّي طعنـت واحـدًا وتركـتُ آخريـن، لكنّـه أدنـى حقوقـي ألّا يُسـدّ صـوتي فأنـا عـلى حـق ولـو كرهـوا... سُـقتُ للمحكمـة حـوالي عشريـن مـرّة، منهـا ثـماني مـرّات كانـت كـما يُقـال خطـأً، حتـى بأيّـام رمضـان، كنـتُ أعـود للسـجن بحـدود الحاديـة عـشرة ليـلًا حتـى أفطـر عـن صيـام اليـوم كامـلًا... أحيانًـا يُـراودني تفكـير أن أصرخ بأعـلى صـوتي لعلّنـي أفـرغ كلّ هـذا الغضـب المُكـدّس عـلى قلبـي. آخـر مـرّة بالمحكمـة وأنـا أمـضي عـلى بروتوكـول التأجيـل المُعتـاد أخـبرني المحامـي وقـد كان «قيـس» شـقيق «سـيف» أنّ قصّتـي بلغـت حـدود فلسـطين وتعدّتهـا، العـروس التـي حُرمـت مـن عرسـها وأُسرت، ابتسـمتُ لكلامـه، وأردف أنّ «مصطفـى»

في انتظـاري، ممّـا زاد اتسـاع بسـمتي حتـى ضحكـتُ وبانـت أسـناني.

-ألسـتِ أنـتِ مـن تقولـين دائـمًا أنّ الرجـال يُخلّـدون مـن أحبـوا؟

أومـأتُ رأسي وأنـا أضـع القلـم الـذي أمضيـتُ بـه، لم أفهـم قولـه بـادئ الأمـر، نظـرتُ نحـوه فابتسـم، وقـال:

-إن شـاء الله سـتكون المـرّة القادمـة آخر جلسـة لـكِ ويُصدرون الحكـم فيهـا، دون تأجيـل آخـر... إنّي أظـنّ ذلـك غالبًـا، عـلى كلّ حـال سـأحاول التفـاوض بـما اسـتطعت إن تـمّ الحُكـم عليـكِ بـالأسر.

-وهل ستتمكّن من تغيير الحكم؟

-ليـس تمامًـا، لكنّنـا مُسـتعدون لدفـع النقـود بـدل أيّـام تُمضينها هنـا، وأنـتِ بالأصـل أمضيـتِ هنـا شـهورًا، غالبًـا سـيتمّ احتسـابها مـع الحُكـم، بحسـب خـبرتي فإنّهـا لـن تتعـدّى بضعـة شـهور سـنرى مـا أمكننـا الفعـل بخصوصهـا.

-آمل ذلك يا عم.

-خلّي عندك ثقة في الله.

خرجـتُ وأنـا أردّد ذلـك التاريـخ: الخامـس مـن أيلـول العـام السـابع عـشر بعـد الألفـين...

-٧-

إنّي أدقّ على أبواب الحروف أيّها تجود عليّ بكلمةٍ تصف حالي... استشهاد أختي وأسر خطيبتي التي لم يكن قد تبقى لنا سوى شهر اجتيازها للامتحان التوجيهي وتُزفّ لي، ها قد حُرمَت منه ومنّي... إنّي أفكّر لو شاء الله وتحرّرت ما إن ترى نور الحريّة أعيد تسجيلها كي تجتاز التوجيهي وتحقق حلمها فإنّي أعلم أنّه هدفٌ كانت بالغته لولا أيادي الغدر... كتبتُ عنها ما لن تتصوّره، لكثرة الأوراق بغرفتي صرتُ أخشى على نفسي من الضياع ذات يوم... كم شربتُ من أكواب القهوة وأنا أحاول التصدّي للنعاس حتى أستكمل بضع كلماتي عن قصّتي، بل إنّها قضيّتي مُذ عرفتني هذه الأرض وقد كُنت منها وأعود إليها... إنّها قضيّتي التي لن أتكاسل عن النضال لأجلها... أصبحتُ أكتب وأبخل بنشر كتاباتي... بحثتُ بكومة الأوراق عن أيّ ورقةٍ تنفعني لأخطّ عليها ما يجود عليّ قلبي من إلهام، لم أنتبه أنّ أوراقي كلّها قد استُغلّت بين رفوف الحنين ودفاتر الفراق... اتجهت بي قدماي نحو درج أخي «سعد» فتحته أبحث عمّا يصلح لتوثيق أفكاري التي ستهرب منّي وبالكاد يُردّدها لساني كي لا أنساها. جُزيتُ أخيرًا بورقةٍ بيضاء، أخذتها وأسرعت نحو المكتب حاملًا القلم الحبر الذي أهدته لي «أحلام» ذات عيد ميلاد، كتبت:

«لم أعد أعرف طريقًا للكتابة غير طريقكِ، منذ شهورٍ

صرتُ أخشى أن أحاول الكتابة فأتعرّى من كلّ ما أنا أحاول جاهدًا التسترّ خلفه، أن يقع القناع الذي أستميت لإبقائه، بتُّ أخشى لو عانقَت أصابعي القلم يا «أحلام» أن أبكيكِ، أن تتجمّع أحزاني فأنكمش خلفها، لا أريد يا «أحلام»... لا أريد أن يرى أحدٌ حزني وانفطار قلبي، إنّي أستميتُ كلّ يوم وأنا أحاول جعل الجميع يُكذّب ما أنا فيه من هموم وكَدَر لرحيلك. أنا أعيش بلا ظلٍ يا «أحلام»، بلا أحلام ولا آمال يا من أنتِ كلّ أحلامي. أبيتُ الليل أتضرّع الله أن يفكّ أسركِ، أبكي بكاء الأطفال، ولو أنّ أطفالنا لا يبكون كثيرًا يا «أحلام»! لا أحبّ أن أواجه أحدًا وأرى الشفقة في عيونه على حالي، لا أحبذ الضعف وأنتِ الوحيدة التي تعلمين أنكِ نقطة ضعفي. بِتُّ أشيحُ بوجهي ما إن يلمحني أحدٌ ما يعرف قصّتك، ومن ذا الذي لم يسمع عنها بعد... أهرب من الأسئلة المُتكرّرة عنكِ وأُمارسُ حزني وطقوس شوقي لكِ وحيدًا بلا كتفٍ أسند عليها وجعي وكنتِ أنتِ كتفي، ذبلتُ يا أحلام على أبواب المحاكم وأنا محرومٌ من رؤيتك! كلّما أُقِّتت جلسة مُحاكمتكِ وأُجّلت إنّي أموتُ ألفًا. أغدو كلّ صباح أواكب هذه الحياة، أسمع كلّ يوم كلمات أمّي مع إخوتي أنّها تُشفقُ على حالي، فمن ذا الذي عاش هذه الأحداث غيري، حين يُحاول «أيمن» تشجيعي أبتسم لأنّه لا يملك أدنى فكرة عمّا أنا فيه يا «أحلام» لعلّه لفقد أختي قد عاش الحزن لكنّ فقد الموت يهون عليك ذات يوم فلا تُربّي على أعقابه الأمل أمّا الغياب فسمٌ بطيء ينخر حياتك تحت رحمة الشوق والحنين. أغمضُ جفنيّ كلّ

ليلـة، وأسـتفيق أرتجـف لأنّي تخيّلـتُ رُبـع مـا تنالينـه مـن عـذاب نفسيّ بـين جدرانهـم العفنـة... وسـادتي لـو كانـت حجـرًا لكانت قـد انشـقّت منـذ أسـابيع وأزهـرت ربّـما. أمّـي التـي توقظنـي كلّ صبـاح وأحضنهـا وتمتلـئ عينـاي دموعًـا أحـاول أن أخفيهـا كـي لا أوجـع قلبهـا علـيّ. إنّي يـا «أحـلام» كنبتـةٍ أُجّـل ميقـات زرعهـا، فـما كان مـن أوراقهـا وبراعمهـا إلّا أن ذبلـت فتسـاقطت، فماتـت... ثـمّ إنّي لا أريـد زيـادة الألم لـكِ، لكنّـي ميّـتٌ مـن دونـكِ. غيابـكِ المُفاجـئ أهلـكَ قلبـي، أرهقنـي، كجثـةٍ أنـا الآن. أعيـشُ عـلى أمـل أنّ اليـوم أو غـدًا سـأعلم ميعـاد جلسـة مُحاكمتـكِ وعسـى ألّا تُؤجّـل، وآمـالي في كلّ مـرّةٍ تخيـب... غـدًا مُحاكمتُـكِ، غـدًا يـوم الخامـس مـن أيلـول، بقلبـي فجـوةٌ عميقـة، ليـسَ لي مـن وسـيلةٍ لأملأهـا يـا «أحـلام»، أنتظـر رؤيتـكِ بفـارغ الصـبر، فوحدهـا مـا قـد يجعـل قلبـي يُزهـر ورودًا ولافنـدر، وعـلى قـدر سـعادتي أخـاف أن أذبـل، أن تُؤجّـل المُحاكمـة أكثـر، أن يصـير القلـب مقـبرةً أشـجارها أشـواكٌ وزقـوم... خائـفٌ يـا «أحـلام»... خائـفٌ ولا أريـد أن تعيـشي الكَـدرَ مـرّةً أخـرى لـو حـدثَ وقـرأتِ مـا أقولـه... أحـلام... أسـميتكِ وطنـي... حتـى وإن فرّقتنـا آلاف المسـافات، تبقـين بقلبـي، يظـلّ نبـض قلبـك مـن نبـضي، وروحـكِ تسـكنني، صوتـكِ بصـدى مسـامعي واسـمكِ يـتردد مـع أنفـاسي... أنـا وإن كنـتِ تريـن أني قـد انقطـع سـبيلي إليـكِ، فصِلينـي بأحلامـكِ، لأنّـكِ مـا فارقـتِ يومًـا أحلامـي ...أسـميتكِ وطنـي، حتـى إن أردتُ لـكِ وصـلًا أصلـكْ دون حاجـةٍ لجـواز سـفرٍ أو تصريـح أو أوراق، لأحيـا بـكِ وأنـتِ بِوَتِينـي، لأطفـو بسـابع سـماءٍ فقـط حـين تحاكينـي، لأقـف بوجـه

ألـف عـينٍ بغَـت فيـكِ نظـرةً، أحاربهـا وأنـا لـكِ الحامـي.... أسـميتك وطنـي... فـإن غـارت عـليّ المـدن فأنـت مدينتـي... وإن لم تكفنـي سـماء الدنيـا أكتفـي بسـمائكِ... أعـدّ نجومـكِ ولا أمـلّ... أسـميتك وطنـي، وميـلادِي ومـلاذي... حتـى إن وُلـدتُ ففيـكِ سـتكون شـهادة ميـلادي... وإن لاقتنـي المنيّـة فلـن أرضى لي مـن قـبرٍ غـير فـؤادك... أعلـم أنّي فيـكِ آمـن، لا أشـكو بـردًا ولا ظمـأً... رُبوعـكِ جنّـة فإليـكِ إليـكِ خذينـي.... أسـميتكِ وطنـي، تعاسـتي وحـزني بوجـودكِ وحـدكِ تنجـلي.... أسـميتكِ وطنـي، حتـى وإن شـاخت بي تقاسـيم وجهـي، أظـلّ طـول العمـر أركـض كصبـيّ بقلبـك... أغنّـي لـكِ فتكـون كلّ كلـماتي أناشـيد وطنيـة لـكِ... في شـقائي أنـتِ معـي، وفي هنائـي لـن أكـون إلا بـين أزقـة قلبـكِ أنتـشي بفرحـي... مـأواي حـين تغـترب عنّـي دُنيـاي، أنـتِ ملجئـي ولُجوئـي لـن يكـون سِـوى لـكِ.... أسـميتك وطنـي، حتـى وإن لاحـت دروبُ المهاجريـن عـن كل الأوطـان لـكِ أنـتِ هِجـرتي ومقصـدي ووجهتـي، لا أحِيـدُ يومًـا عـن سـبيلي مـا دمـتِ أنـتِ وطنـي.... أسـميتكِ وطنـي، وصدقّينـي راضِـخٌ لحكومتـكِ، لـن أُعلـن يومًـا انتفاضـة ولا انقلابًـا... فأنـا فيـك مأمنـي.... أسـميتكِ وطنـي، ولـولا أن تكـوني أنـتِ فلـن يكـون أحـدٌ غـيركِ... فـلا أرضى لي غـير سُـلطةِ قلبـكِ.... أسـميتكِ وطنـي، محيـاي وإليـكِ مماتي... أنـام عـن كلّ العـالم وقلبـي لـكِ لا يقـدر مفارقتـكِ... لا حـدود لغـوصي بهيامي لـكِ، ولا تقسـيم ولا مُفارقـات إلّا عنـدَ كلـماتي، الحيـاة لـكِ... وتضحيتـي لا تكـون لغـيركِ... جيشـكِ أنـا وحـدي، أحمـي قلبـكِ ففيـه منـزلي... اتخـذتُ عـن يمـين وريـدكِ غرفتـي، ليميـل رأسي

ولا يميـلَ إلّا عـلى كتفـكِ، تُزهـر بسـاتين غرامـك، وأقطـف أنـا ورودكِ.... أسـميتكِ وطنـي، أكتـب لـكِ، عـلى ورقـك، بأقلامـك وبحـبرِ أنـتِ صاحبتـه... غريـقٌ أنـا ببحـركِ... مـشرّدٌ ولا أشرد إلّا بحقـولِ القمـح بعينيـكِ.... أسـميتكِ وطنـي، عبـادتي تحـت سـقفِ مسـاجدكِ، بدعـواتي لـكِ... اسـمكِ مـا فـارقَ يومًـا دعـواتي، فكـوني بخـير لأجـلي... قِسّـكِ أمَّ بي يومًـا بصـلاتي! كاهنـكِ علّمنـي زكاة القلـب! فهـل تصدّقـين؟! أسـميتك وطنـي، حتـى مـا إن تعطّـرتُ يومًـا... أغرقـت شـوارعكِ برائحتـي... وذوّبـتُ طيـورًا كانـت تغـرّد تحـت ظلّـك.... أسـميتكِ وطنـي... خُذينـي يومًـا بحضنـك... لأكـون كمغـتربٍ قبّـل تـراب بلـده... شـدّيني لقلبـكِ، لأكـونَ كمنفـيٍّ عـاد لوطنـه... أنسـيني بحضنـكِ... كـي تكـوني أنـتِ مسـقط قلبـي... اعذرينـي إن أكثـرتُ كلامـي، فـذاك مـن فـرط اشـتياقي لـك».

كتبـت لهـا رسـائل بعـدد مـا غابـت عنّـي مـن أيّـام... تُـرى كـم سـيكفيها مـن سـاعات لتقرأهـا حـين تُحـرّر. إنّي عـلى قضيّتـي عاكـفٌ لا يُحرّكنـي ريـحٌ ولا مطـر، فيـوم وُلدنـا صِحافًـا بيضـاء بطهـارةِ قلـوبٍ عـلى الفِطـرة جُبلـت، أوّل عـدوٍ لنـا كان صهيونيًـا وآخـر شـهقاتنا أن عاشـت فلسـطين الأبيّـة.

2017 (09 أيلول)

وقفَـت شـامخةً كعادتهـا، تلـك الأصفـاد بيدهـا تُزعجهـا ولم تتعـوّد عليهـا أبـدًا لكنّهـا سـتتحمّل فلـم يبـق الكثـير وسـينقضي هـذا اليـوم أيضًـا، نظـرَت خلفهـا نحـو والدتهـا، أخيهـا وزوجتـه، وأختيْهـا، البارحـة في الإذاعـة سـمعت صـوت أختهـا الثالثـة البعيـدة عنهـم... شردت بذهنهـا، لربّـما سـتغيب شـمس اليـوم حاملـةً معهـا ألمنـا الـذي نصبر عليـه ونُقاومـه، وسنسـتفيق عـلى تحـرّر فلسـطين، وربّـما سـيُعاد شـمل أراضينـا عـلى الأقـل... ابتسـمت وهـي تُفكّـر في قصّـة الصمّـود المُعنوَنـةِ «فلسـطين»... لقـد تعلّـم أبنـاء هـذه الأرض منهـا الشـموخ والوقـوف رغـم ظهورهـم المكسـورة وعِصيّهـم المُعوجّـة.

هـذه المـرّة لم يتـمّ تأجيـل الحكـم، بـل بقيـت «أحـلام» صامـدةً تنتظـر. لم يذكـر القـاضي التأجيـل ولم يُرسـل لهـا البروتوكـول للإمضـاء عليـه، ذاك اليهـوديّ البغيـض جاحـظ العينـيْن، ألم يكتـفِ مـن رؤيتهـا بعـد؟

«أيمن» يقف أمامي على قارعة الطريق، ننتظر...

-زوجتكَ كـ فلسطين يا أخي...

- لماذا؟

-علّمتنـا تربيّـة الصـبر وتهجيَـة الأمـل حتـى بِتنـا ننطـقُ بالانتظـار...

ابتسـمتُ، نظـرتُ نحـو «لُـؤيّ» الـذي تعلّـم هـو كذلـك

الصـــبر معنـــا، فنطــق كمــن كان ينتظــر منّـــي أن ألمحـــه.

-لقـد تعبـتُ يـا عـمّ... هـل ذنبهـا كبـيرٌ للحـدّ الـذي يُبقينـا كلّ هــذا الوقت؟

-وهـل لفلسـطين ذنـبٌ يـا بُنـيّ حتـى تُمـضي كلّ هـذه السـنوات مُقيّــدةً بأغلال؟

تمّت.

كلمة الكاتبة

إن الباحث في تفاصيل القضية يعود خائب الوفّاض إن دقّ باب ما يعرفه العالم بأسره بباب الشبكة العنكبوتية، تلك التي لم تجد على حدّ ما يُرى بجعبتها خيطًا للقضية الفلسطينيّة، أو ربّما ذاك ما سمعتُ عنه كثيرًا تحت مُسمّى التضليل؟؟ فسبحان من يسّر لنا ولو كان ناقصًا من كلّ ما يلزمه من حقائق... لستُ آسفةً على كلّ ما ذكرته من حقائق عن اليهود قد تشمئز لها الأبدان، وأنا أكتبها لم أكن أحسن حالًا ممن يقرأها صِدقًا... وإنّي آمل أن تحمل من الألم ما قد يُغيّر واقعًا أو يكاد... لقد اختنقتُ بعد كلّ ما رأيته، كلّ ما تُخفيه الشاشات خلف الصور القليلة التي تمنّ علينا بها، خلف كلّ الأحوال المسكوت عنها، أيادينا المُكبّلة، والمُتسلّطين علينا ممّن يملكون القرار.

كان بودّي لو أنبش بضع قبور الذكريات المدفونة بالأرض الطيّبة، أن أغزل لها ما يُناسِبها، فالكلمات لم تَفي للقضيّة حقها مُطلقًا... كان في البُعد يد، وكان في الظروف أيادي، لكنّ بلوغ كلامي ما هو في أيّ يد فذاك قدرٌ من الله وفوق كلّ الأيادي.

أزفّ شكري وامتناني إلى الأسيرة المحرّرة، بطلة روايتي «أحلام المالوخ» أم«غزل»، بطلةٌ شاء القدر أن أعرفها خلال حياتي، فوثّقتُ قصّتها في روايتي... إلى شطر القلب، الغالية التي تركت شرخًا عظيمًا في صدري على بعدها«سلسبيل عاطف» لولاها لما اهتديتُ لكتابة حرف من هذه الرواية... وإلى من انتظروا روايتي.

KAYAN PUBLISHING

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 /01001872290**

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing